الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة قاصدي مرباح ـ ورقلة ـ





كلية الآداب و اللغات
قسم اللغة و الأدب العربي

الرحلة الجزائرية في العهد العثماني

بناؤها الفني أنواعها و خصائصها

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي

إعـــــــــداد الطالب :
الطاهر حسيني

إشراف الأستاذ الدكتور:
العيد جلولي

السنة الجامعية : 2013م/2014م - 1434هـ/1435هـ

بسم الله الرحمـــن الرحيـــــم

قال تعالى :

﴿ اَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الاَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الاَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ التِي فِي الصُّدُور﴾

الحج الآية 46

المقدمــــــــــــــة

المقدمـــــــة :

شـهدت السـاحة الأدبيـة في العصـر الحـديث، حراكـا كبـيرا ، و نشـاطا واسـعا ، و اتجاهـا مقصودا نحو التخصص في الدراسات المتعلقة بالأدب ، كظاهرة إنسانية عالمية ، تكسر حدود الزمان و حـدود المكـان ، و تـرفض الانقيـاد لاتجـاه واحـد يحـدد مصـيرها ، ويضـع الحـواجز في طريـق تطورهـا و انفتاحها.

مـن مظـاهر هـذا التطور و الانفتـاح ، و الاتجـاه نحـو التخصـص ، مـا نلمسـه مـن إصـرار بعـض الدارسـين- عـن وعـي و عـن قصـد مـنهم- للحفـر في الـذاكرة ، و التنقيـب في الـتراث ، بغيـــة تلمس الطريق و الوسيلة من أجل بناء نهضـــة عصرية ، تستمد أصـولها من الذات أكثر مما تأخـذ من الغـير ، سـعيا مـنهم للتعريـف بـالمغمورين مـن الأدبـاء ، و إخـراج المهمـل مـن الكنـوز ، و إخضـاعها للدراسة وفق المناهج الحديثة ، انطلاقا من حقيقة أكدها النقاد و الدارسون ، تؤكد أن الأعمـال التراثية بتنوعهـا ، و بمختلـف أشكالها ، و تفــرعاتها المعــرفية ، يمكـــن – بـل يجـب – أن تشكــل مخــزونا دائما ، و مجالا دراسيا متجددا ، و داعيا في نفس الوقــت لمنطلقات فكرية ، و أطر منهجية متطورة و بهذا يتم التواصـل بين ماضـي الأمة و حاضرها مـن أجـل بنـاء مستقبلها . الأمـر الـذي ينبثـق مـنه الجديد في الفكـر ، و في الثقافة و الأدب ، و في جميع المجالات .

و إذا كانت بعض فنون الأدب قد حظيت باهتمام كبير من قبل النقاد و الدارسين ، فكتبت فيهـا الدراسات، و أعدت بشأنها الرسائل و الأطروحـات ، فإن هناك فنونا أخرى ، و رغـم بعض ما كتب فيها من مؤلفـات، و ما أنجز حولها من دراسات ، تبقى في كثير من الأحيان مهمشة ، و في حاجــة ماسـة إلى مزيد مـن الجهـد و الدراسة ، حـتى تُعرف علـى حقيقتهـا ، و تستقيم النظرة إليهـا ، و تتجـه أقلام النقاد و الباحثين نحوها فتدرسها و تحللها، و تبعث من جديد الحياة فيها .

و لعـل مـــن أبرز هـذه الفنـــون المهمشـة ، و الـتي تكـاد تكـون مغيبـة في الدراسـات الأدبيـة العربيـة القديمـة ، " الرحـلــة " ، بالرغـم من أنها تعتبر من الفنون التراثية المتجذرة في الأدب العربي ، و الـتي تأخـذ أهميتهـا مـن كونهـا وسـيلة مـن وسـائل التواصـــل مـع الآخـر ، و المثاقفـــة معـه ؛ إذ مـن خلالهـا يحصـل الاتصـال بـين الأمـم ، و التعـارف بـين الشـعوب ، فتتبـادل اكتسـاب المعـارف بينهـا ، خصوصا فيما يتعلــق باللغــة و العـادات و التقاليد .

و لا اختلاف بين الدارسين أن الاهتمام بالرحلات قبل العصر الحديث ،كان في الغالب مقتصرا على رجال التاريخ ، و المهتمين بالجغرافيا ، و المولعين بأدب المسالك و الممالك ، أولئك الذين اعتبروا الرحلات وثائق تاريخية ، و خرائط جغرافية ، تؤرخ للفترات التي ظهرت فيها ، تحدد الممالك و تبين المسالك ، و تصف مختلف جوانب الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية ، تبرز العادات و التقاليد ، وتصف مظاهر العمران و الطبيعة ، تتحدث عن الجبال و البحار، و تحدد مواقع الوديان و الأنهار . لقد كانت بحق خرائط وضعها الرحالون السابقون ، ليهتدي بها من بعدهم اللاحقون .

أما اليوم ، فان هذه الرحلات أصبحت نصوصا أدبية ، تأخذ حيزا معتبرا في رفوف مكتبات نقاد الأدب و الباحثين فيه ، باعتبارها أصبحت تمثل مادة خاما للدارسين ، الذين وجدوا فيها مجالات غير مسبوقة للدراسة و التحليل ، بعد أن وضعوا أيديهم فيها على ما لم ينتبه إليه القدماء ، أو لم يهتموا به ، و بعد أن اقتنعوا بأن ما تركه الرحالون من رحلات ، قد احتوت على الكثير من الملامح الأدبية ، و النواحي الجمالية ، الناتجة عن اختيار الألفاظ ، و حسن الأسلوب ، و جمال التعبير . ما يجعل الرحلات أقرب إلى الفنون السردية ، حيث تغري الدارسين و الباحثين لمقاربتها و دراستها ، من خلال التركيز على الجانب الفني و القيمة الأدبية فيها ، و التي تتجلى خاصة في ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب ، و ترتقي بها إلى مستوى الإبداع .

إن المطلع على ما أنجز من دراسات حول الرحلات، يلاحظ قلة اهتمام الباحثين الجزائريين بفن الرحلة رغم تميزه ، و سيطرة النظرة التقليدية عليهم حين تناوله ، و تركيزهم في دراسته و تحليله غالبا على المضمون الاجتماعي بمختلف مكوناته ، دون التفاتة منهم للجانب الفني الذي يميزه ، و في مقابل ذلك، يقف على مدى اهتمام النقاد في المغرب خاصة بدراسة هذا الفن و تحليله وفق المناهج الحديثة، مع التركيز في ذلك على مكونات البنية الفنية فيه.

إن هذا التباين في الاهتمام بالرحلات ، و في طبيعة ما يقدم حولها من دراسات عندنا و عندهم، أمر واقع و يلفت الانتباه حقا ، و لا أخفي سرا هنا إذا قلت أن ذلك كان من الدوافع التي دفعتني لاختيار موضوع الرحلة مجالا للبحث ، رغبة في دراستها من أجل استنطاقها ، و كشف صورة البيئة التي جرت فيها ، و طبيعة المجتمعات التي نقلت صورتها، سواء تلك التي انطلقت منها أو

اتجهت نحوها ، و سعيا كذلك للبحث في الجـوانب الفنية فيها ، و محاولة إبرازها فنا قائما بذاته ، له منطقه و بناؤه ، و مكوناته و آليات دراسته ، و طـرق تناوله الخاصة به ، و التي تميزه عن غيره من الفنون الأخرى .

و لما كان من متطلبات البحث الوضوح ، و التحديد ، و الدقة ، فقد ارتأينا أن يقتصر مجال بحثنا على الرحلة الجزائرية في فترة زمنية محددة ، هي فترة العهد العثماني ، و قد آثرنا أن يكون موسوما بالعنوان التالي : الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بناؤها الفني أنواعها و خصائصها .و يستمد هذا الموضوع أهميته من كونه سيركز بالدرجة الأولى على الجانب الفني في الرحلة الجزائرية خلال هذا العهد ، و هو ما لم يهتم به الباحثون ، و لم يسبق أن تناوله النقاد الجزائريون بصورة شاملة و عميقة من قبل .

والحقيقـة أن اختيار الرحـلة الجـزائرية كفن نثري دون غيرها من الفنون ، و في هذا العهد بالذات ، وقفت و راءه عوامل أخرى يمكن إجمالها في :

– الرغبة في المساهمة في إثراء الدراسات المتعلقة بالفنون النثرية التراثية، خاصة أننا نرى كثيرا من الباحثين انحازوا للبحث في الشعر على حساب النثر.

– الرغبة في الاقتراب من العهد العثماني،بغية الاطلاع و التعامل مع ما أنتج فيه من أدب ، و الوقوف خاصة على فن الرحلة فيه، باعتبار أن الجزائريين في هذه الفترة اشتهروا بتعدد رحلاتهم و تنوعها ، و إن كانت جميعها تقريبا اتجهت نحو المشرق.

– الرغبة في تقديم عمل يساهم في إقناع الباحثين أن خوض غمار البحث في ما أنتجه أدباء العهد العثماني ممكن – بل واجب – و هو لا ينقص من قيمة البحث شيئا ، نقول هذا الكلام، لما نلاحظه من عزوف الدارسين عن التصدي للبحث في هذا العهد ، متحججين بضعف الإنتاج الأدبي فيه .

– و فوق هذا و ذاك، الرغبة في تناول الرحلة بطريقة جديدة ، غير تلك التي تناولها بها المتقدمون ، وذلك من خلال دراسة بنياتها المكونة لها : الشخصية ، الزمان ، المكان ، الأحداث ، و السرد ..و إبراز ما يميز هذه البنيات فيها ، عن غيرها من أنواع السرود الأخرى . فالهدف من هذه الدراسة بالدرجة الأولى ، هو محاولة دراسة الجانب الفني للرحلة الجزائرية خلال العهد العثماني ، من

خلال الوقوف على مكونات البناء الفني فيها ، مع إبراز أهم الخصائص التي تميزها ، انطلاقا من دراسة و تحليل نماذج من أنواعها .

و علي هـذا الأساس، فإن هـذه الدراسـة المتواضعـة، ستحاول الإجابة عن مجموعة من الأسئلة المتعلقة بهذا الفن، و لعل أهـم هذه الأسئلة هي:

ما مفهوم الرحلة ؟ وما هي أسس بنائها المعماري ؟ و ما علاقتها بالأدب و بالواقع ، و بالبيئة التي تظهر فيها ؟ و ما الذي يضفي عليها صفة الأدبية ؟ هل يمكن اعتبارها جنسا أدبيا ؟ و بالتالي هل يمكن الحديث عن بناء فني فيها ؟ و ما حقيقة التفاعل بين مكوناتها: بين الشخصية و الأحداث ، و بينها و بين الزمان و المكان ، و ما علاقة الرحالة أو كاتب الرحلة و سارد أحداثها بالمتلقي ؟ كيف يظهر " الأنا " ؟ و كيف تتشكل صورة الآخر فيها ؟ أليس توفر هذه العناصر في الرحلة يجعلها بصورة أو بأخرى تتقاطع – في كثير أو في قليل من المواطن – مع بعض الفنون السردية الأخرى، كالرواية الواقعية و التاريخية و السيرة الذاتية ؟ ما هي أنواع الرحلات في الأدب الجزائري خلال العهد العثماني و ما هي خصائصها ؟

و من أجل الإجابة عن هذه الأسئلة و غيرها، اعتمد البحث على خطة تم من خلالها تقسيمه إلى: تمهيد و بابين إضافة إلى مقدمة و خاتمة.

في التمهيد تركز الحديث عن التعريف بالرحلة ، من خلال الحديث عن مفهومها في اللغة وفي الاصطلاح، و كذلك عن جذورها في التراث العربي و الغربي ، إضافة إلى إشكالية التسمية التي أخذت نصيبا وافرا من نقاشات و دراسات النقاد.

أما الباب الأول، فخصص للحديث عن الرحلة الجزائرية خلال العهد العثماني من خلال فصلين اثنين:

– الفصل الأول: تركز فيه الحديث عن الرحلة و علاقتها بالواقع، و عن بيئة العهد العثماني و الواقع السياسي و الاجتماعي و الثقافي فيه. إضافة إلى الحديث عن الدوافع التي كانت وراء رحلات الجزائريين في هذا العهد، سواء تلك التي كانت وجهتهم فيها بلاد المغرب، أو تلك التي كانت وجهتهم فيها بلاد المشرق.

– أما الفصل الثاني: فانصب الحديث فيه عن البناء المعماري للرحلة، انطلاقا من العنوان كعلامة دالة لها إستراتيجيتها، و انتهاء بتفصيل الحديث في خطاب التقديم، و خطاب المتن و خطاب الختام.

في حين خصص الباب الثاني للحديث عن أنواع الرحلات وعن خصائصها ، وعن البناء الفني الذي ينتج عن التكامل بين عناصرها ، و قسم هذا الباب إلى أربعة فصول ، كل فصل تمت فيه دراسة نموذج محدد يمثل نوعا معينا من أنواع الرحلات دراسة مستقلة ، تماشيا مع طبيعة فن الرحلة من حيث أنها خلق حر ، و إبداع ذاتي بالدرجة الأولى ، و قد جاءت هذه الفصول مرتبة ترتيبا تاريخيا بحسب تاريخ القيام بالرحلة على النحو التالي :

– الفصل الأول : خصص للحديث عن الرحلة الحجية، و اتخذت فيه الرحلة الورثيلانية نزهة الأنظار في فضل علة التاريخ و الأخبار للورثيلاني نموذجا .

– الفصل الثاني : تركز الحديث فيه عن الرحلة الحركة بسكون الراء ، انطلاقا من رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري لابن هطال التي اتخذت نموذجا .

– الفصل الثالث: تناول الرحلة الجهادية من خلال الرحلة القمرية لابن زرفة التي اختيرت نموذجا .

– الفصل الرابع: خصص للرحلة العلمية، و قد تم اختيار فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته لأبي راس الجزائري نموذجا.

و قد كان التركيز في كل فصل من هذه الفصول ، على أبرز ما يميز نوع الرحلة التي خصص لها من مظاهر تتعلق بالجانب الفني ، سواء تعلق الأمر بالسرد و تقنياته ، أو بالشخصية المركزية و علاقتها بالآخر و بالبنية الزمانية و المكانية .

و في الأخير، ختم البحث بخاتمة لخصت بعض النتائج و الملاحظات، و تضمنت دعوة إلى ضرورة العودة إلى خزائن التراث العربي عموما، و الجزائري على وجه الخصوص، و إعادة فتحها و دراسة الكنوز المكدسة فيها، بعين الناقد المعاصر المحافظ على أصالته، و المتفتح على غيره.

و نظرا لطبيعة الرحلة باعتبارها عالما مفتوحا، و نصا شاملا يستوعب مختلف العلوم و المعارف و الفنون، تتعدد فيه التيمات، و تتنوع فيه الخطابات ، كما تتباين فيه طرق الكتابة و أساليب التعبير، تبعا لطبيعة الرحالين و علاقتهم بالفضاءات التي يتنقلون بينها، و البيئات التي يحلون

فيها فإن النص الرحلي- و تلك خصيصة من خصائصه – يصبح قابلا للانفتاح لشتى المقاربات. ما يجعل الاعتماد على منهج واحد ، و الاقتصار على نظرية واحـدة في التعامـل معه أمرا يكاد يكون مستحيلا ، و عليه فان هذا العمل اعتمد على جملة من المناهج أو ما يعرف عند بعض النقاد بـــ << منهج تضافر المعارف >> ، و هو المنهج الذي يستعين فيه صاحبه بمختلف المناهج، عندما يضطر في دراسته و تحليله، إلى الكشف عن الجوانب التاريخية و الاجتماعية، و النفسية، و الجمالية ، مثلما هو حاصل مع هذا العمل الذي سيجد فيه القارئ مصطلحات من مختلف المناهج السياقية ، كالمنهج التاريخــي و الاجتماعي و النفسي، و كذلك بعض المناهج النسقية كالمنهج البنيوي ، و هو ما سمح لنا أن نقرأ النص الرحلي من داخله و من خلال علاقته بصاحبه، و بالبيئة التي أنتجته ؛ فهده الرحلات يمكننــا أن نـرى من خلالها و من خــلال رؤيــة الرحالين الذين قاموا بها ، و رووا أحــــداثها أو دونوها ، نظرةَ الجماعة للقيم ، و مدى وعيها بما يحيط بها ، سواء تعلق الأمر بالجماعة التي انطلقوا منها ، أو تلك التي اتجهوا إليها .

و لكي يصل هذا العمل إلى المبتغى ، فقد تم الاعتماد على مجموعة من المصادر و المراجع كـــ<< تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب >> لكراتشكوفسكي ، و << أدب الرحلة >> لحسين نصار، و << أدب الرحلة في التراث العربي >> لفؤاد قنديل ، و قد استفدت في الجانب الأكبر في هذا البحث – و على وجه الخصوص- من كتب النقاد المغاربة، الذين قطعوا شوطا كبيرا في الدراسات المتعلقة بالرحلات، و السرديات على وجه العموم، نذكر منهم خاصة : الدكتور عبد الرحيم مودن في كتابه<< الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر مستويات السرد >> و الدكتور شعيب حليفي في كتابه << الرحلة في الأدب العربي التجنس ، آليات الكتابة ، خطاب المتخيل >>

و لقــد واجهتــني - كأي باحــث - أثناء التحضير للمادة ، و أثناء الانجاز ، مجموعة من الصعوبات يأتي على رأسها :

- انتمـــاء المدونة إلى العهد العثماني ، و خوض غمار البحث في هــذا العهـــد ، و باتفاق الدارسين ، يعتبر مغامرة غير محمودة العواقب ، نظـــرا لطبيعة الإنتــاج الأدبي فيه ، و على وجـه الخصوص الرحلة التي تتميز بالإطناب و كثرة الاستطرادات ، ما يجعل قراءتها و تتبع أحداثها ، أمرا صعبا يتطلب جهدا أكبر و وقتا أطول .

- صعوبة الحصول على الرحلات التي تنتمي إلى العهد العثماني ؛ إذ أن كثيرا منها ما زال مخطوطا حبيس الخزائن ، و حتى الذي حقــق منها و طبـــع ، لم يكن بصورة جيدة ، حيث كثرت فيه الأخطاء ، و البتور ، و الاضطراب في ترتيب الصفحات ، ما حتم جهدا إضافيا و عملا شاقا .

- قلة المصادر و المراجع فيما يتعلق بالعهد العثماني ، و ندرة البحوث و الدراسات التي تناولت الرحلات الجزائرية عموما في هذا العهد على وجه الخصوص ، أعني هنا تلك الدراسات التي تتعلق بالبناء الفني للرحلة ؛ فلم يقع بين يدي ما يمكن أن أستأنس به ، و يكون مرشدا لي لأبني أو استند عليه في انجاز هذا العمل. لكن بعــون الله وحمده ، و بمساعــدة الخيرين من الأساتذة و الباحثين ، تم تجاوز الصعاب و أنجز العمل .

فالحمد لله أولا ، و الشكر كل الشكر ، لكــل من كان لي عونا ، من قريب أو من بعيد ، في انجاز هذا العمل المتواضع ، خاصة الرجــل الذي تبنى فكرة الموضوع ، و تتبع خطواته ، و أشرف على انجازه ، الأستاذ الدكتور العيد جلولي أدام الله عطاءه .

تقرت :يوم الثلاثاء 10 سبتمبر 2013 م

الموافق لـ: 04 ذي القعـــــدة 1434 هـ

الطاهر حسيـــــني .

التمهيـــــــــــــــــــــــــد
ماهية الرحلة جذورها و تسميات‍ها

التمهيـــــــــــــد

أولا: ماهيـــــــــة الرحلـــــــــة :

لقد اجتهد الدارسون في تعريف الرحلة و ذهبوا في ذلك مذاهب شتى، ، كل نظر إليها من زاوية نظر محددة ،<< من خلال منظور حقله الدراسي>> [1]، فالمؤرخ ركز على كل ما له صلة بالجانب التاريخي فيها، و الجغـرافي لم ير فيها الا ما له علاقة بعلم الجغرافيا ، بينما نظر اليها دارسوا الأدب و نقـاده نظـرة فنيـة ، فركزوا على ما يتجلى فيها من جوانب فنية و أدبية ، من خلال ما تحمله من نصوص شعرية و نثرية ، وما تقدمه من أخبار ، يرون أنهـا قابلـة لأن تصنـف ضمـن دائـرة الأدب ، فاختلفت بذلك وجهات نظرهم فيها ، و تعددت تعريفاتهم لها، إلا أن بنيتها الأساسية بقيت القاسم المشترك بينهم ، و نعني بذلك بنية السفر .

و الرحلة في أبسط مفهوم لها ، هي ذلك الانتقال الذي يقوم به الرحـالة من مكان إلى مكان آخر ، على سبيل الهواية أو الاحتراف ، مهما كان الدافع، و مهما كـان الغرض ، مهما كان الزمان، و مهما كان المكان، و مهما كانت المسافة، << فالرحلة جزء أصيل من حركة الحياة على الأرض ، قد لا تتجاوز مسافـة قصيرة في بعض الأحيان، و قد تمتد و تطول حتى تغطي أطول المسافات بين المكان و المكان الآخر>> [2] في أحيان أخرى، و بنظرة أعمق، يمكننا أن نعرف الرحلة بأنها:<< انتقال ضمن الفضاء الجغرافي و الزمن التاريخي، و هي انتقال أيضا ضمن نظام اجتماعي و ثقافي >> [3] ، هذا يعني أن الحركة تصبح من أبرز الأسس التي تقوم عليها الرحلة، الأمر الذي يجعل بنية السفر هي البنية الأكثر تجدرا و هيمنة على الفعل فيها، و على هذا الأساس اعتبر كثير من النقاد أن << تيمة السفر هي البـؤرة الأم التي تنمو حولها تيمات أخرى، باعتبارها المولد و الحافز الداعي للحركة،و القدرة على التفعيل و الحيويـة

---

(1)- شعيب حليفي،الرحلة في الأدب العربي التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، دط ، دت ص:38.

(2) – صلاح الدين الشامي، الرحلة عين الجغرافيـــا المبصـرة ، دار منشأة المعارف الإسكندرية مصر، ط2 1999 ، ص: 7.

(3)- دانيال هنري باجو، الأدب العام و المقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،دط دت، ص:49.

لأن السفر هو التحقق الفعلي أو الذهني للارتحال في الأزمنة الثلاثة و أبعادها في الوجود << [1]. و ارتباط الرحلة بالسفر، يستدعي الحضور القوي للامتداد الزمني ، و للفضاء المكاني فيها ، عندما تنقل إلى خطاب أدبي، قابل للدراسة و النقد و التحليل .

و الرحالة في الرحلة يبرز وجوده و يتأصل من خلال الأنا، و ينفتح من خلال الآخر، في تناغم و تفاعل مع الرحلة كفعل ، و أحداثها كواقع ، وهو الأمر الذي يسمح له بنقل هذه الحركة، و هذا الواقع المحيط به، و المتعايش معه ، إلى كتابة تختلف دون شك من رحلة إلى أخرى ، تبعا لاختلاف طبائع الرحالين، و مدى تمكنهم من تقنية الكتابة ، تلك الكتابة التي تجعل الرحلة نصا قائما له عناصره ورؤاه ، فالرحلة التي تخضع للدراسة و يتعامل معها النقاد إذا ، هي تلك التي لا يمكن أن تكون إلا << نصا سرديا ، يتراوح بين قطبي الواقعي و الخيالي ، بأسلوب يسجل و يصف رحلة انتقال السارد / المؤلف / من فضاء لآخر داخلي أو خارجي على المستوى الفعلي << [2].

ما تقدم من حديث ، لا شك أنه يخص الرحلة دون تحديد هويتها ، و لا جنس أصحابها ، فللرحلة أهميتها و تواجدها ، عند العجم كما عند العرب ، و العرب كما هو ثابت تاريخيا ، يعتبرون من أكثر الشعوب ارتباطا بهذا الفن الذي به عرفوا ، و به كذلك اشتهروا ؛ إذ تعددت رحلاتهم ، و تنوعت في ذلك اتجاهاتهم ، و برز منهم رحالون متميزون بما طبعهم به الإسلام من خصال و أخلاق عرفوا بها على مستوى واسع عربيا و عالميا، ما جعل الآخر يطمئن إليهم ، و يقبل على رحلاتهم ، و يتخذها كمصادر موثوقة لشتى أنواع العلوم والمعارف ، الطبيعية و التاريخية و الجغرافية . و تلك حقيقة أقرها الباحثون، و اعترف بها المختصون من العجم قبل العرب، و يكفي الإشارة هنا إلى تلك الدراسة الرائدة، المتمثلة في ذلك المؤلف الضخم ، الذي ألفه كراتشكوفسكي، و خصصه للحديث عن الرحلات العربية، و اختار له عنوان "تاريخ الأدب الجغرافي العربي " . تناول فيه بالتعريف و التأريخ و الدراسة، عددا كبيرا من الرحلات العربية،على امتداد ما يزيد عن خمسة عشر قرنا من الزمن، ما يثبت أن << الرحلة العربية بلا شطآن، و زادها بلا حدود << [3] .

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق ،ص: 246.

(2)- نفسه، ص:69.

(3)- فؤاد قنديل أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة الطبعة الثانية، ص: 6.

و الواقع يثبت أن اهتمام الدارسين العرب بهذا الفن، يتزايد يوما بعد يوم، يشهد على ذلك الكم الهائل من الدراسات الخاصة به، التي أصبحت تأخذ حيزا كبيرا في كتابات الدارسين و النقاد العرب، تماشيا مع قيمة كلمة "رحلة "، التي أخذت مكانتها، و فرضت تواجدها، في المعاجم العربية قديمها و حديثها .

أ – الرحلـــة في اللغـــة :

إن الرحلة كفعل أساسه الحركة، يمثلها التنقل المرتبط دوما بنقطة منطلق يمثلها حرف الجر " من " ، و نقطة وصول يمثلها حرف الجر " إلى " . و هما الحرفان الدالان على الحركة داخل المكان . و الرحلة كما هو معروف عرفها الإنسان منذ خلق، فقد تحرك على وجه هذه الأرض، رغبة في طيب العيش، و اكتشاف المجهول، و بحثا عما يضمن له البقاء.

لقد خلق الله الإنسان مطبوعا على الحركة و الانتقال، فلا غرابة أن يجسد الرحلة على أرض الواقع أول من خلق على وجه البسيطة من البشر، من خلال تلك الرحلة الرمز، رحلة آدم و حواء يوم أن وسوس لهما الشيطان، وأخرجهما مما كانا فيه ، فانتقلا بأمر من الله من رياض الجنة [1] و بساتينها ، إلي الأرض بخيرها و شرها؛ الأرض التي كتب على بني آدم أن يعيشوا فيها، و يسعوا لاكتشافها ، و يعملوا على عمارتها و التعرف على الآخر فيها، و عليه فليس عجيبا أن تكون الرحلة من أبرز ما يميز البشر، فهي حاضرة بشكل أو بآخر، في الضمير الجمعي الإنساني، على مدى عصور التاريخ كلها. و ليس عجيبا أيضا، أن تأخذ كلمة " رحلة " حيزا كبيرا في حياة الإنسان، و فكره، و في ثقافته، قديما و حديثا، يستوي في ذلك الأعجمي و العربي. والأكيد أن حضور مادة ما، في معجم لغوي معين، يدل على أهميتها، و سعة انتشارها،و كثرة تداولها، وعليه فقد كان لمادة "رحل "حضورها المميز في معاجم العرب << باعتبارها مادة متداولة على نطاق واسع، و نابعة من واقع البيئة العربية >> [2]، التي فرضت بطبيعتها على العربي – في الغالب – خاصة البدوي، أن يكون دائم الانتقال ، يعيش حياة الحل و الترحال ، تماشيا مع طبيعة البيئة التي تعايش معها و ألفها

---

(1)- ينظر إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي ، قصص الأنبياء ، تح أحمد إبراهيم زهوة ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، د ط ، 2006 ، ص:18.

(2)- ناصر عبد الرزاق الموافي،الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع ، دار النشر للجامعات القاهرة ط2 ، 1999، ض: 23.

إلى الحـد الذي تكونت لديـه قناعـة ، أن الترحال أو السفر ، >> أصبح فضيلة معترفـا بها، و رمـزا لعلو الهمة و كبر النفس، إذ لا تـرضى بالقليل و إذ تضـع نصب عين العربي ، مشاريــع ضخمــة رائعة ، كما أصبحت الاستكانة في المكان الواحد، تعني الغنى الموروث الذي لا يحتاج إلى زيادة ، أو تعني الصغار و الضعة << [1] .

لقد ارتبطت الرحلة عند العرب في القديم ، بأعز ما يملكون ؛ أعني بذلك الخيل و الإبل التي كانت تلعب الدور الأكبر في حياتهم ؛ فهي سندهـم في حلهـم و في ترحالهـم ، منها ملبسهم ومنها مأكلهم ، و قد سخرها الله لهـم لتحمل أثقالهم، و توصلهم إلى مكان لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس.

هــذا يعــني أن الرحلة حاضرة معهم، راسخة في أذهانهـم، لا تفارقهـم على مـدى اليوم بأكمله، تتجلى عندهم من خلال الخطاب شعرا، و من خلال الفعل تنقلا، و من خلال الناقة و الجواد وسيلة. الأمر الذي يؤكده المعنى اللغوي للكلمة في لغة العرب ، مثلما نقف عليه في أشهر معاجمهم ، لسان العرب ، عندما قال صاحبه في باب " الحاء " مادة " ر ح ل ":

>> رحل، الرحل : مركب البعير و الناقة و جمعه أرحُلٌ و رحالٌ.

أما الرُحالة (بالضم و الكسر) فهي اكبر من السرج ، و تغشى بالجلود، و تكون للخيل و النجائب من الإبل . و ارتحلتُ البعير إذا ركبته .

ابن سيده : و رحل البعيرَ يرحله رحلا ، فهو مرحول و رحيـل ، و ارتحله جعل عليه الرحـل ، ورحله رحلة شد عليه أداته. و في الحديث الشريف : أن النبي صلى الله عليه و سلم سجد فركبه الحسن فأبطأ سجوده فلما فرغ سئل عنه فقال : إن ابني ارتحــلني فكـرهت أن أعجـله << [2] هكـذا يتجـلى بوضوح، أن اشتقاقات مادة " رحـــل " ، مرتبطة أساسا بالحركة و الوسيلة، من خلال التمظهر البارز لفعل الركوب ، الذي يفرض بالضرورة راكبا و مركبا تمثل وسيلة حركة و انتقال، إذ لا قيمة لراكب ولا مركب بدون حركة .

---

(1)- سعدي ضناوي ، أثر الصحراء في الشعر الجاهلي ، دار الفكر اللبناني بيروت، ط 1993، ص:165.

(2)- ابن منظور، لسان العرب ، حققه عبد الله علي الكبير و آخرون ، دار المعارف القاهـرة ، المجلد 3 ، مادة " رحل "،ص 1608.

لقد لعبت الراحلة حصانا كانت أو بعيرا ، حجرا كانت أو ناقة ، دورا كبيرا في حياة العربي ، الذي اهتم منذ القدم و اعتز بها ، إلى الحد الذي ذابت فيها ذاته ، فتفنن في وصفها ، و عظم من شأنها فيما أبدعته قريحته من شعر تبوأت فيه مكانة خاصة، فاعتبرت بذلك من المواضيع الأساسية في بنية القصيدة الجاهلية، خاصة القصائد المطولة التي شغفت بها قبائل العرب ، و هي القصائد التي << تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة و علقتها في أستار الكعبة>>[1].

و اشتقاقات نفس المادة ، نجدها كذلك مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحركة و التنقل، وذلك هو السبب في الحضور القوي للزمان والمكان ، و هما المكونان الأساسيان للرحلة، إذ لا رحلة خارج هذين البنيتين ،[2] اللتين لا يخلو منهما فن من الفنون السردية ، و هو ما يفرض دون شك وجود قواسم مشتركة بين هذه الفنون .

و جاء في لسان العرب :" و في الحديث الشريف : عند اقتراب الساعة تخرج نار من قعر عدن تُرحل الناس" ، رواه شُعبة قال : و معنى ترحل، أي ترحل معهم إذا رحلوا، و تنزل معهم إذا نزلوا، و تقيل إذا قالوا ؛ و قيل معنى ترحلهم أي تنزلهم المراحل، و قيل تحملهم على الرحيل.
و جاء في لسان العرب أيضا : الترحيل و الإرحال بمعنى الإشخاص و الإزعاج . يقال : رحل الرجل إذا سار و أرحلته أنا. و رجل رحول و قوم رحَّل أي يرتحلون كثيرا . و رجل رحال : عالم بذلك مجيد له . و الراحلة من الإبل : البعير القوي على الأسفار و الأحمال . و ارتحل البعير سار فمضى ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل ارتحل القوم عن المكان ارتحالا. و رحل عن المكان يرحل و هو راحل من قوم رحل. و الترحل و الارتحال : الانتقال و هو الرِّحلة و الرُّحلة و الرحلة اسم للارتحال للمسير و المرحلة : المنزلة يرتحل منها و ما بين المنزلتين مرحلة [3].

---

(1)- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي الجزء الأول ،دار المعارف مصر، ط8، دت ص: 140.
(2)- يستثنى من ذلك الرحلات الخيالية التي لها طابعها الخاص. أو الرحلات الصوفية ، و المتصوفة كما هو معلوم لهم نظرتهم الخاصة للرحلة ، التي ترتبط عندهم بالمدنس و المقدس، و بالتالي فهم يصرون على سفر العقل أو الروح بل إن القلب عندهم هو المؤهل للسفر أكثر من غيره .
(3)- ينظر ابن منظور، المرجع السابق ، مادة << رحل >>، ص 1611 .

و جاء في مقاييس اللغة لابن فارس في مادة << رحل >> : رحل، الراء و الحاء و اللام أصل واحد، يدل على مضي في سفر؛ يقال: رحل يرحل رحلة. و جمل رحيل: ذو رُحلة بضم الراء و كسرها إذا كان قويا على الرحلة. و الرحلة: الارتحال. و الراحلة المركب من الإبل ذكرا كان أو أنثى. و رحَّله إذا أظعنه من مكانه . و معنى الرِحلة و الرُحلة : القوة على السير[1].

و جاء في القامــوس المحيـط للفيروزابادي في نفس المـادة : الرحل مركب البعير كالراحول، ج أرحل. و الرحالة ككتابة : السرج أو من جلود (هكذا) لا خشب فيها يتخذ للركض الشديد .
و بعير ذو رُحلة بالكسر و الضم: قوي و جمل رحيل قوي على السير . و ارتحل البعير: سار و مضى و القوم عن المكان انتقلوا و الاسم الرحلة بالضم و الكسر[2].

و ما يمكن ملاحظته من خلال عرض مشتقات مادة " رحل " في مختلف المعاجم :

1- أن هذه المادة أخذت حيزا معتبرا في معجم لسان العرب امتد من الصفحة 1608 إلى الصفحة 1611 في المجلد الثالث ، بثلاثة أعمدة في الصفحة الواحدة كما كان لها حضورها كذلك في المعجمين الآخرين.

2-أن جميع مشتقات المادة و في المعاجم الثلاثة توحي بالسفر، باعتبارها تدور حول متطلباته الأساسية التي يمثلها : فعل الحركة و الانتقال من جهة ، والوسيلة أو المركب من جهة ثانية ،و القوة و الجهد من جهة ثالثة . و هذه جميعها من متطلبات الرحلة كسفر، و السفر معاناة و هو كما يقال قطعة من العذاب [3]. و عليه فالرحلة لا يقوم بها إلا شجاع مغامــر، لا يخشى الأهوال و لا يضعف

---

(1)- ينظر ابن فارس ، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيــع ج2، د ط، د ت، مادة " رحل " ، ص ص 497-498.

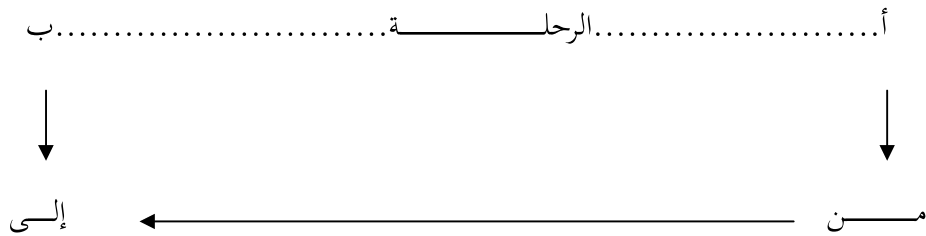
(2)- بحر الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشيرازي، القاموس المحيط، الجزء الثالث، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة 1301هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، الجزء 3مادة << رحل >> باب اللام فصل الراء، ص: 371.

(3)- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: << السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه و شرابه و نومه فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهلـه >> . قوله : << السفر قطعة من العذاب >> أي جزء منه ، و المراد بالعذاب الألم الناشئ عن المشقة لما يحصل في الركوب و المشي من ترك المألوف.

أمام الأخطار، يتحدى الصعاب و يتجلد مع الألم ، يقتحم الفيافي ويركب الأمواج ...و بذلك يأخذ صفة البطل.

ب – الرحلـــة في الاصطـــلاح:

إن وجود الإنسان على هذه الأرض ، يفرض عليه أن يكون دائم الحركة كثير التنقل، و إن لاقى في ذلك الجهد و العناء ، و كابد الآلام و الشقـاء ، فتلك طبيعة حياة البشـر و متطلبات الحياة ، و الرحلة كما تمت الإشارة إليه آنفا، هي بكل بساطة قطع مسافة معينة بين نقطتين في فترة زمنية محددة ،و غرض محـدد ، مايؤكد ما يحرص عليه كثير من المهتمين بدراسة الرحلات، من أن الرحلة الحقيقية هي تلك التي تتأسس على القصدية ، لذلك يشترط أن يكون لها نقطة انطلاق معلومة، و نقطة وصول محددة كما يوضحه الشكل التالي:



الأكيد أن قطع هذه المسافة، لا بد أن تتخلله مناظر مختلفة و أحداث متنوعة ، تفرح تارة و تغضب تارة أخرى، كما يلتقي فيها الرحالة بنماذج من البشر، تختلف عاداتهم و تقاليدهم ، وقد تتباين لغاتهم و ثقافاتهم، يطمئن لبعضهم و ينزعج من بعضهم الآخر، يتواصل معهم فيأخذون عنه تارة فيؤثر فيهم، و يأخذ عنهم تارة أخرى فيتأثر بهم، فتتسع بذلك ثقافتـه ، و تتدعــم تجاربـه؛ فالرحالة كما نعلم << يتعرض بعيدا عن موطنه ، لشتى أصناف التجارب و المغامرات، ويبني من خلالها معرفة بغيره و تميزا لذاته >>[1]. و عليه فإن للرحلة فوائد متعددة ، فهي تساعد الرحالة على بناء شخصيته، و تدعيــم تجاربه، و توسيع خبراته في الحياة ، و قد اعتبرها الكثيرون << مصدرا حيا من مصادر زيادة

---

(1)– عبد الرحمان المودن/ عبد الرحيم بنحادة ، السفر في العالم العربي الإسلامي سلسلة ندوات و مناظرات ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى 2003 ، ص:11.

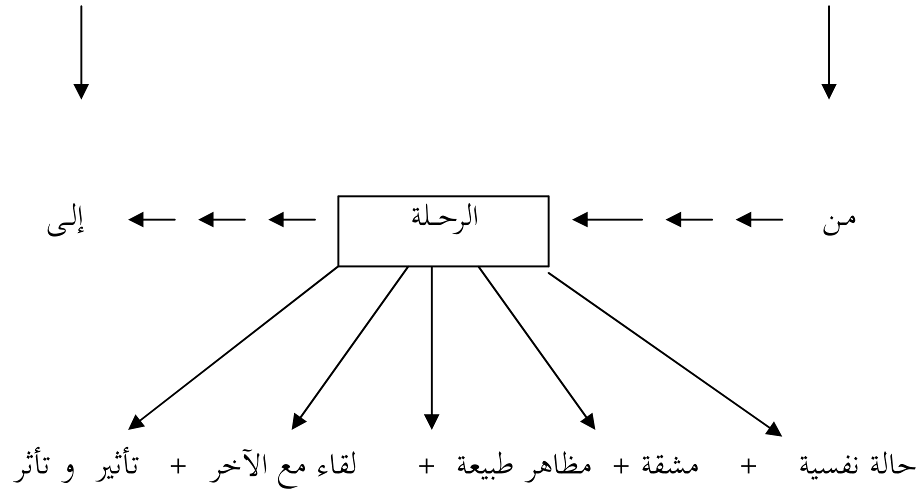
الخبرات ، يلجأون إليها من أجل تنمية قدراتهم الذاتية، على مواجهة الحياة في مختلف الظروف>>[1].

الرحلة إذا مدرسة مفتوحة، متنوعة العلوم و المعارف، تضمن للإنسان مختلف التجارب بحكم تعلمه من الغير، من خلال الاختلاط و التفاعل الإيجابي مع الآخر،<< فمخالطة الأغراب ، لاسيما إذا كانوا من أولي الألباب ، تجلب من المنافع العجب العجاب >>[2] وهذا الآخر يتمركز دوما كعنصر ثابت في الرحلة مهما كان نوعها.

و على العموم، فإن الرحالة أثناء رحلته، يعيش الحياة بجميع تناقضاتها ، تلك التناقضات التي تعتبر مسلمة من المسلمات في حياة البشر، و حياة البشر-كما هو معلوم - بطبيعتها قائمة على التقابل؛ فيها الذكر و الأنثى، فيها الخير و الشر، فيها البر و البحر، فيها الحياة و الموت، فيها القبل و البعد، فيها الدنيا و الآخرة، وفيها......

و الرحلة بهذه الصورة التي وضحنا، لا تخرج في حقيقة الأمر عما يوضحه الرسم البياني التالي :

الانطلاق الوصول



(1)- ناصر عبد الرزاق الموافي، المرجع السابق، ض:28.

(2)- عبد الله ابراهيم ، السردية العربية الحديثة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ط 1 ، 2003 ، ص: 34.

و لما كان حضور الرحلة بالشكل الذي رأينا في الثقافة العربية و الإنسانية ، فإن المتحدثين عنها، و المولعين بها فعلا و دراسة و تحقيقا ،هم كثر لا يكاد يحصيهم عد، والمقصود هنا بالخصوص أولئك الذين نظروا للرحلة نظرة تاريخية و جغرافية، وكانت لهم آراؤهم فيها ،وهي الآراء التي سنستأنس بها، و نقف عند بعضها ، بغية إبراز مختلف و جهات النظـر في مفهوم الرحلة ،مركزين على كبار الشخصيات و أشهرها ، في الفكر و الثقافة العربيتين . أولئك الذين تحدثوا في حقيقة الأمر عن السفر ،إلا أن حديثهم عنه، لا يكاد يختلف عن الحديث عن الرحلة ؛ فالسفر باعتباره حركة في الفضاء ،و انتقال عبر الزمان من مكان إلى آخر، حاضر بكل أشكاله في الرحلة ، بل يعتبر البنية الأكثر هيمنة فيها.

و السفر عند الغزالي صاحب الإحياء ، << نوع حركة و مخالطة >>[1]، و هو في الوقت ذاته << وسيلة إلى الخلاص من مهروب عنه، أو الوصول إلى مطلوب و مرغـــوب فيه >>[2]. و الغزالي في معرض حديثه عن السفر، فرق بين نوعين منه ، فالسفر عنده << سفران : سفر بظاهر البدن عن المستقر و الوطن إلى الصحاري و الفلوات ، و سفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات و الأرض، و اشرف السفرين الباطن >>[3] .

مثل هذا الكلام يتوافق مع ما أشرنا إليه آنفا ، من أن هناك رحلة ينتقل فيها الرحالة بجسده، و هناك أخرى لا حركة للجسد فيها ، و تلك رحلات خاصة عادة ما يتميز بها أهل الباطن ، من الأولياء ، و المتصوفة ، و أصحاب الكرامات .

من كل ما سبق ، نستخلص أن السفر و الرحلة، الجوهر فيهما هو الحركة و الانتقال ، و هذا هو المعنى المتكرر في ثنايا المعاجم و المؤلفات العربية ، وهذا المعنى في الواقع ، لا يعنينا إلا بالقدر الذي احتجناه للتوضيح ، لأن هذه الرحلات، لا يمكن أن تعد و لا تحصى ، باعتبارها تدل على كل فعل فيه حـركة و انتقال صـــادر عن أي شخـص، بل إن هـــذا النوع من الرحـــلات مصـــيره معلوم ،وعمره

---

(1)- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، إحياء علوم الدين، ج2، الكتاب7 كتاب آداب السفر، مكتبية الدعوة الإسلامية ، القاهرة ،ص:181 .

(2)- نفسه، ص:181.

(3)- نفسه، ص:181.

محدود، فهي تنتهي بمجرد انتهاء الرحلة، و عودة المرتحل إلى حياته الطبيعية، << فالملايين ارتحلوا دون أن يتحولوا إلى رحالين، بحكم اكتفائهم بحركة الجسد دون أن يتحولوا إلى نصوص، إلى حكاية للسفر>>[1] . أما الرحلة التي نحن بصدد الحديث عنها، و التي نسعى للتعامل معها، فهي تلك التي نقل فعلها إلى كتابة ،أو ما يمكن تسميته تلفيظ فعل الرحلة [2] ، أي ما يمكن أن نطلق عليه قص المسافر لما جرى له أثناء سفره، و ما شاهده و ما عايشه أثناء تنقله، وما قرأه أو سمع به من أشعار و أخبــار في أوقات راحتــه ،كل ذلك يلتقطـه و يقدمـه لنا تارة بالسـرد ، و تــارة بالوصف، و أخـــرى بالتعليــق، مضفيا عليه من ذاته ، من خــلال انطباعاته ،متخذا في ذلك النثر وسيلة بالدرجة الأولى. ما يعني أن السرد سيكون أول ركائزه. و لاشك أن ما يكتبه الرحالة سيتقاطع و يتفاعل مع نصوص أخرى، قد تكون أدبية و قد تكون غير ذلك، و هكذا تتجاوز << الرحلة ثنائية الكــلام الأدبي و الكــلام غير الأدبي ، عاكســة بذلك حــوارا – بوعــي أو بدون وعــي- بين أنماط الكلام ، الذي امتزج فيه العامي بالفصيح ، الدخيل بالأصيل ، العلمي بالأدبي، التاريخي بالجغرافي، السياسي بالأيديولوجي، المقدس بالمدنس، السـردي بالوصفــي،المكتوب بالمرسوم، المسموع بالمرئي >> [3] .

و هذا يفرض على صاحب هذه الرحلة ، أن يكون له زاد ثقافي و علمي و أدبــي، يساعـــده على نقل الرحلة من الحركة و الانتقال و المشاهدة ،إلى الكتابة ذات الملامح الفنية ، لتصبح بعد ذلك خطابا تتمظهر فيه عناصر جمالية ، تضفي عليــه صفــة الأدبية التي تضمن لــه البقــاء << فليست كل كتابة عن رحـلة ما تعــد نصا من نصوص السفــر ، و ليس كل وصف للأمكنة المرتحل إليها يخلق نصا منتسبا إلى هـذا الجنس الأدبي، بل إن ذلك لا يتأتــى للرحــالة إلا إذا مــــزج بين التسجيل و بين

---

(1)- عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة،دار الثقافة للنشر و التوزيع الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى1997، ص:6.

(2)- ينظر، سعيد يقطين، خطاب الرحلة العربي و مكوناته البنيوية، مجلة علامات في النقد،النادي الأدبي، جدة، سبتمبر 1993، ص: 165.

(3)- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية في القرن التاســع عشر ، دار السويدي للنشــــر و التوزيـــــع أبو ظبــــي، ط 1،2006، ص:40.

الشعور الخاص تجاه المسجل ، و الا تحول الوصف إلى دليل Guide مفرغ من كل احساس >>[1] .

وقد اعتبر بعض الدارسين العرب أن الرحلة العربية و من منطلق أنها تنتمي إلى دائرة الأدب كما أصبح ينظر اليها اليوم ، تحمل في ثناياها الإرهاصات الأولى للقصة في صورتها البدائية في الأدب العربي، ما يؤكد << أن العربي تمتع بموهبة قصصية تجلت في العديد من الآثار الأدبية >>[2]. و منها الرحلات التي تتميز بأن لها نقطة انطلاق، كما أن لها نقطة وصول ، و بين النقطتين يقطع الرحالة مسافة يمر فيها على أمكنة و بيئات متنوعة ، يلاقي فيها أشخاصا قد يكونون من العلماء و رجال الأدب ، و قد يكونون من عامة الناس ، و في كلتا الحالتين يتواصل معهم ، فيستفيد و يفيد ، لينقل ذلك كله موظفا الوصف ، و الخبر، و السرد، و الحوار ، وتلك –كما لا يخفى على أحد– من المقومات الأساسية للقصة .

و هذا يؤكد أن الرحالة العرب، << غلب على كتاباتهم الطابع القصصي ، يستندون به إلى الواقع أحيانا، و يجنحون به إلى الخيال أحيانا أخرى، و يحفلون فيه بالقصص للمتعة، التي تسموا به إلى مرتبة الأدب الفني الصرف في أغلب الأحيان>>[3].

و على العموم ، فإن التفريق بين الرحلة كانتقال و حركة، و الرحلة كخطاب أدبي، لا يجب أن يفهم على أنه فصل بين النوعين ، لأن الفصل بينهما في حقيقة الأمر يستحيل ، إذ لا رحلة بدون سفر، و الكتابة الرحلية تستلزم القيام بالرحلة، فلا رحلة مكتوبة دون رحلة انتقال ، إلا في تلك الرحلات التي قلنا عنها أن لا حركة و لا انتقال للجسد فيها ، و التي عادة ما تعرف بالرحلات الخيالية.

ثانيا :جـــــــذور الرحلـــــــــة:

لقد فرضت طبيعة الحياة و متطلباتها، على الإنسان أن يعيش حياة قوامها الحركة و الانتقال ،و عمادها السفر و الارتحال، فقد قضت حكمة الله سبحانه و تعـــالى أن لا يجمع الخيرات و المنافع في

---

(1)- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، المرجع السابق ، ص:28.

(2)- فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص: 6.

(3)- نبيل راغب، أدب الرحلات،مجلة الفيصل أ الرياض المملكة العربية السعودية، ع88 تموز(يوليو) 1984، ص:71.

أرض واحدة، أو عند قوم بعينهم ، بل جعلها متفرقة على الأجناس و الأمصار، حتى يحتاج هؤلاء لأولئك، فيضطرون للتواصل و التعارف، و تبادل المنافع ، ولن يتأتى لهم ذلك إلا من خلال الانتقال و السفر، الذي أفاد البشر، فطور حياتهم، و عدد مكاسبهم ،و نمى معارفهم ،و وســـع ثقافتهم، و نـوع تجاربهم، كذلك فعل و ما زال إلى اليوم ؛ فمنذ وجد هذا الإنسان على وجه هذه الأرض، و إلى اليوم ، لم يتوقف يوما عن الحركة و التنقل من مكان إلى مكان، بحثا عن مصدر عيش لحياة أفضل، أو هربا من خطر طبيعي أو بشري، أو خوفا من مجهول حقيقي أو وهمي، هكذا هي << حياة الإنسان رحلة دائمة لا تتوقف إلا على تخوم الأبدية >>[1]. إذ لا أحد من البشر يمكنه أن يتصور الإنسان دون حـــركة و لا تنقل، وهذا في الحقيقة أمر طبيعي، باعتبار أن الإنسان جبل على الرحلة، فهي فيه طبيعة متصلة به لا تفارقه، فقد عرفها مذ كان في صورته الأولى ،كما خلقه الله تعالى في صورة آدم و حواء، يوم لم يكن في الكون غيرهما .

من المعلوم أن أول رحلة قـــام بها الإنسان، هي تلك الرحلــة التي أشار إليها القـرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ وَقُلنَا يَا آدَمُ اسكُن اَنْتَ وَ زَوْجُكَ الجنَّةَ وَ كُلَا مْنهَا رَغَدا حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمين ¤ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الاَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ اِلَى حِينٍ ¤ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ اَلتَّوَّابُ الرَّحِيمُ ¤ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [2] .

إنها رحلة آدم و حواء ، الرحلة التي كانت أمرا لا اختيارا . كان سببها الخطيئة، و الهدف منها التكفير، فهي إذا رحلة غير عادية ، لكنها رحلة خالدة بخلود القرآن ، و لا شك أن ورودها في القرآن الكريم لم يأت بغرض قصها، أو رواية أحداثها، و إنما جاء لهدف رباني ، لا يخرج عن أهداف القصة و ضرب المثل في القرآن الكريم، و تلك الأهــداف إنما تأتي لتثبيت العقيدة ، و تقـوية الإيمان

---

(1)- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع ،بيروت لبنان ط2 1983، ص: 5.

(2) - سورة البقرة: الآيات 34-35-36-37.

و أخد العبرة .

إن هذه الرحلة، تعتبر أهم رحلة في تاريخ البشرية، سواء السابق منه أو اللاحق ، و هي رحلة خاصة لا ينتظر أن يرحل مثلها قط مخلوق من بشر، و هو ما يحتم علينا أن نقف عندها وقفة متأنية لنلاحظ:

1- أن هذه الرحلة ذكرت إجمالا ، و جاءت مختصرة لحكمة أرادها الله تعالى مثلما هو الحال مع غيرها ؛ فقد استأثر الله تعالى بعلم كثير من الغيبيات ، قد علم و هو علام الغيوب ، أن لا جدوى للبشر في معرفة كنهها و طبيعتها [1]. و لكن رغم ذلك ، أسالت هذه الرحلة حبرا كثيرا ، و أخدت حيزا معتبرا في كتب التفسير .

2- أن هذه الرحلة ،كانت من عالم لا نعرف عنه إلا ما ذكر في القرآن الكريم ، أو شرحه الحديث الشريف .

3- أن هذه الرحلة، ما كانت لتكون لولا استجابة آدم و حواء لوسوسة الشيطان ،من منطلق الفضول و حب الاستطلاع ، استجابة رأت حكمة الله أن يعاقبا عليها ، فكان الأمر أن يتجها نحو الأرض، موطن النكد و الشقاء، و دار العداوة و البغضاء؛ ففيها قتل الأخ أخاه، وفيها واجه الإنسان الكوارث و المصائب، و هذا يعني أن الرحلة مهما كان نوعها، ومهما كانت دوافعها ، و مهما كان الهدف منها ، لا بد أن تقترن بالمخاطر و الأهوال عند القيام بها في هذه الارض، التي تعددت فيها رحلات ابن آدم ، حتى كأن الرحلة أصبحت طبعا فيه ، و علامة من العلامات التي تميزه عن غيره . فليس عجيبا إذا أن تكون الرحلة معروفة عند جميع الشعوب ،لا فرق في ذلك بين البدو و الحضر، ، و السود و البيض و الكفار و المؤمنين ،و العرب و الأعجميين.

أ – جـذور الرحلـة في التراث الغـربي:

إن المطلع على التراث الغربي ، يمكنه أن يقف على بعض المظاهر التي يمكن اعتبارها تمثل جذورا للرحلة، في صورتها البدائية البسيطة عندهم ، رغم ما يظهر عليهم اليوم من تفوق في هذا الفن، ذلك أننا جميعـا نتفـق ، أن لا شيء ابتكره الإنسان في هذا الكون، و وجد كاملا مند وهلته الأولى، فكل

---

(1)- ينظر- سيد قطب، في ظلال القرآن ،دار الشروق، بيروت لبنان،ط 10 ،1982 ج 1 ص، ص:59.

شيء يبدعه الإنسان، ويكتشفه أو يتوصل إليه، لا بد أن يبدأ بسيطا ، يمر بفترة من الزمن ، يخضع فيها للإضافة و التعديل و الإثراء ، قبل أن تكتمل صورته ، و تتحدد هويته ؛ فالعلوم باختلافها و عند الأمم جميعها ، << مرت بعدة مراحل قبل أن تصل إلى ما هي عليه اليوم ،من دقة و ضبط ، و قبل أن تتخذ صفة العلم القائم بذاته ، بفضل تقدم العقل البشري و أدواته العلمية >> [1] .

يستــوي في ذلك العلوم التجريبية ، أو الآداب و العلـوم الإنسانية، و لأن الإنســـان حباه الله العقل و أنعــم عليه به ، فقــد وظفـه و سعـــى دوما من خلاله إلى المضي قدما نحـو التطور، و البحث عن الأفضل ، في جميع مجالات حياته ، و النتيجة هي ما نلاحظــه من فوارق في حياة الإنسان، بين فترة و أخرى ، ســواء تعلق الأمر بحياته السياسية ، أو الاجتماعية ، أو الاقتصادية ، أو الثقافية و الأدبية .

من هذا المنطق، يمكننا الجزم أن جذور أدب الرحلات ، و بداياته الأولى، كانت بسيطة، لا تعدو أن تكون ملاحظات عادية ، و انطباعات ذاتية ، لا ترقى إلى مستوى الأدبية ، ولا يمكن الاطمئنان إليها من الناحية العلمية ، فهي انطباعات << سجلها الرحالة الأوائل في رحلاتهم ، و مغامراتهم المختلفة >> [2]. وكذلك فعلوا مع أهوال و مشاق أسفارهم، و غرائب مشاهداتهم ، ينقلونها إلى الأقــربين، لتنتقل منهم شفاهة إلى الآخــرين ، فتتداولها الألسن، و تلتقطها الآذان على نطاق واسع ، ما يجعلها في كثير من الأحيان عرضة للإضافات و المبالغات ، فيختلط فيها المعقول باللامعقول ، و الحقيقي بالخيالي ، و الواقعي بالأسطوري، ويغــدو بذلك الخيــال الشعبي المهيمن الأساسي عليها ، و صاحب الدور الأكبر في أحداثها، عندما يضيف إليها ما ليس منها، و يُقَوِّ لها ما لم يقله أصحابها ، و هو ما يخرجها في أغلب الأحيان من عالم الواقع و الحقيقة ، و يدخلها في عالم الخيال و الأسطورة ، كمــــا يضفي على أحداثها الكثير من الغرائبية .

والحقيقة أن الرحلة في التراث الأدبي الغربي، لا يمكن أن نتحدث عن تأصيلها ، و ظهورها الحقيقي، إلا مع ظهور كتَّاب وصلت إلينا كتبهم فعلا، أو وجود آثار مادية اقرها الباحثون ، تكون شاهدا نطمئن إليه و عليه نبني أحكامنا .

---

(1)- حسني محمود حسين، المرجع السابق، ص:7.

(2)- نبيل راغب، أدب الرحلات/ مجلة الفيصل، العدد 88 ، ص:71.

و لعلنا لا نجانب الصواب إذا اعتبرنا —كما اعتبر الدارسون و النقاد من قبلنا — أن ملحمة جلجامش[1] . التي تعتبر مفخرة حضارة وادي الرافدين ، هي أول نموذج وثقه الإنسان لرحلة ، فهي وثيقة إنسانية كونية بامتياز، تبرز أحداثا متعددة، و تعرض رحلات بطلها جلجامش رفقة انكيدو ، العدو المتوحش الذي سخرته الآلهة للتصدي للملك ، لكنه عندما حل بالمدينة استولى على قلبه الحب ، وفقد وحشيته ، و انقلب إلى صديق ودود لجلجامش، و تصور الملحمة مغامراتهما ، و ما لاقياه من أهوال و مصاعب ، و ما خاضاه من حروب مع البشر تارة، و مع الآلهة تارة أخرى... و بعد موت انكيدو ، وخشية أن يلقى نفس المصير ، بدأ جلجامش رحلته بحثا عن الحياة الأبدية، رحلة دامت فترة من الزمن، وجد بعدها ضالته في نبتة الخلود، فقرر العودة إلى مدينته، وفي طريقه توقف ليستريح، و في غفلة منه، جاءت حية أخذت النبتة و اختفت، فأخذت بذلك معها أمل الخلود ! أمل البشرية الذي لم و لن يتحقق [2] .

و في نفس الاتجاه ، يقر الدكتور حسين محمد فهيم : << أن الرحلة التي قام بها القدماء المصريون عام 1493 قبل الميلاد ، تعد من أقدم الرحلات التجارية و الإثنوجرافية [3]على الإطلاق ، حين أبحر في النيل صوب جنوب مصر، أسطولا مكونا (هكذا)[4] من خمسة مراكب وعلى متن كل مركب واحد و ثلاثون فردا ، و ذلك بهدف تسويق بضائعهم النفيسة ، التي شكلت آنذاك البخور و العطور . نتج عن هذه الرحلة اتصال المصريين القدماء ، بأقزام إفريقيا ، و تأكيدا لإقامة علاقات معهم ، فقد صورت النقوش في معبد الدير البحري ، استقبال ملك و ملكة بلاد

---

(1)- هي ملحمة سومارية عراقية قديمة دونت على احد عشرة لوحا تعود إلى الألف الثانية فبل الميلاد شاعت قديما تحت عنوان (من رأى كل شيء) بطلها جلجامش ملك أوروخ إحدى مدن ما بين النهرين الذي تروي الأساطير أنه كان ملكا ظالما نقم عليه شعبه....

(2)- لتفاصيل أكثر ينظر جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين ، بيروت ، دط ، 1983، ص:425 ، و ما بعدها.

(3)- الإثنوجرافيا مصطلح يعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة و مجموعة التقاليد و العادات و القيم و الأدوات و الفنون و المأثورات الشعبية لدى مجتمع ما في فترة ما.

(4)- الصحيح أسطول مكون.

بونت ، لمبعوث مصـري ، و أوضحت النقـــــــوش كذلك بعض تفاصيل الصفات الجسمية لتلك الشعوب <<(1).

كما يمكن اعتبار الملحمة اليونانية المعروفة بالأوديسة لهوميروس، مظهرا من مظاهر الرحلة في التراث الغربي، و الذي يسوغ لنا ذلك ، هو معنى كلمة أوديسة ذاتها فهـــــي<< في اللغات الأوروبية الحديثة الآن ، ترادف معنى سلسلة طويلة من الرحلات، أو رحلة يمتد بها الأمد، و تتخللها المخاطر و الأهوال << (2). و تتناول هــذه الملــحمة بالتفصـيل، مجموعـة مـن الوقائع و الأحداث، امتزج فيها الواقع بالخيال، و الحقيقة بالأسطورة ، و هذه الأحداث تمثل رحلة لشخصيتين هما : تليماك الذي انطلق في مغامرة طويلة للبحث عن أبيه، و الأب عوليس الذي سعا لاسترداد ملكه، و الظفر بزوجته .
و قد قسم الدارسون هذه الملحمة إلى ثلاثة أقسام تمثل ثلاث رحلات :
- القسم الأول: يتناول رحلة تليماك للبحث عن أبيه عوليس .
- القسم الثاني: يروي بالتفصيل رحلة عوليس و مغامراته ، و ما لاقاه من مصاعب و أهوال، و مخاطر و عراقيل في الجزر و البحار التي قطعها .
- القسم الثالث: يمثل النهاية، و يصور رحلة عودة عوليس إلى وطنه ، و استرداد ملكه وتخلصه من منافسه على زوجته (3).

إن الرحلة في صورتها داخل الملحمة الغربية، ممثلة في الملحمة اليونانية القديمة التي ألفها شعراء رووا فيها رحلات غيرهم ، انطلاقا من فكر مرتبط -كما نعلم- بطقوس دينية قائمة على تعدد الآلهة، قد لعب الخيال في أحداثها دورا كبيرا، فابتعدت عن الواقع و سيطر فيها الخيال، و طغت عليها الأسطورة ، ما جعلها مليئة بالعجائب و الغرائب .

و لأن الرحلة سواء عند العرب أو عند غيرهم من الأمم، يغلب على مادتها الواقعي من الأحداث و الدقيق من الملاحظات ، من منطلق أن الواقع يفرض على الرحالين أن يتصـفوا << و لـو بدرجات

---

(1)- حسين محمد فهيم ، أدب الرحلات ، عالم المعـرفة ، المجـــلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، العدد 138 شوال 1409/ حزيران 1989، ص، ص:22- 23.
(2)- هوميروس، الأوديسة، ترجمة عنبرة سلام الخالدي دار العلم للملايين – بيروت د ط، مارس 1983، ص: 5.
(3)- ينظر تفاصيل أكثر . جبور عبد النور، المرجع السابق ، ص: 624.

متفاوتة بدقة الملاحظة و الوصف و التقصي في تسجيل مشاهداتـهم بأمانة و صدق << [1]. وعليه فقد اعتبر أغلبية الدارسين و الباحثين المهتمين بالبحث في الرحلة، أن هيرودوتس [2] يعتبر << أبا لأدب الرحلات ، كما أنه أبو التاريخ ، فقد استقى من رحلاته الطويلة العريضة في بلاد الإغريق مسحا و صفيا شاملا لها ، و من ثم استطاع تقديم عرضه العظيم للتاريخ في عام 425 قبل الميلاد ، ولم يسع للوصف التفصيلي لرحلاته ، بل اكتفى بالتركيز على النتائج التي أنشأت علم الجغرافيا << [3].

إن الحديث بهذا الشكل عن هيرودوتس ، يجعلنا نميل إلى اعتبار ما كتبه تاريخا ، أو هو إليه أقرب ، بمعنى أنه يبتعد عن الجمالية التي تتطلبها الرحلة في سرد الأحداث و نقل الوقائع ، و على هذا الأساس فقد اعتبر الدكتور نبيل راغب أن " اكسينفون " [4] ، صاحب كتاب " انابيزيس " الذي ألفه في العام 371 قبل الميلاد ، هو الواضع الحقيقي للتقاليد الأدبية لأدب الرحلات، باعتباره استطاع أن يجمع في كتابه بين أمانة الوصف ، و نقل الخبر، و القيمة الفنية التي تتخطى السرد المباشر، إلى السرد الفني ، نظرا لاعتماده الكتابة بأسلوب فني يخاطب به العقل و الوجدان معا [5].

و سواء تعلـق الأمر برحلة المصريين القدماء المشار إليها آنفا ، أو برحلات تلماك و عوليس في الأوديسة، فإن القاسـم المشترك بينهما ، هو نيـة الفعـل الرحلي من جهة، و النفعية من جهة أخرى؛ فالأولى كانت بغرض التجارة، و الثانية كانت بغرض استرداد ملك مغتصب، ما يعني أن الإعداد و التخطيط لهما كان مسبقا، مما يؤكد طابع القصدية في هذه الرحلات، و هــو الأمـر الذي نجده في الرحلات جميعها قديمها و حديثها.

---

(1)- حسين محمد فهيم ، المرجع السابق، ص: 16.

(2)- هيرودوت أو هيرودوتس herodotus <<484-421 ق م<< كاتب يوناني اشتهر مؤلفاته و تسجيلاته الواقعية و الحقيقية التي تبتعد عن الخرافة و الأسطورة من مؤلفاته << التواريخ << الذي يحتوي على مناقشات قيمة حول العادات و التقاليد و الجغرافيا و التاريخ.

(3)- نبيل راغب، أدب الرحلات،مجلة الفيصل،المرجع السابق، ص: 71.

(4)- اكسيفون من مشاهير الفلاسفة اليونانيين وهو أحد تلاميذ سقراط اختير لقيادة جيش المرتزقة أثناء انسحابه من معركة و قد أرخ لهذا الحدث في كتابه " انابيزيس " <<الرحلة إلى البحر<< ويطلق عليه كذلك عودة العشرة آلاف وهو عدد الجنود عند تراجعهم .

(5)- ينظر نبيل راغب ، أدب الرحلات، مجلة الفيصل، ص، ص : 72/71.

ب – جـذور الرحلـــــة في التراث العـــــربي:

العـرب كغيرهــم من البشر، من مختلف الأجناس على وجه هذه البسيطة، طبعوا على الحركة و الانتقال، فاهتموا بالسفر، و مارسوا الارتحال برا و بحرا ، مجبرين أو مختارين ، سواء داخل الجزيرة العربية موطنهم الأصلي، أو منها إلى أوطان غيرهم ممن تواصلوا معهم عن طريق التجارة تارة ، و الحروب تارة أخرى ، يشهد على ذلك رحلاتهم التي اشتهروا بها عبر مختلف فترات تاريخهم ، سواء قبل بزوغ فجـــر الإسلام أو بعــده، و التاريخ يشهد أنه <<كانت للعرب رحلات تجـارية مـزدهرة، خاصة مع العـراق و الشـام و اليمن، و إن لم تدون أخبـــار هذه الرحــــلات تدوينا خاصا و شاملا أو جامـعا، اللهم إلا مـــا ورد متناثرا في قصـــــائد الشعر >>[1]. و يكفـــي أن القــرآن الكريم روى أحـداث بعضها،و أشار إلى بعضها الآخر، و من أشهر مـا أشار إليه القرآن من هذه الرحلات ، رحلة الشتاء و الصيف ، التي أشار إليها القرآن الكريم ، بقـوله سبحانه وتعـــــالى: ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ¤ اِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَ الصَّيْفِ ¤ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ¤ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**﴾ [2] .

إن هذه الرحلة التي خلدها القرآن الكريم ، هي رحلة دأبت قريش على القيام بها وقد اقترنت باسمها بعد أن ألفتها، و اطمأنت إليها، و هي رحلة حقيقية ذات محددات مكانية و زمانية، باعتبارها كانت رحلة موسمية في اتجاهين محددين : إلى اليمــن جنوبا في الشتـاء ، و إلى الشـــام شمالا في الصيف ، وقد كانتا رحلتين تجاريتين بالدرجة الأولى، و لحكمة أرادها الله تعالى ربط بينهما وبين بيته الحـــرام ، ما وفـــر لقريش الأمـن و المـال ،استجابة لدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿ **رَبِّ اِجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَ ارْزُقْ اَهْلَهُ مِنَ اَلثَّمَرَاتِ** ﴾ [3]

لقد تحقق بذلك للقريشيين ما لم يتحقق لغيرهم ، تحققت لهم << منة إيلافهم رحلتي الشتاء و الصيف ، و منة الرزق الذي أفاضـه عليهم بهـاتين الرحلتين، و بلادهــم قفـــرة جفرة ، وهم طامعون هابئون من فضل الله ، و منة أمنهم الخـــوف سواء في عقر دارهم بجـوار بيت الله ، أم في أسفارهم و

---

(1)- فؤاد قنديل ، المرجع السابق، ص، ص:26/25.

(2)- سورة قريش و هي سورة مكية.

(3)- سورة البقرة الآية 126 .

ترحالهم في رعاية حرمة البيت التي فرضها الله و حرسها من كل اعتـــــداء >> [1]. ولعل هذا الربط بين الرحلة و البيت الحرام ، يدل أن الرحلة قد تكون من العوامل المساعدة على تثبيت العقيدة، و تقوية الإيمان، وهي من جهــة أخـرى ، عمل مشروع فيه سعي لكسب الـرزق، و في ذلك حث ضمني ، على السفر و الضرب في الأرض﴿ **عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَءاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الاَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ [2] و هو ما يفسر جزءا من اهتمام الإسلام فيما بعد، بالرحلة و السفر كما سيتضح لاحقا .

لا نختلف مع أحد و نحن نتحدث عن جذور الرحلة عند العرب ، عندما نذكر رحلات شعراء ما قبل الإسلام ، أولئك الذين لم تقتصر رحلاتهــم علـى تلك الرحلات التي قاموا بها داخل الجزيرة العربية ، بل تعدتها إلى رحلات قاموا بها خارجها؛ رحلات كانت في اتجاه الآخر، ساعدتهم على التواصل معه، و التأثير فيه ، و التأثر به ، فمن المعلوم أن >> شعراء الجاهلية و حكماءهم ، رحل فريق منهم إلى الأكاسرة في بلاد فارس، و القياصرة في بلاد الروم، و أنشدوهم من أشعارهم، و ألقوا عليهم من آيات حكمتهم، و نالوا إعجابهم ، و تقديرهم و عطاءهم. و كذلك استمعوا إلى بلغائهم ، مثلما أسمعوهم، و تبادلوا و إياهم التأثير و التأثر، في فنون البيان >> [3].

لقد كان للعرب إذا رحلات داخلية، و أخرى خارجية، قاموا بها برا تارة، و بحرا تارة أخرى، و هي الرحلات التي أشار إليها الشعراء في قصائدهم، و قد اعتبرت لبنة أساسية من لبنات بناء هذه القصائد. و المعروف عند النقاد و دارسي الأدب، أن الشاعر الجاهلي كان حريصا – خاصة في المعلقات – على وصف راحلته، و مشاهد رحلته، قبل الوصول إلى الغرض الأساسي، الذي من أجله نظم قصيدته.

و حضور الرحلة بهذا الشكل في حياة العربي، لا يبعث على العجب ولا يثير التساؤل؛ ذلك أن طبيعة حياة العربي في قلب جزيرة العرب ، فرضت عليه أن يعيش حياة الحل و الترحال، بحثا عن الماء و الكلاء حينا ، و سعيا وراء التجارة و الصيد و الغزو أحيانا أخرى .

---

(1)- سيد قطب، المرجع السابق ، ج 6 ص، ص:3983/3982.

(2)- سورة المزمل الآية 20.

(3)- سيد نوفل، الرحلات في الأدب العربي القديم، مجلة الهلال، دار الهلال مصر، العدد7،يولية 1975، ص: **7**.

و لما بزغ فجر الإسلام، حدث انقلاب شامل في حياة العرب، مس جميع نواحي حياتهم، سواء الدينية، أو الاجتماعية، أو الثقافية، أو السياسية، أو الأدبية، فقد انتقل العرب بفضل هذا الدين ، من الكفـر و الشـرك، إلى الإيمان و التوحيد، و من ظلام الجهل، إلى نور العلـم، و من الفرقــة و التشتت ، إلى الوحدة و التآلف ، و من سلطان الشعر ، إلى بداية الاهتمام بالنثر ، و من الشفوية إلى الكتابة و التوثيق.كما انتقلوا من حياة الانغلاق على الذات ، إلى حياة الانفتاح على الآخر و السعي إليه، استجابة لأمر الله تعـالى، الذي دعا إلى السفر و السعي و الضرب في الأرض ، في عديـــد من آيات الذكر الحكيم ، كقوله تعالى :﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [1] و كذلك قوله جل شأنه:﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَ لَدَارُ الاَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقُوا افَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ [2].

و الملاحظ في الآيتين —كما في كثير غيرهما — أن الدعوة للسير في الأرض و الانتقال فيها،جاءت مقرونة بالحث – و لو بالتلميح – على توظيف العقل من خــلال ضرورة الاعتماد على النظر و التــدبر في أمـور و أحـوال و عواقب الأمم السابقة، للاستفادة و أخــذ العبرة ، ما يؤكد من جهة أن الرحـــلة ليست عبثا و لا عربدة، بل يجب أن يكون وراءها هدف، يخرجها مما يمكن تسميته لغو الفعل. كما يؤكد من جهة أخرى ، أنها قد تكـون عامـلا مساعدا على تقوية الإيمان، و تثبيت العقيدة ،كما أسلفنا من قبل . من هنا تأخذ الرحلة قيمتها ، و مشروعية الاهتمام بها عند المسلمين ، وهذا يعني أن الرحلة عند العرب في ظل الإسلام ، سوف يكون لها شأنها ، و هو ما يحتم علينا ، أن نفرد لها جزءا و لو بسيطا من الحديث ، نحاول من خلاله أن نتعرف على طبيعتها، و سر اتساع رقعة انتشارها و تعدد و تنوع أهدافها ، و هو ما يمثل نقطة ارتكاز تساعدنا فيما بعد ، على التعامل مع بعض رحلات الفترة التي نحن بصدد البحث فيها و دراستها . إن أول ما يلفت الانتباه و يجب الوقوف عنده ، هو هذا الاهتمـام الذي أولاه الدين الجديد للسفر و ما يتعلـق به ، فقد شرع له تشريعاتــه الخاصــة به و المتعلقــة بتأدية العبادات فيه، كما فصل الحديث في آدابــه ؛ فللمسافر كما

(1)- سورة الأنعام، الآية 11.

(2) - سورة يوسف، الآية 109.

نعلم رخصة ربانية يحق له من خلالها القصر في الصلاة، و الإفطار في رمضان [1].كما أن << للسفر في التقاليد الإسلامية آدابا يلتزم بها المسافر، من أول نهوضه حتى رجوعه ..فعند العزم على السفر، لا بد للمسافر من رد المظالم و قضاء الديون، و إعداد النفقة لمن تلزمه نفقته عليه ، أيضا أن يرد الودائع إن كانت عنده ، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب ، و ليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه ... و لا بد في السفر من طيب الكلام و الطعام ، و إظهار مكارم الأخلاق>> [2] .

كما أن القرآن الكريم ذاته ، حفل بالحديث عن رحلات السابقين، من أنبياء و مرسلين ، و أولياء و صالحين ، وهذا يعتبر مظهرا من مظاهر اهتمام الإسلام بالسفر و الرحلة ، وقد تميز الحديث عن هذه الرحلات في القرآن الكريم بمميزات يمكن إجمالها فيما يلي:

1- أن القرآن الكريم ، ذكر لنا العديد من رحلات الأنبياء و الصالحين، بالتفصيل تارة ، و بالإشارة و التلميح تارة أخرى، سواء تعلق الأمر برحلات الحقيقة، أو رحلة المعجزة كرحلة الإسراء و المعراج .

2- أن القرآن الكريم، خص رحلات البحر بعدد من الآيات ، وردت فيها خاصة لفظتا الفلك و البحر، و رحلة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر نموذج لدلك قال تعالى: ﴿**وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ امْضِيَ حُقُبًا¤ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَها فَاتَّذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبَا¤** ﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿ **فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا اِمْرًا ¤** ﴾ [4].

---

(1)- قال تعالى: ﴿ **و إذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة** ﴾ **سورة النساء الآية** 101و قال : ﴿ **ومن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر و لا يريد بكم العسر** ﴾ سورة البقرة الآية 185.

(2)- أبو حامد الغزالي ، المرجع السابق ، ص181 .

لتفاصيل أكثر ينظر ، يحي بن شرف النووي الشافعي ، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، ت عبد الله أحمد أبو زينة، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ،د ط ، د ت، ص:310 و ما بعدها.

(3)- سورة الكهف، الآية 61/60

(4)- سورة الكهف ،الآيه71.

3- أن غرض القرآن الكريم من ذكر الرحلات أو الإشارة إليها، هو بالـدرجة الأولى غـرض ديني، قبل أن يكون غرضا إخباريا؛ إذ أن ذكر هذه الرحلات، و الحديث عنها، يأتي في الأصل لتثبيت العقيدة، و تقوية الإيمان، و أخذ العبرة .

4- أن القـرآن الكـريم، أشار غير مرة إلى الأهوال و المصاعب المصاحبة للرحلة، سواء كانت برا أو بحرا، كقوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مُجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رحِيمٌ¤ و هيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالجِبَالِ وَ نَادَى نُوحٌ اِبْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْزَلٍ يا بني اركَب مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ¤ قَالَ سَئَاوِى إِلَى الْجَبَلِ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قال لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنَ اَمْرِ اللهِ إلاَّ مَنْ رَحِمَ وَ حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فكان من الْمُغْرَقِينَ¤**﴾ [1].

و هو ما يؤكد ما أشرنا إليه سابقا، من أن الرحلة على مر العصور، اقترنت بالمصاعب و الأخطار الطبيعية و البشرية على السواء.

5- أن القرآن الكريم ، و في العديد من آياته المتعلقة بالسفر و الارتحال، نجد فيها الأمر الضمني أو الصريح، بالسفر و الضرب في الأرض.

لقـد وجد العربي الذي اعتنق الإسلام نفسه مأمورا بالسفر و الارتحال، بأمر رباني فيه الكثير من الإغـراء و الترغيب و التشويق، ما يدعوه إلى الاستجابة و الإقبال الجاد، و بأخلص النيات، فالأمر هنا لا يتعلق بشيء عادي ، و إنما يتعلق بأسمى ما ترنوا إليه نفس المؤمن ، الجنة ؛ فمن خرج مرتحلا في طلب علم فهـو في سبيل الله حتى يعـود، و من خـرج مجـاهدا في سبيل الله و مـات فقد وقع أجره على الله، و من سار في سبيل الله لا شك أنه يسير في طريق الجنة.

ثم أن الرحلة هي عند المسلمين وسيلة لأداء ركن من أركان الدين ، ﴿**وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِ يَاتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَاتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ¤ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْاَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ¤**﴾ [2] .

---

(1)- سورة هود، الآيات 43/42/41

(2)- سورة الحج، الآية 28/27.

كما كانت الرحلة كذلك وسيلة لنشر هذا الدين، و تبليغه للناس كافة، فمن أقصى الأرض إلى أقصاها، برا و بحرا ، جاب المسلمون أرجاء هذا الكون، فحلوا و ارتحلوا ، مبلغين لدين تشرفوا بحمل رسالته، و اتصلوا و تواصلوا، فأثـروا و تأثـروا، ضـاربين أروع الأمثال في كـرم الخلـق، و حسن المعاملة ، و صدق القول و العمل.

بذلك استطاع الدين الجـديد أن يغير النظرة للرحلة، بل لامس في التغيير مفهومها؛ فرحلات العرب كانت في كثير من الأحيان للغزو و الحروب ، و ما يلازم ذلك من مظاهر القتل النهب و السلب. أما بمجيء الإسلام، فقد جعل منها وسيلة للفتوحات، و تبليغ الدين و إعلاء كلمة الله ،كما شرع لها شرائعها، و وضع لها قوانينها التي تضبطها، فحـرم النهب و السلب و القتل، و كذلك الاعتداء ، سواء على البشر أو الشجر و الحجر، وفي هذا خلـد التاريخ وصيـة الصديـق رضي الله عنه ، لجيش أسامة بن زيد حين قال : << يا أيها النـاس قفـوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، و لا تغلو، و لا تغدروا، و لا تمثلوا ، و لا تقتلوا طفلا صغيرا، أو شيخا كبيرا و لا امرأة ، و لا تعقروا نخلا و لا تحرقــوه ، و لا تقطعـوا شجرة مثمرة، و لا تـذبحوا شاة و لا بقرة ، ولا بعيرا الا لمأكلة و سوف تمرون على أقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم و ما فرغوا أنفسهم له>>[1].

أما الرحلات التجارية ، التي كان الغرض منها الربح و جمع الأموال، بجميع الطرق و كيفما كان الحال، فقد أصبح فيها التاجر بفضل الإسلام يتعامل و يتصرف وفق تشريعات مضبوطة ،بل أكثر من ذلك أصبح هذا التاجر يحمل رسالة من خلالها يعرف بالدين، و يرغب فيه ، من خلال تصرفاته ، و كل ما يصدر منه في تعاملاته مع الآخر قولا و فعلا .

لقد لعبت الرحلة دورا بارزا في حياة الدولة الإسلامية ، و على جميع المستويات ، فلما كانت هذه الأخيرة << تحتاج من جهة الخراج و الإدارة إلى معرفة المسالك في البر لتنظيم البريد ، و الاتصال البلاد المختلفة ، فقد عني الجغرافيون بهذا الجانب ، و زاد في عنايتهم به ، حاجة الحجاج إلى معرفة محطات القوافل في اتجاههم إلى مكة >> [2] لأداء مناسك الحج .

---

(1)- عباس محمود العقاد ، عبقرية الصديق، منشورات المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ، دط ،دت، ص:93.

(2)- شوقي ضيف، الرحلات ،دار المعارف القاهرة مصر، ط 4 ، د ت ،ص:12.

ولقد اشتهر من المسلمين رحالون كثيرون ،كان للإسلام أثره البالغ في تكوينهم ، و في ثقافتهم، و في سلوكاتهم، فقد هذب هذا الدين طباعهم، وطهر سرائرهم ، و قوم أعمالهم ، فتميزت كتاباتهم بالصدق، و الدقة ، و الإتقان ، و بذلك أصبحوا أشهر رموز الرحلة على وجه البسيطة ، طارت شهرتهم و داع صيتهم ، و أقبل الناس على قراءة و دراسة رحلاتهم في الشرق و الغرب عند العرب كما عند العجم ، كالمسعودي[1]، والمقدسي [2] ،و ابن جبير ،[3] و الإدريسي [4]، و ابن بطوطة [5] وهم الذين تركوا لنا رحلات مدونة ، هي اليوم تعتبر مصادر أساسية للدارسين و الباحثين ، في مختلف

---

(1)- هو أبو الحسن بن الحسين بن علي المسعودي(283هـ- 346 هـ) يتصل نسبه بالصحابي عبد الله بن مسعود ، عرف عنه كثرة الترحال و اعتبر من أبرز الكتاب الجغرافيين العرب من أبرز مؤلفاته << أخبار الزمان >> و << مروج الذهب >> . لتفاصيل أكثر ينظر كراتشكوفسكي،تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب، ص:171 و ما بعدها.

(2)- هو شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد بن أبي بكر المقدسي(335هـ - حوالي 390هـ) عرف بالمقدسي نسبة إلى بيت المقدس كان كثير الترحال عرف بحرصه الشديد على التوثيق الصحيح و الدقيق للأخبار كما عرف بدقة الأسلوب من أبرز مؤلفاته << أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم >>. لتفاصيل أكثر ينظر كاتشكوفسكي ، المرجع السابق ، ص: 208 و ما بعدها

(3)- هو الفقيه أبو بكر محمد بن العربي (468هـ - 543هـ) من مشاهير عصره عرف بكثرة تنقلاته بين اشبيلية موطنه الأصلي و مصر و بغداد و بلاد الشام أين تتلمذ على يد الطرطوشي صاحب كتاب << سراج الملوك >> قرض الشعر و كتب النثر من أبرز مؤلفاته << ترتيب الرحلة >> و << اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة و المناسك >>. لتفاصيل أكثر ينظر كراتشكوفسكي ، المرجع السابق ، ص: 299 و ما بعدها .

(4)- هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الصقلي المشهور الشريف الإدريسي (493 هـ - 560هـ) عرف بكثرة التنقل و الترحال بين الحجاز و مصر و آسيا أفاد من مؤلفاته و خرائطه الغربيون كثيرا من أبرز مؤلفاته << نزهة المشتاق في اختراق الآفاق >>. عده الكثيرون من مؤسسي علم الجغرافيا .لتفاصيل أكثر ينظر كراتشكوفسكي ، المرجع السابق ، ص:281 و ما بعدها.

(5)- هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي (703هـ - 779هـ) أمير الرحالي العرب و المسلمين و صاحب السفر الضخم << تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار >>.لتفاصيل أكثر ينظر ،كراتشكوفسكي ، المرجع السابق ، ص: 421 و ما بعدها.

ميادين المعرفة ، فهذا التراث الرحلي الضخم الذي تركه هؤلاء << تتوفر فيه مادة لا ينضب معينها لا للمؤرخ أو الجغرافي فحسب ، بل أيضا لعلماء الاجتماع و الاقتصاد، و مؤرخي الأدب، و العلم والدين، و للغويين و علماء الطبيعة >>[1].

و الذي يرفع من شأن هذه المادة و يبرز حقيقتها و يؤكد مشروعية الاهتمام بها ، أنها تلقى الإجماع من قبل المؤرخين و علماء الجغرافيا و الاقتصاد على قيمتها و صدقها ، ما يجعل الباحثين و الدارسين يطمئنون إليها ، و لا يجدون الحرج في الاعتماد على ما جاء فيها من أخبار و معلومات علمية و أدبية و تاريخية و جغرافية، وهذا الكلام << يصدق قبل كل شيء على الأدب التاريخي و الجغرافي، الذي اعترف العلماء به منذ عهد بعيد، بأنه المصدر الأساسي و الموثوق، في دراسة ماضي العالم الإسلامي...بل يمدنا بمعلومات من الدرجة الأولى عن جميع البلاد التي بلغها العرب>>[2]. في مختلف قارات المعمورة .

ثالثا: الرحلـــــة و إشكاليـــــة التسميـــــة:

يتمركز السرد كأحد أبرز المكونات الأساسية و أعقدها في الأدب العربي؛ نظرا لتعدد الأشكال التعبيرية السردية و تداخلها مع بعضها، إلى الحد الذي يجعل الفصل بينها فصلا تاما أمرا صعبا ، إن لم نقل مستحيلا، لكنه في الوقت نفسه واجب تفرضه الدقة المطلوبة في التعامل مع النص الأدبي عموما، والنص السردي على وجه الخصوص، وهو ما تأكد مع جهود الدارسين و النقاد ، الذين سعوا منذ القدم، لوضع حدود بين الأجناس الأدبية تُمَيِّزُهَا عن بعضها ، وتكوّن لكل منها دائرة خاصة بها ، فيها تدرس ولا تخرج عنها لغيرها .

ليس هناك قضية شغلت بال الدارسين، و أجهـــدت فكـرهم، قـديما و حـــديثا، مثل قضية الأجنـاس الأدبية التي ارتبط ظهورها الأول بأرسطو(384-322 ق.م)، الذي و ضع لها قواعد و مقومات ، فاعتبر بذلك الواضع الحقيقي للأسس التي تقوم عليها ما يعرف اليوم بنظرية الأجناس أو الأنواع الأدبية ، و التي حرص من خلالها مؤسسها أرسطو، << أن يبين بأن كـــــل نـوع أدبي يختلف

---

(1)- كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية جامعة الدول العربية ، د ط، د ت ، ص: 16.

(2)- نفسه، ص: 16.

عن النوع الآخر >>[1]. << ولذلك ينظر النقاد منذ أفلاطون و أرسطو، إلى الأدب بوصفه أجناسا أدبية تختلف فيما بينها ، لا على حسب مؤلفيها أو عصورها، أو مكانها أو لغاتها ، و لكن على حسب بنيتها الفنية ، و ما تستلزم من طابع عام ، ومن صور تتعلق بالشخصيات أو بالصياغة التعبيرية الجزئية ، التي ينبغي ألا تقوم إلا في ظل الوحدة الفنية للجنس الأدبي ، و هذا واضح كل الوضوح في القصة ، و المسرحية ، و الشعر الغنائي، بوصفها أجناسا أدبية ، يتوحد كل جنس منها على حسب خصائصها ، مهما اختلفت اللغات و الآداب و العصور التي ينتمي إليها >> [2]. و عليه فإن الواجب على الدارس أو الناقد، في كل خطوة يخطوها ،أن يكون على وعي تام بالنوع أو الجنس الأدبي الذي يدرسه ، و يتعامل معه من حيث مقوماته وخصائصه و حدوده .

من هذا المنطلق ، و من منطلق أن الرحلة يمكن أن يخرج من رحمها علوم و معارف، متنوعة و متعددة ، فهي كما هو معروف عند كثير من الدارسين، << نص غير واضح الحدود ، يمكن أن يسكب فيه أي شيء : التوسيعات العلمية ، و فهارس المتاحف، و حكايات الغرام، فهو يمكن أن يكون كتابا مليئا بالعلم ، أو دراسة نفسية ، أو بكل بساطة قصة حب أو كل ذلك معا >>[3] .

رأينا أنه من الواجب علينا ، أن نقف وقفة حول قضية الهوية ، و إشكالية التسمية في فن الرحلة ، وهي الإشكالية التي ما زال الدارسون يتحدثون عنها ، و يناقشونها ، و يقدمون الدراسات حولها ، ولم يتوصلوا بعد إلى اتفاق بشأنها ، ولعل ذلك مرده إلى طبيعة الرحلة ذاتها، باعتبار أنها فن تتجاذبه علوم و معارف متعددة ، كالتاريخ و الجغرافية ، و الأدب وعلم الاجتماع، والاقتصاد و السياسة ... بل أكثر من ذلك ، نجدها أعني الرحلة ، تنتشر << في نصوص عديدة سواء كانت شعرا أو نثرا ، نصا دينيا أو دنيويا ، ترجمة ذاتية أو غيرية، مذكرات أو انطباعات جغرافيين أو

---

(1)- شكري عزيز الماضي، محاضرات في نظرية الأدب، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة الجزائر،ط 1 1984، ص: 76.

(2)- عبد العزيز شرف ،الأدب الفكاهي، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة، ط 1 1992، ص :35.

(3)- جبور الدويهي، الرحلة و كتب الرحلات الأوروبية إلى الشرق حتى نهاية القرن 18، مجلة الفكر العربي العدد 23 ابريل /يونيو 1983، ص: 58 .

مغامرين ، متخيــل صـوفية و مريـدين ، أومــرويات و خرافات، فهارس و كتب طبقات ، سير و أخبار ، طرائف شطار و تعاليم حكماء >> [1] . إن هذه المعارف و الفنون جميعها، تتداخل و تنصهر مع بعضها داخل هذا الفن، إلى الحد الذي يجعل الفصل بينها يصبح هدما لبناء الرحلة، و زعزعة لنظامها السردي على وجه الخصوص.

و الرحلة كما هو معروف، تعتبر الفن الوحيد الذي يمكن أن يفاجئ القارئ بالخروج عن الأهداف المعلنة ، إلى الغوص في التفاصيل و الهوامش، و ما لم يخطط له الرحالة ، ذلك أن الرحالة في الرحلة ، قد يمر عن الغامض و يسعى للبحث في الواضح ، و قد يترك الواقع و يتجه نحو الخيال ، كما قد يرفض المعتاد و يتفاعل مع العجيب.

و مع كل ذلك، فإن النظرة لهذا الفن يجب أن تبقى مركزة على دائرته ،و قائمة على أساس أنه فن << ينتسب إلى التراث النثري بشكل عام ، باعتباره سردا و وصفا يعمدان إلى صياغة مشاهد رؤيوية ، أو مروية ، أو حلميه ، تنحدر من ذاكرة – في بعـض الحالات – ذات جذور في الواقـع المادي >> [2].

و القول بانتساب الرحلة إلى التراث النثري ، لا يجب أن يفهم منه أننا نلغي رحلات كتبت شعرا- فصيحا أو ملحونا- لأن الواقع يثبت بما لا يدع مجــالا للشك، أن التراث الرحــلي عند العرب، عرف رحلات شعرية اشتهرت بها، و تزعمتها << أسرة اشتغل أفرادها بقيادة السفن ، و مهروا في ذلك فعرفوا باسم المعلمين ؛ تلك هي أسرة ماجد السعدي النجدي >> [3] الذي ولد في العام 840 هـ في جلفار (رأس الخيمة حاليا) ينتمي إلى أسرة لازمت البحر وعشقت السفر كان من مشاهير علم الفلك و علوم البحر و ألف في ذلك العديد من المؤلفات بلغت حوالي عشرين مؤلفا منها :أرجوزة بر العرب في 100بيت، أرجوزة في قسمة الجمة على أنجم بنات نعش في221 بيتا ،حاوية الاختصار في أصول علم البحار1082 بيتا و " السبعية " (307 أبيات) في سبعة علوم من علوم البحــر.و قــد

---

(1)- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، ص:26.

(2)- شعيب حليفي، المرجع السابق، ص: 39.

(3) - حسين نصار، أدب الرحلة، مكتبة لبنان ،الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ط 1 ،1991 ،ص:101.

اشتهر من هذه الأسرة : ماجد و ابنه : << أ مـا ماجد فقـــــد دون تجاربه البحرية في مصنف ضخم سماه الأرجوزة الحجازية ، و ضم أكثر من ألف بيت ، وصف فيها الملاحة على سواحل البحر في القرن التاسع الهجري.

و أما ابنه أحمد بن ماجد ، فقد صنف ألفية أخرى و مجموعة من المنظومات الأخرى ...في معظم الأحوال وصف في كل واحدة منها طريقا معينا >> (1) . هذه الرحلات الشعرية ، كانت و عند المتأخرين خاصة و في أغلب الأحيان ، مرتبطة بالأشواق و العواطف المتأججة ، لرؤية مقام الرسول صلى الله عليه و سلم ، و زيارة البقاع المقدسة ، و الوقوف على أضرحة الأولياء و الصالحين ، وهي رحلات قد يكون أصحابها قاموا بها فعلا، و قد يكونون أدمجوها من وحي الخيال في قصائد المديح النبوي خاصة (2).

و إذا تتبعنا مسار تطور فن الرحلة عند العرب ، لا شك أننا سنلاحظ تعدد التسميات التي أطلقها الدارسون على هـذا الفن، و كثرة المصطلحات التي وظفوها للدلالة عليه أو نعته في دراساتهم و بحوثهم ، ما يدل على وجود صعوبة كبيرة في الإمساك بخيوطه ، و بالتالي تجنيسه و توحيد تسميته ، و تحديد المصطلح المناسب له ، << وقـــد ظل هـذا التنوع في النعوت شاهدا على وضعيتين اثنتين :الالتباس في التجنيس، و غياب الوعي به ، ثم التداخل بين الأشكال و غلبة بعض التسميات في عصر دون آخــر>> (3). و يجـد ذلك ما يبرره في كون الرحلة كما سلف ذكره استوعبت شتى أنواع العلوم و المعارف فهي<< بطبيـعتها متعايـشة و مشاركـة للتاريخ و الميتولوجيا(4) و الأدب ، دون الحديث عن الاثنوغرافيا ...(5) إنها إحدى النماذج التيماتيكية ، و الرمزية من الأدب

---

(1)_ حسين نصار ، المرجع السابق ، ص :101_102

(2)- ينظر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي / المرجع السابق،ص:401 و ما بعدها.

(3)- شعيب حليفي ، المرجع السابق ،ص:44

(4)- الميثولوجيا<<mythologie>> تعني علم الأساطير و هو علم يدرس الأساطير الخاصة بالبشر و التي يعتقد أنها صحيحة و خارقة.

(5)- الاثنوغرافيا << ethnography>> تعني الدراسة الوصفية لطريقة و أسلوب الحياة لشعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات.

الأكثر إنتاجا >>[1].

و رغم هذا التشابك بين مختلف العلوم و المعارف في الرحلة، إلا أنها تبقى مرتبطة بدائرة الأدب أكثر من غيره من الفنون الأخرى ،نظرا لما يتوفر فيها من مقومات الأدب، من أفكار و عواطف، و أساليب و صور و خطاب متخيل يحمل في طياته عناصر جمالية فنية.

و هـذا الربط بين الرحلة و الأدب ، هو الذي صوغ لنا أن نعتبرها فنا علـــى ما في ذلك من خطورة، خاصة عندما يتعلــق الأمــر بتلك المصنفات و الرحلات الجافـة ، التي لا يرقــى فيها الأسلوب ، و لا تبرز فيها الذاتية ، و لا تتوفر فيها الجمالية بالصورة المطلوبة في الفن.

و المتتبع لما كتبه الدارسون عن الرحلة ، لا بد أن يلفت انتباهه أمران :

الأول:

- عدم اهتمام القدماء بفن الرحلة كفن أدبي له مقوماته الجمالية و الفنية ، فـ << اللغويون و النقاد القدامى ، في إطار ما أنتجوه من قواميس و كتب لغوية متنوعة ، اهتموا بالحديث عن الأساليب و الأشكال النثرية ، إلى جانب اهتمامهم المركزي بالشعر و التنظير له ....لكن وقوفهم على التعبير النثري ،لم يشمل كافة الأشكال و ضمنها الرحلة ، التي لم نجد لغويا أو ناقدا أفرد لها بابا يرصد فيها تاريخها و قوانين تشكلها >> [2]. و هـو ما جعل القدماء من المشتغلين بالأدب و المهتمين بفنـــونه، يقفون منها موقفا سلبيا ، و لم يعترفوا بها من فنونه الرسمية بل << اعتبروها نوعا من القصص ، و كانت القصص أو أغلبها في أنظارهم فنا شعبيا لا يليق بهم أن يقبلوا عليه ، إلا عند التبذل و المحاملة >> [3].

و عليه ، فان القواميس العربية القديمة ، والتي أخدنا منها من قبـــــل نـماذج لتعريفات الرحلة << ظل تحديدها ملتبسا و ضيقا ، لم يرق إلى اعتبار الرحلة مفهوما ينهض إلى جانب المفاهيم الأدبية الأخرى>> [4].

---

(1)- شعيب حليفي، المرجع السابق، ص:

(2)- نفسه ، ص: 45 .

(3)-حسين نصار المرجع السابق، ص:126.

(4)- نفسه ، ص:47.

و الثاني:

-كثرة التسميات التي وظفها هؤلاء ، و استعملوها للدلالة على هذا الفن الضارب في جذور التاريخ ، يستوي في ذلك القدماء منهم و المحدثون ؛ فقديما أطلقوا مصطلح الرسالة و الكتاب و التصنيف على الرحلة ؛ فرحلة بن فضلان سميت برسالة بن فضلان من قبل المحقق، الذي نعتها عندما قدم للكتاب بالرسالة ، وعلي هذا الأساس نجد أن نفس التسمية أطلقها عليها كراتشكوفسكي في معرض حديثه عن الرحلات العربية ، و تأريخه للأدب الجغرافي عند العرب ،عندما نعتها بالرسالة مبرزا قيمتها و أهميتها ، من خلال قوله فيها : << وتحفل الرسالة (يقصد رحلة بن فضلان) بمادة اثنوغرافية قيمة جدا ، و متنوعة بصورة فريدة ،وهي تمس عددا من القبائل التركية البدوية القاطنة آسيا الوسطى ، و عددا من الشعوب التي كانت تلعب آنذاك دورا أساسيا في تاريخ أوروبا الشرقية ،كالبلغار و الروس ،كما لا يمكن إنكار قيمتها الأدبية ، و أسلوبها القصصي السلس ، و لغتها الحية المصورة التي لا تخلو بين آونة و أخرى من بعض الدعابة >>[1] .

و نعت الرحلة بالرسالة يعود لانتشار هذا اللون و اشتهاره بين الأدباء قديما قد يكون وراءه إستراتيجية الافتتاح ، و توظيف لازمة << أما بعد >> التي عادة ما يدرجها الكتاب بعد التحية و التقديم في الرسالة ، كما أن له دلالة أخرى، هي أن صاحب الرحلة يضع في ذهنه أن برحلته ، إنما هو متوجه إلى متلق برسالة تحمل في طياتها << رغبة تواصلية حوارية ، ذات مدلول ثقافي و اجتماعي >>[2].

وكذلك الأمر بالنسبة لابن هطال التلمساني، الذي لم ينعت رحلة محمد الكبير بالرحلة بل تحدث بدل ذلك عن التاريخ ، نلاحظ ذلك من خلال تقديمه هذه الرحلة بقوله : << أما بعد : فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا ، و أكملها محاسن و فخرا فهو أحد ما يطلق عليه علم العربية . كان أحق ما تنفق فيه الذخائر السنية.و تصرف إليه المهج الزكية إذ به عرفت قدماء الأمم و به حفظت مكارم أخلاقهم و الشيم فاشتغلت به علماء كل قطر و صنفت فيه أدباء كل عصر حتى ملئت منه الخزائن و كثرت فيه الرسائل... ترى كل واحد يمدح بضاعته و يحليها ويفضل بنات فكره و

---

(1)- كراتشكوفسكي، المرجع السابق ، ص: 186.

(2)- شعيب حليفي، المرجع السابق/ ص: 65.

يجليها، و لكل وجهة هو موليها . و قد أردت أن أذكر منه نبدة أخدم بها حضرة قامع المبغضين و مدوخ المارقين >>[1].

و حتى في العصر الحديث ، ما زال الدارســون يوظفون مصطلحات متعددة في حديثهم عن الرحلة، فمنهم من يتحدث عن الجغرافيا ، و منهم من يتحدث عن الأدب الجغرافي ، و آخر يتحدث عن أدب الرحلة ، و هناك من << يكتفي بالحديث عن هذا الشكل باسم الرحلة فقط، بهدف فتح نافذة إضافية على التاريخ ، و اعتبار الرحلة مصدرا غميسا و سجلا إثنوغرافيا ، يعتبر الرجوع إليه أساسيا في حقل الانثروبولوجيا >>[2].

ما قلنــاه من قبـل، يجعــل من الصعوبة أن نتتبع هـذا التراث العــربي الضـــخم تتبــعا دقيقا ، يكشف جميع خباياه و يلم بجميع خصائصــه ، و يقف عند دقائق مكوناته ، بغرض تسميته و تحديد المصطلح الدال عليه، و مرد ذلك يعود إلى تعدد الرحـــلات و تنوعهــا ، بين شعـــرية و نثرية ، بين مدونــة و مرويــة ، و بين تامة و ناقصة ، بين مخطوطة و محققة ، بين مستقلة بذاتها و واردة في ثنايا التآليف الأخرى. و كذلك إلى كثرة الرحالين و تباين اتجاهاتهم ، و اختصاصاتهم و أغراضهم من رحلاتهم ، و بالتالي اختلاف كتاباتهم من حيث القيمة الفنية و العلمية و التاريخية و الأدبية.

و من خلال عملية القراءة للعديد من الرحلات و البحث في الكتب التي تناولتها ، تحضيرا لمادة هذا العمل ، وجدنا أن الدارسين وظفوا العديد من التسميات قصدوا بها الرحلة و نعتوها بها ، يمكن إجمالها في :

أ- الجغـــــرافيا الوصفيـــــــــة:

الجغرافيا في أبسط تعريف لها، هي ذلك العلم الذي يعني بدراسة سطح الأرض و ما عليه من أنهار و بحار، و وديان و جبال و سهوب و تلال و ظواهر طبيعية و نشرية ... فالجـــــغرافيا إذا علم يساعــد على التعرف على المكان الذي يعيش فيه الإنسان. وهي في الأصــل << دراسة ميدانيـــة

---

(1)- أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري تحقيق و تقديم محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب ، القاهرة مصر ، الطبعة الأولى 1969، ص:35 .

(2)- شعيب حليفي، المرجع السابق، ص:38.

قبل كل شيء ، و ميدانها سطـــح الأرض ، و ما يتصل به من معالم و ظواهر << (1).

قديما ما كان للإنسان أن يصف أو يقف على هذه الأرض المترامية الأطراف ، إلا من خلال الحضور المادي و الفعلي ، الذي لن يتحقق له إلا بالانتقال و الرحلة ، التي تسمح له بأن يتواجد في مختلف الأقطار و الأمصار، ليرى بعينه ويعاين بنفسه ، و يقدر بعقله و يسمع بأذنه، و يصف بلسانه أو يكتب بقلمه، و في القديم كما هو معلوم كان << بعض المؤرخين و الجغرافيين العرب ، يعتبرون رحالين ؛ إذ كانوا يجمعون مواد موضوعاتهم عن طريق الرحلة << (2). من هنا ، لا نجد غرابة و لا حرجا عنـدما نقـر مثلما أقر الدارسون و المهتمون بفن الرحـلة قبلنا، بالعـلاقة الوطيدة بين الرحـلة و الجغرافيا ، وما ذهبنا إليه حقيقة يؤيدها الواقــع ، و يثبتها ما تركه أسلافنا من تراث ، إذا نظرنا له من خلال التداخل الذي نجده بين الرحلة و الجغرافيا ، و المعلوم أن في كليهما يتمركز المكان كأساس لا يمكن الاستغناء عنه ؛ إذ لا رحلة و لا جغرافيا يمكن أن نتصور لهما وجودا دون مكان . فعين الرحالة كعين الجغرافي ، أول ما تقع إنما تقع على المكان ، مما يدل على الارتباط بين الاثنين << ففي مجال الكشف الجغرافي ،و وصف الأقاليم ، لعبت الرحلة دورا كبيرا فيما تضمنته تلك الأعمال من معرفة و بيان ، أضحيا الآن تراثا تفخر بها الأمة العربية الإسلامية << (3).

لقــد تداخلت العديد من الرحلات ضمن تآليف التاريخ و الجغــرافيا وهما العلمان المتـلازمان اللذان << كانا في نظـر العرب فرعــين متلازمين من شجـرة المعـارف العامــة التي كــانت تسمــى الأدب بصورة عامة << (4) فلم يكن من الإمكان قديما أن يستغنــي أحدهما عن الآخر في الرحلــــة وهذا التداخل الذي يصل إلى حد التشابك بين الرحلة و الجغرافيا خاصة وصل في الحقيقة إلى الحـد الذي أصبحت فيه كتب المسالك و الممالك تصنف ضمن دائرة الرحــلات بل أكثر من ذلك نجد كثيرا من الدارســين يعتـبرون أن الرحلــة << تنتمي إلى الأدب الجغرافــي الذي

---

(1)- جريفيت تايلور و آخرون، الجغرافيا في القرن العشرين، ترجمة محمد السيد غلاب و محمد مرسي ، القاهرة 1974،ج2 ، ص:71.

(2)ــ حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب،ص:7.

(3)ــ حسين محمد فهيم، المرجع السابق،ص: 95.

(4)- حسين مؤنس ،تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس،مكتبة مدبولي القاهرة ،ط 2 ، 1986 ، ص: 1.

تتداخل فيــه" المسالك بالممالك "و "معاجم البلدان " بخرائط المدر و الحضر >> [1].

نقول هذا الكلام مع ضرورة الانتباه إلى فرق جوهري بين الجغرافي و الرحالة ، فالأول كما هو معلوم ، و بحكم طبيعته العلمية التي تفرض عليه أن يتعامل مع المكان كمادة جامدة و بحيادية تامة ،يكون في كل ما يقدمه موضوعيا ، ذلك أن الجغرافيين يفضلون دائما << وصف البلاد التي دخلوها بدون أن يذكروا أحوالهم الخاصة ، و تاريـــخ ورودهم و صدورهم، و لا شيئا مما حدث لهم >> [2]. بينما الرحالة و بحكم تفاعله و تعامله مع المكان ، تارة بحميمية و تارة بعدائية ، نجده أكثر ميلا إلى الذاتية ، باعتباره يعبر دائما عن إحساسه الذاتي بالمكان، فهذا الأخير – ونعني به الرحالة – << لا يتردد في وصف إحساسه بالمكان ، عوض الاكتفاء بالوصف الموضوعي أو المحايد كما يفعل الجغرافي >> [3] .

و لا يمكـــن لأحـــد أن ينفي عن العـــرب معرفتهم بالجغرافيا ، معـــرفة اكتسبوها من خلال اهتمامهـــم بالرحـــلات التجاريـــة التي كانـــوا يمارســـونها ، وقـــد كان العـــرب المسلمون من أتباع المدرســـة الجغرافيـــة اليونانيـــة ،<< متأثـــرين إلى درجة كبيرة بالمعـــرفة اليونانية الرومانية... ويمثل هـــذه المدرسة ابن خرداذبه صاحب "المسالك و الممالك "، و اليعقوبي مؤلف " كتاب البلدان " ، و ابن رسته واضـــــع " الاعلاق النفيسة " ، و الخـــوارزمي الـــذي ألف " كتاب صورة الأرض " ، و ابن الفقيه و قد وضـــــــــع " كتاب البلدان "... >> [4] . وهذا التأثر لا يجب أن يقلل من شأن ما قـــدمه المسلمـــون للإنسانية من خلال علم الجغرافيا ، ثم أن مظاهر التأثير و التأثر ، و الإفادة و الاستفادة بين الشعوب و الأمم ، هي واقع و حقيقة يثبتها التاريخ و يقرها المنطق ، و هي ظواهر صحية بل هي من نواميس الحياة .

و مـــع كل ذلك ، فإن الذي لا ريب فيـــه ، أن الإسلام فـــرض على أتباعه تبليغ رسالته للناس كافة ، ونشرها في مختلف بقاع الأرض، قد لعب دورا كبيرا في تمتين علاقة الرحلة بالجغرافيا ، انطـــلاقا

---

(1)- عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة ،ص:12.

(2)- نفسه، ص:59.

(3)- نفسه ، ص: 12.

(4)- نقولا زياد،الجغرافيا و الرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب،لبنان، دت، 1987، ص:17.

من ذلك التعريف البسيط للجغرافيا، باعتبارها ذلك العلم الذي يهتم بسطح الأرض بحثا و دراسة و استكشافا، و هو السطح العامر بالمظاهر الطبيعية ،و الفلكية ، التي دعا الإسلام إلى حتمية التدبر و التأمل فيها ، باعتبارها من آيات عظمة خالقها ، و القرآن الكريم كما نعلم حافل بالعديد من آيات الذكر، التي تدعوا إلى ذلك ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **أفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ¤وَ إِلَى السَّمَـاءِ كَيْفَ رُفِعَـتْ ¤وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَـتْ ¤وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْـفَ سُطِـحَتْ¤ فَذَكِّــرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَّكِـرٌ¤ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِـرٍ¤ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَــــرَ¤ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَـذَابُ الْأَكْبَرُ**﴾ [1] .

و هناك عوامل أخرى لعبت دورها و ساعدت على تطوير الجغرافيا عند المسلمين ، من ذلك الحج كركن خامس من أركان الدين ؛ ذلك أن الحجاج من ذوي الزاد الثقافي و العلمي ،كانوا يحرصون دائما في هذه الرحلة على وصف الأماكن ، و الطرق و الشعاب ، و الغرض من ذلك البحث عن الأجر و الثواب أولا ، و ثانيا أن يضعوا بين أيدي الآتين من بعدهم ، ما يهون عليهم مشاق السفر، و مخاطر التيه في فيافي الجزيرة العربية و شعابها ، أو الطرق المؤدية إليها من مختلف أصقاع المعمورة .

و لما كان الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده ، فقد أوجب على المسلمين تبليغه للناس كافة ، مما أدى إلى نشاط تلك الرحلات المرتبطة بتبليغ هذا الدين، و هي الرحلات التي يمكن أن نطلق عليها رحلات الفتوحات ، و التي كما هو ثابت تاريخيا، ساعدت على توسيع أرض الإسلام شرقا و غربا ، شمالا و جنوبا ، و قد أصبح المسلمون بذلك في حاجة إلى معرفة الأمصار التي فتحوها. و ما كان ليتحقق لهم ذلك ، إلا بهذه الرحلات التي كانت مقرونة دوما بالجغرافيا الوصفية ، إذ كانت في العموم تركز على وصف البلدان و طبيعتها و كذلك شعوبها و عاداتها و تقاليدها....

و المسلمون كما هو معلوم ، ومن أجل ضبط أمورهم و تنظيم تسيير شؤون دولتهم، وصفوا البلدان التي وصلوا إليها و عرفوها، وصفوا طبيعتها و أرضها ،جبالها و بحارها ،و أنهارها و طرقها، و المسافات بينها، كما وصفوا أهلها و عاداتهم و تقاليدهم ، وكل ما يتصل بهم ، و قد كان كل رحالة يركــز على الجــانب الذي يهمه ، أو من اجــله ارتـحل ، فقــد يكــون عالمــا أو صاحب بريد ، أو

---

(1)- سورة الغاشية، الآيات:17 ،19،18 ،20، 21، 22، 23، 24.

جاسوسا ، أو سفيرا أو ملاحا أو تاجرا...أو غير ذلك [1].

و ما يجب التنويه به ، و ما يعترف به المهتمون بالجغرافيا الوصفية ، من جغرافيين و مؤرخين و نقاد و أدباء ، هو أن المسلمين قدموا خدمات جليلة للإنسانية كافة، من خلال رحلاتهم ، إذ لم تقتصر إفادتهم في هذا الميدان على البلدان الإسلامية الواقعة فعليا تحت سلطانهم ، و إنما تعدوها إلى بلاد أجنبية أخرى في آسيا و أفريقيا ، و حتى في أوروبا ، و كان نتيجة ذلك أن << أمدونا عنها بمعلومات من الدرجة الأولى، خصوصا إذا قورنت هذه المعلومات بما كان يعرفه العالم عنها في العصور الوسطى حتى الكشوف الجغرافية المتأخرة لدى الأوروبيين << [2].

إن ما تقدم من حديث – رغم إيجازه – يثبت دور المسلمين و أهمية ما قدموه للإنسانية في علم الجغرافيا ، كما يثبت أن الارتباط بين الرحلة و الجغرافيا الوصفية أمر واقع ، << و قد اتفق عديد من الباحثين على متانة هذا الارتباط بل هناك من يعتبر أن الرحلات تفرعت عن الجغرافيا الإسلامية << [3].

ب– الأدب الجغـــــــــــــرافي :

الأدب الجغرافي مصطلـح من أبرز المصطلحات التي ارتبطت بفن الرحـــــلة ، و في معظـــم الأحيان نعتت به ، و هو مصطلــح كثيرا ما وظفه الدارســـون في كتـــاباتهم ، قاصــدين به تلك المؤلــفات التي يحـــافظ فيها أصحابها على الهـــدف العلـــمي ، ويقدمون مادتها بأسلوب يوازن بين طبيعة تقــــديم المواضيـــع العلـمية و الأسلـوب السلس، الذي يلامس الأسلــــوب الأدبي ، وهــم بذلك يمزجون فيها << بين الغايـــة العلميـــة من كشف و اكتشاف لمظاهــر الكــون و الإنسان ، و بين الغايـــة الأدبيـــة المجســـدة في مظاهـــر المتخيل من حكايات و أساطير و مرويات مختلفــة << [4]. و الملفت في هذا المقام ، وما يجب ملاحظته على هذه التسمية، هو الربـــط بين كلمـة الجغـرافيا التي تدل اليوم على علــم دراسة الأرض

---

(1)– ينظر حسين مؤنس، المرجع السابق، ص:9 و ما بعدها .

(2)– حسني محمود حسين، المرجع السابق ،ص:8 .

(3)– شعيب حليفي، المرجع السابق، ص:60 .

(4)– عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ،ص:**61** .

و ما عليها من ظواهر طبيعية و بشرية و هو علم قائـم بذاته له مقوماته و رجاله و مختصوه ، و بين كلمة أدب التي تدل على ذلك الكلام الفني الجميل الذي إذا سمعته أراقك وحرك وجدانك وشغل فكرك.

و هذا الربط يعتبر أمرا طبيعيا ، و يجد ما يبرره في طبيعة الأدب الجغرافي العربي ، الذي يتميز بكونه يسير في اتجاهين أساسيين متلازميـــن : << فهو من ناحية يولي وجهه شطر العلوم ، أعني العلوم الدقيقة ، و ذلك بالمعنى الذي نفهمه حاليا إذا ما أردنا تحديد علم الجغرافيا ، و من ناحية أخرى فهو يولي وجهه شطر الأدب الفني ، بالغا ببعض آثاره في هذا المجال ذروة الإبـداع >> [1].

و في هـــذا الربط بين " الأدب " و " الجغرافيا " هناك دلالة أيضا على أن في المؤلفات [2] التي يمكن إدراجها ضمن دائرة الأدب الجغرافي ، توجد علاقة << بين المتخيل و الواقع بين الرحلة و الخريطة أو التضاريس المرسومة سلفا ، و المتداولة بين الكشافين و المساحين و المغامرين ،ثم الرحالة أخيرا >> [3].

إن الاتجاه نحو المزج بين وصف الواقع وذوبان الذات في الموصوف حقيقة واقعة ، جعلت العرب في رحلاتهم ، و في نقلهم لمشاهداتهم و روايتهم للأخبـــار التي يسمعونها و الأحـداث التي يعايشونها

---

(1)- كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص:18.

(2)- من ذلك :

- كتاب " صور الأقاليم " و يسمى كذلك " أشكال البلاد " و " تقويم البلدان " لأبي زيد أحمد بن سهل المعروف بالبلخي المتوفى في العام 322هـ .

- كتاب "المسالك و الممالك " لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد المعروف بالاصطخري المتوفى في العام 340هـ .

- كتاب " المسالك و الممالك " ويسمى كذلك " صورة الأرض " لمحمد أبي القاسم المعروف بابن حوقل المتوفى في الأرجح في العام 367هـ .

- كتاب " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المعروف بالمقدسي المتوفى في العام 380هـ .

لتفاصيل أكثر ينظر كراتشكوفسكي ، المرجع السابق ، ص : 198 إلى ص: 215 وهي مؤلفات متفاوتة دون شك في المستوى و الحقائق العلمية و الخيال

(3)- عبد الرحمان مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق ،ص:61.

يتبعون في كل ذلك << طريقة ممتعة في وصف عالمهم ، و العالم المحيط بهم، فقد عنوا بالحديث عن عادات الأمم و الشعوب وطباعها، و ما بديارها من آثار و عجائب، و قصوا ما عندها من أساطير و خرافات >>[1].

إن النصوص الرحلية من هذا النوع ، تكتسي أهميتها من اعتبار الدارسين لها، فنا تهواه الأنفس، و تتفاعل معه العقول، لما يجده فيها القارئ – العادي أو الناقد المتخصص – من لذة و متعة ، تغطـي في كثير من الأحيان، عن بعض ما يعتري بعض الرحلات من اضطراب في البناء الفكري ، و الجمال الفني و التشويق الأسلوبي .

ج– أدب الرحـــــــــــــــلة:

يبدو أن مصطلح أدب الرحلات ، هو المصطلح الأكثر ارتباطا بفن الرحلة و الأكثر توظيفا عند دارسي هذا الفن من الباحثين و المهتمين ، و الأكثر انتشارا في مؤلفاتهم.

و كغيره من المصطلحات ، لم يلق هذا المصطلح الإجماع حول حيثياته، أو في تعريفه، إلا أن الاتفاق حاصـل أن صفـة الأدبيـة هي الأكثر تجليا في الإنتاج الذي يصنف ضمن دائرة هذا المصطلح، الذي كما نلاحـظ أن تركيبه يتكـون من كلمتيـن : أولاهما " أدب " و ثانيهما " رحلة " و المقصـود بالأدب هنا هو ذلك الإنتـاج الذي ينقل الواقع و يصف المشاهد و يتكئ على طـريقة فنية في الكتابة ، ممـزوجة بذات صاحبها ، مصبـوغة بثقافته، خاضعـة لفكره ، متماشية مـع وجهة نظره ، متوافقة مع معتقده ودينه .

أما الرحلة فليس المقصود بها الرحلة كفعل و حركة و انتقال، وإنما الرحلة التي من خلالها يتم تلفيظ الفعل و الحركة و نقلهما إلى كتابة ، بشرط أن تكون الرحلة واقعية و فعلا جرت أحداثها على أرض الواقع ؛ << فأدب الرحلات إذا هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية ، و هي الرحلة التي يقـوم بها رحالة إلى بلـد من بلاد العالم ، و يدون وصفـا لها ، يسجل فيه مشاهداته و انطباعاته، بدرجة من الدقة و الصدق و جمال الأسلوب >> [2] .

هذا يعني أن الرحلات الخيالية ونعني بها << تلك التي لم تتحقـق فيها بنية السفر الفعلية و لم يقم

---

(1)- شـوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف القاهرة، سلسله فنون الأدب العربي ط4 ،دت،ص:11.

(2)- انجيل بطرس، الرحلات في الأدب الانجليزي، مجلة الهلال، القاهرة، ع7، سنة 1975،ص52 .

بها مؤلفها فعلا ، << لا تدخل في مجال أدب الرحلات مهما استند مؤلفوها إلى حقائق و وقائع نقلت إليهم و من أمثلة تلك الرحلات " التوابع و الزوابع " لابن شهيد و " رسالة الغفران " لأبي العلاء المعري << (1).

و ما دامت الأدبية صفة بارزة ، فإن الذات تصبح هي المسيطر الأساسي فيما ينعت بأدب الرحلات ، و لعل هذا ما يلمح إليه مجدي وهبة في " معجم المصطلحات الأدبية " -كما أورده ناصر عبد الرزاق الموافي - حين اعتبر << أن أدب الرحلة هو مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة ، قد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات و سلوك و أخلاق ، و لتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد <<(2).

في هذا النوع من الأدب " أدب الرحلات " ، يتمركز شخص الرحالة كأول عنصر أساسي ، و يشترط فيه أن يكون رحالة عاشقا للرحلة ، يرى نفسه فيها في حياة جديدة متجددة ، يهوى السفر و يشتاق إليه ، و يجد فيه المتعة رغم مكابدة الشقاء ، و يسعى إليه لحاجة في نفسه أولا و قبل كل شيء . ما يجعله رحالة حقيقة و بالمعنى الدقيق للكلمة ، حين يرتقي إلى مقام الباحث << و ما الباحث إلا اسم آخر للرحال ؛ إذ الرحال الحق يود أن يرحل دوما ، حتى لا يكون هناك ما يبحث عنه << (3) . ومثل هذا الرحالة ، هو الذي لا يتوانى على تسجيل كل ما يلاحظه و يشاهده، مازجا بين مختلف العلوم و المعارف ، مضيفا إليها ما يبعث العجب في النفس و ما يستغربه العقل، و عليه تأتي كتابته منطوية على << خلط بين الحقيقة الجغرافية، و الحدث التاريخي ، و السلوك الاجتماعي . و قد يتمادى الخلط في الكتابة ، التي تسجل حكاية الرحلة ، حتى تستغرق أحيانا في ذكر الغرائب و العجائب التي تستهوي الكاتب << (4) .

وفي كل الأحوال يبقى كاتب أدب الرحلة - غير الرسمية تحديدا- بطبيعته ، أو بما تفرضه عليه الكتابة

---

(1)- ناصر عبد الرزاق الموافي ، المرجع السابق ، ص:41.

(2)- نفسه ، ص: 38.

(3)- نفسه ، ص:44.

(4)- صلاح الدين الشامي ، المرجع السابق، ص:148.

في هذا الفن ، بعيدا عن النقل المباشر و التصوير الفوتوغرافي لفعل الرحلة . و متمتعا في نفس الوقت و في غالب الأحيان بحرية مطلقة ، متخلصا من كل ضغط ، منطلقا من ذاته و ثقافته ، و معبرا في كل ما يكتب عن انطباعاته و قناعاته ، و وجهة نظره و رؤيته للعالم من حوله << لأن أحدا لم يكلفه أو يطلب منه التركيز على باب معين من أبواب المعرفة >>[1].

من خلال ما تقدم من حديث عن أدب الرحلات – رغم الاختصار الواضح فيه – يمكننا أن نخلص إلى الأسس التي يجب أن تتوفر في الرحلة حتى يمكن إدراجها ضمن دائرة أدب الرحلات ، هذه الأسس يمكن تلخيصها كالتالي :

1- الرحلة يشترط فيها أن تكون واقعية .
2- الرحالة الذي يجب أن يوازن بين الذات و الرحلة.
3- قدرة الرحالة على التواصل مع المتلقي و التأثير فيه.

وعليه يمكن أن نعتبر أدب الرحلات ، بأنه ذلك النثر الذي يصف رحلة واقعية ما ، قام بها رحالة متمكن من لغته، متميز بأسلوبه وسعة خياله ، يتمتع بقدرة على التأثير في المتلقي [2].

اعتمادا على ما سبق من حديث عن الجغرافيا الوصفية ، و الأدب الجغرافي ، و أدب الرحلات، يمكننا أن نقول مطمئنين ، أن تلك المصطلحات جميعها ، لها علاقة بالرحلة ، فهذه الأخيرة – أعني الرحلة – تمثل الركيزة الأساسية فيها ، و جميعها كذلك نجد فيها تلك المسحة الأدبية من خلال الأسلوب، و حضور بعض المقومات الفنية و الجمالية ، و الانفعالات الذاتية ،و إن بنسب متفاوتة. و مثل هذا الأمر يعتبر طبيعيا ؛ ذلك أن الرحالة في كتابته ينطلق دائما ، من قناعة أنه يكتب في الأدب بمفهومه الواسع .

و في نفس الوقت، يجب علينا الاعتراف بأن تحديد حدود واضحة و فاصلة بين هذه المصطلحات الثلاثة ، ليس أمرا هينا، بالنظرا لدرجة التداخل الكبيرة بينها ، و تعدد القواسم المشتركة التي تميزها. لكن رغم ذلك يمكننا القول بصورة عامة أنه << إذا اختفت العناصر الأدبية و الذاتية – أو ندرت – صنف النص على أنه جغرافيا وصفية. و إذا حاول الرحال أن يوازن بين الموضوع و الذات ، فإن عمله

---

(1)- صلاح الدين الشامي المرجع السابق ، ص: 149.

(2)- ينظر،ناصر عبد الرزاق الموافي، المرجع السابق، ص:40 و ما بعدها .

يصنف على أنه أدب جغـــرافي . أما إذا طغت العناصـــر الأدبيـــة الذاتيـــة فإن عمله يصنف على أنه " أدب رحلة " >> [1].

و هذا التحديد رغم منطقيته ، إلا أنه و انطلاقا من واقع الدراسات المقدمة في ميدان الرحلة لا يلقى الإجماع ، فهناك بعض من الدارسين – على قلتهم- لا يعترفون بمثل هذه الحدود ، بل لا يوظفون من تلك المصطلحات إلا مصطلحا واحدا ، هو " أدب الرحلة " . و يأتي على رأس هؤلاء الدكتور نبيل راغب ، و هو أحد ابرز الباحثين المهتمين بفن الرحلة ، حيث يرى أن كل وصف لرحلة يمكن أن يدرج ضمن أدب الرحلات، و هذا الأدب كما يراه الكاتب ذاته ، قديم ضارب في جذور التاريخ ، و يعـود إلى مرحلة الشفاهـية ، حيث يقر في مقال له أن البدايات الأولى لأدب الرحلات كانت << في الانطباعات و الملاحظات التي سجلها الرحالة الأوائل في رحلاتهم و مغامراتهم المختلفة ، و غالبا ما كانت هذه الملاحظات على شكل مواقف أو حواديث تنقل شفاهة من لسان إلى آخر، دون مسؤولية محددة عن السرد >>[2]. و الملاحظ في هذا المقال ، أن صاحبه لم يشر قط إلى شيء اسمه الأدب الجغرافي، فأدب الرحلة عنده << لم يخرج عن كونه تقريرا عن رحلة معينة ، و ذلك مهما تعددت أنواع هذه الرحلات و أشكال التقارير السردية >>[3].

من خلال كل ما تقدم ، يمكننا القول أن النظرة العميقة و الوعي الحقيقي بالرحلة ، ظهر حقا في العصر الحديث ؛ إذ أصبحت الرحلة بمختلف تسمياتها و مستوياتها ، تخضع إلى الدراسة و التحليل و النقد من منظور فني و جمالي و أدبي ، بعد ما كانت إلى وقت ليس ببعيد ينظر إليها على أساس أنها وثيقة تاريخية و جغرافية لا غير، و الأكيد أن تعدد تسميات الرحلة، إنما جاء من تعدد التيمات و تنوع المضامين فيها – شعرا و نثرا – .

و هذا التنوع و التداخل بين الرحلة و الفنون أخرى ، دفع بعض النقاد للقول بأنها جنس أدبي هجين ، من منطلق أن << التعبير الأدبي الـهجين أو المهجن يعود إلى طبيعة الجنس الأدبي المرنة التي تسمح بتأسيس منظومة (توليفية) بين العديـــد من الأنواع الأدبيـــة و الأنواع غير الأدبيـــة ، بل قد يمتد

---

(1)- عبد الرزاق الموافي، المرجع السابق ، ص: 35.

(2)- نبيل راغب ، أدب الرحلات، مجلة الفيصل، المرجع السابق ، ص:71

(3)- نفسه، ص: 72.

هـذا التوليف إلى أشكـال من التعبير ، من رسم و تصوير فوتوغرافي ، أو نقش أثري ، فضلا عن الخرائط ، و رواسم الدليل السياحي أو محكيات رحلات مروية أو مكتوبة >> [1].

ليس عجيبا إذا أن نجد بعض الدارسين يرفضون تجنيس الرحلة في دائرة الأدب ، أو في غيره من الحقول المعرفية الأخرى ، معتبرين ذلك ظلما لها و تجنيا على خصوصيتها ، فهم يرون << أن ضمها لحقل معين و جنس مخصوص ، إهمال لطبيعة و خصوصية هذا النوع من الكتابة ، الذي يزخر بالمضامين و الموضوعات العديدة علمية و أدبية و فنية .....و من هنا فالتركيز في تحديد هويتها على جانب الصياغـة الأدبيـة و الفنيـة يعد تعسفا لا يتناسب مع مكونات النص الرحلي و طبيعته الخاصة >> [2].

وعلى هذا الأساس ، يبدو أن الوصول إلى اتفاق يرضي الجميع في قضية تجنيس الرحلة و إثبات أنها جنس أدبي قائم بذاته ، سيأخذ وقتا طويلا ، ما يعني أن باب البحث في هذا الشأن ، سيبقى مفتوحا إلى حين ، وستبقى بدلك الرحلة جنسا أدبيا مضطهدا بين معارف و علوم متعددة ، تتجاذبه و تؤثر فيه ، كالتاريخ والجغرافيا و القصة و السيرة . و هذا يعني << أن الوعي النقدي الحديث ، لم يستطع تجذير الوعي بالرحلة ، فظل عائما متلبسا بين نعوت مستلهمة من حقول أخرى ، مشدودا إلى مرجعيات الأدب أو التاريخ أو الإثنوغرافيا.... دون القدرة على النظر إلى الرحلة نصا منفتحا ، في كليته ، على أشكال و حقول تتفاعل لتشيد إدراكا و رؤية و تعبيرا >> [3] . إلا أن هذا لا يعني أبدا أن الرحلة تبقى بدون قيمة ، و بدون شرعية في عالم الأدب و الدراسات النقدية ، لأن الدراسات الحديثة حولها بدأت تأتي ثمارها من خلال الصاق مصطلح الأدب بها ، و هذا دون شك سيدفع الرحالين إلى الاهتمام بهذا الجانب فيها ، ما يكسبها الأدبية و الجمالية الفنية التي تساعدها على الاقتراب أكثر من عالم الأدب، مع أن قناعتنا راسخـة بأن الرحلة العربية المكتوبة ، كانت دومـــا ميالة

---

(1)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ، مرجع سابق، ص:38 .

(2)- الحسن الشاهدي،البلدان الآسيوية غير العربية في القرن 8هـ/14م من خلال رحلة بن بطوطة، ضمن " الرحالة العرب و المسلمون " ، أعمال ندوة الرباط ،وزارة الثقافة الرباط المغرب ،ط 1، 2003،ص:167.

(3)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص:47 .

إلى الأدب ، باعتبارها حكيا عن الذات وعلاقتها بالسفر، من خلال المزج بين الواقع و المتخيل، و بين العادي و العجائبي ، و هي الأمور التي تغري الدارسين و نقاد الأدب ، فيقبلون على التعامل معها و التأسيس لمناهج دراستها و نظريات تحليلها .

البـــــــــاب الأول

الرحلة الجزائرية في العهد العثماني

واقعيتها و معمارية بنائها

الفصـــــــــــل الأول

الرحلة الجزائرية في العهد العثماني

توطئة

قبل الخوض في الحديث عن الرحلة في العهد العثماني ، من حيث بناؤها و أنواعها و خصائصها ، ارتأينا أن نقف وقفة عند علاقة الرحلة بالواقع من جهة ، و من جهة أخرى عند بيئة العهد العثماني بمختلف مظاهرها و أشكالها ، و الذي يفرض مثل هذه الوقفة هو العلاقة التي تربط الرحلة – مهما كان نوعها – بالواقع و بالبيئة التي تنجز فيها. و المعلوم أن للبيئة أثرها على حياة الإنسان عموما ، و أهل الأدب و الفن على وجه الخصوص،باعتبارهم أكثر الناس إحساسا بهذا التأثير ، و أقدرهم على التعبير عنه من خلال ما يبدعون من نصوص موجهة بالضرورة إلى القارىء ، ليستفيد منها و يرى صورة الواقع من خلالها .

و الرحلة كما يقر بذلك دارسوها و المهتمون بها ، ليست كغيرها من فنون الأدب ، فهي ذات طابع خاص في علاقتها بالواقع الذي تتجلى مظاهره فيها، و بنسبة كبيرة، من بدايتها إلى نهايتها ؛ ذلك أن الرحالة كما هو معلوم ، عادة ما يتناول في رحلته نقل فعل الرحلة ذاتها ، و ما يلتقطه من أرض الواقع من مشاهد و وقائع و أخبار متنوعة و متفرقة ، يكون في العادة حاضرا فيها و شاهدا على وقوعها ، و في بعض الأحيان متلق لها شفاهة عن طريق الإخبار و الرواية ، من أفواه من يلتقي بهم سواء من العلماء و الأدباء ، و الخاصة من الناس أو من عامتهم .

و الرحالة كما هو معلوم أثناء رحلته ، يعيش واقعه و يتفاعل معه ، و يتأثر ببيئته ، سواء تلك التي منها ينطلق ؛ و نعني بها بيئته الأصلية ، أو تلك التي يعيش فيها و يتواصل مع أهلها خلال مسار رحلته ، و التي يمكن أن نسميها بيئة المسار ، أو تلك التي يصل إليها و فيها يستقر، و نعني بها النقطة المحددة مسبقا لنهاية الرحلة ، وهذه النقطة مثلما تكون نقطة استقرار، قد تكون بعد حين نقطة انطلاق جديدة ، إذا عزم الرحالة على العودة إلى الأهل و الوطن الأم ، و عليه فإن الحديث عن الرحلة في الحقيقة لا يستقيم << دون الحديث عن السياق الجغرافي و التاريخي الذي انبثقت منه، و تفيأت ظلاله ، و الذي أنتج كل ما دون منها و وصل إلينا >>[1] .

---

(1) – احمد بوغلا ، الرحلة الأندلسية الأنواع و الخصائص دار أبي رقراق للطباعة و النشر الرباط المغرب، ط 1 2008 ص، 15.

من هــذا المنطلــق يـأتي حديثنا عن علاقة الرحلة الجزائرية ببيئة العهد العثماني، من خلال محاولة البحث في واقعها ،و الوقوف على المتخيل فيها .

أولا: الرحلة.. صورة الواقع و مسحة المتخيل:

إن أشـكال الأدب و فنونـه تعـددت ، و تنوعـت ، كمـا ازدهـرت و تطـورت عـبر مختلـف العصور، تبعا لطبيعة كل عصر و مستوى رجاله من الأدباء ، و الفنانين ، إلا أنها في حقيقة الأمر لم تخرج يوما عن حقيقتها ، باعتبارها تعبيرا عن الحياة و وصفا لها، و نقلا لأحداثها ، و كل ما يحيط بالإنسان فيها ؛ فالفن<<كما يذهب إلى ذلك علماء الجمال اسم يطلق على الإدراكات كلها التي بها نعي الحياة ، و ما يكتنفها من ظروف >> [1] و بما أن الفن بمختلف أشكاله يعطي صورة للحياة و المجتمعات بجميع أطيافها، و مكوناتها ، فإن الأدب – وهو فن بلا شك – يلعب كذلك الدور ذاته حتى أننا نجد من النقاد من يرى أن << الأدب الحق ، يشمل الحياة كلها في جميع نواحيها >>[2] السياسية ، و الاقتصادية، و الاجتماعية ، و الثقافية ، يعبر عنها ، و ينقل صورتها ، من خلال ما يبدعه الأديب ، مضفيا إليها من ذاته ، ما يكسب أدبه جمالية تبعده عن الصورة الفوتوغرافية ، و تضمن له البقاء و الخلود.

والفن بجميع أشكاله من رسم و نحت و نقش و موسيقى و أدب نتاج إنساني ، بلا ريب لازم الإنسان عبر مختلف مراحل وجوده ، من خلال تفاعله و تحاوره مع الظروف المحيطة به ، و البيئة التي يعيش فيها ، فالأدب كما نعلم و الفن عموما ، يمثل تفاعلا بين هــذا الإنسان و المحيــط الذي يعيش فيه ، بجــميع مكوناتــه و مختلف أشكاله ، و بالتالي فهو- أعني الفن – << متأثر بكل ما يطبع هذه البيئة أو تلك من سمات و مميزات >>[3] . سلبيـة كانت أم ايجابيـة، وتلك حقيقـة لا يختلــف فيها الدارسون ، و لا ينكـرها أحـد، باعتبـارها تمثل مظهرا طبيعيا من مظاهـر حياة هذا الإنسان التي تقوم في الأساس على التأثر و التأثير ، و هــذه الحقيـقة تضــاف إليها حقيقــة أخرى

---

(1)- عبد العزيز شرف، الأدب الفكاهي، الشركة المصرية العالمية للنشر الجـيزة مصـر، ط 1، 1992 ،ص: 3.

(2)- سعدي ضناوي اثر الصحراء في الشعر الجاهلي دار الفكر اللبناني ط 1 1993 ص 13.

(3)- ميشال عاصي، الشعر و البيئة في الأندلس ،منشورات المكتب التجاري للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت ط1 1970 ص 8 .

تكملها و تتكامل معها ، و في نفس الوقت تقابلها ، و هي تأثير الفن في الإنسان و في حياته، فنحن<< نعتقد أن الفن بدوره و بوسائله الخاصة ، فاعل في الحياة الاجتماعية و تطورها ، لأنه مؤثر في الوجدان الإنساني فاعل فيه >>[1].

إن الذي لا شك فيه ، و الذي يمثل اتفاقا بين المؤرخين و دارسي الأدب على السواء، هو أن فترة العهد العثماني ، تميزت بخصائص سياسية ، و اقتصادية ، و عسكرية ، و ظواهر دينية و ثقافية ، جعلت منها فترة متميزة ، و بصورة واضحة عن غيرها من فترات تاريخ الجزائر. و ما يؤيد هذا الرأي، و يؤكده، هو ما نجده من اتفاق بين الدارسين و النقاد و الباحثين ، في مختلف المجالات ، على اعتبار أن هذه الفترة ، أعني فترة العهد العثماني ، و التي تمثل حلقة من حلقات تاريخنا بسلبياتها و إيجابياتها ، هي فترة قائمة بذاتها ، لها طابعها السياسي، و الاقتصادي ، و الاجتماعي، و الثقافي ، و الأدبي الذي يميزها .

ليس عجيبا إذا أن نجد أن الذين عاشوا في هذه المرحلة و تعايشوا معها ، من أدباء و فنانين ، و فقهاء و مؤرخين – سما شأنهم أو وضع – يتأثرون بطبيعة هذه البيئة ، و ما يحيط بهم فيها ، فيصطبغ إنتاجهم بصبغة خاصة ، تتجلى من خلالها بصمة العصر فيه و يأتي ما يصدر عن عامتهم ، و ما ينتجه أدباؤهم ، متميزا بمميزات تتماشى و طبيعة الفترة التي عاشوا فيها إذ << من المسلم به أن تباين الظروف يؤدي إلى التنوع في الصور الأدبية >>[2] عند الأدباء على المستوى الأدبي الخاص ، و إلى التنوع في طبائع البشر على المستوى الثقافي العام .

وليس عجيبا أن نجد أثر هذا التأثير بشكل أو بآخر، في ما يصنف علماؤهم ، و ما يبدع أدباؤهم . فالدارس للأدب ، و المتصدي له بالتحليل و النقد ، لا يمكنه – إذا أراد أن يصل إلى نتيجة يقبلها و يطمئن لها الآخرون – أن يتجاوز في دراسته العلاقة بين الإنتاج الأدبي و ما يحيط به من مظاهر الحياة عموما، و ما يتصل به من أحداث التاريخ على وجه الخصوص،نقول هذا الكلام انطلاقا من العلاقة القوية التي تربط الأدب السردي خاصة بالتاريخ، وعليه فإن << فالناقد الذي

---

(1)- ميشال عاصي ، المرجع السابق ، ص: 8.

(2)- ا كراتشكوفسكي، المرجع السابق ،ص: 20.

يغمض عينيه عن العلاقات التاريخية ، ستكون أحكامه دائما مضللة . فهو لن يدرك العمل الأصيل من العمل المشتق ، و ينتج عن جهله بالأحوال التاريخية ، أن يخطئ دائما في فهم أعمال فنية بعينها >> [1] .

مثل هذا الكلام – لا شك – أنه يثير أولئك الذين اعتقدوا بالبنيوية الشكلانية ، و اقتنعوا بها اقتناعا كاملا ،كما اقتنعوا أن الأدب يجب أن يدرس بعيدا عن المؤثرات الخارجية مهما كانت. و نعني بهؤلاء ، أولئك الذين يرون أن الأدب ما هو إلا << كيان لغوي مستقل ، أو جسد لغوي ، أو نظام من الرموز التي تولد في النص و تعيش فيه ، و لا صلة لها بخارج النص >> [2].

و عموما ، فان عرض رأي هؤلاء بهذا الإيجاز ، و في هذا المقام ليس الغرض منه المناقشة و الأخذ و الرد ، و إنما من أجل إبراز وجهتي نظر مختلفتين ، سعيا لخق تقابل يساعد على فهم الإستراتيجة المنتهجة في هذا العمل ، والمتملة في التعامل مع الرحلات و محاولة فهم مضامينها، و دراستها كنص أدبي من خلال فتحها على بيئتها التي أنتجتها ، و الحياة التي تفاعلت معها ، و أثرت في أصحابها ، مع اعترافنا بأن هذا التأثير ، يظهر جليا و تتجلى مظاهره واضحة حينا ،كما تختفي آثاره و يصعب الوقوف عليها حينا آخر ، تبعا لطبيعة التفاعل بين الجانبين.

و هذا ما يتماشى مع ما نطمئن إليه ، و ما نطمئن إليه هو أن << التفاعل بين الفن و الحياة أخذا و عطاء من كلا الجانبين ، لا يجري على وتيرة واحدة ، لا في الفواصل الزمنية ، و لا في الزخم و الاندفاع .و لهذا السبب ، قد لا تبدو نتائجه و ظواهره واضحة دائما ، و ملموسة في آثار الفن أو في مجري الحياة ، و لكنه يبقى مع ذلك تفاعلا ثابتا لا سبيل إلى نكرانه >>[3]. وخلاصة القول هنا هي أن علاقة التفاعل بين الأدب و الفن عموما من جهة و الحياة من جهة أخرى هي علاقة تأثر و تأثير قائمة فعلا و مستمرة إلى الأبد.

---

(1)- ريني ويليك و أوستن وارن، نظرية الأدب، تعريب عادل سلامة، دار المريخ للطباعة و النشر، الرياض المملكة العربية السعودية ،د ط، 1992، ص: 66.

(2)- شكري عزيز الماضي ، محاضرات في نظرية الأدب ، دار البعث للطباعة و النشر قسنطينة الجزائر ،ط 1 1984، ص: 139.

(3)- ميشال عاصي ، المرجع السابق ن ص: 8 .

انطـلاقا من ذلك كله ، فان الإستراتيجية التي رأينـا من المناسب السير عليها و انتهاجها ، تتمثل في محاولـة الـربط بـين الظاهـــرة السياسيـــة ، و الاقتصـادية ، و الاجتماعيـة ، و الثقافيـة ، و الرحالـة باعتباره شاهدا على عصره – سواء تعلق الأمر بقومه ، أو بالذين رحل إليهم ، أو الذين مر عليهم في طريق رحلته – و الرحــلة باعتبارها الوثيقــة التي توثــق لهذه الشهادة و تكتب لها الخلود .

و الواقـع يثبـت أن الرحـالين المغاربـة عمومـا >>كـان حرصـهم شـديدا علـى تـدوين و تـدقيق دقـائق رحلاتهـم إلى المشـرق و مجرياتهـا ، و تسـجيل يوميـاتهم ، و ملاحظـاتهم الـتي لا تخلـو في الغالـب مـن إشـارات دالــة ببلاغــة على جوانـب مـن الحيـاة السياسية ، و الثقافيـة ، و الاجتماعيـة للبلـد موضـوع الزيارة ، و لما حف بالطرق المؤدية إليه من بلاد و عباد << [1].

إن الرحلة في الدراسات الأدبية الحديثة و المعاصرة ، يعتبرهـا النقـاد و الدارسـون فنـا قائمـا بذاته ، تفرض النظر إليها من زوايا مختلفة و متعددة ، نظرا لتعدد تيماتـها ، و تنوع مضـامينها ، و صـورها الواقعيـة منهـا و المتخيلة ؛ فالرحلة كمـا هـو معلـوم ، نجـد فيهـا صـورة السياسـة و الاقتصـاد ،كما نجد فيها صورة الدين و المجتمع و الثقافة ، ما يجعل >> الرحلة نصا مفتوحا على كافة الحقول بأشكال مكتملة أو جزئية << [2] .

و الرحالة علـى هـذا الأسـاس ، لا بـد أن يحـوز علـى الـزاد الكـافي الـذي يمكنـه مـن روايـة قصـة رحلتـه أو نقلها إلى كتابة كما يجب أن تتعدد مواهبه ، و تتنوع ثقافته ، و هـو في كل الأحوال ينطلق دائما من واقع يعيشه و يتأثر به ، و من مرجعية خاصة به ، و تطغى على رحلته ، باعتبـار أن الرحـالين عـادة مـا يكونـون >> مـن الفقهـاء ، والعلمـاء ، و القضـاة ، و الأدبـاء .أي أنهـم يمثلـون الطبقـة المثقفـة في عصرهم<< [3] .

وهذا لا يعني أبدا أن الرحلة مقصورة على هؤلاء لا تتعداهم إلى غيرهم ، فالواقع يؤكد أن هذه القائمة تتوسع لتشمل غيرهم ، و يلتحق بها >> طوافون من هواة السفر و الترحال ، و آخــرون استهوتهم

---

(1)- عبد الله بن محمد العياشي،الرحلة العياشية، المجلد الأول،تحقيق :سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر و التوزيع، أبو ظبي الإمارات العربية ،ط 1 ،2006 ص:12.

(2)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص: 7.

(3)- عبد الله بن محمد العياشي، المرجع السابق، ص:12.

المغامرة ، و دفعتهم المخاطرة إلى كشف النقاب عن المجهول من الأرض و الناس>>[1] بدافـع الفضول لا بدافـع الكتابـة و التوثيـق. و الأكيـد أن القـائم بفعل السفر لا يمكن أن يكون رحـالة بالمفهوم الفني الذي تدل عليه هذه الكلمة ، إلا إذا طبع رحلته بشخصيته ، من خلال طبيعة تكوينه ، و نوع اختصاصه ، و أثبت حضوره فيها من خـلال الحضـور القـوي لضمير <<الأنا >> البطـل و السارد ، و هو الضمير المرتبط في أغلب الأحيان بالواقـع الذي يعيشه ، و يتفاعل معه ، فالرحالة يشارك في الفعل الحكائي من خلال روايته لما عاينه و شاهده فعلا ، أو ما سمعه من أفواه من التقى بهم سواء من عامة الناس أو خاصتهم.

و المعروف أن الرحلـة خالفت عادة سادت – عند العرب – فترة من الزمـن في النظـرة للأنا ، عادة تلخصها الجملة التي كثيرا ما توظف بعد النطق بهذا الضمير ، اعني بها << أعوذ بالله من كلمة أنا >> ، وهي عادة غير مستهجنة عند الكثيرين ، رغـم ما قيل فيها مـن علمـاء الدين [2] فالرحـلة كما أكد بعض الدارسين تعتبر من << أولى الأشكال التعبيرية التي استعملت فيها الكتابة بضمير الأنا دون تحرج>>[3] .

إن ما تقدم من حديث ، يوحي أن الرحلـة عند جميع الأمم، عادة ما ترتبط بالواقـع ، و تنقل صوره و أخباره و قصصه و حكاياته ، بتعـددها و تنوعها << فالـحديث عن الرحلـة في نظري ، حديث عن الجوانب المختلفـة ثقافية كانت أو علمية، أو فقهية، أو أدبية، أو اجتماعية، أو سياسية... >>[4].

إلا أن هذا لا ينفي وجود المتخيل و اللاواقع فيها ، وهذا أمر طبيعي ما دام الرحالة في أثناء رحلته ينفتح على مجتمعات مختلفة ، وطبقات اجتماعيـة متباينة ، ثقافـة ، و علمـا ، و دينا ، و وعيا ، و

---

(1)_ حسين محمد فهيم، المرجع السابق ، ص:15.

(2)- ينظر ابن قيم الجوزيه ، زاد المعاد في هدي خير العباد،تحقيق شعيب الارنؤوط و عبد القادر الارنؤوط ، ج2 مكتبة الرسالة بيروت لبنان ، ط 26 ،1976، ص: 475.

(3)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص: 6.

(4)- الحسـن الشاهـدي ، أدب الرحلة بالمغـرب في العصـر المرينـي ، منشورات عكاظ ، ج 1 د ط، د ت، ص:11.

سلوكا و هذا يعني أن الرحالة – و العرب منهم على وجه الخصوص – يغلب على كتاباتهم << ما يستندون به إلى الواقع أحيانا، و يجنحون به إلى الخيال أحيانا أخــرى، و يحفلــون فيه بالقصص للمتعة التي تسمو به إلى مرتبة الأدب الفني الصرف في أغلب الأحيان>>[1]. و في هذا تأكيد لما ذهب اليه بعض الدارسين أن العربي في أدبه و منذ القدم أكثر ميلا لمخاطبة الوجدان على حساب العقل .

إن المتخيل يضفـي على الرحلة تلك المسحـــة التي تجعلها أكثر تحررا من علمية الأسلوب و صرامة التاريخ ، و أكثر قربا من أساليب الأدب و جمالية التعبير . وبروز مثل هذه الظاهرة – أعني المتخيل– مرتبط عند معظم الدارسين و المهتمين بدراسة أدب الرحلات بالعجائب و الغرائب التي تميز بصورة خاصة الرحلات القديمة ، و التي تبرز خاصة عندما يحجب الواقع ، و تطمس الحقيقة بفعل سلطة الخيال.

ومهما تكن طبيعة الرحلة ، فإن العجائب و الغرائب تعتبر من التيمات البارزة فيها ، و هي التي تضفي على النص الرحلي ما يجعله — عند بعض النقاد – أقرب إلى الأدبية ، و سواء اتفقنا أو لم نتفق مع هؤلاء ، فإنها فعلا من العوامل المساعدة التي تجعل النص الرحلي << مشدودا إلى دائرة الأدب لما تحمله من خطاب المتخيل >>[2].

إن المتخيل و العجائبي لا ينفــي – بأي حــال من الأحـــوال — عن الرحـــلة تلك التمظهرات الواقعيــة ، التي تثبتها الأحــداث و التواريــخ ، و الأخبار المروية ، والأمر الأكيد الذي لا ينكره أحد ، أن المتخيل و اللامعقول أو العجائبي الذي تحفل به بعض الرحلات ، هي من الأمور الموجودة فعلا و المنتشرة بين أفراد المجتمعات بمختلف أجناسها ، بدائية كانت أو متحضرة ، فهي إذا واقع معــاش ، و تجلياتها في الرحـــــلات ، يثبت بما لا يـــدع مجـــالا للشك ، أن الرحـــلة فعـــلا ترتبـــط بالواقـــع ارتبـــاطا وثيقا، ما يجعل دراستها انطلاقا من واقعها و عصرها و بيئتها – في ما نرى– يجد ما يبرره بل يعتبر من متطلبات دراسة الرحلات .

---

(1)– نبيل راغب ،أدب الرحلات مجلة الفيصل، دار الفيصل الثقافية العدد 88السنة الثامنة يوليو 1984، ص:71.

(2)– شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص: 7.

ثانيا : بيئة العهـــــد العثمانـــــــي:

لما كانت الرحلات محـــل الدراسة تنتمي جميعـــها إلى فتـرة حكـم العثمانيين فـي الجزائر ، فان معرفة بيئة هذا العهد تصبح ضرورة لا بد منها قبل الخوض في التعامل مع هذه الرحلات دراسة و تحليلا .

لقد دامت فترة حكم العثمانيين في الجزائر، ما يزيـــد علـى الثلاثـــة قرون باثني عشـــرة سنة ، أو يزيد بقليل ، و هي فترة طـــويلة ، لا شـك أن تأثيرها على حياة الجزائريين في مختلف المجالات سيكون كبيرا ، ولا شك أن هــذه الفترة لن تكون خاليـــــة – كما يزعم البعض – لا ثقافة ولا أدب فيها ؛ إذ ليس من المعقول أن الوطن الذي أشاع فيه شعاع الثقافة و العلوم و الأدب في تلمسان على عهد الزيانيين ، وفي قسنطينة على عهد الحفصيين ، تزول معالمه ، و تختفي آثاره كاملة في عهد العثمانيين.

ابتداء لا بـــد من التنــــويه أن الحـــديث عن هـــذه الفـــترة — أعنـــي فترة العــــهد العثماني — في الجـــزائـــر، سيكـون التركيــز فيه على مـــا نرى أنــه يخـــدم ما نحـــن بصـــدده ، و هـــو إبراز معالـــــم البيئـــة التي عـــاش فيها الرحـــالون الجـــزائريـــون الذين وقـــع عليهــــم اختيارنا لدراسة رحلاتهم ، وسوف لن يكون البحث هنا متجهـــا اتجـــاها تاريخيا ، فذلك متروك لأهل التاريخ و أصحاب الاختصاص ، و إنما سنحاول أن نقــف و لو بإيجاز ، على بعض مظاهر البيئة التي نرى أن لهـــا تأثيرها على الرحـــالين ، و بالتالي على ما جاء في رحلاتهـــــم ، باعتبار أن أحداث هذه الفترة ، يمكن أن تكون عاملا مساعدا على معرفة بعض أسباب الرحـــــلات و اتجاهاتها ، بل حتى مستوياتها الفنية.

و المعلوم أن العلماء الجزائريين في هذه الفترة عانوا كثيرا ، من الظلم و القهر المسلط عليهم على أيدي أولي الأمر حينها، فمنهم << من سجنوا و منهم من هجروا إلى المغرب الأقصى أو المشرق، فمنهم من عادوا، و منهم من لم يعودوا إليها، مثل أحمد المقري العالم الشهير الذي يكفي الجزائر فخرا به >>[1] .

---

(1)– ، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، طبع و إشهار هـ.داود بريكسي تلمسان،المجلد2، ج3،ط2، 2005، ص:410.

وهـــذا يعنـــي أن هنـــاك مـن رحـل مضـطرا ، و هنـاك مـن رحـل مجبرا ، و هنـاك مـن رحـل بمحض إرادته، كما أن هناك من عاد و دون رحلته ، و هناك من رحل و لم يعد و لم يسجل رحلته.

و كما سبقت الإشـــارة إليه ، فإن رحـلات هـــذا العهـد كـان لها ارتباطها المباشر أو غير المباشر بالواقع الذي ظهرت فيه ، و عاش أصحابها فيه ، وهو الواقع الذي سنقف عليه و نحاول أن نرسم له صورة – و لو بإيجاز – تمهد لعملنا و تساعدنا على التعامل مع رحلات هذا العصر و دراستها .

أ – الواقـــــع السياســــــــــي:

إن الحـــديث عن العهد العثماني ، الذي سيطر فيه العثمانيـــــون على الحكم في الجـــزائر، يحتم الإشارة إلى أن هـــؤلاء ، رغـم أنهم غرب عن البلد ، إلا أنهم لم يكونوا مستعمرين << لأنهم لم يملكوا أرضا ، و لا ابعدوا مـــزارعا عن مزرعته و لم يكـــونوا محتـلين >>[1]. بل على العكس من ذلك، فقد جاءوا باسم الدين و دفاعا عنه و << بطلب من الجزائـــريين أنفسهم لحمايتهم أولا ، و الدفـــاع عن ممتلكاتهـم ثانيـا ، و الذود عن دينهـم الحنيف المشترك ثالثا، و قبل كل شيء >>[2].

هذه الحقيقة تثبت أن الجزائريين قبل حكم العثمانيين ، كانوا يعيشون تحت الظلم و الطغيان حياة اضطراب و عدم أمان ، و لم تكن أبدا أوضاعهـم مستقـرة ، بل كانـــــوا في صراعات مع الذين أرادوا الفتك بهـم و استعمارهـــم من الصليبيين ، كمـا تثـبت حقيقة أخرى ، وهـي أن الجـزائـــريين وصلـــوا إلى درجة من القهر و اليأس حتمت عليهم الاستغاثة التي استجاب لها العثمانيون ، و قد كان هذا الموقف منهم موقفا دينيا بالدرجة الأولى ، وهو ما يضعهم في صورة المناصر للدين ، المدافــع عنــه و عن أهـــله ، ولعل ذلك هو السر الذي ساعدهم ، وسهل عليهم الدخول إلى الجزائر و وجود القبول عند أهلها ، و هي العصية على مدى التاريخ على غزاتها و الطامعين فيها.

---

(1)- احمد توفيق المدني، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر، د ط،1974، ص: 8.

(2)- محمد بن رمضان شاوش و الغوثي بن دحمان ، المرجع السابق، ص:406.

إن العثمانيين، ما كانوا ليجدوا قبولا أو ترحيبا عند الجزائريين لو أنهم لم يدخلوا باسم الدين، و بغرض الدفاع عنه، و المعلوم أن أهل المغرب العربي عامة، و الجزائريين على وجه الخصوص ، عرفوا بطبيعة خاصة تتمثل في خضوعهم لنداء الدين ، و استجابتهم لمن يخاطب فيهم الجانب الروحي ، >> لقد كان الأهالي الجزائريون يثقون بأهل العلم و الدين ، أكثر مما يثقون برجال السياسة حيث انتشرت ظاهرة تقديس الأولياء <<[1] الذين قدسهم العوام كما قدسهم علية القوم و خاصتهم ، لذلك فإن كل >> من ملك في الشمال الإفريقي ، فانه يدعم سلطانه المادي، بالسلطة الروحية التي يستمدها من الأنساب الشريفة، و إن لم يكن له في سلسلة الأشراف الحقيقيين صلة <<[2].

إن التآلف و التوافق بين الجزائريين و العثمانيين ، لم يعمر طويلا على المستوى السياسي ؛ ذلك أن العثمانيين بعد أن تأسس حكمهم ، و ترسخ نظامهم ، و قوت شوكتهم ، نظروا للجزائريين نظرة الغالب للمغلوب ، و عاملوهم على أساس أنهم أصحاب الفضل عليهم ، فقد طال الجزائريين التهميش السياسي ، و العسكري ، و حتى الاقتصادي [3] ؛ و هو ما أرغم الكثير منهم على الارتحال و مغادرة الوطن تارة ، و اعتزال الحياة الاجتماعية و السياسية تارة أخرى .

لقد اهتزت الثقة في نفوس الجزائريين تجاه الأتراك بعد أن أحسوا بالإهانة و الظلم ، و هم يرون الأتراك– وهم الغُرْبُ – في أعلى هرم السلطة ، و أعلى مراتب الجيش، و أسمى وظائف الدولة، و هم يقبعون في آخر الدرجات ، في حياة هي أقرب لحياة العبيد ، فليس عجيبا أن تضطرب الحياة السياسية ، و تنفجر الحياة الاجتماعية ، و يثور بالتالي الجزائريون في العديد من مناطق الوطن .

---

(1)- لبصير سعاد، دوافع الهجرة الدينية و العلمية من الجزائر في العهد العثماني 1516-1830،أعمال الملتقى العلمي الأول ، ماي 2008، مخبر الدراسات و الأبحاث الاجتماعية، مطبعة الكسندر قسنطينة 2009، ص: 47.

(2)- محمد الهادي العامري ، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون ،الشركة التونسية للتوزيع،د ط ، د ت ،ص: 221.

(3)- ينظر ، حنيفي هلايلي ، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، دار الهدى عين مليلة الجزائر ، ط1، 2008 ، ص: 10-11-12.

لقد تحركت الكثير من الثورات >> التي اندلع أوارها في أعراش القبائل، و انفجر بركانها في أحصان البدو ، و ربما امتدت ألسنـــة لهيبها إلى عواصم المدن<< [1].يضـاف إلى ذلك العلاقـة المتوترة ، و عدم التفاهم الحاصل بين العثمانيين أنفسهم ، سواء في علاقة الباشاوات و الدايات بعضهم ببعض ، أو في علاقة هـــؤلاء مع أفـراد الجيش الانكشاري، و تلك هي>> طبيعة الحكم العثماني في الجزائر الذي كان قائما على العنف و الغلبة ، و تأييد أو سخط الانكشارية << [2]. الذين كان لهم الدور الأكبر في تعيين و عزل الحكام .

لقد تطاحن العثمانيون فيما بينهم على السلطـــة ، و تقاتلوا على المناصب ، و دبر بعضهم لبعض المكائـــد ، كـل ذلك من أجـــل الانفراد بالأمـر و النهـــي ، و التسيير الانفـــرادي لـدواليب الحكم ، فكثرت الاغتيالات ، و برزت إلى السطح تصفية الحسابات ، إلى درجة جعلت >> أغلب حكام الجـزائر العثمانية انتهت فترات حكمهم بالاغتيال أو الإعدام أو العزل << [3]. و يكفي دلالة على أبشع صور القتل للحكام ما حدث لأحمد صالح باي (1138هـ – 1207 هـ) الذي قتل شنقا بقصبة قسنطينة رغم ما عرف عنه من شجاعة و كرم و حلم و إخلاص [4] .

هكـذا كان الوضـع على المستوى الداخـلي ، أما خارجيا فلم يـكن الوضـع أحسن حالا فقد شهد العهد العثماني في هذه المرحلة العديد من المواجهات مع دول الجوار تارة، و مع الدول الأوروبيـة تارة أخـرى ، من تلك المواجـهات مـا كان مـع تونس التي كانت تحـس بتبعية لدايات الجزائر، و قد أبدى باياتها >> رغبتهم في تحقيق انتصارات على بايات قسنطينة أدت إلى استمرار حالة

---

(1)- محمد بن ميمون ، التحفة المرضية في بلاد الجزائر المحمية ، تحقيق و تقديم: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر، ط2 ،1978، ص:15.

(2)- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب و الرحلة،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د ط، 1983 ، ص:46.

(3)- ناصر الدين سعيدوني و الشيخ المهدي بو عبدلي ، الجزائر في التاريخ (العهد العثماني) المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د ط، 1984، ص: 40.

(4) – ينظر محمد بن ميمون الجزائري ، المرجع السابق ، ص: 16.

العداء لا سيما بعد أن بادر مراد باي عام 1701م بالهجوم على قسنطينة >> [1] .

و كذلك ما كان مع فرنسا من مواجهات كانت الغاية منها الاحتلال ، فقد هجم الفرنسيون في عهد لويس الرابع عشر عام(1074 هـ- 1664 م) على مدينة جيجل بقيادة بو فورت و احتلوها ما يقارب شهرين ، ثم غادروها بعد قتال عنيف مع العثمانيين و الجزائريين [2].

لقد كانت هـذه الاضطرابات السياسـية الداخلية منها و الخارجية ، من العوامل التي أثـرت كثيرا على الحياة الفكرية و الأدبية و الثقافية عموما ، بل أنها كانت السبب في كثير من الأحيان في عـدم الالتفات إلى التعريف بالشخصيات العلمية و الأدبية ، فضاعت مجهوداتهم ، وفقـدت الكثير من أعمالهم و تصنيفاتهم ، بما في ذلك الكثير من رحـلاتهم .

وإذا كنا اليوم نعـرف شخصيات بعض الرحالة الذين عاشوا في العهد العثماني ، و كذلك نعرف رحلاتهم ، فإن هناك شخصيات<< أخرى ملتبسة ما زال الغموض يكتنفها سواء في شخصيتها أو في رحلتها>>[3] سواء بسبب ضياع المؤلفات و التصنيفات ، أو بسبب حجزها و الغلق عليها في المكتبات الخاصة [4] .

ب – الواقـــع الاجتماعـــي :

أما الواقع الاجتماعي فلم يكن أبدا أحسن حالا من الواقع السياسيفي هذا العهد، وهذا يعتبر أمرا طبيعيا ؛ فالتداخل بين مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية , و غيرها ، أمر واقع لا خلاف فيه بين الدارسين و الباحثين و المفكرين على السواء ، ذلك أن الحياة السياسية لا بد أن تلقي بظلالها على جميع مظاهـر الحياة ؛ فهي عبر تاريخ البشرية كلها ، المحـور الذي تدور حـوله جميع هذه المظاهر خاصة الحياة الاجتماعية ، التي سنحاول من خلال ما يأتي من فقرات أن نرسم و لو بإيجـاز

---

(1)- محمد بن ميمون ،المرجع السابق ، ص: 42.

(2)- ينظر، محمد بن ميمون ، المرجع السابق ، ص: من 16 - 31.

(3)- شعيب حليفي، المرجع السابق، ص:5 .

(4)- ينظر، أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الثاني ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر، د ط، 1981، ص:396 و ما بعدها.

صورتها خلال هذا العهد ، أعني العهد العثماني ، و لعل الصورة الأبرز التي تتجلى بوضوح في هذا المقام ، هي طبيعة التركيبة الاجتماعية في المجتمع الجزائري في ذلك الوقت، و المتمثلة في تواجد اليهود و المسيحيين بين الجزائريين المسلمين ، و مثل هـــذه الظـــاهرة تعتبر في الحقيقـــة ظاهرة طبيعية كانت نتيجة حتمية لمظاهر الكر و الفر، و الصراع الذي طالت مدته بين المسلمين و غير المسلمين من الصليبيين على وجه الخصوص ، يضاف إلى ذلك انفتاح الجزائريين على الأتراك ، و سهولة الامتزاج بهم اجتماعيا من خلال التزاوج الذي نتج عنه ظهور طبقة جديدة في المجتمع الجزائري ، عرفت في التاريخ بطبقة الكراغلة ، وهم أولئك الذين ولدوا من أم جزائرية و أب تركي.

و هـــؤلاء اعتبرهم الأتراك مواطنـــين من الدرجـــة الثانية[1]. و نظروا إليهـــم نظرة ريبة و شك، فلم يثقوا فيهم ،و عاملـوهم كالغرباء، و تعاملوا معهم بحذر. و مثل هذا الكلام يوحي منذ البداية ، أن هذه الحياة (الاجتماعية) ستكون حياة مبنية على الطبقية ، و الصدارة فيها- لا شك- ستكون للطبقة التركية النقية ، و تبقى هذه الحياة حياة مضطربة، و غير مستقرة، باعتبارها تجمع متناقضات يصعب التآلف بينها.

لقد تعددت الطبقات في المجتمع الجزائري الذي لم يتفق الدارسون و المؤرخون على عدد سكانه خلال الحكم العثماني ، لانعدام عمليات إحصائية جادة من قبل الحكام العثمانيين [2] . و قد كان الجزائريون رغم ارتفاع نسبة تمثيلهم الديمغرافي و رغم أنهم أصحاب الأرض ، يمثلون الحلقة الأضعف ، و الطبقة الأفقر ، فقد عانوا في هذه المرحلة من مراحل تاريخهم ، من أبشع صور الفقر بعد أن أثقل كاهلهم بالضرائب بعض حكام الأتراك من الباشاوات ، الذين كان همهم الوحيد جمع الأموال و الحفاظ على الكرسي .

ولم يكن لذلك أثره على الحياة الاجتماعية فحسب بل تعداه إلى الحياة السياسية كذلك كما أسلفنا من قبل . و الحـــق أن الجزائـــريين لم يعانوا من الفقـــر وحده ، بل عانوا كذلك من الأوبئة و الأمـــراض، وهو ما يدل على نقص فادح في الرعاية الصحية كمؤشر على مجتمع متخلف .

---

(1)- ينظر ، حنيفي هلايلي ، المرجع السابق ، ص: 166.

(2)- ينظر تفاصيل ذلك ، المرجع نفسه، ص: 162.

هكذا كانت صورة الحياة الاجتماعية، صورة كما نرى قاسية و قاتمة ، اتسمت >> في أكثر الأحيان بالفوضى ، و الاضطرابات ، و توترات الانكشارية ، كما كانت تتأثر بالأوبئة و الأمراض و الكوارث >>[1]. ولا شك أن حياة كهذه ، يمكن أن تدفع الكثيرين إلى الهجرة و الارتحال ، تعبيرا على رفض الواقع ، و رغبة منهم في حياة أفضل . و الأكيد أن مثل هذه الظروف هي التي دفعت العياشي[2] إلى السفر عندما اكتوى بنار>> تلك السنة الشهباء التي أكثرت في القرى حرقا و في الأقوات نهما >> [3] .

وإذا كانت الصورة بهذا الشكل تعتبر عامة في المدن الجزائرية شرقا و غربا ، فان الحياة في الأرياف -كما هو الشأن في معظم الدول -كان خطبها أعظم ، و مصيبتها أعم ، باعتبار أن الحياة فيها كانت >> أشد قساوة ؛ إذ كثيرا ما كانت تتعرض للغارات التركية بسبب رفضها للضرائب المفروضة عليها >> [4]. و المؤلم في هذا حقا ، هو أن سكان الأرياف كانوا يمثلون أغلبية ساحقة من السكان ، باعتبار أن سكان المدن لا يمثلون سوى 5% من إجمالي سكان الجزائر [5] حينها .

ج – **الواقــــع الثقافــــي**

إن هذه الأوضاع و ما تميزت به الحياة في هذا العصر من قسوة و فقر في الحياة الاجتماعية ، و من انعدام أمن وكثرة اضطراب في الحياة السياسية ، و ما عرفت به من بعد عن مظاهر الحضارة و التمدن و ما اتسمت به من طغيان الجهل و حياة الأرياف من الناحية الحضارية الثقافية ، ما كانت أبدا لتساعد على ظهور حياة ثقافية و حركة أدبية و فكرية قوية و ما كان من المتوقع أن نشهد ابداعا أدبيا ذا قيمة ؛ إذ المعروف كما يرى بن خلدون >> أن العلوم إنما

---

(1)- صالح فركوس ، المختصر في تاريخ الجزائر، دار العلوم للنشر و التوزيع عنابه الجزائر د ط، د ت، ص: 126.

(2)- هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المالكي المغربي من أشهر رحالة القرن الحادي عشر وهو صاحب " ماء الموائد " المعروفة بـ " الرحلة العياشية " ، ينظر تفاصيل حياته في رحلته ،ص:20 و ما بعدها.

(3)- عبد الله بن محمد العياشي،الرحلة العياشية، مرجع سابق ، ص:58 .

(4)- صالح فركوس، المرجع السابق ، ص: 126.

(5)- ينظر حنيفي هلايلي ، المرجع السابق، ص:163.

تكثر حيث العمــران و تعظم الحـــضارة، و السبب في ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع، و قد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار. و على نسبة عمرانها في الكثرة و القلة ، و الحضارة و الترف ، تكون نسبة الصنائع في الجودة و الكثرة ، لأنه أمر زائد على المعاش فمتى فضلت أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان ، و هي العلوم و الصنائع >> (1) و على هذا الأساس يصبح << هذا العهد غير صالح لازدهار أي ثقافة ، و من المحال أن يأتي بإنتاج أدبي مهم >> (2).

لقد ساد الجهل في هذا العصر ، و انتشرت فيه الأمية ، ولم يعد هناك كبير اهتمام بالجوانب الثقافية عموما و الأدبية على وجه الخصوص. هذه الصورة القاتمة ، نقلـــها بعض الرحالة من خــلال رحلاتهم ،كما سيتضح لاحقا من خلال دراسة بعض رحلات العصر. ولعل طبيعة صورة الحياة الثقافية و الأدبية في هذا العصر ، يجسدها ما نقله أبو القاسم سعد الله عن مخطوط كعبة الطائفين (3) التي يقول فيها مؤلفها :

<< فكيف ينبغي لعاقل أن يزهد في مطالعة الكتب المشحونة بنقل العلوم النافعة ، بعـــد أن أتته عفوا صفوا ، و لم يدر المسكين ما نال مؤلفيها من التعب في جمـــع دررها المنثورة من معادنها ، و استخراج

---

(1)- عبد الرحمان ابن خلدون ، المقدمة ،تحقيق علي عبد الواحد وافي ، مطبعة لجنة البيان العربي 1958 ، دط الجزء الثالث ، ص: 990.

(2)- أحمد رمضان شاوش و الغوثي بن دحمان، المرجع السابق ، ص:409.

(3)- مخطوط تحت عنوان: <<كعبة الطائفين و بهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حزب العارفين>> مؤلفها هو محمد بن سليمان الجزولي.

الأصل في هذا المخطوط قصيدة ملحونة للشيخ موسى بن علي بن موسى الملالتي تحت عنوان <<حزب العارفين>> وهي قصيدة في التصوف كما يوحي عنوانها أما شارحها فهو تلميذه محمد بن سليمان الجزولي الذي عاش في القرن الحدي عشر للهجرة وقد قدم من خلال شرحها الكثير من أخبار عصره السياسية و الاجتماعية و الثقافية خاصة في الجهة الغربية من الجزائر.للتوسع أكثر ينظر: أبو القاسم سعد الله،أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، المجلد الأول،دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط 4 2005، ص: 159 و ما بعدها.

كنوزها المكنونة في خزائنها . و ليتهم مع هـذا و جدوا زمانا هنيا ، أو مساعدا مرضيا ، أو خلا وفيا، بل لم نجد نحن في هذا الأخير من القرن الحادي عشر ، إلا العقارب و اللفاع، و الشقاق و النزاع ، و ظهور الهمج الرعاع المؤثرين سبل الشر و الابتداع... >>[1].

و على العموم فإن الاهتمام باللغة و أدبها ، لم يكن من أولويات الحكام ، ولا نظن أن العثمانيين – و هم ليسوا أهل اللغة العربية – سيهتمون بها ، أو بأدبها و ثقافتها . غير أنهم – و الحق يقال – << لم يكونوا ضد تلك اللغة مثل ما فعله الفرنسيون >>[2] . و ما كان يمكن أن يكونوا ضدها و هي لغة القرآن ، و هم دخلوا الجزائر تحت غطاء الإسلام ، و من أجل نصرته كما سلف ذكره.

ولم يكن للحركة العلمية – بمفهومها الحديث – شأن يذكر << ذلك أن مفهوم العلم في ذلك العصر قد كان اتقانا لفهم آي الذكر الحكيم و حفظا لمرويات الحديث الشريف و معرفة لأصول العقائد و الفقهيات و تعمقا في فن الأصول >>[3].

و عليه فإن ما بقي من منارات في هذا العهد ، تمثل خاصة في المساجد و الزوايا التي لعبت دورا كبيرا في الحفاظ على اللغة ، و الدين ، و تنشيط الحياة الثقافية – على بساطتها – بما يتناسب مع طبيعة المرحلة .

و هذا يعني أن العلوم الأكثر انتشارا في هذا العهد ، هي تلك العلوم التي نجد لها ظلالها في رحلات العصر، و نعني بها علوم اللغة ، و علوم الدين : من نحو ، و تفسير ، و قراءات ، و حديث ، و << لا شك أن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى كون القرآن و الحديث ، كانا المنبع الذي يستمد منه الجزائريون كل ألوان تفكيرهم ، و أنماط حياتهم >>[4].

غير أن التعامل مع هذه العلوم ، ظل بسيطا بساطة طبيعة المرحـــلة كما أسلفنا ، فقد سيطر عليهم

---

(1)- أبو القاسم سعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، المجلد الأول ، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط 4 2005، ص: 164.

(2)- احمد رمضان شاوش و الغوثي بن دحمان ، المرجع السابق ، ص:406.

(3)- محمد ، المرجع السابق، ص : 46-47.

(4)- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ص: 9.

النقل، و تقلص عندهم دور العقل ، فكان معظم رجال هذه العلـــوم مقلدين لا مبدعين، ناقليـــن لا مجتهـــدين ، و الأدهى و الأمر في ذلك كله ، أن الفقهاء الذين يفترض فيهم أن يكونوا مجددين ، و من واقعهم منطلقين << قلما اجتهدوا أو استقلوا بآرائهم ، بل كانوا يقلدون سابقيهم تقليدا يكاد يكون أعمى>>[1]. و يعتقدون في ذلك الصواب عينه، حتى انشد أحد علماء هذا العصر قائلا :

خبرا عني المـــريد بأنـــــي   كافــر بالذي قضته العقــول

ما قضته العقول ليس من الديـــــــن بل الدين ما حوته النقول [2] .

و كان نتيجة ذلك أن تعطلت عجلة التطور و الرقي العلمي ، و الفكري ، كما جف ينبوع الإبداع الأدبي، ما دعا النقاد لاعتبار هذا العصر عصر الضعف و الانحطاط.

أما العلامة الأبرز و بامتياز، فقد كانت الزوايا التي تعددت ، و انتشرت انتشارا لم تعرف الجزائر له مثيلا من قبل ، ما يعني أن هذه الزوايا قد وجدت في هذه الفترة الأرضية الخصبة التي ساعدتها على الانتشار الواسع ، و الاستقطاب الكبير للأهالي ، بفضل خطابها الديني المؤثر أولا ، و تكفلها الاجتماعي بأنصارها و مريديها – خاصة الفقراء منهم– ثانيا.

ذلك ما جعل العهد العثماني فعلا عهد الزوايا و التصوف، فكثير من إنتاج هذا العهد ، جاء مصبوغا بصبغة صوفية ، سواء تعلق الأمر بالإنتاج الديني أو الأدبي << فنحن نجد الكثير من الكتب ، و الرسائل ، و التقاييد ، و المنظومات ، تتناول التصوف من قريب أو من بعيد ، كالأذكار، و الأوراد و المناقب ، و المواعظ ، و الحكم و الشروح الخاصة بقصائد الصوفية... >>[3].

وتعتبر الرحلات صورة صادقة لذلك ، إذ نجد فيها حديثا عن الزوايا التي كثيرا ما تكون محطة من محطات الرحالين ، في كل وجهة يتجهون نحوها ، و في كـــل منطقة يصـــــلون إليها ، ســـواء عابرين، أو لفترة محددة مقيمين قصد الراحة وجمع الأنفاس، و هو ما تتطلبه الرحلة التي عادة ما ينهك أصحابها التعب فلا يصلون إلا شعثا غبرا .

---

(1)– أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق، ص: 9 .

(2)– ينظر ، محمد بن ميمون ، المرجع السابق، ص: 48 .

(3)– أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق، ، ص:117.

كما نجد في هذه الرحلات تمجيدا لأهل هذه الزوايا، و مدحا للمتصوفة من رجالاتها ، بل أن نبرة الخطاب في رحلات هذا العهد ، هي نبرة صوفية ، تتجلى واضحة من خلال توظيف الألفاظ الدالة على ذلك ، كالغوث ، و الولي ، و الرباني ، و صاحب الأسرار...

لقد لعبت الزوايا في فترة حكم العثمانيين دورا كبيرا ، ليس فقط على الصعيد الديني ، بل على الصعيد الاجتماعي ، و الثقافي ، و حتى السياسي . غير أن الدارسين لقضايا الزوايا و تاريخها ، في هذا العهد ، نظروا إليها و إلى شيوخها و مريديها ، نظرتين مختلفتين . فهناك من رأى أنها لعبت دورا ايجابيا فأشاد بها و عظم من شأنها ، و هناك من رأى أنها لعبت دورا سلبيا فانتقدها و حط من شأنها ، ليس فقط من المحدثين ، بل حتى من السابقين، و يعتبر عبد الكريم الفكون [1] من أبرز و أكثر العلماء انتقادا للزوايا و الطرق الصوفية و المتصوفة ، بل نجده << قد جند بعض طلابه و أنصاره ضدهم >> [2] . و قد كان يرى أن بعض أتباع الطرق الصوفية ، قد أفسدت عقولهم الخرافة ، و ضيعت عقيدتهم الدجالة ، فتعطلت عندهم سلطة العقل ، و سيطر عليهم سلطان القلب ، و لأنه ابن عصر التصوف، و الإنسان ابن بيئته و عصره –كما يقال– فقد كان هو ذاته << يعيش نوعا من القلق و الاضطراب بين عقله و قلبه >> [3] . و الحقيقة التي يجب التنويه بها ، و الوقوف عندها ، أن شيوع الروح الصوفية بهذه الصورة السلبية التي انتقدها الفكون ، ليست وليدة العهد العثماني ، بل نجدها بنفس الصورة قبل هذا العهد ؛ فالثعالبي (ت 875 هـ) في تحريضه للقتال ، و دعوته لإعداد

---

(1)- هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحي الفكون (988هـ-1073هـ)
من علماء و صلحاء قسنطينة ، ينتمي إلى أسرة عريقة ذات مال و جاه و علم بالمنطقة ، و هو صاحب <<منشور الهداية في كشف من ادعى العلم و الولاية >> كتاب من خلاله أعطى صورة لواقع الحال في عصره كما انتقد فيه بعض المتصوفة المعاصرين له كما يوحي بذلك عنوانه.

(2)- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق، ص:119.

(3)- مختار حبار ، الحضور الصوفي في الجزائر على العهد العثماني ، مجلة التراث العربي ، مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب- دمشق سوريا ، العدد 57 ، السنة15، تشرين الأول (أكتوبر)1994،جمادي الاولى1415، ص:61.

العدة لمواجهة بني الأصفر (الروم)<< لم يكن من تدبير عقل حكيم صقلته السياسة ، و حنكته تجارب الحرب ، و إنما كان مصدره "رؤيا" من رؤى شيخ الصوفية ، أخبر بها أولا قومه و عشيرته الأقربين ، ثم بعد ذلك عممها فراسل في شأنها من راسلهم ، و أكد لهم أن ما يأمرهم به هو أتاه في رؤياه ، و أن العدة التي وصفها لهم " درق العود "[1] كذلك جاءت في الرؤيا ، و يذكر أن قومه أنفسهم – بدوا و حضرا– لم يجتهدوا في إعداد العدة ، إلا لما علموا أن ما يمليه عليهم هو من قبيل الرؤيا ، لإيمانهم العميق بكل ما يمت بصلة إلى الغيب ، و ثقتهم العمياء في أقطابهم من رجال التصوف <<[2].

و هناك من نظر إلي هذه الزوايا نظرة موضوعية قوامها الاعتدال ، فاعتبر أن << لها مزاياها كما لها عيوبها ، فلا أحد ينكر الدور الذي اضطلعت به في حقل التعليم و الإرشاد الديني ، بمقياس عصور اتسمت بالانحطاط و الجمود و التخلف ، كما لا ينكر أحد ، أن بعض الأشياخ ، و من انتسب إليهم بالولاية المزعومة قد ضلوا ، و أضلوا بترويجهم للبدع و الخرافات باسم الكرامات <<[3].

إن الوضع الاجتماعي، و الثقافي ، إضافة إلى السلطة الروحية التي كانت تتمتع بها الزوايا في هذا العهد ، ساعدا كثيرا على انتشار التصوف، و اتساع دائرته ، و قد أصبح يمثل ظاهرة بارزة ، و علامة مميزة لطبيعة الحياة الدينية ، و الثقافية ، والأدبية في هذا العصر ، لا يمكن إغفالها ، أو تجاوزها في أي دراسة تتعلق بمؤلفات هذه الفترة ، فـــ << المؤلفون لا يؤلفون إلا و في أذهانهم أهل التصوف، سواء كانوا معاصرين لهم أو متقدمين عنهم <<[4] .

و الذي يؤيد ما ذهبنا إليه ، هو أن الظاهرة الصوفية تشغل حيزا كبيرا من مؤلفات أشـــــهر

---

(1)- ما يحتمى به لا تنفذ منه السهام و السيوف مثل درق الجلد .

(2)- مختار حبار المرجع السابق ، ينظر تفاصيل و نص الرسالة ، أبو القاسم يعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ص:339 و ما بعدها .

(3)- العيد مسعود ، "المرابطون و الطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة سيرتا ، يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة ، العدد10، السنة السادسة ، افريل 1998، ص: 4.

(4)- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق، ص:118.

رجـال هذا العهد و رحالته ،كابن مريم[1] صاحب << البستان >> ، و المقري صاحب << نفح الطيب >> ، وأحمد بن قاسم البوني[2] صاحب << الروضة الشهية في الرحلة الحجازية >> ، و محمد بن سليمان صـاحب <<كعبة الطائفين >> .

إن كثيرا من مؤلفات هؤلاء - المشار إليها و غيرها - حوت بين دفتيها حديثا عن التصوف و المتصوفة، مفصلا تارة، و بالتلميح تارة أخرى. و يبقى الأكيد أن التصوف في هذا العهد انتشر بين جميع أفراد طبقات المجتمع، سواء منهم الأغنياء أو الفقـراء ، المتعلمين أو الأميين، الحكام أو المحكومين ، و أصبح أغلب الجزائريين يعتقدون به، مسلّمين أنه الطريق الأصوب، و النهج الديني الأسلم رغم ما كان يلاحظ على اتباع هذه الطرق من تعصب لشيوخها الآمرين الناهين دون نقاش [3].

لهـذا السبب تقـرب الأتـراك من أقطـاب التصوف ، و عظـموا مـن شأنهم رغبة في استغـلال سلطتهـم الروحيـة علـى الرعيـة استغـلالا سياسيا ، من خلال محـاباتهم وغض البـصر عن كثير ممـا يصـدر عنهم ، بل و منـحهم الكثـير مـن الامتيـازات [4]. و الذي يؤكـد العلاقـة بين رجـال السياسة من العثمـانيين ، و أهل الثقافة من المتصوفة، عـديد الرسائل التي كانت بين الحكام العثمانيين ، و بعض شيوخ الصوفية الجزائرلايين، و التي تحمل في طياتها العديد من عبارات المجاملة المصطنعة . من هـذه الرسائل، تلك التي

(1)- هو أبو عبد الله محمد بن محمد الشريف المديوني التلمساني ، المعروف بابن مريم ، من فقهاء و صلحاء و مؤرخي تلمسان ، توفي في العام 1020 هـ (1612م)

و ينظر تفاصيل أكثر، الحاج محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ط، 1995، ص: 521.

(2)- هو أبو العباس احمد بن قاسم بن ساسي البوني المتوفى في العام 1139 هـ (1726م) من كبار فقهاء المالكية من مؤلفاته << تنوير السريرة بذكر أعظم سيرة >> ينظـر تفاصيـل أكثـر، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، ص: 64.

(3)- ينظر، حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص:131.

(4)- ينظر، محمد بن رمضان شاوش و الغوثي بن دحمان، المرجع السابق، ص:409.

بعث بها يوسف باشا الذي >> تولى حكم الجزائر عدة مرات بين سنوات 1044 و 1064 هـ.<<[1] إلى الشيخ محمد ساسي البوني و التي جاء فيها :

>> من عبد الله الموفق بالله، الغالب بعزته، أبي الجمال يوسف باشا، فتح الله له من أمكن التمكين ما شاء .

إلى سيادة الفقيه الصالح ، الناصح ، العارف بالله ، المخلص إليه السريرة ، الدال على الله الداعي إليه على بصيرة ، أبي عبد الله سيدي محمد ساسي قوّى الله مدده ، و أكثر حزبه و عدده.

سلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته على الخير و العافية ، و التوجه إلى الله تعالى في إصلاح خلل هذه الأمة بألسنة ضارعة ، و قلوب صافية، و التوسل في ذلك بجاه إمام حضرة الصفا ، و مقدم أهل الاصطفا ، و مخدوم من في الأرض و السماء ، و المنفرد من بين أهل الاختصاص بجلائل الأسماء، سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم. ثم بدعوات أمثالكم من الأولياء، و لخطاب أشباهكم من الأتقياء.

هذا و المراد إعلامكم أنا كنا أولا برمنا عقد العزم على الجهاد لوهران ، و استخلاصها من أيدي حزب الشيطان ، و اتقادها من ورطة الكفر و الضلال ، و إنارتها بنور الإيمان و الإسلام ، و صالح الأعمال .حتى عرض لنا ما حال بيننا و بين هذا الغرض ، و صد وجوه عزائمنا عن إزالة ذلك المرض، و هو ما لا يخفاكم من انحلال أمور المسلمين بذلك الصقع [2]و كثرة الخلاف و الشنآن ، و سائر أنواع الاختلال المذمومة بالشرع الممجوجة بالطبع ، و اندراس آثار الطاعة السلطانية التي هي طاعة الله ، و محو مراسمها ، و تشييد قواعد البغي ، و التسويلات الشيطانية ، و إيضاح معالمها و تنكير المعارف ، و تعريف المنكرات ، و رفع المخفوضات (كذا) و خفض المرفوعات .

فتركنا مكنون العزم الجهادي في صدفه ، و أخرناه إلى أن يحل بدر ظهوره ، و رأينا بصائب النظر و ما

---

(1)- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب و الرحلة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، د ط ، 1983.ص:46.

(2)- الإشارة هنا إلى عنابة و نواحيها حيث الشيخ محمد ساسي البوني، لكن الثورة (ثورة بن الصحري) عمت إقليم قسنطية و هو المقصود بعبارة " ذلك الصقع "

أوجبته صحائف الأثر، أن تقديم الأهم فالأهم هو المحمود العواقب ، المحصل لجميع المقاصد والمطالب ، فجردنا العزم بحسب ما اقتضاه الحزم ، بعد إعمال سنتي الاستخارة و الاستشارة ، و استنجاح قضايا الرياسة و الإمارة ، بأن نتوجه نحو قسنطينة و من (هكذا) إليها ، و بعدها إن شاء الله بسكرة و من لديها ، لامعان النظر في مصالح الرعايا ، و إخماد نيران الفتنة و دفع البلايا ، و سماع الشكوى ، و القضاء بما تحتويه أحكام التقوى ، و توفيق الكلمة و جمع الأمة المسلمة ، و إظهار الحق و محو الباطل و توقير العالم و إرشاد الجاهل ، و تمهيد القواعد و تشييد المقاصد ، و ضبط الفوائد وإصلاحالفاسد ، و تفقد أحوال الحكام و الولات ، (كذا) و إيضاح معالم الهدى ، و اعفاء مراسم الردى.

و رأينا أنه لا ينحي مع الله فيما قلدنا من أمور خلقه، إلا أن نباشر ذلك بأنفسنا ، طلبا لمرضاته و قياما بحقه . وكاتبناكم بجميع هذا رضي الله عنكم ، لتعلموا حقيقة أمرنا و تطلعوا على خبية(كذا) سرنا ، و لتخبروا من هنا لكم بالمرام ، و ما عولنا عليه من إصلاح أهل الإسلام.فلتخولوا رضي الله عنكم الخاصة و العامة بالذكرى و الموعظة الحسنى، كدأب العلماء في طريقتهم المثلى و سيرتهم المستحسنة ، فإن الملة الإسلامية لا يستقيم دينها و دنياها ، في قصوى مقاصدها و دنياها ، إلا بسنان الولات (كذا) ، و لسان الهدات (كذا)فردوا شاردهم إلى الله تعالى بالدعاء و الدعوة ، و لكم في نبيكم صلى الله عليه و سلم و أصحابه أسوة ، و قد قاتل أبو أيوب الانصاري تحت راية اليزيد و أمثاله من الأعيان ، و صلى عبد الله بن عمر خلف الحجاج و بايع لابن مروان ، و إنما فعلوا ذلك لئلا ينزعوا يدا من طاعة أو يخرجوا قيد شبر من السنة و الجماعة ، و لا يشاقوا الله و رسوله لمنازعة سلطان ، و معاونة على اثم و عدوان رضي الله عنهم و رضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون . و لو كان الخطاب مع غيركم لهديناه إلى نقول ، و ألقينا له حجج المعقول و المنفول ، لكن أنت اليوم و الحمد لله، سيد المسلمين في تلك الأقطار، و شيخ السنة و الجماعة الذي عليه المدار، أبقاكم الله بركة في البلاد، و رحمة للعباد، آمين

و كتبت بتاريخ أوليات ذي الحجة الحرام سنة 1050 هـ عرفنا الله تعالى خيره و ما بعده. كملت بحمد الله تعالى و حسن عونه>>[1] .

(1)- أبو القاسم سعد الله،، تجارب في الأدب و الرحلة، ص:54 و ما بعدها .

إن هـذه الرسـالة أكـدت كثـيرا ممـا ذهبنـا إليـه سـابقا ، فهـي تعـبر بوضـوح علـى أن الحكـام العثمانيين كانوا يعزفون دائما على وتر الدين ،كما أن علاقتهم برجال الصوفية مرتكزة في جانب كبير منها على هذا الوتر ، مع استغلاله استغلالا سياسيا ، من أجل تبييض صورة الحاكم أمام الرعية ، و تثبيـت حكمـه علـيهم ، كمـا يمكننـا أن نـرى مـن خـلال هـذه الرسـالة كـذلك صـورة الجزائـر في القـرن الحادي عشر و ما كانت تعرفه من ثورات داخلية متعددة و في مختلف جهات الوطن.

إن ما تقدم من حديث – من وجهة نظرنا – يضعنا دون شك أمام صورة مظلمة للحياة الثقافية و الأدبية في هذا العصر ، صورة تكاد تكون واحدة في العديد من جهات الوطن ، و لعل ما يؤيد رأينا، ويدعم وجهة نظرنا هـذه ، تلك الصورة التي وقفنا عليها فـي الرحلة العياشية حين قال صاحبها :

>> ... و دخلنـا للمدينـة (وركـلا) لحضـور صـلاة الجمعـة و صـلينا بجامـع يسـمى جامع المالكية ، و خطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحن و الخطأ و التحريف و التقديم و التأخير مع إدغام أكثر حروفها ، حتى كأنها همهمة ، فكنت أتخـوف ألا تصـح لنا معـه جمعة إن كانت صلاته كخطبته ، فنجى الله فأحسن في قراءة الفاتحة ، فما ظننا أن صلاتنا معـه مجـزئة ، و دعا في خطبته للإمام المهدي ، ثم للسلطان الأعظم ، الخاقان الأفخم محمد بن إبراهيم بن مراد ، ثم لسلطان بلـده مـولاي علاهـم ، فلمـا فـرغ مـن الصلاة بعثـت بعض أصحابنا ليسألـه عـن المهـدي المدعو لـه في الخطبـة ، أهو المنتظر، أم أحـد المنتحلـين ذلك ممن مضى ، فسألـه عـن ذلك، فإذا هـو لا يفقه شيئا من ذلك ، و قال : أظنه النـبي صلى الله عليه و سلم ، فعلمت أنه وجد الخطبـة مكتـوبة في صحيفة عنده و حفظها كما وجدها ، إلا أنـه لم يحرر حفظهـا و نقلهـا ، و لعلها مـن خطب بعـض مـن كـان أيـام المهـدي بـن تومـرت ، زاد فيهـا هـذا الدعـاء للإماميـن اللـذين في عصره << [1].

إنها شهادة سجلها العياشي الذي عاش في القرن الحادي عشر الهجري ، تعطي لنا الصورة الحقيقية لوضع الأمة الثقافي، و تكشف لنا مـدى استفحال الجهل حتى عند من يفترض فيهم أنهم ينيرون طريق الهداية و العلم لأفـراد هـذه الأمة، باعتبارهم المرجع الأساسي لهم في كل ما تعلق بدينهم و دنياهم.

---

(1)- عبد الله بن محمد العياشي ، المرجع السابق ،ص، ص : 114-115.

وهـذه الشـهادة يـدعمها الـورثيلاني في رحلتـه كـذلك عنـدما يقــول : >> و لمـا دخلـت مسـجدها (بسكرة) لم أجد فارقا (هكذا) [1] و لا مدرسا ، سوى رجل واحد متى يقرأ لوحه وهو ملقى أمامه علــى غـير أدب و لا اسـتقامة ، و أخـبرني بعـض أصـحابنا أنـه وجـد رجـلا واحـدا يســـــرد البخـاري وحـده، ووقف عنده و قال له: رح يا حاج و وجد آخر كذلك . و لعمري أن هذا أدل دليل على الخراب و أقرب الأسباب له ، بدليل ما روي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : إذا أراد الله عمارة قوم بدأ بما له فيهم ، و إذا أراد خرابهم بدأ بما له فيهم أو كما قال صلى الله عليه و سلم . وقد بدأ الله هذه البلدة بخراب بيته ، فهو أقوى الدلائل على خراب البلد و موته و لقد مرضت من ذلك الأحشاء و الله تعالى يفعل في ملكه ما يشاء و يعذب من يشاء و يرحم من يشاء ،ولقد وددنا عمارتها بالعلم و العمل ، و رفع الحرج عنها برفع ذوي الزيغ و الزلل، و تدريس العلم و ذكر الله آناء الليل و أطراف النهار في ذلك المسجد المشيد ، فإن لأهل هذه المدينة تأهلا لهذا كله ، و لكن الله يفعل ما يريد ، و في مثل ما وقع لنا من التحزن و التحسر ، و التألم و التضجر، من قلة العلم و أهله ، في مواطن حسنة من محله << [2] .

ثالثا: دوافـــــع الرحلـــة في العهـد العثمانـــي :

إن الإنسان حيوان عاقل ، و بالتالي فهو لا يتحرك بما تمليه عليه غرائزه ، و إنما يصدر منه العمل بارادة و قصدية ، عن طـريق العقـل الذي ميـزه الله به عــن غيره من مخلـوقاته ، فـجعله به يفكر و يتدبر ، قبل أن يخطو خطوة في اتجاه أي فعل أو أي حركة . و المعلـــوم أن الرحلة فعل أساسه الحركة و الانتقال من نقطة أولى تمثل الانطلاق ، إلى نقطة ثانية تمثل الوصول ، و هذا يعني أن صاحبها ينطلق ليصل ، و يغادر ليتجه ، من منطلق القصدية القائمة أساسا على الوعـي التام بالفعل و الحركة ، فـــ>> الرحلـة « حالة عقلية » بمعنى أنها ليست ضربا من تغييب الوعي..بل هي محاولة لإعادة هذا الوعي في صورة قوية <<[3] . وهــذا لا يعنـي أبدا غياب أو انعدام الجانب الوجداني ، الذي يعتبر مكونا أساسيا من مكونات الإنسان ، و هو مـــا يفرض على الرحالة أن يكون

---

(1)- الصحيح قارئا و بذلك يستقيم المعنى .

(2)- الحسين بن محمد الورثيلاني ، المصدر نفسه ، المجلد 1 ،ص، ص : 121.122

(3)- ناصر عبد الرزاق الموافي ، المرجع السابق، ص:27 .

في رحلته حاضرا بقوة ، بجسده ، و عقله ، و وجدانه ، فالرحلة حركــة >> ليست على المستوى البدني فحسب ، و إنما يجب إن تشمل المستويات كافة، لا بد أن تعمل جميع الحواس بطاقتها القصوى، و أن تكون مستنفرة و في حالة يقظة تامة <<[1].

و عليه فإننا لا نعتقد إطلاقا أن من السهل على الإنسان بتكوينه العقلي ، و النفسي و الوجـــداني، أن يغادر مكانا عاش فيه و ألفه ، أو يفارق قوما نشأ بينهم و اطمأن إليهم ، دون دافع بيّن يدفعه إلى ذلك ، أو هدف واضح يريد الوصول إليه ، فالإنسان إذا لا يمارس الرحلة إلا بدوافع قد تكون ذاتية ، و قد تكون عامة أو تكليفية ، و من أجل غايات قد تكون سامية ، و قـــــد تكون وضيعة ، وقد يرضى و يقتنع بها قوم فيستحسنونها ، و يشمئز منها آخرون فيستهجنونها.

إن هذه الحقيقة ، تفرض علينا أن نقف وقفة من خلالها نبحث عن الدوافع التي دفعت الجزائريين خلال العهد العثماني للقيام برحلات ، و هي رحلات عديدة بـــــوأتهم مكانة في هذا الفن، اعترف لهم بها المؤرخون ، و تلك حقيقة لا ينكرها عليهم أحد ، فقد >> أسهم الجزائريون مساهمة واضحة في كتابة الرحلات و لا سيما خلال القرن الثاني عشر (18م) <<[2].رغم أن كثيرا من رحلاتهم للأسف ضاعت ، و أخري لم تصلها أيادي الدارسين و المؤرخين بعد.
الأكيد أن الدوافع التي تدفع الرحالة لشد الرحال، أو مغادرة المكان ، ليست واحدة ، و هي كثيرة و متنوعة بكثرة الرحالين و اختلاف طبائعهم و تنوع أهدافهم ، و تباين ثقافاتهم و أديانهم ، فقد عدد بعض الدارسين أكثر من عشرين سببا للسفر و الرحلة [3]. ما يجعل الوقوف عند جميعها يعتبر أمرا صعبا ، و لا يخدم طبيعة موضوعنا المرتبط بفترة محددة و المتجه نحو البناء الفني بالدرجة الأولى. و عليه فإننا سنحاول أن نقصر الحديث على ذكر أهمها ، مركزين خاصة على تلك المتعلقة بالرحالين الجزائريين خلال العهد العثماني.

إن طبيعة الرحلة و علاقتها بواقعها ، وتجليات جميع مظاهر الحياة فيها ، من سفر ، و مشاهدة ، و تواصل مع الآخر ، و هي المظاهر التي ينقلها الرحالة من الفعل و المشاهدة الواقعية إلى

---

(1)- ناصر عبد الرزاق الموافي، المرجع السابق ، ص: 26.

(2)- أبو القاسم سعد الله، ، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق ، ص: 395.

(3)- ينظر ناصر عبد الرزاق الموافي، المرجع السابق، ص، ص: 26.27.28.29.

نص حكائي ، تحتم علينا << ربـــــط الرحلة بالظروف الاجتماعية و السياسية ، و الثقافية، و عدم فصلها عن الحياة >> [1] الجزائرية و المجتمع الجزائري في ذلك العهد، الذي امتاز –كما هو معلوم و سبقت الإشارة إليه – بسيطرة الظاهرة الدينية ، التي تفرض نفسها على الدارسين و النقاد و المؤرخين على السواء ، و تكون بذلك حاضرة في كل دراسة تتعلق بهذه الفترة من تاريخ الجزائر، ما يحتم علينا أن ننطلق في الحديث عن الدوافع التي كانت وراء رحلات الجزائريين ، من الدافع الأكثر بروزا ، و نعني به الدافع الديني.

أ- الدافـــــع الدينـــــــــي:

نظرا لطبيعة فترة هذا العهد في الجزائر ، وما تميزت به من مميزات جعلت منها فترة قائمة بذاتها متميزة –كما يؤكده الدارسون و يتفقون عليه – بسيطرة الظاهرة الدينية فيها ، فقد اتسم كما هو معلوم << العهد العثماني في الجزائر بانتشار ظاهرة التصوف ، و سيطرتها على توجيه مسار الحياة السياسية ، و الاجتماعية ، و الروحية ، بوجه لم يسبق لهذه البلاد أن عرفت مثيلا له >>[2].

و عليه فمن المعقول جدا أن يكون الدافع الديني من أبرز الدوافع التي حفزت الجزائريين على القيام برحلات عديدة ، نظموها شعرا و كتبوها نثرا ، و المراد هنا ، على وجه الخصوص، تلك التي كان هدفهم منها أداء فريضة الحج ، و هي الرحلات التي قادتهم للبقاع المقدسة، تلك البقاع التي يتعلق بها قلب المسلم الذي يبقى طوال حياته ينتظر متشوقا ، أن يصبح من المشمولين بقوله تعالى:﴿ **و لله عَلَى النَّاسِ حَجُ الْبَيْتِ مَنِ اِسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** ﴾ [3] ، فيتسنى له بذلك التوفيق لإتمـام الـركـن الخامس من أركان الدين ، فيؤديه بصدق النية راحلا إلى الله وحده دون غيره؛ فالجزائريون << لم يسافروا إلا حبا في الله و لله و من الله ، و شوقا في رسوله صلى الله عليه و سلم >>[4] ، وهذا يعني << أن الجزائريـين الذين توجـهوا إلى الجـزيرة العربيـة خـلال العهد العثماني ، لم يذهبوا إليها كجغرافيـين ، أو

---

(1)- الحسن الشاهدي ، المرجع السابق ج 1 ، ص: 64.

(2)- مختار حبار، المرجع السابق، ص: 67.

(3)- سورة آل عمران الآية 97.

(4)- الحسين بن محمد الورثيلاني ، الرحلة الورثيلانية نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار ،مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ، ط 1 ، 2008، المجلد الأول ، ص: 16.

مؤرخين ، أو سواح ، و إنما توجهوا إليها حجاجا ، يؤدون الفريضة ويزورون الحرم الآمن ، لذلك كانت قلوبهم إلى البقاع المقدسة تسبق أرجلهم ، و خيالهم يتجاوز مرمى أبصارهم ،و أشواقهم إليها تنسيهم آلام الطريق و عناء السفر >>[1].

و لأن الحياة الروحية المتمثلة في الصوفية سيطرت كما أسلفنا على الحياة في العهد العثماني ، و اعتقد بها الناس جميعا ، المتعلم منهم و الجاهل على السواء ، فإن التصوف كان في كثير من الأحيان من الدوافــع التي دفعت بعض الجــزائريين من المــريدين و الأتباع للارتحــال بنيــة البحــث عن شيــخ يتبركـــون به ، يجالسونه و ينتفعون بدعواتـــه ، فيمكّنهم من التصوف و يعلمهم أصولـــــه ، يعرفهم الحقيقة ، و يعلمهم الطريقـة ، اعتقـادا منهم أن من يريد التصوف و تطهير النفـــس من الضنك و الغـم ، و الجلوس مع الله دون هم [2] فمـا عليه إلا أن يبحث عن شيخ يأخذ عنه ، أو زاهد يتقرب منه ، يعينه على بلـــوغ مراده (التصوف) انطلاقا من قوله صلى الله عليه و سلم : << إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهـدا في الدنيا و منطقا فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة >> [3] . (ابن ماجة من حديث أبي خلاد بسند فيه ضعف).

لذلك فإن نسبة كبيرة من رحلات الجزائريين في هـذه الفترة ، تحمل بين دفتيها أخبار المتصوفة و ما يتصل بهـم من أحداث ، و ما يتميزون به من كرامات ، حتى أننا لا نكاد نجد رحلة تخلوا من عباراتهم ، و مصطلحاتهم ، أو تخلـو من ذكر الزهـــاد و الأولياء الصالحين ، الذين قصدوا

(1)- أبو القاسم سعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، ص: 351.
(2)- قال أبو بكر الشلبي (334هـ) في التصوف : << التصوف هو الجلوس مع الله بلا هم >> .
و قال فيه فيروز الكرخي (201هـ) : << هو الأخذ بالحقائق و اليأس مما في أيدي الخلائق >>
و قـال فيه رويـم بن أحمد البغدادي (303هـ) : << إنه استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد >> .
و قال فيهأبو القاسم الجنيد (297هـ): << أن تكون مع الله بلا علاقة >> .
لتفاصيل أكثر ينظر تفاصيل ، عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض دراسة في فن الشعر الصوفي، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع بيروت لبنان ، ط 1 ، 1986 ، ص، ص : 15-16 .
(3)- عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض، ، ص: 10.

أضرحتهم و تبركوا بها، اعتقادا منهم أنها قـربى ، من الله تقربهـم ، و بفضلها الخير يعمهم ، وقـــد كان الحديث عن هؤلاء الأولياء في رحـلات الجزائريين – خاصة الحجازية منها- بطريقة مباشرة ، و في كثير من الأحيان بانبهار روحـاني، وفي هذا المقام يمكن الوقوف على ما جاء في رحلة الورتيلاني في معرض حديثه عن الذين التقى بهم و منهم >> الزاهـد في الدنيا المتخلي عنها رأسا سيدي المبروك و سيدي المبروك هو تلميذ الولي الصالح الـورع الزاهد سيدي أحمـد بن باباس و نجليه سيدي المحفوظ و سيدي الطيب و سيدي المحفـوظ كان يرى النبي صلى الله عليه و سلم و يرى الله تعالى أيضا !...و كان أخا لنا نفعنا الله بركاته .

و قد كان سيدي المبروك رضي الله عنه حينئذ متبتلا منقطعا للعبادة و قد رأيته رضي الله تعالى عنه كأنه خارج من قبره تعلوه صفرة و قد ظهر أثر التراب على و جهه <<[1].

و قال في موضع آخر من الرحلة : >> و مررنا على قبر الولي الصالح ، و القطب الواضح ، رحمة و طننا ، و غيث بلدنا ، سيدي يحي العبدلي نفعنا الله به ، آمين . وقد شهد بقطبانيته الشيخ الولي الصالح ذو التصانيف المفيدة سيدي عبد الرحمان الصباغ ... وشهد له أيضا بالعلم الظاهر و الباطن و أن له كرامات عظيمة و شهد له بذلك أيضا بحر الولاية و العلم سيدي عبد الرحمان الثعالبي رضي الله عنه <<[2].

ولقـد كـان للاحتفـالات الموسميـة، و انتشـار ترديـد الأشـعار و المـدائح النبويـة، في الاحتفـالات الدينيـة ،دورهـا الكبير كذلك في إثـارة النفـوس ، و تحريك المشـاعر و الانفعـالات الروحانـية ، مـا يجعـل مسـارات رحلات هـذه الفـترة ، مسـارات مبنية أساسـا على الأسـاس الديني ، الـذي يقـرب مـن الخـير و ينفر من الشر ، يرغب فيما ينفع و يرهب مما يضر ، انطلاقا من أخلاق دينية سامية .

وهو ما يجعل المرتحل يندفع نحو الرحلة مطمئنا أنه في الطريق الصحيح، >> فلا يعبأ بما يواجهه من أخطار في طريقه ، أو بما يقدم عليه من الغربة و البعد عن الأهـــل و الوطـن ، لأن الرحلة بهذا المفهوم

---

(1)- الحسين بن محمد الورثيلاني ، الرحلة الورثيلانية نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار ،مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ، ط 1 ، 2008، المجلد الأول ، ص: 15.

(2)- المصدر نفسه ، ص: 19.

تصيح واجبا دينيا ، تهون في سبيله كل التضحيات >> (1). و رغم ما يعانيه الرحالون من مخاطر الطريق ، و مشقة السفر ، إلا أنهم بمجرد وصول الرحلة إلى نقطة النهاية ، بانتهاء المناسك أو إتمام الزيارات، تتحرك فيهم قبل المغادرة، الرغبة في العودة مجددا إلى الأماكن الطاهرة ، و البقاع المقدسة فيسعون إلى ذلك جاهدين . و لعل هذا ما يفسر تعدد الرحلات الحجازية و الزيارية ، و بروزها أكثر من غيرها من الرحلات عند الجزائيين و المغاربة عموما .

ب- الدافـــــــع العلمـــــــي :

يولد الإنسان ، ينمو و يكبر، فيجد نفسه أمام طريقين : طريق العلم و طريق الجهل ، و السوي من البشر هو ذلك الذي يختار طريق العلم الذي ينير بصيرته ، و يحقق هدفه من الحياة على وجه الأرض، عندما يكشف أسرارها ، و ينير ظلماتها ، و يطوعها لخدمته ، ليعيش فيها حياة تليق به كانسان كرمه الله بعقله على جميع خلقه.

لقد كان و ما زال إلى اليوم ، طلب العلم رغبة هذا الإنسان على وجه الأرض ، يسعى إليه جاهدا لا يبالي بالصعاب ، و لا يفشل أمام العراقيل ، ولا يعترف معه بالمستحيل ، ينفق من أجله الأموال ، و يهجر الأهل و الأولاد . وطلب العلم - بشرطــه الوحيد أن يكـــون نافعا -كما هو معروف عندنا نحـــــــن معشر المسلمين ، فرض أوجبه الدين ، و أقرته الشرائع ، و من هذا المنطلق نظر اليه أسلافنا الذين <<كانوا يعدون الرحلة في سبيـــل العلـــم من شـــروط الكمال فيه، بل كـــانوا يعدون الرحلة للقاء الرجال من شروط الوجوب ؛ فكانوا يقطعون البراري و الصحاري و القفار ، و يلقون في سبيله المعاطب و الأخطار... >>(2) ، و يؤكد الرسول صلى الله عليه و سلم ذلك حين قال في حديث واضح ، جلي و صريح : << طلب العلم فريضة على كل مسلم >> (3) .

بل إن الإسلام مجد العلماء ، و رفع من شأنهم ، و قدس مكانتهم ؛و اعتبرهم أقرب الناس للأنبياء حتى أنهم أصبحوا كما جـــــاء في حــديث الر سول صلى الله عليه و سلم ، ورثتهـم

---

(1)- الحسن الشاهدي ، المرجع السابقج1، ص: 68.

(2)- محمد البشير الإبراهيمي،عيون البصائر، الشركة الوطنية نشر و التوزيع الجزائر، دط ، دت ، ص:216.

(3)- بدر الدين أبو عبد الله الزركشي ، اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة ، تح :مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ، د ط ، دت ، ص: 43.

>> و إن العلماء ورثة الأنبياء ، و إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر <<(1). و تؤكد ذلك العديد من آيات الذكر الحكيم كقوله تعالى:﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْلَمُونَ خَبِيرٌ** ﴾ (2) .

قديما و حديثا، تنقل الناس و سافروا، و رحلوا ، و تغربوا طلبا للعلم، و رغبة في تحصيله، و سعيا لاكتسابه و النبتوغ فيه، دافعهم إلى ذلك و مشجعهم، قوله صلى الله عليه و سلم : >> من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل له الله طريقا إلى الجنة << (3). و قال: أيضا >> اطلبوا العلم و لو بالصين << في إشارة واضحة إلى ضرورة أن تضرب فئة منا في الأرض، بحثا عن المعرفة و تحصيلا للعلم فلا غرابة عندما نجد أن رجالا من المسلمين يرتحلون إلى أقصى الدنيا، بحثا عن حديث أو حل لمسألة فقد >> رحل اللغويون و النحويون و رواة الشعر، إلى القبائل الخالصة للأخذ عنها. و رحل المحدِّثون إلى الصحابة، لأنهم عايشوا النبي صلى الله عليه و سلم و أخذوا من فمه، و رووا عنه معاينة، ثم رحلوا إلى من أخذ عن أفواه هؤلاء الصحابة. و من ثم صغروا من شأن من يأخذ من الكتب، و سموهم الصحفيين، و جعلوا من الرحلة إلى الشيوخ ما يشبه الفريضة << (4) . و تحدثنا كتب الرحلات و غيرها، عن العديد من الرحالين الذين في سبيل العلم >>كانوا يقطعون البراري و الصحاري القفار ، و يلقون في سبيله المعاطب و الأخطار، و كانوا يجوعون في سبيله و يعرون، و يظمأون و يضحون ، لا يشتكون الفاقة و النصب ، ولا يعدون الراحة إلا للتعب<< (5) .

لقد تكبدوا المشاق ، و قطعوا المسافات الطوال من أجل العلم ، >> و يكفي أن نشير في هذا الصدد إلى مثال فقيه أندلسي، هو أسعد الخير الأنصاري الأندلسي، (ت 541هـ) الذي نعت

---

(1)- محي الدين أبو زكريا بن شرف النووي، رياض الصالحين،تح أحمد أبو زينة، المكتبة العصرية ، صيدا ،بيروت لبنان ، ص:396 .

(2)- سورة المجادلة ، الآية رقم 11 .

(3) –محي الدين بن شرف النووي ، المرجع السابق، ص 395 .

(4)- حسين نصار، أدب الرحلة ، ص: 34.

(5)- محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر ،ص: 216.

بالصيني، لارتحاله إلى تلك البلاد النائية >>[1]. و الحقيقة أن الإسلام بتعاليمه و توجيهاته في بناء حياة المسلم ، ركز كثيرا على العلم الذي يعتبر ثمرة العقل الذي يتميز به هذا الإنسان، وهذا ما خلق بين المسلمين تنافسا للوصول إلى هذا العلم و اكتساب المعرفة بأنواعها،فتعددت أسفارهم ، و اختلفت و جهاتهم ، كما تباينت توجهاتهم، إلا أن القاسم المشترك بينهم بقي السفر، إذ << المعلوم أنه طوال القرون الأولى للهجرة، كان اكتساب العلم مرادفا للسفر. و في حمى تنافسية، كان يتم الانطلاق و اختراق الفلوات، لجمع أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم و الشعر الجاهلي و لغة البدو >>[2].

لقد ارتبط طلب العلم – عندنا نحن المسلمين – بالدين ارتباطا وثيقا ، بل أنه مطلب إسلامي أمر به الله تعالى عباده المؤمنين ﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ**﴾[3]ما يجعل التداخل بين الدافع الديني، و الدافع العلمي في الرحلة يعتبر أمرا طبيعيا، ولعل هذا ما يفسر بروز الرحلة لطلب العلم بشكل واضح عند الجزائريين و المغاربة عموما، و تلك حقيقة ثابتة أقرها العديد من الدارسين المهمين بالتأريخ لأدب الرحلات؛ فكراتشكوفسكي يرى أن طابع الرحلة في طلب العلم طغى على ما عداه من أنواع الرحلات في المغرب منذ القرن السابع الهجري، وقد اتسع نطاق انتشاره على مدى القرون ، حتى بلغ الأوج بوجه خاص في العهد التركي [4].ولما كانت حياة الإنسان قائمة على الضد، فإن الجهل الذي سيطر على الحياة و انتشر في العهد العثماني ، كان لا بد أن يخلق معه اتجاه آخر يقابله، و في نفس الوقت يقاومه، و هو ما تجلى فعلا في ذلك الاتجاه الذي تاق فيه أصحابه إلى العم، فرحلوا إليه هاجروا من أجله، و في نيتهم اكتسابه و الانتفاع به، ثم بعد ذلك تقديمه و نفع الغير به، وهو ما فعله الفكيرين[5] ، الذي شد الرحال طالبا للعلم في رحلة دامت عشرين سنة قضاها متنقلا بين يلدان مختلفة ، فقد << جال في ملك الله إلى أن توغل في أرض السودان ، و لقي بها

---

(1)- كراتشكوفسكي المصدر السابق ،ص:19.

(2)- عبد الفتاح كيليطو ، المرجع السابق، ص: 15.

(3) سورة التوبة، الآية 122.

(4)- ينظر حسين نصار ، المرجع السلبق ص :34

(5)- هو عاشور بن موسى القسنطيني المعروف بالفكيرين وهو لقب والده توفي في العام 1074هـ.

أجلة من علماء ، وعندما رجع إلى بلاده ، أخبر بغرائب ما شاهد ، و عجائب ما رأى و ما أخذ مـــن أولئك العلمــاء ، و أرباب الأسـرار و حصل منهم فـــن القراءات، و جـــــانبا عظيما من الأدب >> (1) .ولا نتعجب عندما نجد بعضا من الرحالة ، من كتب رحلة علمية بحتة ،كأبي راس الجزائري ، الذي ركز في رحلته على ذكر المشايخ و العلماء ، و المسائل التي كان له فيها معهم صولات و جولات ، و مناقشات و مناظرات ، دون أن نجد في رحلته وصفا لطبيعة ، و لا وصفا لطباع ، ولا ذكرا لعادات ولا تعريفا بتقاليد ، و لا حديثا عن بحار و لا عن أنهار .

والمعلـوم أن العلوم التي سيطرت علي الرحلات الجزائريــــة في العهد العثماني ، هي العلـوم الدينية و اللغوية بالدرجـــة الأولى ، أما باقي العلوم الأخرى كالفلك و الرياضيات و الطب وغيرها ، فقد كان الاهتمام بها أقل ، ولم نجـــــــــد لها صورة واضحة إلا في بعض الإشـــــــارات قي رحلة ابن حمادوش الجزائري (2) .

و الحديث عن الرحلة العلمية في حقيقة الأمر ، لا يستقيم دون الحديث عـــن منارات العلم و حواضره ، و التي كما هو معلوم تركز انتشارها في بلاد المشرق ، و عليه فإن وجهة الرحالين من أصحاب الرحلات العلمية ، كانت في أغلب الأحيان نحو المشرق العربي ، فقد << صار من المألوف أن تتجه الرحلة في أغلب الأحوال إلى الشرق ، للتلمذة و الأخذ عن علمائه، و هذا شيء طبيعي و مشروع، فالشرق منبع كل فضيلة و منه شع قبس العلوم و المعرفة >>(3) .

وهذه الحقيقة تفرض علينا الاعتراف بفضل المشارقة على المغاربة ؛ ذلك أن تأثيرهم فينا واضح ولا ينكره أحد ، إلا أن هذا لا يجب أن يفرض علينا تكريس عقدة الأستاذية المطلقة لعلماء المشرق على نظرائهم في المغرب ، و التي ما زالت إلى اليوم تعشعش في عقول البعض ؛ فالواقع يشهد على أن كثيرا من علماء المغرب ،كانت لهم مكانتهم و احترامهم عند علماء المشرق ، و تكفي الإشارة هنا إلى محمد أبي راس الجزائري صاحب" فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمتـه " الذي رحـــــل إلى مصـر متسلحا

---

(1)- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ص: 397.

(2)- من ذلك على سبيل المثال الصفحات: 106-118-121-219-255....

(3)- الحسن الشاهدي ، المرجع السابق الجزء الأول ، ص:80.

بعلمه ، و ناظر بعض علمائها و تفوق عليهم ، فاعترفوا بعلمه، و عظموا من شأنه، [1] .

و لا يجب أن يفهم من هذا الكلام أن جميع المغاربة كانت وجهتهم بلاد المشرق حين رغبوا في طلب العلم ، بل أن فيهم من كانت وجهته منارات العلم في بلاد المغرب ، و هذا يعتبر أمرا عاديا ، فمن الطبيعي أن نجد من الرحالة طالبي العلم من لم تكن وجهتهم بلاد المشرق ، بل اكتفوا بطلبه أو تقديمه في بلاد المغرب ، وهذا ما نجده عند بعض الجزائريين الذين ولوا وجوههم في رحلاتهم شطر تونس و المغرب ، تارة كمحطتي عبور ، و أخرى كنقطتي وصول و إقامة . وهذا ما فعله الفكيرين المذكور آنفا و الذي مكث بقسنطينة مدة من الزمن ثم ارتحل منها >> لمظلمة أصابته منها و ذهب إلى تونس و استقر بها مدة و انتصب للتدريس بالزيتونة <<[2] ، و مثل هذا الصنيع يعـــبر بحق عن طينة العلماء ، فالرجل كما نرى ، طلب العلم و سعى إليه ، و لما أدركه لم يبخل به على غيره ، فمن عادة >> طالبي العلم أن يسيحوا في البلاد للقاء الشيوخ ، و مجالسة العلماء ، و الاطلاع على الكتب و زيارة الأولياء، و منهم من كان إذا حصل القسط الوافر من العلم ، فإنه يطوف في الأقطار الإسلامية ليلقى العلماء ، و يعلم و يدعو و يفقه تلبية أيضا للدعوة الكريمة : خيركم من تعلم العلم و علمه <<[3] ، و كذلك فعل ابن حمادوش، الذي كانت وجهته تطوان و مكناس و فاس بالمغرب حيث ارتحل لطلب العلم و ممارسة التجارة معا.

ج- الدافـــع الجهـــادي السياســـي :

إن الحديث عن الدافع الديني و العلمي، لا يجب أن يحجب عن أعيننا العامل السياسي، الذي فرضته طبيعة الحياة السياسية المضطربة داخليا ، و المتدهورة خارجيا مع بعض الدول الغربية خاصة اسبانيا ، التي كانت اكبر المتربصين بالجهة الغربية للوطن و وهران على وجه الخصوص ، لقد كانت هذه الأوضاع من العوامل التي حتمت على البعض القيام برحلات من نوع خاص ؛ نعني بها تلك الرحلات الرسمية التي قام بها بعض الحكام بدوافـع مختلفـة ، تأديبية تارة ، و جهادية تارة أخرى

---

(1)- ينظر: محمد أبو راس الناصري ، فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1990 ، ص: 119.

(2)- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق، ص:397.

(3)- فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص:38.

وهي الرحلات التي دون أحداثها مرافقون لهم ، يختارونهم حينا و يقومون بذلك بمحض إرادتهم أحيانا أخرى ، و عادة ما يحرص هؤلاء على تسجيل أحداث الرحلة تحت إشراف الحاكم المرتحل، و يعتبر محمد الكبير باي الغرب الجزائري من أشهر الشخصيات التي اهتم بها الجزائريون ، و كتبوا عنها ، و تتبعوا حركاتها و تنقلاتها، و دونوا سيرتها ، إعجابا بها و تقديرا لعملها ، و اعترافا بفضلها ؛ فالرجل << بمجرد جلوسه على كرسي الحكم و تعيينه بايا ، شرع في إصلاح شؤون الرعية ، و السهر على مصالح العباد و تنظيم البلاد ، فراح ينشر الأمن و يؤلف بين قلوب الناس ،و بادر بإخضاع القبائل المتمردة على الحكم التركي مثل قبيلة " أولاد علي بن طلحة " و قبيلة "الحشم" و قبائل "فليتة" و "حميان" و " عمور " و جميع قبائل "بني راشد " و بعض القبائل التي كانت مقيمة على الحدود المغربية تحترف اللصوصية ، و قطع الطريق على المسافرين ، فانتصر على الجميع ، و أخضعهم للحكم التركي، و ملأ خزينته بما أدوا له من الضرائب كما أدخل بعضهم في المخزن فأصبحوا له منقادين ، و لحكومته مخلصين >> [1] .

في هذا الصدد يمكن الإشارة إلى رحلته الموسومة برحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري ، هذه الرحلة كما هو معلوم قام بها هذا الباي ودون أحداثها ابن هطال التلمساني ، أما الدافع إليها فقد كان تأديب القبائل المارقة التي لم تخضع للسلطة العثمانية أو تمردت عليها ، بغرض تعزيز سلطة الدولة و إبراز هيبتها . ولا شك أن رحلة رسمية كهذه لا بد أن تكون قائمة على دراسة دقيقة . و عليه لا نشك أبدا أن هناك أهدافا أخرى من ورائها قد تكون غير معلنة.
و تأكيدا لقيمة شخصية محمد الكبير الذي << يعود له الفضل في تحرير وهران من السيطرة الاسبانية >> [2] قيد بن زرفة الرحلة الجهادية التي قام بها الرجل و أبلى فيها البلاء الحسن و عنونها بـــ " الرحلة القمرية في السيرة المحمدية ".

د- دوافـــع أخـــــرى :

لما كانت الرحلة كما رأينا من قبل ترتبط ارتباطا وثيقا بالواقع باعتبارها تصوره ، و تنقل تفاصيله و مشاهده التي تصادف الرحالة في سفره ، هذا السفر الذي كما رأينا مبني أساسا على القصدية التي

---

(1)- ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص:17.

(2)- ابن زرفة ، المصدر السابق ، ص:148.

تجعل منه فعلا مدروسا و مخططا له مسبقا ، يتحول فيما بعد إلى نص محكي تتحكم فيه الظروف المحيطة به ، سواء الدينية منها أو الثقافية ، أو الاجتماعية ، أو السياسية ، أو الاقتصادية و هي الظروف ذاتها التي يكون لها دورها في التأثير على الرحالين .

و إذا كنا من قبل وقفنا عند الدافع الديني و العلمي و السياسي تماشيا مع طبيعة رحلات العهد العثماني و الظروف التي أحاطت بها ، فإن الواقع يفرض علينا أن لا نغفل الحديث عن الدوافع الاقتصادية و الاجتماعية ،و الذاتية ، التي و إن لم تكن دوافع مباشرة فإنها بلا شك تلقي بظلالها على الرحالين، و قد كانت فعلا في كثير من الأحيان من العوامل المؤثرة و التي دفعت الكثير من الجزائريين إلى الرحلة، خاصة أولئك الذين كان يرى فيهم العثمانيون أنهم أصحاب الكلمة المؤثرة ، و السلطة القوية على الرعية ، و نعني بهؤلاء الأشراف و المرابطين ، و المتصوفة و أهل العلم الذين كانت في بعض الأحيان تتوتر العلاقة بينهم و بين الأتراك ، فيضيقون عليهم بل في بعض الأحيان << يلقون عذابا شديدا كالشنق و القتل، و المصادرة أو النفي ، و بالتالي الفرار و الهجرة هروبا من تلك الأوضاع ، للبحث عن ظروف عيش أحسن و أأمن>>[(1)].

إن هذه الأوضاع ، هي التي جعلت الفكون الذي سبق التعريف به يفكر شخصيا – وهو أحد علماء العصر – في الهجرة و الارتحال إلى الحجاز ، لولا تدخل والده الذي أقنعه بالعدول عن ذلك .

وما يؤكد اضطراب الحياة و تضارب المصالح بين ساسة الأتراك و رجال العلم و الدين من الجزائريين ، تلك الحملة التي قادها بعض شعراء العهد ضد العثمانيين و أتباعهم ،حين وجهوا لهم سهام الهجاء مثلما فعل المنداسي [(2)] الذي هجا العثمانيين في قصيدة مطولة تحت عنوان الإعلام بما وقع

---

(1)- لبصير سعاد ، دوافع الهجرة الدينية و العلمية من الجزائر في العهد العثماني ، أعمال الملتقى الوطني الأول ، سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي و الحاصر، مطبعة الكسندر قسنطينة، 2009، ص: 48.

(2)- هو أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي أصلا التلمساني منشأ و دارا المتوفى في العام 1088هـ تتلمذ بتلمسان على يد علماء عصره ثم ارتحل إلى فاس وعاش فيها مدة من الزمن مقربا من السلطان مولاي إسماعيل العلوي الذي خصه بكثير من المدائح و نال عطاءه و قد اشتهر المنداسي << بالعقيقة >> وهي قصيدة مطولة في مدح الرسول صلى الله عليه و سلم اهتم بشرحها أبو راس الناصري و الف في ذلك <<الدرة الأنيقة في شرح العقيقة >>

للإسلام حيث قال :

أمن قادر بالله يحمي تلمـــــسان   فإن بها من قوم ياجوج إخـــــــوانا
بنى السد ذو القرنين للناس رحمة   فيا ليته من شوكة الترك هنـــــانا
و أكبر شيء أفسدته أكفـــــهم   تلمسان عين الغرب علما و أيمانا
و كانت لهم لما أرادوا فـــــسادا   أراذل منها كالبطارق أعــــــوانا
فمنهم قرين السوء مفتي بلادهم   تود العباد الترك كانوا و لا كـــانا
فقل لابن زاغو للضلال أيـــمة   تدبر لحاك الله ما قال مـــــولانا
ولا تركنوا و الركن منك سجيـــة   كأنك لم تسمع من الله قـــــرآنا [1].

و لم تكن سياسة الأتراك وحدها من الدوافع التي أجبرت الكثيرين على الهجرة ، بل أن الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية كذلك كان لها دورها في ارتحال الجزائريين و هجرتهم ، و قد حدث هذا فعلا بسبب حرص الحكام الأتراك على جمع المال بكل السبل المشروعة و غير المشروعة، ما أثقل كاهل الرعية بالضرائب التي سلطت عليهم من قبل هؤلاء الحكام ، خاصة المتأخرين منهم ، الذين كانوا << يأتون في آخر الربيع، فيخرجون معهم الأمحال ليستخلصوا الخراج و الزكاة و الأعشار.و هكذا وضع الأوائل الجباية على المنهج الشرعي و الأواخر صاروا يخرجون المحلات لاستخلاص المغارم و الظلمات و نهب أموال المسلمين. وما وقع هذا ، حتى صار الناس فجارا و الأمراء ظالمين >>[2]. يضاف إلى ذلك انتشار الأوبئة و المجاعات الهالكة التي عجز الناس على مقاومتها إذ << وقع الغلاء في القمح مدة ست سنوات ،و أعطى الله القحط، و هو الجوع في الناس حتى صارت قيمة الصاع الجزائري أربع بجة و الناس يموتون جوعا في الأسواق قالوا أن الرجل كان يأكل مقدار ما يأكل الرجلان و لا يشبع و بعد الأكل يموت و هو يقول :جعت أعادنا الله من هذا الداء لأنه ليس له دواء >>[3] .

---

(1)- سعيد بن عبد الله المنداسي ، الديوان . تح و تق رابح بو نار ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر د.ط ، د.ت ص:87 و ما بعدها و ينظر كذلك محمد بن رمضان شاوش و الغوثي بن دحمان ، المرجع السابق ص:436.

(2)- أحمد توفيق المدني ، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر1974، ص:35.

(3)- نفسه: ص31.

الفصـــــــــــل الثاني

البناء الهيكلي للرحلة الجزائرية في
في
العهد العثماني

توطئة

إن التعامل مع النص الأدبي، مهما كان نوعه و طبيعته – شعرا كان أو نثرا قديما أو حديثا – يفرض على الدارس أو الناقد ، أن يضع لذلك مخططا يسير عليه ، وينتهج نهجه ، من خلال تحديد خطوات محددة يتبعها للتواصل مع النص ، و التفاعل معه، و من ثم الوصول إلى الغاية ، غاية التحليل و الدراسة . و في كثير من الأحيان ، يتدخل النص ذاته ، ليفرض طريقة التعامل معه ، و مراحل تناوله ، و خطوات دراسته .

و النقاد عموما يتفقون على أن التعامل مع النص الأدبي، لا يخرج عن الخطوات الأساسية التالية :

1- النظرة إلى النص من الخارج ، وهي النظرة التي تسقط مباشرة على التصميم الهندسي للنص ، و مثل هذه النظرة عادة ما تكون قبل القراءة ، ما يعني أنها ستركز أساسا و قبل كل شيء على العنوان و لواحقه ، إضافة إلى الفهرس، أبوابه، فصوله ، و مباحثه.

2- القراءة ؛ ونعني بها تلك القراءة التي تسقط على المتن، و يشترط فيها أن تكون قراءة شاعرية – على حد تعبير الغدامي- قائمة في الأساس على وعي القارئ بحقيقة فعل القراءة و تقنياتها ، و هذه القراءة ، هي التي تساعدنا على اقتحام أغوار النص ، و كشف أسراره ،و فهم أفكاره. و هي ذاتها التي تخلق المعاناة الفكرية ، و في نفس الوقت تحقق اللذة ، لذة النص التي تعتبر حقا من حقوق المتلقي، كما يرى ذلك رولان بارط . ولا خلاف بين النقاد أن هذين العنصرين هما العنصران الأساسيان اللذان يمهدان طريق التحليل و الدراسة، و بالتالي عملية الإبداع النقدي .

3- ما بعد القراءة حيث تبدأ عملية التركيب و الإبداع على أنقاض النص المدروس .

و المعلوم أن كل عمل أدبي ، خاصة إذا كان نصا سرديا ، لا بد أن يتشكل كمجسم في ذهن صاحبه ، يحدد له أعمدته الأساسية ، و يرسم له تصميما يقيمه عليه ؛ ذلك أن العمل السردي في حقيقة أمره ، هو >> نشاط إرادي يرتب خلاله الكاتب العناصر و الأسس الفنية الرئيسية التي تتكون منها حبكة فنية ترتيبا إراديا <<[1].

---

(1)- خالد أحمد أبو جندي،الجانب الفني في القصة القرآنية ، دار الشهاب للطباعة و النشر،باتنه الجزائر،دط ،دت ،ص:119.

إن هــذا التخطيــط يعتبر استراتيجيه مدروسة ، و موضوعة أساسا من أجـل الوصول إلى غاية محدده ، هي القارئ أو المتلقي عموما ، و التأثير فيه بغية إقناعه ، أو توجيه فكره ، أو تنبيهه إلى أمر ما ، أو إمتاعه و تحسيسه باللذة ، بحسب طبيعة النص و الغرض منه .

و مثل هذا التصميم القبلي ، يعتبر ضروريا لكل عمـل سردي ، وفـــي ذلك >> لاحظ غريماس Grimas أن السرد يكون مبنيا بصورة مسبقة ، حتى قبل تشكله ، و هذا هو ما يسمى بالإطار الشكلي لجنس السرد <<[1].

إن إبداع أي نص أدبي - سردي أو غير سردي — خاصة النص الرحلي ، باعتباره وسيلة من خلالها ينقل فعل الرحلة إلى كتابة . و الرحلة كما هو معروف حركة تتأسس على القصدية المسبقة ، التي تفرضها متطلبات السفر ، و عليــه فان الرحالة لا يمكن أن ينطلق من فــراغ، و نصـه لا يمكن أن يأتي وحيا دون مقدمــــات ،كما لا يمكــن أن ينجز دون تخطيط ؛ فالكاتب أو المبدع عموما ، و الرحالة على وجه الخصوص ، ونظرا لطبيعة الرحلة و خصوصيتها، باعتبار أنها لا تكتب في العادة إلا بعد الانتهاء من الرحلة كفعل ، اعتمادا على الذاكرة من خلال أفكار و رؤوس أقلام متناثرة في وريقات و كراسات سجلت مسبقا ، ما يعني أن الرحالة مجبر على أن يرحل في الماضي ، ليجمع أحداثها ، و شتات مضامينها ، و هذا ما يجعل الرحلة في الغالب ، تتقاطع مع السيرة الذاتية التي تعتمد على الحكي الاستعادي التذكري ، و هذا الأمر يجعلهـا - بلا شك - تحتاج إلى تنظيم أو ترتيب معين ، ما يفـرض على الرحـــالة أن يضع مسبقا تصميما لما يريد أن يقدمه ، ثم يقدم بعد ذلك فكرتــه و أحداث رحلته وفق ذلك التصميم ، و بذلك يصبـح هذا الإنتاج ، يتقاطع مع الانجاز البنائي المعماري ، الذي كما هو معروف ، يعتمد مرحلتين أساسيتين هما : مرحلة التصميم ، ثم مرحلة الإنجاز .

و المعـروف عند المهندسين في الدراسات المعمارية أن >> التصميم هـو فكره المهندس المعماري و بنية البناء هي انجازه <<[2]. و هــذا يعــني أن المهــندس المعمــاري هــو الـــذي يضع تصميــم البِناء

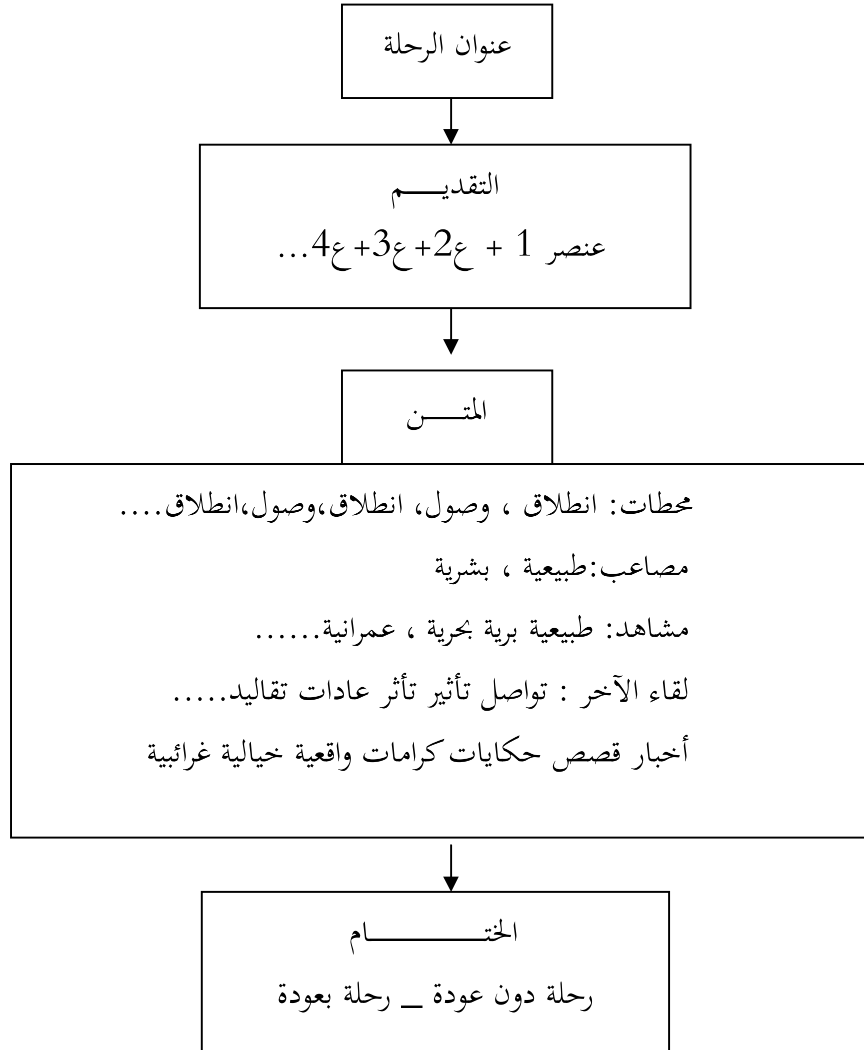
---

(1)- حسين خمري،فضاء المتخيل، منشورات دار الاختلاف، ط1، 2002، ص:83.

(2) - عبد الملك مرتاض،النص الأدبي من أين و إلى أين، محاضرات ألقيت على طلبة الماجستير في الأدب العربي، السنة الجامعية 1980-1981، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ،ص:20.

بينما البَنَّاء هو من يتكفل بانجاز التصميم وتجسيده على أرض الواقع ، وهــذه الثنائية بين المهنــدس و البناء، لا يمكـــن الاستغناء عنـــها إذا ما أريـد للانجــاز أن يكـــون متينا ، مبهرا،و ذا قيمة، و على العكس من ذلك تختفي هذه الثنائية مع النص الأدبي ، باعتبار أن الأديب هو المصمم ، و هو في نفس الوقت البناء الذي يختار لبنائه أفضل اللبنات، و أجمل اللواحق ، التي تجعل من بنائه تحفة تبهر الألباب و تشغل العقول .

و الرحــلة – نثرية كانت أم شعرية – باعتبارها نصا ، فهي كغيرها من النصوص ، تحتاج هي الأخرى إلى تصميم يناسب طبيعتها، و حقيقة ما يريد صاحبها من كتابتها ، و في كل الأحوال فان هذا التصميم لا يخرج عن الركائز الأساسية التي يبينها الشكل أدناه.



إن معمارية النص ، أو ما سميناه سابقا البناء الهيكلي للنص ، تقوم على أعمدة أساسية يأتـــي على رأسها : العنوان ، المقدمة ، المتن ، و الخاتمة.

أولا: العنوان....ماهيتـــــــــــه :

لا يختلف اثنان ، أن من ابرز مكونات بناء النص هو العنوان، باعتباره الواجهة الظاهرة الأولى التي تعترضنا ، و يقع عليها بصرنا . و هذا المدلول يتماشى مع مدلول كلمة العنوان التي ترجع في لسان العرب إلى مادتين مختلفتين هما : " عنن " و " عنا "

عنن: تفيد معنى الظهور و الاعتراض ، و في هذا المعنى جاء قول امرئ القيس :

فعـــن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في ملاء مذيل [1].

↓

عرض و ظهر

و جاء في المعجم الأدبي : عنن الكتاب ،عنونه [2].

عنا: تفيد معنى القصد و الإرادة ، و في هذا المعنى نقول : عنيت بالقول كذا : أردت.

و معنى كل كـــلام و معناتـــه و معنيته : مقصده.

و العنوان سمة الكتاب ؛ عنونـــه عنونـــة و عنـــوانا كـــلاهما : وسمـــه بالعنوان .

من خــــلال ما تقـــدم ، يمكننا أن نجمـع لكلمة عنـــوان من مادة " عنن " دلالة الظهـــور و الاعتراض و هي معان ذات صـــلة بمدلـول العنوان ، باعتباره أول ما يظهر من الكتاب ، و في نفس الوقت يظهر ما يخفي الكتاب بين دفتيه .

كما يمكننا أن نجمـــع لكلمة عنوان من مـــادة " عنا " دلالـــة القصـد ، و السمة ، و هي معان ذات صلة بالعنوان كـــذلك ، باعتباره سمـــة الكتاب وبه يقصد [3].

---

(1)- الزوزني ، شرح المعلقات السبع ،مكتبة المعارف،بيروت، دط، 1983، ص:51.

(2)- جبور عبد النور ، المرجع السابق، ص: 185.

(3)- ينظر محمد فكري الجزار ،العنوان و سيموطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،دط، 1998، ص: 16-17.

أما العنــوان في الاصطـلاح ، فهو ذلك النص الذي يضعه الكاتب ليدل به على عملــه، ســواء كان هذا العمل نصا أو كتابا ، مهما كان موضوع هذا الكتاب و مجال اختصاصه .

>> و هــذا النـــص ، أعنـــي العنوان – يطـول تارة ، و يقصر أخـــرى ، فقـــد يكــون " كلمــة " و " مركبا و صفيا " و " مركبا إضافيــا " كما يكون " جملة " فعلية أو اسمية ، و أيضا قد يكون أكثر من جملة <<[1].

و يعتبر العنــوان على أيامنا هــذه ، العنصر الأهــم في العناصر التي يبنى عليها النــص الأدبي ، مهما كانت طبيعته ، و مهما كان جنسه ، باعتباره العتبة الأولى التي من خلالها يمكننا بداية رحــلة الولــوج لأعماق العمل الأدبي .

و نظرا لأهمية العنوان، فان الأدباء و الكتاب ، أصبحوا اليوم يختارون لما يكتبون عناوين و هم على قناعة تامة بـ>> أن اختيار العنوان ليس ترفا تزيينيا ،بل تعبير عن إستراتيجية كتابة لا بد أن يكون لها موقع في إستراتيجية أي قراءة لاحقة <<[2]. و عليه يجب أن تكون العناوين موضوعة وفق إستراتيجية محددة ،و خاضعة في نفس الوقت لدراسة دقيقة ، من حيث تركيباتها اللغــوية ، و دلالاتها الإيحائية ، بل قــد يتطلب الأمــر أن يضيفــوا لها ما يســـاعد على إبــراز جماليتها ، و تعميق دلالتها ، حين يعمدون إلى تنويع الخط ، و توظيف الألوان ، واعتماد الرسومات ، بمساعدة فنانين مختصين .

ولا يختلــف اثنان أن العنوان ، أصبــح يشغل حيزا كبيــرا في الدراسات الأدبيــة و النقدية في العصر الحديث ، و أصبح الاهتمام به يتزايد يومـــا بعــد يوم ، إلى الحد الذي أصبحت تخصص له دراسات خاصــة به، لا تتعـداه إلى غيره، تحت عنوان كبير هو علـم العنونة (TITROLOGIE).

و العنوان كما يقر بذلك الدارسون والمهتمون ، هو مفتاح النص ، بل هو أول لقـــاء بين القارئ والنـــص ، و هــو من جهة أخرى ، آخر أعمال الكاتب ، وأول خطوات القارئ في تعامله مع الإبداع . و يختلف العنــوان باختلاف مقاصـــد صاحبه ، فقــد يكون عنوانا تجاريا يلعب دور الطعم

---

(1)- محمد فكري الجزار ، المرجع السابق ، ص: 39.

(2)- يمني عبد الفتاح ، السيرة الذاتية في الأدب العـــربي فدوى طوقان و جبرا ابراهيم جبرا و احسان عباس نموذجا ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط 1 ،2002 ، ص:137.

لاصطياد القارئ ،كما قد يكون عنوانا فنيا ينشد فيه صاحبه القيمة الجمالية الفنية.

وفي كلا الحالتين، يسعى صاحبه من خلاله دائما إلى تحقيق غاية محددة، هي الصدمة التي توخز القارئ أو المتلقي، فتثيره و تلفت انتباهه، و ترغبه في الإقبال على النص أو الكتاب ، و بذلك تتحقق سلطة الكاتب على هذا القارئ، و هي السلطة التي لا يمكن أن يتنازل عنها، مادام وراء ما يكتب غاية مهما كانت هذه الغاية.

و العنوان حديثا، قد يكون دالا على النص مشيرا إلى مضامينه،كما يمكن أن يكون مبهما لا تتضح معالمه، ولا تبرز دلالته ، ولا تفك شفرته، إلا بعد الاطلاع على النص و تفكيك مضامينه ، و فتح مغلقاته ، وهو في كل الأحوال – أعني العنوان – لا يخرج عن وظيفته المتمثلة أساسا في : الإغراء و الإيحاء والوصف و التعيين.

إن تركيز الحديث عن العنوان من منظور المحدثين، و انطلاقا من رؤيتهم إليه و فلسفتهم في فهمه، لا يعني أبدا أن ظاهرة العنونة جديدة كل الجدة على الأدب العربي، و الثقافة العربية عموما،باعتبار أن العنونة،لا تتعلق بعالم الأدب وحده،بل تتعداه إلى غيره من العوالم الأخرى ، الدينية و التاريخية و الفلسفية...

قديما وفي العصور التي سيطرت فيها الشعرية الشفوية ،كان مطلع القصيدة يعتمد عنوانا لها ليميزها عن غيرها ، أما في صدر الإسلام ، وعندما كان المسلمون يجمعون القرآن ، و يدونونه ، فقد اختاروا كلمة " القرآن " و استعملوها ببعد عنواني ، لتدل على أن المقصود بها هو كلام الله تعالى ، و في عهد الصديق – رضي الله عنه — و بعد أن جمع القرآن الكريم ، التمس من صحابته أن يضعوا له اسما ، فاتفقوا على كلمة " المصحف "، فأصبحت عنوانا ثانيا لكلام الله ، ثم بدأت بعد ذلك العناوين تتفرع بتفرع الدراسات التي كان منبعها القرآن نفسه [1]. ولم تبق ظاهرة العنونة حكرا على المجال الديني ، متعلقة بما يكتب فيه فحسب ، بل تعدت ذلك في العصور الموالية إلى عالم الأدب ، و العلوم ، و التاريخ ، و الفلسفة ، خاصة في العصر العباسي الذي اعتبر قديما

---

(1) – من أمثلة ذلك :

– " كتاب في القراءات " ليحي بن يعمر (ت 89هـ -767م)

– " اختلاف مصاحف الشام و العراق و الحجاز " لعبد الله بن عامر (ت118هـ- 736م).

النموذج الأمثل ، لهذه الظاهرة نظرا لكثرة المؤلفات ، و تعدد العناوين و تنوعها .

ثانيا: استرلتيجية العنونـــــة:

إن ما تقــدم من حــديث عــن العنــونة و قيمتها بالنسبة للنصوص الأدبية ، و الكتب و المصنفـات عموما ، يجعــل الحـــــديث عن إستراتيجية العنونة في الرحــلة أمـــرا مشروعا و مطلوبا .

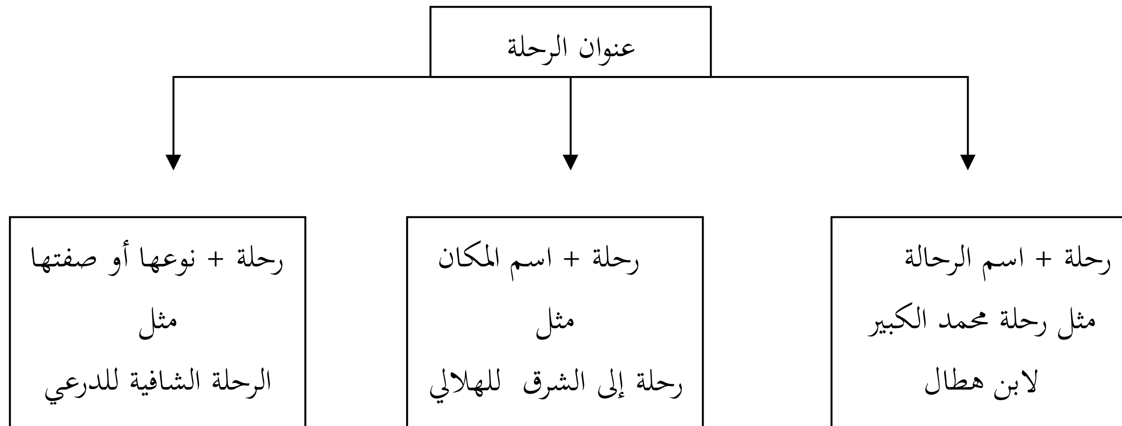
و كغيرهــا من الفنــون ، وفي مختلف العصـور، خضعت الرحـلة في العهـد العثمـاني إلى العنـونة ، التي كـــانت في كثير مـــن الأحيــان تعبيرا علـــى جنس الرحـلة ، و عامـــلا مساعــــدا علـى درء أي التباس لهـــا مع غيرها من النصــوص السردية الأخـــرى ؛ إذ لا يخفى علـى أحـــد حجم التداخــــل الذي نجـده بين الرحلة و مختلف فنون الأدب الأخرى ، التي تنصهر فيها ، و في كثير من الأحيان تتداخل معها ، حتى عدها البعض الوعاء الذي يستوعب كل الفنون و المعارف ، و ينفتح كذلك على كل الفنون و المعارف.

إن أول ما يمكـن أن نلاحظه في عنـــاوين رحـــلات الجـــزائريين في هــــذا العهـــد ، سمة الطول ، فقد جاءت جميع عناوين رحلاتهم ، جمــلا ســـــردية طـــويلة ، حيث لم نعثر في فترة البحث و التنقيب ، إعـــدادا لمـــادة هـــــذا العمل ، كما لم يعثر غيرنا و في مختلف العصور ، على رحـــلة بعنوان يتكون من كلمة واحـــدة ؛ ولعل مرد ذلك ، يعود إلى تعدد مضـــامين الرحلات من جهة ، و رغبة أصحابها في التلميح لهـــــذه المضامين من خلال العنوان من جهة أخرى.

و تبعا لذلك ، فإن عناويـــن الرحلـــات تتنـوع و تختلـف من رحـلة إلى أخرى ، تبعا لمضامينها و الغرض منها، وهي في عمومها، محصورة في ثلاثة أنواع رئيسة مهيمنة يمكن تحديدها كالتالـــــــــــي :

- عناوين تهتم بالرحــــــالة .
- عناوين تهتم بمكان الرحلة .
- عناوين تهتم بنوع الرحــلة .

ولتوضيح الفكرة و تقريب الصورة نلاحظ نماذج لذلك من خلال الجدول التالي :



من خلال هذا الجدول ، نلاحظ أن كلمة " رحلة " حاضرة دائما كعلامة تجنيسية ، مضاف إليها ما يميز بين رحلة و أخرى ، وعليه يمكننا القول مطمئنين ، أن العنوان المركب هو ميزة رحلية بامتياز .

و يتبوأ العنوان في الرحلة – كما في غيرها من فنون الأدب – مكانة هامة ، كما يمثل بنية أساسية ، لا يمكن الاستغناء عنها ، و لا يحق للدارس أن يغفلها ، أو يتعداها؛ إذ المعلوم أن المهتمين بهذا الفن يتفقون على أن << كل دراسة للمتن الرحلي أو غيره ، لا بد أن تنطلق من العنوان لما له من أولوية على كافة العناصر الأخرى >> [1].

من هذا المنطلق، بنينا إستراتيجية الحديث عن رحلات الجزائريين خلال العهد العثماني، انطلاقا من العنوان، حيث سنحاول التعامل معه كنص ، من خلال الوقوف عنده بتحليله ، و دراسته ، و تحديد دلالته ، ما يمكننا من الحديث عن هذه الرحلات انطلاقا من أولى مفاتيحها.

إن وقفتنا عند عناوين رحلات العهد العثماني، تأتي كذلك من منطلق ما أصبح يوليه النقاد – المعاصرون خاصة – من اهتمام بالعنونة ، يثبت ما للعنوان من أهمية في الأعمال الأدبية و غير الأدبية كما أسلفنا .

و الغرض من هذه الوقفة ، هو إبراز مكانة العنوان في بناء النص الرحلي في هذه الفترة من تاريخ الجزائر، انطلاقا من قيمته و مقصديته و دلالاته ، باعتباره مفتاحا لا بد منه لفتح مغلقات النص الرحلي ، و إبراز تموقعه في البناء الكلي لهيكلها . فرحلة الورثيلاني الموسومة بـ " نزهة الأنظار في

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص: 161.

فضل علم التاريخ و الأخبار " ، و المعروفة اختصـارا بـ " الرحلة الورثيلانية " ، لا يمكن التعامل معها دراسـة و تحليلا ، قبل الوقـوف عند عنوانها ، من حيث تركيبته و دلالاتــه. ذلك أن هذا العنـــوان و بالصورة التي جـاء بها ، لا يوحي أبدا بأن الأمر يتعلق برحلة لولا حضور العنوان المختصر .

و ما نلاحظه في هذه الرحلة أن عنوانها " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار " – و الذي يبدو أنه من وضع صاحب الرحـلة– و من خلال القـراءة الأولــى ، يوحي بالشمولية و التنوع التيمي، وهذا أمر طبيعي يناسب طبيعة الرحلة عموما ، و متن هذه الرحلـة على وجــه الخصوص ، و هذا العنوان من جـهة أخـرى جاء مركبـا و طـويلا ، و هـو عبارة عـن جملة من الناحية الفنية سيطر عليها السجع، الذي اكسبـها جرسـا موسيقـيا يبدو أنــه مقصـــود لذاتــه ، و هو ما يجعل الكاتب وفيـا لروح عصره ، الذي يعتبر – باتفاق النقاد و الدارسين – عصـــر الصنعة اللفظـية بامتياز، وهذا العصر ، أعني عصر الضعف عموما، وكما نعلم اهتم أدباؤه بالبديـــع اهتماما مبالغا فيه ، أضر في كثير من الأحيان بالمعاني ، و أوقع الأدباء في فخ التصنع.

و أمـا من حيث التركيـب النحوي ، فقــد جــاءت خبرا لمبتدأ محـذوف ، وهو ما يضعنا أمـام جمـلة اسمية خـــالصة ، لا وجـــود للفعل فيها، ما يجعــل العنـوان أكثر قوة في الدلالة ، و أكثر تعبيرا عن الثبات في قصدية الاختيار،التي جعلته أكثر بوحا بمضمون الرحلة ، و أكثر تلاؤما مع الهدف الذي من أجله كتبها الورثيلاني، و هذا الهدف و تماشيا مع طبيعة هذه الرحلة لم يكن واحدا ، بل كان في حقيقة الأمر متعددا ، يتجـــلى ذلك في قول الرحـــالة نفســـــه : >> و بعـد فأنـي لما تعـــلق قلبي بتلك الرسوم و الآثار، و الربــاع و القفـــار و الديار، و المعاطـــن و الميـــاه و البساتيـن و الأرياف و القـرى ، و المزارع و الأمصار، و العلماء و الفضــلاء، و الأدباء من كل مكان، من الفقهاء و المحدثين و المفسرين و الأبرار....أنشأت رحلة عظيمة، يستعظمها البادي ، و يستحسنها الشادي ، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثيـر من كتب الأخبـــار، مبينا فيــــها بعض الأحكام الغريبة ، و الحكايات المستحسنة ، و الغرائب العجيبة ، و بعض الأحكام الشرعية ، مع ما فيها من التصوف مما فتح به علي أو منقولا من الكتب المعتبرة ...<<[1].

---

(1)- الورثيلاني،المصدر السابق، ص: 16.

و هـذا العنـوان باعتباره نصا حاضـرا، فان قـراءتـه تحيلنا على مجموعـة من النصـوص الغائبة ، ممثلـة في عنـتاوين تلك الكتـب التي تشترك مـــع النص الحاضر فـي الكلمـة المفتـاحية " نزهة " [1] و تتقاطع معه تناصيا ، مما يجعل العنوان يتكئ على تراث ســابق ، وهذا يعني أن الكاتب لم يخلق ديباجة عنوانه من عدم ، و إنما استفاد من عناوين سابقة .

و هذه التناصية تعتبر أمرا طبيعيا، و لا نبالغ إذا قلنا أنها أمر لا مناص منه . و بالتالي فهي لا تنقص من قيمة الرحـالة و لا رحلتـه شيئا ، خاصـتة إذا اعتبـرنا العنوان نصا، و النص كما نعلم >> ليس إلا نسيجا من استشهادات سابقة، وعليه فالتناصية هي قدر كل نص، مهما كان جنسه<< [2].

و لا يخفى علينا ما تحمـله كلمة " نزهة " من معــاني التجـوال مـع المتعة ، و المعلوم أن النزهة ترتبط عـادة بالمشاهد الطبيعية الجميلة ، و البشرية الخارقة ، التي تبعث في النفس تلك الراحـــة التي يسعى إليها كل إنسان. و التي يبدو أن نص العنوان يغرينا بوجودها داخل متن الرحلة.

و الملاحظ أن العنوان بالصورة الأصـلية التي ورد بها بقلم الرحــــالة ، اختـفت فيه كلمة " الرحلة " ولم يكن لها حضور صريح ، حتى غدا و كأنه عنوان لكتاب تاريخي، ترحل فيه الذات المعنوية من خلال الفكر، في نزهة بالبصيرة لا بالبصر ، في فضاء علم التاريخ و الأخبار.

و لا شك أن حضــور كلمـــة التاريـخ في هـذه العتبـــة الأولى، جـــاء مقصودا من الرحالة باعتبار أنــه وضـع نفسـه من خــلال رحلته في مقـام المعلـم العـارف بالقضايا الفكـرية المطروحة في عصره ، و الذي يريـــــد تصحيــح النظـرة الخاصـة و السلبيـــة لأهـل العصـر تجـــاه علم

---

(1)- مثل :

- " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي المتوفى في العام 560هـ.
- " نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه و النظائر" لابن الجوزي المتوفى في العام 597هـ.
- " نزهة الأبصار في محاسن الأشعار " لشهاب الدين أبي العباس العنابي المتوفى في العام 776هـ .
- " نزهة النظار في قضاة الأمصار " لابن الملقن المتوفى في العام 808 هـ.

(2)- محمد فكري الجزار، المرجع السابق،ص:25.

التـــاريخ [1] ، تلك النظـرة التي نجد ما يـــدل عليها ، و يبرز رأي الرحالة فيها ، في متن الرحـلة ذاتها ، حيث يقول الورثيلاني معبرا عن موقف الجزائريين من التاريخ و نظرتهم إليه : >> علـــم التاريخ منعدم فيهم ، و ساقـط عندهم ، فيحسبونه كالاستهزاء ، أو انشغالا بما لا يعني ، أو من المضحكات المنهي عنها. فترى المتوجه منهم إلى الله ، يرى الكـــلام فيـه مسقطا من عين الله تعالى ليس هو عندهم من علم يذكر ، إذ لا طائل فيه أصـلا ، بل بنفس ذكـــــره عندهم ينكر <<[2].

و الورثيـــتلاني في الحقيـــقة لم يضـف اسمـــه لرحـــــلته ، لأن اختصارها بـ " رحلة الورثيلاني " هو من وضع غيره – قد يكون الناشر — رغبة منه في التوجيه ، و تحقيق المباشرة ، و الخفة في النطق و التداول.

وليس بعيدا عن إستراتيجيـــة الورثيـــلاني يأتي عنوان ابن حمادوش الذي وسم رحلتـــه بـ " لسان المقال في النبإ عن النسب و الحسب و الحال " [3] وهي المعروفة اختصارا برحلة بن حمـادوش الجزائري و العنوان بالشكل الذي وضـعه صاحب الرحـــلة ، و مثلما هو واضح ،جاء مركبا من جمل قائمة أساسا على السجع ، و هو في هذا لا يختلف على عنوان رحلة الورثيلاني المشار إليها سابقا .

وقـــد جـــاء عنوان رحـــلة بن حمادوش مشحونا بمجموعـــة من الدلالات ، التي تنبئ عن مضمون الرحلة ــ التي للأسف يبقى الجزء الأول منها إلى اليوم مفقودا ــ ولعل أول ما يوخز الفكر، و

---

(1)- هذه النظرة السلبية عند الجزائريين للتاريخ في هذا العهد ناتجة أساسا على اعتقاد غريب بأن الأخبار ارتبطت عادة بأدب اللهو و ا لمجون بل أن المؤرخين إنما كانوا يؤرخون للحكام و الملوك وقد كان لبعض المتصوفة دور بارز في تثبيت هذه النظرة خاصة أولئك الذين كانوا يعتقدون أن الشخصية الوحيدة التي يُحتفى بها و يذكر تاريخها و يعظم من شأنها و تنقل أخبارها إنما هي شخصية الرسول صلى الله عليه و سلم ومن بعده الخلفاء و الصالحين من الأولياء و أصحاب الكرامات.

(2)- الورثيلاني ، الرحلة ،ص: 697.

(3)- ما يؤكد أن العنوان من وضع الرحالة ما جاء على لسان محقق الرحلة: <<هذا العنوان مضاف في الهامش بخط مغاير واضح و لم يرد اسم " لسان المقال " في نص الرحلة التي عندنا و الظاهر أن الذي كتب العنوان نقله من الجزء الأول للرحلة و قد تأكد أن الكلمة الأخيرة في العنوان هي الحال بدليل وضع حاء منفصلة تحت الحاء >> ينظر الرحلة ص:29.

يثير التساؤل في هذا العنوان ، هو توظيف كلمة النبأ التي توحي بمعنى الإخبار ، الأمر الذي يحيلنا مباشرة إلى الاعتقاد أن صاحب الرحلة ، يحس بطريقة أو بأخرى ، بأنه غير معروف أو على أقل تقدير لم يهتم به معاصروه ، و لم يكتبوا عنه الشيء الكافي الذي يناسب مكانته و مكانة أهله ، فتكون بذلك إستراتيجيته قائمة على أساس التوجه بخطابه صوب المتلقي – المعاصر له أو المنتظر أن يأتي بعده – للتعريف بنفسه ، و أهله ، تعريفا يرضى به ويقتنع بأنه يتناسب و قيمته العلمية ، و الدينية ، و مكانته الاجتماعية .

و هذه الرحلة من خلال المقطع " النبأ عن النسب و الحال " يمكن اعتبارها سيرة ذاتية ، من منطلق أن السيرة الذاتية يروي فيها صاحبها ،أديبا كان أو كاتبا ، أو عالما أو غير ذلك من الأعلام ، حياته بقلمه فيعرف باسمه ، و نسبه ، وتجاربه الحياتية ، يبسطها بين أيدي غيره ليستفيدوا منها [1]. كما يمكن اعتبارها سيرة موسعة ؛ باعتبار أن الرحالة كتب عن حاله ، و حال أهله و عصره ، من خلال تلفيظ رحلته التي قام بها إلى المغرب ، و نقلها من الفعل إلى الكتابة التي وثقت لثقافته و علمه و مكانته بين أهل عصره ، و أبرزت كذلك قدرته على الوصف ، و التعامل مع الآخر و نقده .

و كل هذا يجب أن يؤخذ بحذر ؛ فالرحالة دون شك ، و على الأقل في المستوى الشخصي، يكشف أمورا ، و يضمر أخرى ، تبعا لغايته ، و إستراتيجيته التي وضعها مسبقا لرحلته ، فليس كل حال حال و ليس – كما يقال – كل ما يحصل للمرء يقال ، فالمنطق يفرض علينا أن نقتنع ، و نقر بأنه من المستحيل أن يرضى أي كان أن يكون كتابا مفتوحا ، نقرأ جميع صفحاته ، فلكل إنسان أسراره ، التي لا يبوح بها إلا لذاته و ليس إلا لذاته .

لقد وظف الرحالة عنوان رحلته بصورة أبرزت العلاقة بين فن الرحلة و فن السيرة . وعلاقة الرحلة بالسيرة الذاتية أمر واقع لا ينكره أحد ، بل هناك من يرى أن << الرحلة من الصعب فصلها عن السيرة الذاتية >> [2] ؛ من منطلق أن تجليات السيرة كثيرا ما يمكن الوقوف عليها في فن الرحلة ، ذلك أن الرحلة في كثير من الأحيان تتضمن سيره صاحبها ، أو على الأقل

(1)- ينظر جبور عبد النور، المرجع السابق، ص:143.

(2)- عبد الفتاح كيليطو،الحكاية و التأويل دراسات في السرد العربي،دار توبقال،الدار البيضاء المغرب، دط،دت، ص: 73.

جزءا منها ، و الرحلة كما سبقت الإشارة إليه ، هي فن مفتوح على العديد من الفنون الأدبية ، و غير الأدبية ، و هذا أمر طبيعي يعترف به دارسو الرحلة و المهتمون بها ، ما جعل الكثيرين منهم يؤكدون >> أن السير الذاتية هي رحلات حياتية و فكرية في الوجود المادي و الروحي مثلما هي الرحلات في العمق سير ذاتية محدودة خصوصا النصوص الحجازية و رحلات المغامرة <<[1] و عليه فأن يحيلنا هذا العنوان على الرحلة و السيرة في ذات الوقت ، لا يضر بالفنين و لا ينتقص من قيمة أي منهما .

ولما كانت هذه الرحلة تحمل في طياتها فن السيرة ، فإن التركيز على الذات سيطر بصورة واضحة ، حيث نجد له صداه داخل المتن الرحلي ، من خلال تجليات و بروز" الأنا " بشكل بارز - و في بعض الأحيان مبالغ فيه - بتوظيف ضمير الجماعة تارة ، و ضمير المفرد تارات أخرى ، و قد سيطر هذا الأنا على المتتاليات السردية ، التي سعى من خلالها الرحالة إلى رصد مساره الفكري ، واتجاهه الروحي ، و الكشف عن ذاته ، اعتمادا على التذكر باسترجاع الحادث ، و الخبر ، و الذكرى ، و التاريخ بيومه و شهره ، مثلما يوضحه ما تكرر في الرحلة كثيرا ، كقول ابن حمادوش : >> و في هذه الساعة كنا على ظهر البحر ، قريبا من غرناطة ، و كان عاشر خروجنا من الجزائر، الاثنين حادي عشرتا (هكذا). و يوم الأربعاء سادس عشر فبراير ألقينا المراسي بجبل طارق و نحن على وجل<< [2] ثم ما يلبث بعد ذلك أن يتغير " الأنا " ، من ضمير الجماعة إلى الضمير المفرد فيقول : >> و نزلت في فندق السرايري في بيت مقابلة عين الشمال ،كراؤها ستة عشر موزونة في كل شهر <<[3] .

هكذا يبقى العنوان كما أراد له الرحالة ، حاضرا بصورة أو بأخرى ، يرافق القارئ المعني الأول به في متن الرحلة ، من خلال السرد الذي يعمل على تمديد و توسيع و تفصيل معاني هذا العنوان المختزل الدال على الرحلة.

لقد حضر العنوان المختصر في كلا الرحلتين ، جنبا إلى جنب مع العنوان الأصلي على واجهة الرحلة ، و هكذا تصبح إضافة العنوان المختصر ، تأتي لغاية محددة ، هي تنبيه القارئ إلى

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص:50.

(2)- ابن حمادوش ،المرجع السابق، ص:30.

(3)- نفسه، ص: 32.

الفن الذي ينتمي إليـه المؤلف، إبعادا للمغالطـة التجارية ، التي قد نجدها في تلك العناوين المضللة ، و المخادعة ، التي قد تعتمدها بعض دور النشر.

إن العنوانين السابق الحديث عنهما ، و اللذين في الواقع يمثلان نصين قائمين بذاتهما ، لا يلمحان بصورة واضحة إلى أن الأمر يتعلق برحلة ، وقد يكون ذلك هو ما فرض ضرورة حضور العنوان المختصر ، الذي يمكن اعتباره عنوانا مساعدا .

و إذا كان العنوانان السابقان بالصورة التي رأينا ، فإن هناك عناوين أخرى برزت فيها كلمة الرحلة واضحة جلية ، ككلمة مركزية مفتاحيه ، يعتبرها بعض النقاد لازمة تجنيسية ، يصعب الاستغناء عنها في العناوين الرحلية.

و مع حضور كلمة الرحـلة ، يحضر المكان كحتمية؛ باعتبار أن الرحـلة –كما أشرنا غير مرة – لها ارتباط وثيق بالمكان ، الذي لا تكون الرحلة إلا داخل إطاره ، سواء كان هذا المكان واقعيا أو خياليا .

و من نماذج هـــذا النوع من العناويـــــن : " رحلة المقري إلى المغرب و المشرق "و هو نص العنـــوان الذي اختير لرحـلة المقري و العنوان بهذه الصورة ، و كغيره من عناوين هذا العصر جاء مركبا ، عبارة عن جملة من حيث التركيب النحوي هي جملة اسمية ، متكونة من عناصر متعددة كما يوضح ذلك الجدول التالي.

رحلـــة	المقـــــــري	إلى المغــــــرب	و المشــــرق
خبر لمبتدأ محذوف	مضاف إليـــه	جار و مجـــــرور	معطوف عليه

من خــــلال القـراءة الأولى لهــذا العنوان ، يتضـح أنــه ليس من وضـع مـؤلف الرحـلة وكلمـة المقـــري كافية لتأكيـد ذلك ؛ إذ ليس من المعقـول أن ينسب مالك الشيء ملكه إلى اسمه نظرا لما يحدثه ذلك من لبس عند المتلقي، يضاف إليها قناعة محقق الرحلة الذي لم يعثـر << على كتـاب بهــذا العنـوان ضمـن قائمة مــؤلفات المقـري التي و ضعـها مترجموه القدامـــى و المحدثون

كما انعدمت الإشارة إلى أي عنوان في ثنايا هـذا الكتاب من طرف المؤلف << (1).

إن واضع العنوان إنما أراد به ، و بكل بساطة تمييز هذا المؤلف على غيره من المؤلفات السرديـــة و لكن مع ذلك فهو يحمل إشارات دالة و ذات قيمة ، تنبـــئ عن قصـــدية مدروسة ، تدل على وعي تام بضرورة حضور ما يثير انتباه المتلقي و يشغل فكره ، و لعل الطباق المشار إليه في الجدول أعلاه بين " شرق " و " غرب " أكبر دليل على ذلك ؛ إذ أن الجمع بين الكلمتين تثير التساؤل عن وجهة الرحالة ، التي كما نلاحظ في العنوان تقدم فيها المغرب على المشرق ، و هذا يعـني أن وجهة الرحـــالة كانت أولا داخــل المغرب كرحـــلة داخلية ، الغرض منها البحث عن الشيوخ و الأخذ عنهم ، قصد التأسيس لشخصية علمية قادرة على الاستمرار في نهل العلـــــم ، و الاستمرار فيه علـــى مستوى أعلـــى ، و هـــذا لن يتأتـى إلا بالرحلة نحو الشرق ، كمرحلة ثانية ، وهي رحـلة أكثر من ضـرورية في هـذا العصر ، نظرا لحالة الجمود العلمي و الأدبي و الفكري التي كانت تسود بلاد المغرب العربي عمــوما ، و الجــــزائر على وجـــــه الخصوص ، إضافة إلى >> بدائية التعليم ، و نقص المدارس ، و قلة التآليف ، و عدم الاهتمام بالعلماء و المثقفين .. ثم أن الجزائر العثمانية لم تكن تتوفر على مؤسسة للتعليم العالي مما ترتب عليه هجرة الراغبين في طلب العلم << (2).

و حضور اسم الشهرة للرحالة في العنوان ، لاشك أن الغـرض منه توجيــه الأضواء كاملة عليه باعتباره المحور الذي تدور حوله جميع أحداث الرحلة التي يشارك فيها قولا و فعلا ، فيغدو بذلك البطل الأوحد ، و الراوي المتحكم في المروي من الأحداث ، التي يعتبر شاهدا عليها جميعا وهو كذلك السارد المتحكم في تقنيات السرد، انه صوره شبيهة لنموذج الراوي الذي>> نجده في أغلب الإنتاج الروائي الواقعي...حيث يحـكي كل شيء ، بطريقة توحي بأنه كان شاهدا على كل الأحداث النفسية و الاجتماعية ، و الثقافية التي يحكيها << (3). و الحقيقة أن هذا يعتبر أمرا طبيعيا ، باعتبار أن جـــل أحـــداث الرحـلة تكـون واقعية ، و الرحـلة كما هو معروف تعتبر أكثر الفنون الأدبية ارتباطا بالواقع .

---

(1)- أبو العباس أحمد المقري، رحلة المقري الى المغرب و المشرق، تحقيق محمد بن معمر، مكتبة الرشاد للطباعة و النشر و التوزيع الجزائر ، 2004 ،د ط، ص:9.

(2)- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ،مرجع سابق ، ص: 352.

(3)- علال سنقوقة، المتخيل و السلطة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2000،ص:207.

و من العناوين التي ظهرت في العهد العثماني ، و وسمت بها رحلات الجزائريين ، رحلة أبي راس الناصري >> التي أطلق عليها عدة أسماء منها " عدتي و نحلتي في تعداد رحلتي " و منها " فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي و نعمته " << [1]. و العنوان بالصورة التي نجدها على غلاف المؤلف الموجود بين أيدينا ، " فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته " لا يختلف على غيره من العناوين التي ميزت رحلات الجزائريين في هذه الفترة من حيث الطول، و اعتماد السجع كأساس في العنونة ، إلا انه من جهة أخرى ، و منذ الوهلة الأولى يبرز طبيعة الشخصية المحورية المتمثلة في الرحالة ، الذي يبرز بصورة الرجل القنوع الحامد لله على نعمه ، ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد أن الأمر يتعلق برجل علم و دين ، أنعم الله عليه بنعم أراد البوح بها و إظهارها ، من منطلق توجيــه سنــي و أمر قـــرآني تلخصــه الآيـــة الكريمـة ﴿ **و أما بنعمة ربك فحدث** ﴾.[2]

و العنـوان بهـذه الصــورة التي جـاء بها ، ينعدم فيه ما يدل على أن الأمـر يتعلق برحلــة عـكس ما نجـده في العنـوان الثـاني " عـــــدتي و نحـلتي في تعداد رحلتي " الـذي يعتقـــد أن الرحــلة و سمــت بـه كــذلك ، حيث حضور كلمة " رحـــلتي " التي يجب الانتباه إليها ، باعتبارها تدل صراحة على أن الكاتب يتحدث عن انتقال و حركة ، في إطار زماني و مكاني ، و الكلمة ذاتها أعني كلمة " رحلتي " ، تعلن>> عن سرد للأسفار ، و تضمن معنى الذهـــاب بعيدا عن الموطن الأصل ، كما تفتح أفق انتظار يرتبط << [3] بمـــا يجب أن يكــون في الرحـــلة من وصف للبلـدان ، وذكر لخصائصها ، وعادات و تقاليد أهلها ، و جمــــــــيع ما نقلتــه أذنـــه ، أو أبصرته عينه ، وهـذا يعـني أن الرحــالة من خلال العنــوان ، وضــــــع في ذهنه مسبقا أن يتحدث عن رحلته ، خاصة إذا علمنا أنه كان كثير التنقل و الترحال ، سواء في الجزائر ، أو في تونس و المغرب و مصـر ، و لكن مـع كل ذلك فان المطلع علـى هـذا المؤلَف لا يكاد يجـد فيه ما يدل علــــى روح الرحـلة من وصـــف للمكان ونقـل للأحـداث وتعليـــق على العــادات و التقاليـــد إلا في القليل

---

(1)- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر،مرجع سابق، ص:359.

(2)- سورة الضحى، الآية 11.

(3)- عبد الفتاح كيليطو، الحكاية و التأويل، مرجع سابق، ص: 72.

الناذر . و ما يؤكد ما ذهبنا إليه يمكن استخلاصه من نظرة خاطفة على الأبواب الخمسة المكونة لهذا المؤلف، و التي جاءت معنونة كالتالي :

البــاب الأول : في ابتداء أمري ....فيه حديث عن طفولته و شبابه و زواجه و أهله..

البـاب الــثاني: في ذكر أشياخي.............. فيه حديث وتعداد لشيوخه في المغرب و المشرق..

الباب الثالث : في رحلتي للمشرق و المغرب.......فيه حديث عن تنقلاته في الجزائر و تونس و المغرب و مصر..

الباب الرابــع: في الأسئلة و ما يتعلق بها........فيه حديث عن أجوبته على ما ورد عليه من أسئلة..

الباب الخامس: في عده ما ألفت ....فيه ذكر لتآليفة .

وهذه العناوين كما نلاحظ ، لم يأت ذكر الرحلة فيها إلا في عنوان الباب الثالث ، ما يمثل نسبة 20% من مجموع العناوين. و هذا الباب فعلا خصصه الرحالة للحديث عن رحلته في المغرب و المشرق ، و لكنه بقي وفيا لإستراتجيته ، و لما خطط له ، و هو تركيز الحديث عن نفسه و إبراز شخصيته العلمية خاصة.

و كما هو واضح ، فإن العنوان الرئيسي ، و عناوين الأبواب جميعها ، استُخدم فيــها الضمير الــدال على " الأنا " التي تفرض بالضرورة حضور الآخر ، الآخر الذي تمظهر في المتن بصورة موحدة لم تخـرج عن محيط العلم والعلماء ، و لم يكن هـذا الآخر سوى ذلك الآخر القريب ، أعني ابن جلدته و لغته ، من المثقفين و العلماء على وجه الخصوص ، ما جعل لعبة الضمير بسيطــة تـــدور في دائـــرة إقليمية قومية ، لا حديث فيها عن الآخر الأعجمي ، أو النصراني ، أو الكافر.

و قــد جـاء الأنا في هـذه الرحلة بضمير المفـرد ، لا بضمير الجماعة الذي اختفى في العنوان ، كما اختفى في المتن ، و هو ما يوحي بأن هناك إصرار مسبق لذي المؤلف أن يبرز ضمير المتكلم الدال عليه بصورة ملفتة ، وفق إستراتيجية بناها لنفسه ، تعبر عن رغبة جامحة في التغني بالأنا لإثبات الذات ، و إبراز الهمة ، و قد يكون ذلك مرده إلى مكنون نفسي راسخ في العقل الباطن للرحالة ، نتيجة حياة قاسية عاشها أشار إليها كثير من الذين تحدثوا عن حياته، و كتبوا عن سيرته حيث أشار جميعهم إلى أنه عاش الفقر ، و << ذاق مرارة الجــوع و الم اليتم و مارس الشحـاذة ، و مشـى بين الناس أكثـر من عشر سنوات حافي القدمين ، عاري البدن ، و غسل ثياب غيره و فلا

لهما القمل ، و سكن في خيمة فذاق شظف العيش و الجفاف العقلي << [1]. و عليه يصبح العنوان في دلالته أقرب إلى السيرة الذاتية منه إلى الرحلة ، وهذا ما فرض على محقق الرحلة أن يلتجئ إلى العنوان المساعد ، لتوجيه القارئ و تنبيهه ، و قد وضع من أجل ذلك تحت العنوان الرئيسي و بخط أصغر حجما ، عبارة " حياة أبي راس الذاتية و العلمية ".

وانطلاقا من العنوان الوارد في متن الرحلة ، و الذي حضرت فيه كلمة " الرحلة " بلفظها الصريح ، نلاحظ أن أبا راس وظف ذات الطباق الذي وسمت به رحلة المقري ، أعني المغرب و المشرق لكنه – بقصد أو بدون قصد منه – قدم المشرق عن المغرب رغم أن حقيقة رحلته كانت في المغرب أولا ، و ما يثبت ذلك قوله على الترتيب:

>> فأول رحلتي للجزائر العاصمة........ <<[2] .

>> ولما دخلت قسنطينة............... <<[3].

>> و رحلت إلى وهران................ <<[4] .

>> و رحلت إلى مدينة فاس........... <<[5] .

>> ثم ذهبت إلى تونس............... <<[6] .

>> ثم ركبت البحر إلى مصر........... <<[7] .

>> ثم رحلت إلى أم القرى............. <<[8] .

---

(1)- محمد أبو راس ، فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري الجزائر،د ط،1990، ص:5.

(2)- نفسه ، ص:91.

(3)- نفسه ، ص:98.

(4)- نفسه ، ص:100.

(5)- نفسه ، ص:101.

(6)- نفسه ، ص:108.

(7)- نفسه ، ص:115.

(8)- نفسه ، ص: 118.

و لا شك أن ثنائية المشرق و المغرب ، التي تميزت بها بعض عناوين رحلات الجزائريين والتي عادة ما توظف في الرحلة وفي غير الرحلة من الأدبيات ، تحيلنا مباشرة على ذلك السؤال القديم و الجديد في نفس الوقت ، حول الأستاذية و التتلمذ في العلاقة الأدبية و الفكرية و العلمية بين المشارقة و المغاربة ، و هو السؤال الذي يبدوا أنه حاضر في الضمير الجمعي للمغاربة و المشارقة على السواء ، و على مر عصور التاريخ ، منذ قيلت تلك الكلمة المشهورة " هذه بضاعتنا ردت إلينا " التي جاءت على لسان الصاحب بن عباد ، معلقا على العقد الفريد لابن عبد ربه ، بحجة أنه كغيره من أدب المغاربة << لم يأت بجديد و أنه ليس إلا صورة للأدب المشرقي و محاكاة لـه >>[1].

و المعلوم عند المثقفين العرب المشارقة و المغاربة على السواء ، أن هناك حساسية في بعض الأحيان مفرطة بين الطرفين ، و من المعلوم أيضا << أن هذا الشعور (الإحساس المغاربي) كان القاسم المشترك بين رحالينا المغاربة على اختلاف موضوعاتهم و أسلوب كتاباتهم >>[2].

و في هذه القضية عادة ما تبرز عقدة التفوق عند المشارقة ، و تطفو على السطح نظرتهم الاستعلائية للمغاربة ، و هذه النظرة يمكن أن نجد لها تجلياتها في بعض مؤلفات القدماء ، من خلال نظرة << بعض الجغرافيين العرب إلى المغرب العربي ، فهذا الاصطخري يعتبره (المغرب العربي) على الخريطة " كم الثوب " و هذا ابن الفقيه يضعه بمثابة ذيل الطائر، بينما يقول بن حوقل والمقدسي و المسعودي عن مصر إنها " أحد جناحي العالم " و عن القاهرة أنها " قبة الإسلام " >>[3].

و لعله من قبيل الرد و إبراز الذات المغربية في مقابل الذات المشرقية ، ما نجده في رحلة أبي راس الذي تحدث كثيرا عن تفوقه على علماء المشرق عموما ، و علماء مصر على وجه

---

(1)- محمد الصادق عفيفي و محمد بن تاوريت، الأدب المغربي،مكتبة المدرسة و دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط 2 ،1969،ص:5.

(2)- عبد القادر شرشار،كتاب الرحلة الى المغرب و المشرق لأبي العباس المقري،مجلة التراث العربي ، تصدر عن اتحاد الكتاب العرب دمشق،العدد98 ، السنة الخامسة و العشرين، حزيران 2005 م، جمادي الأولى 1426 هـ، ص:173 .

(3) - محمد جابر الأنصاري،الحساسية المغربية و الثقافة المشرقية ، الدوحة مجلة شهرية ثقافية، تصدر عن وزارة الإعلام بدولة قطر، العدد 166- جمادي الأولى 1406هـ- فبراير/ شباط 1986م، ص: 6.

الخصوص، و في جميع القضايا العلمية التي طرحت عليه و المناظرات التي جمعته بهم.

و ما يدل على ترسخ هذه الحساسية حتى عند المحدثين ، ما نجده من ردود ، مباشرة و غير مباشرة على هذه القضية في كثير من المؤلفات ، و تكفي الإشــــارة هنا إلى كتاب عبد الله كنون ، الذي حاول من خلالـه أن يبرز مكانة الأدب المغاربي عموما ، و المغربي على وجه الخصوص وتفوقه في بعض الأحيان و تميزه عن الأدب المشرقي ، و قد وسم هذا الكتاب بـ " النبوغ المغربي في الأدب العربي " في إشارة صريحة للغرض من الكتاب و الهدف منه.

و هناك رحلات أخرى تأخذ عناوينها طابعا آخر، نعـني بها تلك الرحلات التي لا يكتبها أصحابها الذين قاموا فعلا بفعل الرحلة فيها، بل يكلفون بذلك- لسبب أو لآخر-كتابهم أو مرافقيهم اعتمادا على رواية الرحالين لأحداثها ، أو انطلاقا من توسيع رؤوس أقلام وضعها أصحابها ، أو اعتمادا على تتبع و مشاهدات المرافق الحاضر مع الرحالة ، و الشاهد على أحداث الرحلة .

و الكاتب في مثل هذه الرحلات ، يروي أحداثها بتوظيف ضمير يعود على الرحالة الفعلي. و في هذا النوع من الرحلات ، يرتكز العنوان على اسم الرحالة الذي قام بفعل الرحلة ، حتى لو وُضع لها عنوان آخر، مثلما هو حاصل مع عناوين تلك الرحلات التي تعتمد السجع و إبراز نوع الرحلة و مضمونها .

من نمـاذج ذلك في رحلات الجزائريـــين خــــــلال العهد العثماني ، تلك الرحلة التي قام بها الباي محمد الكبير و كتب أحداثها ابن هطال التلمساني و وسمت بــ " رحلة محمد الكبير باي الغرب الجــزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري " ، و مثل هكـذا نوع مــن الرحلات ليس بدعا و لا جديدا ؛ فالواقع يثبت أن هناك بعض الرحالين العرب لم يدونوا رحلاتهم بأنفسهم ، بل كلفوا بعض معاصريهم تدوينها بعد رواية أحداثها شفاهة، فاسحين المجال لهم لنسج بعض الأحداث، و إضافة بعض التفاصيل ، و تقديم بعض التوضيحات حولها .

و المعروف أن ابن بطوطة (ت779هـ) أشهر رحالة العرب ليس هو من كتب رحلتـه المعروفة بــ " تحفـة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار " << بل إنه أمـلاها على كاتب تحــرير هو محمد بن محمـــد بن جزى الكلبي ...وفي هذا يقول : نفـذت الإشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار ، و ما علق بحفـظه من نوادر الأخبار، و يذكر من لقيه من مـلوك الأقطـار، و علمائها الأخيار ، وأو ليائـها الأبرار، فأملـى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر، و بهجة المسامع و

النواظر من كل غريبة أفاد باجتلائـها ، و عجيبة أطرف بانتحـائها و صدر الأمر العـالي لعبد مقامهم ، الكريم المنقطع إلى بابهم ، المتشرف بخدمة جنابهم ، محمد بن محمد بن جزى الكلبي أعانه الله على خدمتهم >>[1].

إن عنوان رحلة محمد الكبير، التي لَفَّظَ فعلها، و دون أحداثها كما سلف ذكره ابن هطال التلمسانـي، لم يختلف عن العناوين السائدة وقتئـذ من حيث الطول ، فهذا العنـوان جاء مركبا ، متكونا من مجموعة من المقاطع ، و كل مقطع فيه له دلالته ، و هذا التعدد الدلالي ، يوحي بأن واضع العنوان أراد من خلاله أن يحدد الرحلة تحديدا دقيقا ، ما يجعل أفق الانتظار عند المتلقي محددا ، و مرتبطا ببداية معلومة و نهاية محددة . و العنوان بهذه الصورة يمكن تقسيمه إلى:

رحلة	محمد الكبير	باي	الغرب الجزائري	إلى الجنوب الصحراوي الجزائري
علامة	الرحالة	رتبته	المكان 1	المكان 2

تجنيس النص + تبئـير الرحـالة + تحديد المنطلق + تحديد المكان الهدف (الوصول)

إن القراءة الأفقية لهذا العنوان ، تضعنا أمام عنوان حضرت فيه كلمة " الرحلة " صريحة كعلامة تجنيسية ، تستلـزم حضـــــور المكـان الذي ظهر هـــو الآخـر من خــــلال التركيز عليه و تحديده ، " المكان المنطلق منه والمكان المتجه إليه " و العنوان بهذه الصورة ، يضعنا أمام رحـــلة منذ قراءة أول بواباتها ، نعرف بطلها ، و بداية و نهاية مسارها ، و بطريقة غير مباشرة زمانها ، و هكــذا يصبح أفق انتظار المتلقي محـدودا ؛ باعتباره أصبح يعلم بصورة عـامة أحداثها، مادام عنوان الرحلة كشف شخصيتها المركزية ، وحدد في نفس الوقت نقطة انطلاقها و وصولها ، لتصبح بذلك الرحلة بالنسبة إليه معلومة البداية محددة النهاية .

و حضور شخصية الرحالة باسمه و رتبته في هذا العنوان ، لم يكن حضورا عاديا . و عليه يجب النظر

---

(1)- سمير سرحان، المختار من رحلات بن بطوطة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، دت، ص:15.

إلى هذه الشخصية من منطلق أنها تمثل نقطة ارتكاز أساسية لا يمكن الاستغناء عنها ، أو تجاوز قيمتها الفنية و التاريخية ، يكفي دليلا على ذلك أن الشخصية حاضرة بمكانتها و رتبتها السياسية ، ما يعني أن الأمر يتعلق بحاكم ، يعتبر محور جميع الأحداث المراد إثباتها و التأريخ لها ، و ذلك ما جعل حضور الحدث التاريخي أمرا حتميا . و لقد جاء هذا الحضور التاريخي مبنيا على الانتقائية و الدقة ، و الاختصار على ما يحقق الهدف ، وهو ما أشار إليه الرحالة بقوله : >> قد انتهى ما كنا أردنا جمعه ، و كمل الغرض الذي انتخبنا و ضعه ، وتحرينا فيه جهدنا ، و جعلنا الاختصار و عدم التكلف فيه قصدنا <<[1].

و تأتي حتمية حضور الحدث التاريخي في المتن ، من السؤال الذي يثيره العنوان في ذهن القارئ عن سر انتقال حاكم من الغرب تجاه الصحراء ، إن لم يكن الأمر جللا ، و لا شك أن انتقال شخصية برتبة باي سوف لن يكون عاديا ؛ فالأمر يتطلب بروتوكولات ، و جندا ، و حرسا ، ما يعني أن الرحلة رحلة رسمية ، فرضتها ظروف و أوضاع سياسية ، في فترة زمنية معينة ، و هكذا تصبح الرحلة من قبيل الرحلة التي يطلق عليها بعض الدارسين " الحركة " و >> الحركة - بسكون الراء – تعني ما يشبه الغزوة أو المسيرة العسكرية <<[2].

و إذا كانت عناوين الرحلات السابقة تعتبر عناوين عادية في تراكيبها، واضحة في دلالاتها ، سهل استيعاب غرض أصحابها منها ، فإن هناك رحلات في نفس هذه الفترة جاءت بعناوين تبدو مراوغة ومخادعة و موخزة ، محركة للعقل ، توهم قارئها بشيء ، حتى إذا قرأها وجدها تدل على شيء آخر ، من نماذج ذلك الرحلة التي قيدها ابن زرفة و عنونها بـ " الرحلة القمرية في السيرة المحمدية " ، فرغم حضور العلامة التجنيسية في هذا العنوان ممثلة في كلمة " الرحلة " ، التي تحيلنا مباشرة إلى أن النص المعنون يتعلق بفن الرحلة ، إلا أن هذا العنوان يبقى يسوده الغموض الناتج عن توظيف غير بريء للكلمات ، جعلها كلمات مراوغة للقارئ ، فهو من قبيل العناوين التي تحتاج إلى قارئ ، بزاد ثقافي و معرفي متنوع ، فهذا العنوان >> ضمنيا يستدعي مجموعة معارف

---

(1)- أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري الى الجنوب الصحراوي الجزائري،تحقيق محمد بن عبد الكريم ، عالم الكتب القاهرة،ط 1 ،1969، ص:100.

(2)- أحمد بو غلا ، المرجع السابق، ص: 205.

يفترض أن يمتلكها القارئ ، من خلال تعايشه الثقافي المتنوع >> (1) حتى يستطيع التعامل معه تعاملا يساعده على فهم دلالته ، أو على الأقل البحث عنها في ثنايا مضامين الرحلة.

والعنوان بالصورة التي جاء بها ، و بالصياغة التي هو عليها ، هو من وضع ابن زرفة ، الذي أشار لذلك صراحة في المقدمة بقوله : << و سميتها بالرحلة القمرية في السيرة المحمدية >> (2).

و هذا العنوان مثلما نرى متكون من جملتين :

- الأولى : الرحلة القمرية ....تحيلنا إلى الرحلة الخيالية ، و بالنظر إلى حضور الفضاء الأعلى ، قد نتوهم المعراج .

- الثانية : السيرة المحمدية.................تحيلنا مباشرة إلى سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم.

و ما يحيل المتلقي إلى هذه الدلالة الأكثر قربا إلى الدين ، هو — و بلا شك - المرجعية الثقافية و الدينية ، بهذا يصبح هذا العنوان من العناوين المبنية أساسا على ممارسة سلطة الضغط و الإغــراء ، التي تحتم على القارئ الاتجاه نحو المتن ، بحثا عن تجلية الغموض ، و كشف دلالة العنوان، التي ما تلبث أن تظهر من خلال قول بن زرفة : << فتلقيت حينئذ حمله بالكاهل و اليدين و وضعته على الرأس و العين ، و انتدبت لإملاء تلك السيرة المحمدية ، و ترحيل قمرها بدر السعادة الأبدية ، و تحرير منازله القمرية ، و مناهله العبقرية ، و سيرته مع العدو و حوادثه ، في الحركة و الهدوء ، و تأييد أفعاله بالاستشهاد ، و تطبيقها على السنن المأثورة في الجهاد ، عالما أن الرحلة لا تحتمل التوثيق و التفصيل، و لا يبرهن على صحة ذلك بدليل ، فأردت إذ فاتني ذلك أن نترجمها بشهور السنة القمرية ، و موضع فصولها مشاهير الوقائع المحمدية ، دائرا فيها مع دوار الفلك القمرية ، متبركا

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص:172.

(2)- مختار حساني، تاريخ تحرير مدينة وهران ، الجزء الثاني الرحلة القمرية لابن زرفة ، تحقيق مختار حساني، جامعة الجزائر مخبر المخطوطات ،دط،2003 ،ص:159.

في تعدادها بالنقباء الإثني عشر ، فكل شهر ترجمان سيرته ، و سمسار صفقته في رحلته >> [1].

و بقــراءة واعيــة لهــذا المقطع ، و بإمـعان النظر فيه ، يتكشف لنـا ما كان غامضا في العوان ، فنعني أن توظيف كلمة " القمرية " يعني به اعتماده في تاريخ أحداث الرحلة على الأشهر القمرية ، و التاريخ الهجري ، و أما السيرة المحمدية ، فيعني بها سيرة محمد الكبير باي الغرب الجزائري.

و هذه الدلالة أعني دلاله العنوان ، يبدو أن كاتب الرحلة أراد من خلالها ، أن يقارب بين شخصية الرحالة " محمد الكبير " و فتحه وهـران و شخصية الرسول محمد صلى الله عليه و سلم و غـزواته ، بغرض تعظيم و تمجيد هذه الشخصية ، التي سطع نجمها ، و علا شأنها ، في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) وارتبطت أكثر ما ارتبطت بفتح وهران ، و تحريرها من أيدي الأسبان .

من خلال ما تقدم من حديث عن العنوان في الرحلة الجزائرية خلال العهد العثماني ، يتضح جليا أن عناوين رحلات هذه الفترة بقيت مشدودة إلى العناوين السردية التراثية ، و هذا ما يؤكد الهيمنة المطلقة لنموذج العنونة التراثية في هذا العهد ، الذي لم يأت أهله بجديد يذكر .

وعليه فقد جاءت عناوين الرحلات فيه متميزة بنفس مميزات العناوين التقليدية ، و المعلوم أن << من مميزات العنوان التقليدي و قوانينه الطول و المضمونية و التسجيع >> [2]. وهي في نفس الوقت عناوين توثيقيه ، باعتبارها عناوين لما يمكن تسميته ريبورتاجات توثق في الغالب لأحداث تاريخية ، قد تكون جديدة مكتشفة تقدم في كثير من الأحيان بيومها و شهرها و سنتها ، أو قديمة مروية بأمانة من خلال نسبتها لأصحابها ، سواء كانوا رحالين سابقين ، أو رواة أخبار للرحالة معاصرين . وهذا ما يجعل أخبار و معلومات الرحلة إلى الواقعية أشد قربا ، و مع كل ذلك يشترط أن تبقى بنية السفر هي المهيمن الأساسي عليها ، حتى تبقي دائما تدور في كنف الرحلة التي تحتاج — كما هو معلوم — و في كثير من الأحيان إلى علامة تشير و تلمح إلى مضمونها ، و قد يضطر فيها صاحبها إلى تدعيم هذه العلامة بعلامة فرعية مساعدة وشارحة تضمن توجيه المتلقي، الوجهة التي حددت مسبقا،و أراد الرحالة أن تكون ركيزة الاهتمام في ما يكتبه ، و ينقله من أخبـار و ما يقدمه من مشاهدات .

---

(1)- مختار حساني ، المصدر السابق ، ص: 155

(2)- شعيب حليفي، المرجع السابق،ص:169.

ثالثا– إطـــــار الرحلـــــــــة :

إن المنطـق يفـرض أن يكـون لكل عمل سـردي – خاصــة إذا كـــان منتميا إلى الفنـــون التراثيــة – نقـطة للبـــداية و أخرى للنهاية ، حتى يكون عملا واضحة معالمه ، محددة أهدافه.

و ليس المقصود بالنهاية هنا نهاية النص في مدلولاته ، فذلك أمر مرفوض في عرف النقاد الحداثيين ، الذين يعتقدون جازمين أن النص الحقيقي ، و الذي يستحق أن ينعت بأنه نص ، هو ذلك الذي يكتسب صفة الخلـود ، التي تسمح له بمحاورة المتلقــي المستقبلــي الذي يعيش في زمن غير زمن إبداع النص ، و يبررون قناعتهم هذه ، بأنه لو لم يكن الأمر كذلك ، لانتهت تلك النصوص الأدبية التي تنتمي إلى عصور غابرة بعيدة عنا ، و التي مازلنا إلى اليوم – راضين أم ساخطين – نطالعها و نتفاعل معها ، بل نخضعها إلى الدراسة في مذكراتنا و رسائلنا .

إن المقصود بنقطة النهاية التي نعنيها ، هي نهاية بناء النص على مستوى كاتبه ، و بعبارة أخرى تعنـي النهاية هنا ، تلك النقطـــة التي يضعها الكاتب أو المبدع ، و يقـدم بعدها إنتاجه للقارئ ، الذي يتحول بدوره إلى مبدع ، قد يولد من النص المقروء ، مجموعة نصوص أخرى لا تعد و لا تحصى .

عند العودة إلى الرحلات الجزائرية التي كتبت في العهد العثماني ، فإننا نجد أن الرحالين فيها ساروا وفق إستراتيجية واحدة ، نعني إستراتيجية التخطيط المسبق ، و المتمثل خاصة في اعتماد ثالوث : البداية الوسط و النهاية .وهذا يبقينا دائما أوفياء لما توصلنا و أشرنا إليه من قبل ، بأن الرحلة فن قائم على القصدية و التخطيط المسبق.

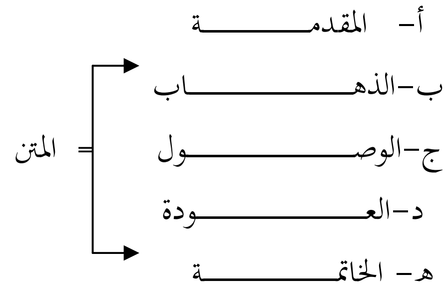
ولو نظرنا إلى هذه الرحلات من حيث بناؤها و هيكلتها ، لوجدناها تنطلق من نقطة محددة ، و تنتهي إلى نقطة أخرى معلومة ، و بين النقطتين تتمركز دائرة الوسط ، التي تمثل مسافة معتبرة يشغلها ما يصطلح على تسميته مسار الرحلة، الذي يمثل بدوره لبها، نظرا لما نجده فيه من وصف، و أخبار وعادات ، و تقاليد ، و علوم و معارف...

إن رحلات الجزائريين كغيرها من الرحلات العربية بنيت – إضافة للعنوان – على ثلاث ركائز أساسية ، تمثل بنية نمطية من حيث معمارية بنائها ، و نعني بها >> تلك البنية التي تتبع نمطا معتادا

قريبا من صورة الرحلة الواقعية >> [1] الأمر الذي يجعلها متكونة من ثلاث دوائر كبرى تمثل خطابات في الرحلة بعد كتابتها و نقلها إلى نص:

خطاب التقديم	خطاب المتن	حطاب الختام

و التي يكون تفصيلها كاتالي :



أ – خطـــــــاب التقـــــديم :

لا يختلف اثنان أن النقاد المحدثين جميعهم يتفقون على أن << من العتبات النصية المهمة في توجيه القارئ فضلا عن العنوان المقدمة إذ أنها تضم من التيمات التي تكشف عن مقصدية المبدع و نواياه الإيديولوجية التي تمثل إشـــارات و موجهات أساسيـــة تقـــود القـــارئ إلى فهم أشمل و أدق في النص >> [2] فالمقدمة في النص الأدبي ، تتخذ مكانة أساسية في بنائه ، باعتبارها بنية يتخذها الكاتب وسيلة للتواصل الأولي مع المتلقي ، يسعى من خلالها لوضعه في دائرة جنس النص الذي يقدمه له ، وفي إطار مضامينه التي يريد إيصالها إليه ، حتى يكون هذا المتلقي في جو يسهل على الكاتب التواصل معه ، و مخاطبته ، و توجيه فكره و التأثير فيه .فتحديد جنس النص إذا يعتبر ضرورة يفرضها ما يجب أن يكون من توافق بين المرسل و المرسل إليه باعتبار أن <<فكرة الجنس تحدد مجال الكتابة و أيضا تحدد مجال القراءة >> [3].

(1)- ناصر عبد الرزاق الموافي، المرجع السابق ، ص:71.

(2)- خليل شكري هياس ، سيرة جبرا الذاتية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2001، ص: 56.

(3)- محمد القاضي ، الخبر في الأدب العربي دراسة في السردية العربية ،منشورات كلية الدداب ، منوبة – تونس ط 1 ، 1419هـ/1998م ، ص: 27.

و المقدمة كما هو شائع ، عادة ما يعتمدها الكتاب و المبدعون ، << للجواب عن سؤال ، أو الدفاع عن فكرة يتوخى المقــدم من ورائها توجيه المتلقي إلى قراءة معينة باعتقاد معين >> [1].

و إذا كان القدماء قد فتنوا بحسن الاستهلال ، و براعة الابتداء ، و عدوهما من مظاهر الكفـــاءة في النظــم و التأليف ، ومــن عوامـــل النجاح في كسب عقل المتلــقي ، و أذنه ، و قلبه ، فإن المحــدثين اشترطــوا للمقدمـــة شروطا أربعـــة ، لا يكـون النجـــاح فيها إلا بها ، و هـــي : الدقـــة في صياغتها ، و الإيجـــاز في حجمها ، و المناسبة لموضوعها ، و التشويق لقارئها .

و الذي لا شك فيه أن خطاب التقديم لا بد أن يقوم على إستراتيجية معينة ، في جميع فنون الأدب ، سواء تعلق الأمر بالرحلة و المقامة ، أو بالرســالة و الخطبــة ، أو بغيرها من أشكال التعبير الأخرى . و خصوصية الرحلة ،باعتبارها كما رأينا من قبل ، تتعدد فيها المواضيع ، و تختلف فيها الأهداف ، تفرض أن تكون بنية المقدمة حاضرة فيها و بإلحاح ؛ ذلك أن الرحالة لا يمكنه الاستغناء عنها ، لأنها و باتفاق النقاد ، تمثل أهم وسيلة بالنسبة إليه ، يستخدمها لأغــراض متعــددة ، فهـــي من جهة تساعده على إغراء المتلقي و ممارسة سلطة عليه و من جهة أخرى تساعده عــلى << تقــديم بعض المعلــومات و الإيضاحات حول الرحـــلة و أحيـــانا لتبريرات معينة >> [2]. لذلك نجـــد الرحالة في المقدمة يسعى دائما إلى إبراز تصوره لما يدور حوله ، و ما هو مقدم عليه ، كما يلمح إلى مخطط سيره ، و يذكر بواعث رحلته و أهدافها ، و لا يتوانى في التصريح باستفادته من رحلات غيره ، و مؤلفات أشياخه تأكيدا منه على أمانته و صحة خبره .

و لأن الرحلة قد يكتبها من قام بها فعلا ، و قد يكتفي بروايتها فيكتبها غيره ، فإنه من الطبيعي أن تصادفنا في بعض الأحيان رحلات بمقدمتين ، واحدة لصاحب الرحلة الفعلي ، و هي الأساس التي يجب التركيز عليها باعتبارها جزء لا يتجزأ من الرحلة ، و لا يمكن فصلها عنها . و أخرى للناسخ، عادة ما يبرز فيها ظروف كتابتها ، و يعرف بصاحبها ، و يمدحه و يدعو له ، كما يشير من جهة أخرى إلى ما يمكن أن يكون قد أضافه إليها ، إذا كان قد تصرف في بعض أجزائها.

و الرحلة كغيرها من فنون التعبير الأخرى تحمل خطابا ، إلا أنه خطاب متميز بتعـــدده وتنوع

---

(1)- شعيب حليفي، المرجع السابق ،ص:174.

(2)- نفسه ،ص:172.

مضامينه ، و بتراكمه و اختلاف مستوياته ، و هذا الخطاب يحتم وجـود متلق – مهما كانت طبيعته و مهما كانت مكانته و مستوى ثقافته – يفرض على الرحالة أن يعتمد تقديما مناسبا ، يحاول من خلاله أن يملكه ، و يسيطر عليه بـه ، لأنـه يعتبر هـو المعنـي الأول بنص الرحـلة ، باعتباره المستقبل و المؤول ، و الناقد و الضامن لخلوده ، و القادر على تحديد مصيره ، بل يعتبر سر وجوده ، فالنص مهما كان نوعـه ، هـو << وجـود مبهم كحلم مغلق ، ولا يتحقق هذا الوجود إلا بالقارئ ، و من هنا تأتي أهمية القارئ ، و تبرز خطورة القراءة ، كفعالية أساسية لوجود أدب ما ، و القراءة منذ أن وجدت ، هي عملية تقرير مصير بالنسبة للنص >> [1].

و عليه فإن الرحالة لا يكتب إلا و طيف هذا المتلقي– الحقيقي أو المفترض ، المعاصر له ، أو المستقبلي الذي يأتي بعده – حاضر معه ، ماثل أمامه ، يؤرقه و يدفعه للعمل من أجل إثارته ، و التأثير فيه ، باعتباره– المتلقي– << مفتاحا للبحث في الأثر ، على أساس أن ذلك الأثر لا يكتسب خلوده و قيمته فقط مما يحكمه من أنساق و شبكة علاقات تشكل بنيته منعزلا عن السياق التاريخي و الاجتماعي كذلك لا يكتسب قيمته و بقاءه من كونه انعكاسا آليا للهياكل الاقتصادية و البنى الاجتماعية و إنما يأتيه هذا الخلود و ذلك الثراء و الزخم لأنه – أي الأثر – يظل فاعلا في قارئه محركا له في الوقت الذي يتفاعل فيه هذا القارئ مع النص فيمنحه رؤاه في كل وقت و في كل عصر من العصور >> [2]. لقد فرضت المقدمة نفسها على الرحالين الجزائريين في العهد العثماني ، كما فرضت نفسها كذلك على غيرهم من الرحالين في بلاد العرب الأخرى ، و في مختلف العصور .

و الذي لا شك فيه أن بنية الخطاب المقدماتي ، تختلف بين رحلة و أخرى ، تبعا لطبيعة الرحلة و الهدف منها ، و تبعا لطبيعة الرحالة ذاته ، من حيث مكانته الأدبية ، و قدراته التعبيرية ، و أيضا من حيث مكانته العلمية و الدينية .

و يمكننا أن نعتبر – مطمئنين – أن الكلام الذي يسبق لحظة الانطلاق الفعلي في الرحلـة ابتداء من

---

(1)– عبد الله الغدامي، الخطيئة و التكفير، المركز الثقافي العربي ، ط6 ، 2006 ، ص:69.

(2)– عبد الناصر حسن محمد، نظرية التواصل و قراءة النص الأدبي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات القاهرة ، دط، 1999، ص: 63.

البسملة ، يدخل في دائرة المقدمة ، التي قد تطول لتشمل صفحات عدة ،كما قد تقصر فلا تتعدى بضع جمل.

إن الحديث عن المقدمة منفصلة عن متن النص الرحلي، في حقيقة الأمر ما هو إلا عملية إجرائية يفرضها ما نحن بصدده، و المتمثل في إبراز الأعمدة الأساسية التي تبنى عليها الرحلة ؛ ذلك أن الفصل بين المقدمة و النص الرحلي ، يعتبر أمرا صعبا ، بل يكاد يكون مستحيلا ، نظرا للتداخل الذي نجده بين الخطابين - خطاب المقدمة و خطاب متن الرحلة — خاصة في الرحلات التي تعتمد مقدمات طويلة مثلما هو حاصل في رحلة الورثيلاني [1] " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار " التي انطلق فيها من ثقافة سائدة في عصره ، أعني الثقافة الدينية التي كما هو معلوم سيطرت سيطرة تامة على الحياة في العهد العثماني، و على الخصوص في جانبها الصوفي ، الذي نجد تجلياته واضحة جلية في المقدمة ، انطلاقا من إستراتيجية الافتتاح ، التي تتعانق خاصة مع مقدمة الخطبة الدينية ، من خلال المقطع الافتتاحي الذي جاء كما في معظم الرحلات العربية << بالأسلوب النمطي الشائع من حمد و بسملة و صلاة على خير الأنام و دعاء لأولي الأمر >>[2].

فبعد المقدمة القصيرة التي وضعها الناسخ ، والتي عرف من خلالها بالرحالة ، و بالغ في مدحه ، و التعظيم من شأنه ، كعادة أهل عصره مع كل من يتوسمون فيه الزهد و الصلاح والتصوف ، حيث قال بعد البسملة و الصلاة و السلام على نبي الرحمة ، و آله و صحبه : << قال الشيخ الفقيه ، العالم الورع الزاهد ، شيخ الشريعة و الحقيقة ، و إمام أهل الطريقة ، العالم الرباني ، و الفقيه النوراني، سيدي الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلاني رحمه الله تعالى و رضي عنه ، و أعاد علينا من بركاته ، و أفاض علينا من بحر أسراره و أنواره ، بمنه آمين >>[3] .

بعد هذه المقدمة ، جاء افتتاح الورثيلاني لرحلته ، بمقدمة ابتدأها كما لو أنها خطبة إمام على عادة معاصريه في مختلف كتاباتهم ، حيث قال : << الحمد لله الذي خلق الإنسان

---

(1) تشغل المقدمة في هذه الرحلة ما يقارب 104 صفحات.

(2)- عبد الرحيم مودن ،الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، ص:77.

(3)- الحسين بن محمد الورثيلاني،المصدر السابق ، ص:11.

أطوارا، و جعل الشمس و القمر و النجوم أنوارا ، و سيرها من كون إلى كون بحيث تقطع أبراجا ليلا و نهارا ، فيا عجبا من رحلتها بسوق الأملاك إياها فهي أية النهار حقا مشهورا ، خلق الإنسان من نطفة أمشاج لِيُبْتَلَى و جُعِل سميعا بصيرا ، فَهُدِي إلى السبيل إما شاكرا و إما كفورا ، كالأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها المقربون أعني زمزم و ذات المحبوب يفجرونها بالشوق تفجيرا ...و يخافون يوما كان شره مستطيرا ، و يطعمون الطعام في البر و البحر على حبه و الرغبة فيه لقلته و غلائه جائعا و ضريرا، بحب و شوق و عشق في الله و نبيه و رضاهما لا يريدون جزاء و لا شكورا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم بسعيهم سعيا مقبولا مشكورا ، و تجارة لن تبورا ، ليوفيهم الله تعالى أجورهم ، و يزيدهم من فضله النظر إلى وجهه ، و قد حجوا حجا مبرورا ،...و جزاهم بما صبروا لتعب السفر و مشقته حرا و بردا و سقما جنة و حريرا ، فلا يرون في ظل العرش عذابا أصلا و لا شمسا أيضا و لا زمهريرا ، فما أحسنها من رحلة و ظعن من الخلق إلى الخالق و إن إلى ربك المنتهى و سواه لم يكن شيئا مذكورا ، فسبحان من وفق ... و الصلاة و السلام على رسول الله صلى الله عليه و سلم سرمدا دائما بكرة و أصيلا، و على آله و أصحابه أجمعين صلاة نحوز بها غدا حجابا عظيما، من شر كل ذي شر مع لواء الحمد في حضرة القدس منشورا، و ذلك مع الآباء و الأمهات و الأزواج و الذرية و الأحبة و في جنة الفردوس تكون قصورا ، و أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نشأت من صميم القلب و خلوص الاعتقاد خالية من الامتراء تكون لنا يوم القيامة فوزا و نورا ، و اشهد أن سيدنا محمدا عبده و رسوله و نبيه و قريبه صلى الله عليه و سلم إذ كان مؤيدا منصورا<<[1].

إن أول ما يلاحظ من خلال هذا المقطع ، و يلفت الانتباه حقا ، هو مواطن التقاطع الكثيرة التي نجدها بين عباراته و عديد الآيات القرآنية ، في تناصات ظاهرة جلية ، توحي بأن الرغبة الجامحة في السمو بالروح و تطهير النفس ، ملكت الرحالة فكانت بذلك من دوافع هذه الرحلة ، الملمح إلى عظمتها و قدسيتها ، باعتبارها رحلة من الخلق إلى الخالق >> فما أحسنها من رحلة و ظعن من الخلق إلى الخالق و إن إلى ربك المنتهى <<[2].

---

(1)- الحسين بن محمد الورثيلاني، المصدر السابق ، ص:11-12.

(2)- نفسه، ص: 11.

و مع ذلك فإننا نلاحظ في هـذه الافتتاحية – من البسملة إلى الدعاء – اختفاء ضميري " الأنا " و " النحن " تعبيرا من الرحالة على الخضوع و الذل و الخنوع أمـام المخاطب المعظم و المقدس، و مرد ذلك يعود إلى أن الخطاب في هذا الجزء من المقدمة ، لا يتوجه به الرحالة إلى المتلقي الإنسان ، بل إلى خالق هذا الإنسان، و المتعارف عليه أنه << بالنسبة للبسملة، و الحمدلة، و الدعاء، فان الخطاب فيها يتوجه إلى الله، و تكون الأنا فيه غائبة نهائيا، متخفية و بعيدة، انه خطاب تقليدي للاستغفار عبره يتم تنبيه الذات إما بالدعاء ، أو بالآيات القرآنية التي تتوجه للإنسان لوعظه و تقويمه << [1] .

و هذا النمط الافتتاحي نفسه ، نجده في " فتح الإله و منته " لأبي راس الجزائري ، الذي رغم اعتماده نموذج المقدمة الموجزة القصيرة ، إلا أنه نهج فيها نفس النهج الذي انتهجه الورثيلاني ، و هو ما نلاحظه من خلال الافتتاح بقوله : << بسم الله الرحمان الرحيم و صلى الله على سيدنا و مولانا محمد و آله و صحبه و سلم . الحمد لله الذي " خلق الإنسان من نطفة أمشاج " و أنشأه من تركيب ماء و مزاج ، و جعله ذا افتقار و احتياج ، إلى تدبير و علاج ، في ضوء نهار و ليل داج.

و الصلاة و السلام على نبيه محمـد الصـادق بآياتـــه المعجز ببياناته ، المصطفى لحمل الأمانة العظمى ، و حباه الرفيع و المحل الأسمى و " الله يعلم حيث يجعل رسالاته " و الرضى (هكذا)عن آله و أصحابه ، نجوم الدين و هداته ، و أنصار الحق و حماته ، و مهدوا الآفاق من كل جهـــاته ، حتى أظهـروا دين الحــق و قبـــــروا عداته (هكذا)<< [2].

لقد سيطرت كما نرى نغمة الخطاب الديني ، بحضور البسملة و الحمدلة و تعظيم الخالق ،كما غاب ضمير "الأنا "تماما مثلما كان الأمر مع الورثيلاني. وهذا يعني أن الاتجاه الروحي و الديني أصبحا يهيمنان على الخطاب الأدبي ، و غير الأدبي ، عند الجزائريين في هذا العهد.

إن الحضور الدائم للشذرات الدينية في المقدمات الرحلية الجزائرية في العهد العثماني ، من بسملة و حمدلة و دعاء ، يعني أنها خاضعة إلى تأطير محدد << شأنها شأن المؤلفات الأخرى حيث تبدأ معظم الكتب الإسلامية بافتتاحية تأتي بعد البسملة و الحمدلة << [3].

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق ، ص: 182.

(2)- أبو راس الجزائري، المصدر السابق، ص:15.

(3)- شعيب حليفي، المرجع السابق، ص:177.

وهذا يؤكد أن افتتاحية خطاب التقديم في الرحلة عند الجزائريين و عند العرب عموما لا يختلف كثيرا عن افتتاحية الخطبة و الرسالة في التراث الأدبي و الفكري العربي و الإسلامي.

و ما يقرب الخطـاب الافتتـاحي في الرحـلة من افتتاحيـة الرسـالة و الخطبـة الدينية أكثر، هو توظيف تلك اللازمة المتمثلة في لفظة " أما بعد " أو " و بعد " ، التي فرضت نفسها على الخطباء و كتاب الرسائل ، عبر مختلف العصور ، إذ لا نكاد نجد خطبة أو رسالة تخلو منها عند الانتقال من التقديم إلى المتن و الموضوع . و هـذا التقليد لا شك انه ترسخ عند المسلمين اقتداء برسائل و خطب الرسول – صلى الله عليه و سلم – و صحابته رضي الله عنهم جميعا من بعده .

وسيرا على نهج الذين سبقوه وظف الورثيلاني هذه اللازمة في مقدمة رحلته مباشرة بعد البسملة و الحمدلة و الدعاء قائلا : << و بعد ، فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم و الآثار و الرباع و القفـار و الديار ....أنشأت رحـــلة عظيـمة يستعظمها البادي و يستحسنها الشادي >>[1].

و كذلك وظفها أبو راس الجزائري بعـد أن انتهى من البسملة و الحمدلـة و الصلاة و السلام علـى المصطفى قائلا : << أما بعد فيقول العاثر القاصر محمد أبو راس بن الناصر أتحفه الله تحف الجمال ، و ألحفه مطارف التكريم و الإجلال ...و إني قد عزمت على تأليف عظيم الجدوى بليغ الفحوى ، يحتوي على أبواب و أسئلة و فتوى >>[2]. و ما يلاحظ على صاحب الرحلة في هذا المقطع ، أنه وظف الضمير بصيغتين مختلفتين ، رغم انه يدل على ذات واحدة ، هي ذات الرحالة. فقد اختفى ضمير المتكلم و ناب عنه ضمير الغائب ثم ما لبث أن عاد ضمير المتكلم " و إني قد عزمت " بأسلوب تأكيد ذي دلالة ليأخذ هذا الضمير مكانه الطبيعي ، كنقطة ارتكاز في الرحلة حيث سيطر عليها من البداية إلى النهاية تماشيا مع غرض الكاتب من كتابتها.

و هناك مقدمات امتازت بالقصر و الدخول المباشر في موضوع الرحلة ، بعد أن وضع لها أصحابها عناوين تبدو طويلة و مركزة ، فيها من الدلالة و الإشارة للمضمون ، ما يغني عن الخطاب المقدماتي الطويل ففـي " فتـح الإله و منته " وفي الباب الثالث منه ، جاء العنوان التالي " في رحلتي للمشرق و المغرب و غيرهما و لقاء العلماء الأعـلام و ما جـرى لي معهـم من المراجعة و الكلام "

---

(1)- الحسين بن محمد الورثيلاني، المصدر السابق، ص:16.

(2)- أبو راس الجزائري ،المصدر السابق، ص:15.

و العنوان بهذا الشكل المكثف ، يعتبر بحق اختصارا موفقا دالا على مضمون الرحلة ، مرتبطا بصلبها ، و هذه الرحلة كما نعلم ، لم يركز فيها أبو راس على وصف الأماكن التي زارها ، و لا على نقل أخبار أهلها ، كما لم يهتم بالحديث عن عاداتهم و تقاليدهم ، بل ركز على محاورة و مناظرة الفقهاء ، و رجال التصوف و العلماء ، ما يعتبر توسيعا و تفصيلا لعبارة " و ما جرى لي معهم من المراجعة و الكلام "الواردة في العنوان السابق ذكره. و عليه فليس عجيبا أن نجد أبا راس قد دخل مباشرة للتنبيه على استفادته من رحلات بعض من سبقوه ، معددا إياهم بالاسم باستعمال ألفاظ المدح << و أسوتي في ذلك رحلة (هكذا) الجهابذة النحارير ، و الأسانيد الجماهير: كرحلة الإمام بن رشيد السبتي [1] و الخطيب بن مرزوق [2] و رحلة أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي نسبة إلى قبيلة " آيت أعياش" من البربر...وغيرهم >> [3].ليدخل بعد ذلك في الرحلة مباشرة بقوله : << فأول رحلتي للجزائر ... >> [4].

و الظاهر أن أبا راس عزف على لعبة الضمير ، ضمير " الأنا " ، في مراسم افتتاحه لرحلته ، رغبة منه في إبراز الذات المهيمنة انطلاقا من قناعة قد تكون راسخة في ذهنه- بوعي أو بدون وعي منه- من أن << بنية الضمائر في الخطاب المقدماتي الرحلي مرآة أولية لفهم طبيعة اشتغال الذات / الأنا في النص خصوصا حينما يتعلق الأمر بنص شخصي ينبني على فعل و سلوك و استيهامات ذاتية >>[5].

و رغم اختلاف طبيعة رحلة محمد الكبير باعتبارها رحلة رسمية مرتبطة بدواليب السلطة ؛ قام بها حاكم عثماني لأغراض سياسية ، و اقتصادية و إستراتيجية ، في إطار مشروع شامل هدفه بعث

---

(1)- هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري السبتي من مشاهير الرحالة و الجغرافيين المسلمين في القرن الثامن الهجري كان رجل علم و أدب و تاريخ اهتم بالتفسير و تولى الخطابة بجامع غرناطة الأعظم توفي في العام 721هـ من مؤلفاته "ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الرحلة الى مكة و طيبة "

(2)- هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني واحد من أعلام القرن الثامن الهجري في الفقه و الحديث و الأدب توفي في العام 781هـ من مؤلفاته المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن.

(3)- محمد أبو راس الجزائري، المصدر السابق ، ص: 91.

(4)- نفسه ، ص : 91.

(5)- شعيب حليفي، المرجع السابق، ص:181.

الدولــة العثمانيــة التي أصبحت تنعت بالرجل المريض؛ لما أصابها من ضعف و ما فيها من بوادر انهيار، خاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، إلا أن كل ذلك لم يمنع ابن هطال كاتب الرحلة ، أن يسير على نفس نهج سابقيه في ديباجة المقدمة ، التي جاءت بعد مقدمة قصيرة للناسخ افتتحها بالبسملة و الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم ، و ذكر فيها بن هطال معرفا باسمه و نسبه ، مغدقا عليه من المدح ما يعلي من شأنه ، و يعظم من مكانته، وقد جاءت هذه المقدمة بالشكل التالي >>بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه

قال الشيخ الفقيه ، النحرير النبيه ، لسان الدولة ، و فارس الجولة ، أبو العباس السيد أحمد بن محمــد بن علــي بن أحمــد بن هطــال التلمساني كثــير العلــم و صحيـــح الأقوال، رضي الله عنه <<[1].

و ما يؤكد أن هذه المقدمة ليست لابن هطال ، هو طريقة المدح المبالغ فيه ، و الذي لا نظن أن رجلا كابن هطال مكانة ، يوظف مثل هكذا مدح للحديث عن نفسه و تزكيتها ، و هو العالم دون شك بقوله تعالى: ﴿ **فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى** ﴾[2]. و لو كانت هذه المقدمة له لوظف عبارة " قال الفقير إلى ربه أو القاصر المقصر ، أو العبد الضعيف ، أو غيرها من العبارات التي ألف أهل العلم و التقوى توظيفها تواضعا ، مثلما فعله بن زرفة مقيد الرحلة القمرية حين قــال : >> و كان مقيد هذه الرحلة الكريمة ومراحل بدرها ذي المناهج المستقيمة أفقر الورى لرحمة مولاه ، و شفاعة الأواه ، عليه ألف صلاة و سلام في كل حين <<[3].

أما مقدمة ابن هطال ، و التي ترتبط بمتن الرحلة ارتباطا مباشرا فقد جاءت كالتالي :

>> الحمـد لله فالـــق الإصباح و جاعل الليل سكنا و مختـــرع الأرواح، و مصير الأشباح لها وطنا و مفضل الإنسان بالنطق المبلغ إلى كل منى. و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد، أفضل من سافر و من قطن ، و على آله و أصحابه ما حرك ريح الصبا غصنا، أما بعد : فإن علـــم التاريـــخ من أجل العلوم قدرا و أكملها محاسن و فخرا .....<<[4].

---

(1)- أحمد بن هطال التلمساني، المصدر السابق،ص:34.

(2)- سورة النجم ، الآية 32.

(3)- مختار حساني ، المصدر السابق ،ص:157.

(4)- نفسه ، ص: 34.

وهذه المقدمة كما نلاحظ لم تخـــــرج في تعابيرها ، و طريقة بنائها ، عما ألفناه في مقدمات الرحلات المشار إليها سابقا من بسملة و حمدلة و لازمة.

و هنــاك رحـلات جــزائرية أخـرى في العهــد العثمـاني ، اعتمدت المقدمات الطويلة ، وهي المقدمات التي عادة ما يصعب فصلها أو التمييز بينها و بين متن الرحلة ، وفي هذا النوع من المقدمات يعمد أصحابها إلى تقديم ملخص لرحلاتهم، إضافــة إلى الأقسام التي تتضمنها و تعتبر " الرحلة القمرية في السيرة المحمدية " لابن زرفة خير نموذج لذلك ؛ إذ افتتحها مقيدها بمقدمة على نفس طريقة معظـــم الرحالين الجزائريين و العرب مبتدئا بالبسملة و الحمدلة و الصلاة و السلام على المصطفى فقال : >> بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي اطلع في سماء المجد أهلة الجهاد و جلى بنورها حلك الضلالة فأشرقت البلاد ...احمده حمدا رافلا في أثواب نعمه الجداد و اشكره شكرا ... و أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلص من صميم الاعتقاد و اشهد أن سيدنا و نبينا و مولانا محمدا عبده و رسوله سر الحقائق و صفوة العباد المخاطب في الزبور بقوله تعالى : >> فقل أيها الجبار سيفك يعني الجهاد << [1].

و ما يجعل المقدمة في هذه الرحلة مرتبطة ارتباطا وثيقا و مباشرا بمتنها ما أقدم عليه مقيدها من عرض مفصل لمضامينها و فصولها قبل بدايتها >> و جعلت أمام المقصود مقدمة تشتمل على أربعة فصول و خاتمة <<[2] وقد جاءت هذه الفصول في المقدمة شبه معنونة كالتالي :

- أولا : في الترغيب في الجهاد و الترغيب لمن تغافل عنه من العباد.
- ثانيا : في ذكر سبب هذا الغزو و الذي حصل وابل غيث على حين غفلة و السماء صحو
- ثالثا : في ذكر نبذة من مدح إمامنا الناصر من سنة الله.
- رابعا : في التعريف بوهران وذكر من غواها في الجاهلية و الإيمان و سبب أخذ الكفرة لها و جلوسهم على صعيدها .

الخاتمة : في الترغيب في وهران

---

(1)- مختار حساني، المصدر السابق ، ص: 154.

(2)- نفسه،ص:156.

إن مقدمة بهذا الطول وهذا التفصيل ، تجعلنا نقر بأن صاحبها اهتم بها و أجهد نفسه في كتابتها و اختيار مضامينها ، حرصا منه على تأطير النص ، و جعل حبل التواصل بينه و بين المتلقي دائما و متينا ، يساعده في كل حين على فهم القضايا المطروحة في الرحلة ؛ إذ الأكيد << أن خطاب التقديم و ما يتضمنه من عناصر يمكنها تأطير النص، و إضاءة بعض جوانبه و مساراته ، لفهم قضايا مرتبطة بالكتابة << [1].

و قد اختتم ابن زرفة مقدمته بقوله : << و قد انتهى بنا الكلام على المقدمة و ما اشتملت عليه من فصول و خاتمة << [2] بعد أن شغلت من رحلته سبعا و تسعين صفحة.

و رغم أن هناك بعض المقدمات المشار إليها سابقا لم يقم أصحابها بالرحلة ، باعتبار أن الأول نسخها ، و ابن هطال كان مرافقا لمن قام بها ، فكتبها و سجل أحداثها ، و بطلب من الباي نفسه و ابن زرفة قيدها ، إلا أننا لا نكاد نجد فرقا بين مقدمة الناسخ و مقدمة كاتب الرحلة، من حيث التعابير التي جاءت مشابهة إلى حد بعيد لما عهدناه في مقدمات الرحلات الأخرى ، و غيرها من مؤلفات العصر ، التي كثيرا ما تركز على ما يحرك المشاعر و الأحاسيس الدينية ، بغرض بسط سلطة على المتلقي قصد التأثير فيه و جلب انتباهه ، و يبدو أن هؤلاء تكونت لديهم قناعة أن أهل المغرب العربي عموما ، و الجزائريين على وجه الخصوص ، أكثر استجابة لمن يخاطبهم بلغة الدين ، و يلامس فيهم الجانب الروحي، و هذا الطبع معروف عنهم منذ الفتح الإسلامي للمنطقة ، و لعل ذلك ما جعل كل << ملك في الشمال الإفريقي، يدعم سلطانه المادي بالسلطة الروحية ، التي يستمدها من الأنساب الشريفة ، و إن لم يكن له في سلسلة الأشراف الحقيقيين صلة<< [3].

إن ما نجده في خطابات التقديم عند معظم الرحالة الجزائريين في هذا العصر ، من إشارات دالة على وعي تام عندهم بأنهم يكتبون في جنس محدد هو جنس الرحلة ، و رغم أن وعيهم هذا يعتبر من المسلمات ، باعتبار أن الرحلة في الأصل هي حركة و انتقال قاموا بها فعلا ، أو رافقوا من قام بها ، إلا أنهم يحرصون في مقدماتهم على توظيف الألفاظ الدالة على الرحلة " ، كالسفر أو

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق/ص:175.

(2)- مختار حساني ،المصدر السابق،ص:252.

(3)- محمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون،الشركة التونسية للتوزيع،د ط، د ت، ص:221.

الانتقال أو التوجه.... " ، فهذا الورثيلاني وظف ما يشير إلى أن رحلته هي رحلة حجية مرتبطة بشعيرة دينية ، ينتظر أصحابها أن يجازيهم الله عنها جـزاءً يتضاعف مـع قوة الصبر وشدة الشقاء ، حيث قال : << و جزاهم الله أيضا على ما صبروا لتعب السفر و مشقته حرا و بردا و سقما جنة و حريرا >> [1].

بينما اختار ابن هطال التلمساني طريقة أخرى للتلميح لرحلة محمد الكبير ، و التي يبدو انه يعتبرها رحلة تأديبية في محاربة المارقين ، من أجل بسط سلطان دولة الخلافة ، من خلال قوله : << . و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد، أفضل من سافر و من قطنا >> [2].

فرغم أن محمدا صلى الله عليه و سلم عندنا نحن معشر المسلمين ، هو أفضل خلق الله قاطبة ؛ فهو أفضل من صلى ، و أفضل من صام ، و هو أفضل من نطق ، و أفضل من مشى ... إلا أن ابن هطال اختار عن قصد ، أو عن غير قصد منه ، عبارة " أفضل من سافر " إشارة منه إلى جنس ما يكتب ليبقى المتلقي دائما في دائرة الرحلة . و أما ابن زرفة فقد وظف مباشرة كلمة الرحلة كعلامة تجنيسية بقوله : << و لما عزمت على الانطلاق و عقدت لتقييد الرحلة حبل النطاق >> [3].

و بطريقة غير مباشرة ، نجد هذه الإشارات الدالة على الرحلة كذلك عند أبي راس ، الذي أشار إليها في بداية مؤلفه بقوله : << و أسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير و الأسانيد الجماهير كرحلة الإمام بن رشيد السبتي و الخطيب بن مرزوق ... >> [4] في إشارة إلى طبيعة كتابه، و نيته بان يكتب رحلة حتى و إن اختفت بعض ملامحها فيما كتب [5].

كما حرص الرحالون من جهة أخرى على أن يقدموا في مقدمات رحلاتهم ، دوافع و أهداف هذه الرحلات ، و كذا المصادر التي اعتمدوا عليها ، و استفادوا منها ، وهو ما توضحه الجداول التالي :

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق، ص:16.

(2)- أحمد بن هطال ، المصدر السابق، ص:34.

(3)- مختار حساني، المصدر السابق، ص:155.

(4)- محمد أبوراس ، المصدر السابق ، ص:91.

(5)- الأمر هنا يتعلق خاصة غياب وصف المشاهد و العادات و التقاليد و خطاب المتخيل و أحداث المسير..

الجدول الأول:

الدافع : لما تعلق قلبي بتلك الرسوم و الآثار الرباع و القفار ص:12	
الهدف : أنشأت رحلة عظيمة....تزهو محاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة و الحكايات المستحسنة و الغرائب العجيبة و بعض الأحكام الشرعية....ص:13	**مقدمة الورثيلاني**
المصادر : شيخنا و قدوتنا...سيدي أحمد بن محمد الدرعي الجعفري. وهو صاحب الرحلة الناصرية من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة. و هو كتاب لحماد بن محمد بن علي أحد رجالات الصنهاجيين. و مختصر الجمان في أخبار أهل الزمان وكذا حسن المحاضرة فيأخبار مصر و القاهرة لعبد الرحمن السيوطي.وغيرهما مما يناسب المحل ....ص: 13	

.

الجدول الثاني:

الدافع : طلب العلم عبر عنه بقوله : العلم من أفضل نفائس الأعلاق و أرفع الأشياء على الإطلاق فكان أحق ما رمق بالأحداق...ص:15.	**مقدمة رحلة أبي راس**
الهدف : عزمت على تأليف عظيم الجدوى بليغ الفحوى	
المصادر: منها رحلة بن رشيد السبتي و الخطيب بن مرزوق و رحلة الشيخ أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي	

الجدول الثالث:

مقدمة رحلة الباي محمد الكبير	**الدافع** الرغبة في القضاء على الفوضى التي أصبحت ظاهرة في الدولة و محاربة محاربة الضعف و التقهقر و الحد من حركات التمرد التي ظهرت في صحراء الغرب الجزائري
	الهدف توسيع نطاق حكمه ، إعادة هيبة الدولة ،تحريك العجلة الاقتصادية
	ملاحظة الرحلة هذه لها طابعها الخاص فهي تختلف عن غيرها مما سبق وعليه فهي عبارة عن أحداث تاريخية بالدرجة الأولى.

الجدول الرابع:

مقدمة الرحلة القمرية	**الدافع** الإعجاب بشخصية محمد الكبير تقدير أعماله
	الهدف تخليد الشخصية و التأريخ لها نظير ما قدمت للأمة
	المصادر ما تزود به من مؤلفات من خزانة الباي وما شهد وسمع << فكان من سابغ فضله ان زودني من خزائن كتبه ...و ما استظهر به على ما أنا بصدده >>... ص: 155.

هكذا يتضح جليا من خلال الجدول أعلاه ، أن من النقاط الأساسية التي تكاد تكون قواسم مشتركة في خطابات التقديم عند الرحالين الجزائريين في هذه الفترة ، هي التركيز على الإشارة إلى أهداف و مصادر رحلاتهم ، إضافة إلى الدوافع و الأسباب التي دفعتهم إليها ، و التي تتـــــنوع << بتنوع المقدمات ، و أنواع الرحلات ، بين سبب خارجي عادة ما يكون سفاريا ، و سبب ذاتي ديني كما هو الحال في زيارة الأولياء و الصالحين >> (1).

و يبدو أن مجموعة الإشارات المشار إليها ، و التي يقدمها الرحالون سواء في العنوان أو في خطاب التقديم ، هي التي تفرض على الرحالة أن يحدد وجهة رحلته ، من خلال تحديد مكان نقطة الوصول المزمع الاتجاه إليها ، ســواء تعلق الأمــر بتحديد المكــان تحديدا دقيـقا كما هو الحــال في رحــلة الورثيلاني ، حيــث تم تحديد " بيت الله الحرام " كمكــان مقــدس ، أو في رحــلة محمد الكبير حيــث تم تحــديد " جــهة القبــلة " (المقصــود الجنوب الصحراوي الجزائري) وهــو مكــان عــدو بالنسبة للرحالة ، و ســـواء تعلق بتحـديد المكان تحديدا مطلقا بالإشارة إليه إشارة عامة ،كما هو الحال في رحلتي المقري ، و أبي راس الناصري ، حيث استعملا "بلاد المشرق و الغرب " بصورة شاملة دون تحديد ، وحضور بلاد المشرق هنا ، يحيلنا مباشرة إلى طلب العلم ، انطلاقا مما رسخ في الأذهان ، أن جل من يتجهون نحو الشرق إنما يتجهون في الأساس للتزود بالعلم ، و ملاقاة العلماء.

ب – خطـــــاب المتــــــن :

كما تمت الإشارة إليه فيما سبق ، فان خطاب المتن في الرحلة يصعب فصله عن خطاب التقديم ؛ فالرحلة لا يمكن أن تكون إلا جسدا واحدا ، تتبلور كهاجس يؤرق الرحالة مباشرة مع التفكير فيها ، و العزم على القيام بها ، و لا ينتهي تفاعل الرحالة معها إلا مع نهايتها.

و عليه ، فليس عجيبا أن يصبح متن الرحلة مرآة نرى في جزء منها صورة المقدمة تكبر و تتسع من خلال تفصيل ما أجمل ، و شرح و تحليل ما غمض ، كل ذلك يتم برعاية الرحالة الذي يجعل من نفسه ، و في كل الأحوال ، العنصر الأبرز في المقدمة ، و ذلك بتأكيد ذاته من خلال الضمير الدال عليه ، سواء وظفه بصورة المفــرد ، أو وظفه بصــورة الجــمع ، ويبقى الرحـــالة هو نفسه المتواجد في

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق،ص: 180.

المتن ، لكن مع إمكانية الانتقال من حال إلى حال ، تبعا للتغيرات النفسية و البدنية التي يفرضها السفـر و مشقة الطريق ، و اختلاف البيئات و تنوع الآخـر، و تعاقب الليل و النهار . وهذا كفيل – دون شك – بأن يجعـل المتن يتغير و يتلون من حيث الشكل و المضمون ، تبعا للحالة التي يكون عليها الرحالة في مختلف محطات الرحلة .

وانطلاقا مما سبق من حديث عن المقدمة ، يمكننا أن نحدد نقطة انطلاق المتن بنقطة الانطلاق الفعلي للرحلة ، التي تمثل البداية التي عادة ما تلعب دورا محددا يتمثل في << البحث عن افتتاح السرد ، و عقد ميثاق القراءة مع المتلقي >> [1]، ميثاق يصبح به المتلقي – قارئا أو مستمعا – مشدودا إلى الرحلة ، باحثا في متنها عن تفسيرات للإشارات و التلميحات التي اعتمدها الرحـالة في المقدمة ، ذلك أن متن الرحلة يعتبر وعاء يصب فيه الرحالة ما جمع من أخبار، و ما لاحظ من مشاهد ، وما خطر على باله من أمثال و حكم ، و ما رسخ في ذهنه أو جادت به قريحته من شعر ، كل ذلك يضعه بين يدي القارئ بإيجاز تارة ، و بتوسع و إطناب تارة أخرى .

و لأن بدايـة متن الرحلـة العربية في عمومها ، و عبر مختلف العصور ، خضعت لتقاليد متوارثة ، فإن الرحلة الجزائرية في العهد العثماني لم تخرج عن هذه التقاليد ، فقد عبرت عن هذه البداية بنفس ما عبـرت به الرحـلات العربيـة [2] ، مستخدمة عبارات محددة كقول الورثيلاني : << **فلما حان وقت السفر** و آن حاله ، ذكرنا بعض ما ورد ذكره ، و صلينا الصلاة الواردة ، و ختمنا بالصلاة في المسجد ، ثم أتينا أهـل البيت و الخـدام، و الطلبة و الجيران، و من أتى يودعنا، و دعوا لنا و دعونا لهم، و عند ذلك رفعنا ما يحتاج الرفع ، و انفصلنا على حسن الانفصال، و وقع البكاء و الصراخ من أهل البلد ، لما كان من أنسهم بنا إذ اعتقادهم ما دمنا معهم لا يقع بهم إلا الخير و البركة ..فإذا كان النبي أولى من النفس ، فكيف يبقى التعلق بالأزواج و الذرية و المال ، بل المتروك كالعدم

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق ، ص:193.

(2)- العبدري على سبيل المثال افتتح بداية متن رحلته بقوله:<<كان سفرنا تقبله الله في الخامس و العشرين من ذي القعدة عام ثماتية و ثمانين و ستمائة مبدؤه من حاحة صانها الله >> .

و افتتح بن بطوطة بقوله: <<كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثامن من شهر رجب الفرد عام خمسة و عشرين و سبعمائة >>.

المطلوب ، إلا ما ألزمته الشريعة من الوصية على الأولاد ، و النفقة على من تلزمك نفقته ، لان الذي ذهبت إليه هو الذي ألزمك به . فلما جهزنا الأمور و وفينا السطور ، أخذنا في الظعن و الذهاب ...نعم خرجنا يوم الخميس لما فيه من التيمن و البركة ، في كل سكون و حركة ، كما روي عنه صلى الله عليه و سلم << (1). و هذا المقطع كما نرى ارتكز على ثلاث نقاط أساسية ، تبرز طبيعة الرحلة و سيطرة الروح الدينية على صاحبها و مرافقيه ، وهذه النقاط تبرزها ثلاث جمل على النحو التالي :

- لما حـــان وقـــت السفر.................................حلول الوقت.
- أتينا أهل البيت ...دعوا لنا و دعونا لهم.....................التوديع .
- خرجنا يوم الخميس لما فيــه من البركــــة.....................الخروج .

و الجملة الأخيرة تدل دلالة واضحة على تقاطع بداية الرحلة الجزائرية مع بداية الرحلات العربية الأخرى ، و هو ما يؤكد ما أشرنا إليه سابقا .

و يبدو أن الخروج يوم الخميس كان تقليدا توارثه الرحالون من منطلق ديني ، وضحه العياشي و أشار إليه بوضوح بقــوله : >> خرجنا من بلدنا ...صبيحة يوم الخميس أول ربيع الثاني و توخينا ذلك اليوم رجــاء بركــة قــول النبي صلى الله عليه و سلم : اللهم بــارك لأمتي بكورها يوم الخميس << (2) .

كما نقل هذا المقطع صورة ، و أخبر عن أحداث واقعية ، تداخلت فيها المشاعر و اختلطت فيها الأحاسيس ، و قــد اعتمد فيه الرحــــــالة على الوصــف تارة ، و السرد تارة أخرى ، معبرا عن حركية جسدها التوظيف المكثف للجمل الفعلية، التي يدل توظيفها كما نعلم على الحركية و الانفعال . يضاف إلى ذلك الصورة التي تتشكل في ذهن المتلقي للرحالة و المودعين كجماعة منسجمة متجانسة في الرؤية و الإحساس ، لأنها تمثل ظاهرة اصطلح على تسميتها الركب الذي يعتبر >> مدينة متنقلة بنظام و يشرف على سيرها ، و راحتها و أمنها ، أمير الركب و بجانبه الإمام ، و القاضي ، و يتحرك الجميع بأمتعتهم على الإبل << (3) . و لهــذه الصورة وقعــها الكبير علـــى النفوس باعتبار أن

---

(1)- الحسين الورثيلاني ،المصدر السابق ،ص:104.

(2)- العياشي ، الرحلة ،ص:67.

(3)- مولاي بلحميسي، الجزائر من خــلال رحــلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط 2 1981،ص:25.

الرحالة والمرافقين ، بصدد الانطلاق من فضاء الوطن الحميمي المألوف، إلى الفضاء المقدس المعشوق لأداء شعيرة دينية عظيمة ، يمكن أن يعودوا بعدها كما ولدتهم أمهاتهم طهرا و نقاء ، و انطلاقا من هذه البداية يصبح المتلقي مدفوعا إلى التفكير في الرحلة الحجية دون غيرها ، لأن النص منذ بدايته وفي أغلب الأشكال النثرية يبوح بجنسه و يكشف عن هويته.

وكما هو واضح فإن الرحالة في هذا المقطع ، طمس معالم ضمير المتكلم المفرد ، و انطلق من الجماعة و تحدث باسمها ، موظفا ضمير الجمع لا للدلالة على التعظيم و الاحترام كما يبدو للبعض ، و إنما للدلالة على مجموعة من الناس مرافقين له و مشتركين معه في الهدف. و يبدو أن طبيعة الرحلة هنا فرضت منطقها ، باعتبارها رحلة حجية ، و رحلة الحج هي رحلة جماعية تكون من أجل أداء ركن من أركان الدين ، ولكنها أيضا من أجل مؤتمر جامع يأتيه الناس أفواجا من كل حدب و صوب ،﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اِسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ**﴾ [1] .و لقد هيمن على مقطع البداية كل ما يدل على الجماعة ، ما يعني أن نقطة الارتكاز التي بني عليها الرحالة و أراد تبئيرها هي طبيعة الرحلة.

و بالنظر إلى طبيعة رحلة أبي راس الجزائري ، فقد جاءت بداية المتن عنده بسيطة عادية لا غموض فيها و لا إشارة ، فقد بقي أبو راس وفيا إلى تعابيره المباشرة التي ميزت كتابه " فتح الإله و منته " ، و يمكن الوقوف على الدلالة الواضحة و التعبير المباشر في هدا المؤلف ، من خلال قوله: << **فأول رحلتي إلى الجزائر العاصمة** صانها الله من سوء الدوائر فلقيت بها الفقيه المسمى الشيخ القاضي المفتي السيد محمد بن جعدون.... >>[2].

إن هذه البداية كما هو واضح تختلف عن بداية الورثيلاني ، و ما صنع الفارق بين البدايتين و بين الرجلين ، أن الورثيلاني يتحرك داخل جماعة ترافقه و الأمر عندهم يتعلق بما تتوق إليه كل نفس مسلمة ، بينما نجد أبا راس فردا في رحلته ،لم يوظف فيها إلا ضمير المتحدث المفرد، معتمدا على جملة افتتاحية اسمية تشير إلى كثير من الثبات و الرزانة التي يتطلبها الموقف العلمي ، الذي يبحر فيه صاحبه في أعماق الكتب ، و القضايا الفكرية ، خاصة عندما يتعلق الأمر بالمناظرات و مناقشة

---

(1)- سورة الحج الآية 27

(2)- أبو راس الجزائري، المصدر السابق ،ص: 91.

القضايا الفقهية ، و هي الأمور التي سيطرت على رحلة أبي راس بل نستطيع القول أنها كتبت لأجلها .
و بداية كهذه لا شك أنها تعمل على إدماج القارئ – المتلقي– مباشرة في متن الرحلة ،كما تعمل على توجيهيه وجهة محددة نحو العلم – الديني بالدرجة الأولى – و قضاياه ، وهي بذلك لا تشتت له فكرا ، و لا تشغل له بالا بغيره من المواضيع و القضايا .

و هناك بعض الرحالة انطلقوا من قاعدة مبنية على ضبط المعلومة ، و الدقة في تقديم الخبر ، فركزوا في بداية متون رحلاتهم على إبراز التواريخ ، و تحديد الأماكن بالأسماء و الزمان بالشهر و اليوم و الوقت ، يتعلق الأمر هنا بالرحلات التي يكون لسلطان التاريخ على الرحالة فيها نصيب ، لذلك نجدها تميل إلى الموضوعية ، و تتجه نحو التاريخ تصف أحداثه و تؤرخ لوقائعه و هذه الرحلات تحرص << عادة على التموقع داخل الزمن التاريخي الموضوعي ، ما دامت الرحلة تأريخا لفترة محددة من فترات التاريخ >> [1] .

و مثل هكذا بداية يمكننا أن نقف على نموذج لها في الرحلة الجزائرية في الفترة العثمانية ، من خلال رحلة محمد الكبير التي دون أحداثها ابن هطال التلمساني ، حيث كانت بداية المتن عنده دقيقة مباشرة مضبوطة بتاريخ محدد، حيث قال: << **فخرج يوم الخميس التاسع من ربيع الأول** [2]بقومه و عسكره من المعسكر ، التي هي في محل وطنه ، و بينه و بين المعسكر ست ساعات... >> [3].

ما يلفت الانتباه في هذه البداية ، و الذي يعتبر علامة مميزة حقا و يجب الوقوف عنده ، هو غياب ضمير المتكلم فيها بصيغتيه " المفرد و الجمع " ، و افتتاحها بضمير الغائب الدال على الرحالة " محمد الكبير "، الذي قام فعلا بفعل الرحلة ، و الذي أصبح معروفا عند القارئ منذ ظهور اسمه في أول عتبة من عتبات النص الرحلي ، أعني بذلك العنوان ، و في ذلك إشارة واضحة إلى أن ركيزة الاهتمام في هذه الرحلة ، و نقطة التبئير فيها ستكون شخصية الرحالة " محمد الكبير " ، و أما مقيد الرحلة ، فيتموقع خلفها يتابع وقائعها ، و يسرد أحداثها ، و يصف مشاهدها ، و يصور

---

(1)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربيةفي القرن التاسع عشر، المرجع السابق، ص:175.
(2) – استغنى الكاتب عن ذكر السنة هنا للعلم المسبق بها إذ أشار اليها من قبل بقوله :<< مختصرا على ذكر خروجه عام تسعة و سبعين و مائة و ألف >>.
(3)- أحمد بن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص:37

تحركات شخصياتها ، فيصبح بذلك هو العين التي يرى من خلالها المتلقي متن الرحلة بكل مكوناته وتفاصيله ، و هو يتشكل من تلك الأحداث التاريخية الواقعية ، المضبوطة بتواريخها ، و المحددة بأزمنتها ، و المعروفة بأمكنتها ، ذلك أن الخطاب في الرحلة عموما ، و في المقدمة على وجه الخصوص يرادف خطاب الحقيقة ، و لذلك << يحرص الرحالة في رحلته على تسمية الأشياء بأسمائها سواء تعلق الأمر بأسماء الأماكن أو أسماء الأشخاص، فضلا عن المسالك و المظاهر المرئية المختلفة << [1] و عليه تصبح هذه البداية و بالصورة التي رأينا ضرورية للقارئ ، بل نستطيع القول أنها كتبت من أجله ، باعتبارها تسعى إلى تثبيت المعلومات و إبراز واقعيتها ، في محاولة جادة لإقناعه بأن ما سيأتي من سرد لأحداث ، و وصف لوقائع ، هو واقع حدث فعلا ، و ما يبقى على هذا المتلقي إلا التموقع داخل أفق انتظار مرسومة حدوده معلومة نهايته ، و من ثم الإقبال على المتن باستراتيجيه محددة ، تتلخص في تتبع الأحداث لاكتشاف سر عظمة الشخصية ومجدها ، و ذلك هو بيت القصيد من تقييد هذه الرحلة ، مثلما أشار إلى ذلك مقيدها ابن هطال التلمساني حين قال : << وقد أردت أن أذكر نبذة أخدم بها حضرة قامع المبغضين ، و مدوخ المارقين ، من جمع الله له خصال الشرف و المجد، و موجات الشكر و الحمد ، محل الجلال و العظمة و الجود ، المخصوص بنصر الآراء و البنود ذا الأيادي العميمة ، و المنن العظيمة ، و السياسة السديدة ، و النعم المديدة ، الذي انعقد على تفضيله الإجماع ...السيد محمد باي ابن مولانا السيد عثمان باي << [2].

و رغم التقارب و التشابه الذي وجدناه في بدايات المتون الرحلية ، إلا أننا في بعض الأحيان نقف على بدايات غاية في البساطة و الوضوح ، تأخذ بيد القارئ بطريقة بسيطة محددة و مباشرة حين تضعه في مقام المخاطب المتواجد فعلا على الأقل في مخيال الكاتب . و مثل هذه البدايات << تدمج القارئ على الفور وسط حدث كان قد ابتدأ و يتحقق الإدماج في البداية الرحلية بشكل آلي، بحيث تكون الرحلة منتهية ، يلتقطها الراوي من بدايتها ليدمج خطابه في سيرورة الرحلة تحقيقا لخط سير لا يكسر أفق انتظار القارئ <<[3]. و هذه البداية يشار إليها في المقدمة ، خاصة تلك التي

---

(1)- عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة ، مرجع السابق، ص: 71.

(2)- أحمد بن هطال التلمساني، المصدر السابق ، ص: 35.

(3)- شعيب حليفي ، المرجع السابق ، ص: 199.

تبنى بطريقــة يكون فيها الكثير من التفصيل الــدال علــى نــوع الرحلة ، و المشير إلى بعض تفاصيلها ، مثلما هو الشأن في مقدمـــة ابن زرفـــة في الرحــلة القمرية حيث جــاءت بدايــة متن الرحــلة عنده مرتبطة ارتباطا وثيقا بخطـاب المقدمة ، و يمكن الوقــوف على ذلك من خلال قولـه : >> و قد انتهى بنا الكـــلام على المقدمــة و ما اشتملت من فصول و خاتمـــة . و ها أنا أشـــرع في المقصود ... فأقــول و من الله استمد المأمول ...ففي يوم الاثنين أول يوم من شهر صفر المذكور جاءت البشارة لسيدنا الأمير المنصور،بعون من بيده مقاليد الأمور ، بأن مدينة وهران قد زلزلت أركانها ، و دكت دورها و حيطانها ، و أن النصارى أخزاهم الله قد خيموا خلالها بأبراجهم في الفساطيط و الخيام فركب أيده الله فيمن حضر من جيشه في الحين و أذن في الرحيل لسائر المسلمين ... << [1] .

من خلال هذه البداية ، يصبح القـــارئ على درايــة تامة بأن الأمــر يتعلــق برحــلة فتح و إعادة حق مغتصب ، و عليه لا بد أن يتبادر إلى ذهنه أنه سيصادف الآخر في صورة العدو ، ما يجعلــه مستــعدا للوقــوف على ثنائيات متقابلــة ، تمثــل المظهــر الأبــرز في الرحلة :كالعدو و الصديق ، المهاجم و المستغيث ، الظالم و المظلوم ، الحق و الباطل، الكفر و الإيمان ، المنتصر و المنهزم ، وهي الثنائيات التي فرضتها طبيعة الرحلة و الهدف منها.

من خلال ما تقدم ، يمكننا أن نقول – مطمئنين – أن الرحالين جميعهم ، ينطلقون في بداية متون رحلاتهم من فرضية وجود متلق يخاطبونه ، و يكتبون من أجله ، و يضعونه في المقام الأول في إستراتيجيتهم ، و هو ما جعل اهتمامهم ببداية متون رحلاتهم اهتماما كبيرا ، انطلاقا من قناعتهم أن >> البداية بالنسبة للرحالة في نص رحلتــه هي رهـان عبره تتأسـس مصـداقية النص ، و يتحقق الإغواء ، و شد المتلقي ؛ فالعلاقة بين السارد و المتلقي ترتسم في جملة البداية ، باعتبارها لحظة التقاء لاستجماع سلسلة من العلاقات الموجهة إلى متلقي السرد << [2] .

و عموما فإن بداية متن الرحلة تلعب أدوارا مختلفة بالنسبة للرحلة ؛ فهي تارة تأتي من أجل تقديم المعلومات الخاصة بالرحالة و رحلته ، و تارة أخري من أجل تقديم أخبار تهيئ المتلقي لاستقبـــال المتن ، و في كـلا الحالتيــــن فهــي تؤسس لبنـاء المتن وفـــق ما يحتاجــه من دلالات و

---

(1)- مختار حساني المصدر السابق، ص:254.

(2)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص: 205.

إشـــارات . و أما ما يميز بدايــة المتن في الرحلة عن غيره من المتون في الفنـــون الأدبية الأخرى ، أن بداية الرحلة هي نفسها بداية المتن ، >> فكل سارد رحالة يلجأ إلى بداية الحـكي ابتداء من انطلاق رحلته لحظة خروجه << (1) ، سـواء كتب رحلتـه بنفسه أو أوكل لغيره كتابتها و تقييدها .

أما متن الرحلة ، فهو في حقيقة الأمر امتداد طبيعي لخطابي التقديم و البداية ، حيث يعمد فيه الرحـالة إلى الإطناب و التفصيل لما جاء في الخطـابين السابقـين ، و يقابل خطاب المتن في الرحــــلة المكتـوبة مجموعـة من مراحل الرحلة الفعلية التي يفرض المنطق ترتيبها و تعاقبها كالتالي :

م/الخروج.. من.	م/ السير ..نحو	م/ الدخول.. إلى	م/ الوصول تحقق النهاية التي قد تكون بداية

ولعل الميزة الأساسية التي تميز متن الرحلة ، هي ظاهرة الإطناب و التوسع التي لا نكاد نعدمها في رحلة من الرحلات ، خاصة القديمة منها ، و إن كان الأمـر يختـلف من رحـــلة إلى أخرى بحسب طبيعتها ، و بحسب طبيعة الرحالة في تكوينه و شخصيته ، وقدرته الفنية و الأسلوبية ، و الذي يحتم هذا الإطناب هو جنوح الرحالة في الغالب إلى الوقفات ، التي يستغلها لذكر اللطائف و الحديث عن الغرائب ، و عرض الكرامات و الاستعانة بالأحاديث و الآيات ، وهذه جميعها أو بعضها على الأقل تصادفنا في الرحلات جميعها وان بنسب متفاوتة .

فإذا وقفنا عند متون الرحلات التي تخضع للتاريخ و تتعامل مع أحداثه ، بل أكثر من ذلك يعتبر في كثير من الأحيان أساس بنائها وسر وجودها ، كرحلة محمد الكبير لابن هطال ، و الرحلة القمرية لابن زرفة ، فإننا بلا شك نقف على صفحات تاريخية بقلم رحالين خاضعين لمنطق التاريخ في تسلسله و ترتيب أحداثه ، و هنا >> تبرز تاريخية الرحلة جلية في طريقة تقديمها للواقع و الأفعال بأمانة بعيدا عن كل إضافة أو تأويل ، غير أن تقديم هذه الوقائع و الأفعال، كما هو الشأن بالنسبة للمؤرخ أيضا ، يتم عبر قناة الإحساس بالزمن الرابض وراء حركــة المرئي و المسموع و المتداول << (2) ، و هو ما يجعــل متن هذه الرحـــلات ، تتوالى فيه الأحـداث ، و تتعاقب تعاقبا تاريخيا في كثير من الأحيــان

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق ، ص:204.

(2)- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية ،مرجع سابق، ص: 62.

مرسما و محددا باليوم و الشهر و السنة، و لا شك أن خصيصة التعاقب هذه تجعل من سرد الأحداث في المتن يتجه اتجاها عموديا نحو النهاية ، إلا أن هذا لا ينفي وجود لحظات سرد أفقية ، تفرضها ما أشرنا إليها آنفا من وقفات .

و المتن في رحلات هذه الفترة - العهد العثماني — خضع في العادة إلى تقاليد تكاد تكون قوانين أو مسلمات ، لذلك نجد الرحالين يسعون دوما لتطعيم المتن و تدعيمه بنصوص في الغالب مؤيدة للفكرة أو الحادثة التي يريد الرحالون أو مقيدو الرحلة إبرازها ، و تثبيتها في ذهن المتلقي . من ذلك حضور الخبر الذي يمثل أحد المكونات الأساسية لمتن الرحلة ، و لا شك أن هذا الخبر يأتي متنوعا في مضمونه ، و مختلفا في مصدره ، فقد يكزن تاريخيا ، وقد يكون اجتماعيا أو سياسيا ، أو غير ذلك ؛ فالأخبار و نظرا لاختلاف عصورها و تنوع تواريخها تأتي في الرحلات >> متنوعة الأغراض متشعبة المواضيع ، منها ما يمت بصلة إلى الأدب و اللغة ، و منها ما هو أدخل في التاريخ ، و منها ما له بالدين - حديثا و سيرة و فقها —نسب صريح <<(1).

و لما كان هذا الخبر يصدر عن الآخر، أو ينقل عنه مدعما في الغالب بالسند ، فان التدخل من قبل الرحالة لإبداء الرأي بالاشمئزاز أو بالإعجاب، أو للشرح و التعليق ، أو للتصحيح و التصديق يصبح أمرا عاديا ، و قد يكون مطلوبا ، و هذا ما نجده على سبيل المثال مجسدا في رحلة الورثيلاني في قوله : >> و قد اخبرنا أنهم أعطوا ستين كيسا من الريال على جمع أنقاضه و رفعها في الشوارع و الرحاب لتعاد للبناء ثانيا ، فإذا كان هذا أجرة النقض فما بالك بأجرة البناء قال ولما رجعنا من الحجاز بعد سنة و نصف وجدناهم قد فرغوا من ترميم ذلك الجانب المهدوم و بالغوا في إتقان صنعته و رفع بنائه ليناسب البناء الأول فكان كما قيل :

يا بارقا بأعالي الرقمتين بدا لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

و الشنب الماء أو نقط بيض الأسنان اه قاموس فرحم الله أفاضل الملوك الذين درجوا ،و الذين من خلفهم نهجوا ، لقد خلدوا من المآثر الدينية ما أوجب خلود الثناء عليهم ، و وصول الدعاء ممن بعدهم إليهم ، و لم يزل أهل المشرق إلى الآن لهم فضل اعتناء ببناء المساجد و الخانقات و يبالغون

---

(1)- محمد القاضي ، المرجع السابق ، ص: 9.

في تعظيمها و يتأنقون في ذلك و يبادرون إلى إصلاح ما وهي منها <<[1] و هذا الخبر يعتبر تصديقا لما جاء قبله من حديث عن انهيار بعض أجزاء مسجد السلطان حسن ، الذي يعتبر أعظم المساجد و أروعها ، حتى وصف بأنه واحد و لا ثاني له في مصر وغيرها في بلاد العرب و العجم ، في فخـامة البنــاء و عظمـة الجدران ، و ما فيه من زخرفة بديعة و نقوش عجيبة .

و مثلما كان حضور الخبر كبيرا ، فإن القضايا الدينية و المسائل الاجتماعية و العلمية التي كانت تشغل عامة الناس ، و محل جدل بين العلماء في تلك الفترة ، أخذت هي الأخرى مكانها في متن الرحلة الجزائرية ، و بصورة واضحة في الرحلات الحجية و العلمية ، فقد تحدث الورثيلاني عن الغناء و الضرب على الدف و استعمال المزمار ، منتقدا ومعبرا عن رأيه << و قد عمت البلوى و العياذ بالله بانكباب أبناء الطوائف على السماع بالدفوف و المزامير ، و سائر الآلات و الأشعار و الألحان ، و اتخذوا ذلك صراطا مستقيما ، و اتبعوا فيه شيطانا رجيما ، و نبذوا السنة و راء ظهورهم ، و زالت هيئة الشريعة من صدورهم ، و كان لهم ذلك ديدنا في سائر الأزمان ، فصاروا مسخرة للشيطان ، و في الرسالة لأبي إسحاق الاولاسي قال : رأيت إبليس في المنام على بعض سطوح الأولاس ، و أنا على سطح ، و على يمينه جماعة وعلى يساره جماعة وعليهم ثياب لطاف ، فقال لطائفة منهم : قولـوا فقالـوا وغنوا فاستفـزعنـي صيتـه و هممت أن أطرح نفسي من السطح ، ثم قال : ارقصـوا فرقصوا أطيب ما يكون . قال لي يا أبا الحارث ما أصبت شيئا أدخل به عليكم إلا هذا انتهى <<[2].

و من القضايا الدخيـلة التي شغلت الناس يومها ، و تناقش العلماء في أمرها ، و اجتهــدوا لتثبيت حكـم شرعـــــــي فيها ، " القهـــوة " ، التي قال بشأنها محمد أبــــو راس:

<< و سئلت بمجلس علماء الجزائر بـ " الجامع الأعظم " المعتاد يوم الخميس ، و ذلك سنة أربعة عشرة و مئتين و ألف عن" القهوة " و " الدخان " و عما يسف منه أو يشم، فأجبت : ذكــر الشيـــخ علــي الأجـــهوري عن الحطاب أن الشراب المتخـــذ من قشور " البن " المسمى " بالقهوة " ، اختلف الناس فيه ، فمنهم متغال في الحـــل يرى أن ذلك قربة ، و منهـــم متغال في التحريم يراها كالخمر . و الحق انه في ذاته لا اسكار فيه ، و إنما فيه تنشيط للنفس ، و يحصل من مداومته ضرورة

---

(1)- الورثيلاني ، المصدرالسابق ،ص:318.

(2)- نفسه، ص:230.

تؤثر في البدن عند تركه كاعتياد أكل اللحم بالزعفران ، غير أنها تعرض لها الحرمة من وجوه منها :
إدارتها على الجلاس كإدارة الخمر ، فيسري لهم التشبه بشربه ، و يكون لها منادمة كهو
و منها أن بعض بائعيها يخلطها بشيء من المفسدات ، على ما قيل .
و منها جلب الأرذال و تلاهيهم بها.
و سئـــل عنها الشيـخ زروق فقـــــال :
ليست بمستكره و لكن تحرم على من طبعه " الصفراء " أو " السوداء " لإضرارها ببدنه و عقله . و أما من كان بلغميا فإنها توافقه . و قد كثرت في هذه الأيام فيتعين على العاقل اجتنابها ، و لله در القائل :

أقول لأصحابي عن " القهوة" انتهوا ولا تجلسوا بمـــجلس هـــــي فيه
و ليست بمكـــروه و لا بمحـــــرم و لكن غدت مشروب كل سفيه << [1].

و رغم الاتفاق الحاصل بين الدارسين على ضعف الحياة العلمية خلال العهد العثماني ، إلا أن رحلات الجزائريين في هذه الفترة كما رأينا ، جاءت حافلة بالحديث عن القضايا العلمية ، خاصة المتعلقة بالجانب الديني، إذ تحدث الرحالون عن مجالس العلم التي حضروها ، و العلماء الذين التقوا بهم و درسوا على أيديهم ونالوا الإجازة منهم ، كما عددوا الكتب التي درسوها و كذلك التي درّسوها .

إن الحديث عن القضايا العلمية ذات الصلة بالدين في هذا المقام ، لا يجب أن يحجب عنا أن رحلات الجزائريين أو على الأقل بعضا منها ، حفلت بمادة علمية طبيعية و رياضية و فلسفيـــة و فلكية هامة – بالنظر إلى الوقت الذي ظهرت فيه طبعا – وهذا الأمر يمكن الوقوف عليه خاصة عند بن حمادوش[2] << الذي كـان بطبعه ميالا إلى الكتب العلمية فقـد روى أنه درس تآليف القلصادي في الحساب ، و شرح محمد السنوسي على الحباك في الإسطرلاب، و القانون و النجــاح و الطلاسم لابن

---

(1)- محمد أبو راس، المصدر السابق،ص ، ص: 159،160.

(2)- من تآليفه: الجوهر المكنون من بحر القانون (في الطب) /بغية الأديب من علم التكعيب / فتح المجيب في علم التكعيب/تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج و غيرها كثير ينظر ترجمته ،تاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله ص،ص:443، 444.

سينا ، و مقالات إقليدس، و شرح ابن رشد على منظومة ابن سينا ، و تاريـــخ الـدول للملطــي في أخبــار العلماء و الأطبــاء ، و طالـــع عمل عبد الرحمان الفاسي في علم البومبة <<[1]. لقد خصص الرجل مساحات كبيرة في رحلته للحديث عن العلماء كالبيروني الذي >> دخل بلاد الهند و أقام بها عدة سنين ، و تعلم من حكمائها فنونهم و علمهم ، و طـــرق اليونان في فلسفتهـــم . و مصنفـاته كثيرة متقنة محكمة غاية الإحكام... <<[2]. بل أكثر من ذلك فقد تحدث ابن حمادوش في رحلته عن تعلمه صناعة " البومبة " ، و افتخر بذلك ، حين قال: >> إلى يوم السبت حادي عشر ربيع الأول ، الموافق لثاني و عشرين مارس ، خرجت لباب الواد مع أسط محمد ابن البونباجي بمهراس صغير لنتعلم رمي البونبة، فتممت ما بقي لي . و الحمد لله ، و أخذت علم البونبة بارتفاعها و تعميرها و رميها و عجن بارودها ، فأنا من علمائها و الحمد لله <<[3].

و نظرا لاختلاط الرحالين أثناء رحلاتهم بمختلف فئات المجتمع : الغنية و الفقيرة ، المتعلمة و الجاهلة ، البدوية و المتحضرة... فإن القضايا الاجتماعية بمفهومها الواسع شغلت فكرهم ، و أخذت حيزا كبيرا في متون رحلاتهم ، فقد >> تحدث الرحالون جميعهم عن الشعوب التي خالطوها و احتكوا بها ، فأشاروا إلى عادة الاحتفال بالمولد النبوي ، و شيوع التصوف، و منزلة الأولياء و الزهاد، و معاملة الحجاج ، و طريقة قراءة القرآن الكريم... <<[4] إلى غير ذلك من القضايا التي تشهد على حرص الرحالين على نقل كل ما جرى لهم أثناء رحلاتهم ، و هو ما يجعلهـم شاهدين على عصورهم بما يقدمونه من معلومات ، في كثير من الأحيان نقية بدون خلفيات ، خاصة في الرحلات الحرة ، و نعني بها الرحلات التي لا يكون للسلطة دور فيها .

و لم يتوان بعض الرحالين عن الحديث و كشف الظواهر السلبية التي صادفوها أثناء رحلاتهم حتى و إن كانت صادمة ، و معبرة عن انهيار الأخلاق ، و شيوع الفساد ، و انتشار الرذيلة ، فقد عبر ابن حمادوش عن امتعاضه من مثل ذلك ، من خلال المقامة التي ألفها أثناء رحلته حين حـــل بفـاس

---

(1)- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ،مرجع سابق ، ص:440.

(2)- ابن حمادوش، المرجع السابق ، ص: 140.

(3)- نفسه ، ص:254.

(4)- حسن الشاهدي، المرجع السابق، ج 2 ،ص:535.

ونزل في أحد نزلها حيث قال : >> و في يوم الأحد أللفت (الصحيح ألفت) المقامة الهركلية و هي : الحمد لله ، حـــدى بــي حادي الرحـــلة، إلى أن دخلت في بعض أسفاري هركلة ، فنزلت بها في خان ، كأنه من أبيات النيران، أو كنائس الرهبـــان ، بل لا شك أنه من أبيات العصيان ، فلـــذلك لا يسر به الناظر ، و لا ينشرح به الخاطر ، فاختصصت منه بحجرة ، و كأني وقعت من السماء في حفرة،أو اتبعت أفعوان فدخلت في جحره ، فغلقت بابي ،لأحفظ حبائي، و أومن جنابي ، من شدة أتعابي و كذلك كل من أصحابي ، حتى مد الليل جناحه ، و أوقد السماء مصباحه ، و هدأت الأصوات ، و صرنا كالأموات ، و توغلت في حبائل النوم ، و لم أدر ما هنالك من القوم ،فلم يوقضني إلا جلبة الأصوات ، و تداعي القينات ، و التدافع بمنع و هات ، و إذا بجاري بيت بيت يحاسب قينة على كيت و كيت ، و هي تقول له : فعلت كذا كذا فعلة ، و تدفع أجر فعلة ، فو الذي سهل علي السفاح ، و نصبني لكل من أراد النكاح ، لا برحت إلى الصباح ، على وجه وقاح ، و تدفع المهر بلا سماح ، فقلت : بعدا لهذا الجار ، و لا شك انه بئس القرار ، و لبئس الخان ، كأنه حان ، وفيه يقال له قرنان ، ولا ينطلق اللسان ، فهدا العنوان فانه من السب العام ، و يبلغ به الكرام .

ثم رجعت إلى هجعتي ، و لم أدر من ذاك المجاور لبيتي ، و لا ما وقع في تلك اللتا و التي . فلما ظهر لواء الترك و العجم شددت الرحال ، و تهيأت للترحال ، و امتطيت مطيتي ، و أخذت في طيتي متوكلا على الرحمان أن أبلغ المأمن بالأمان : و قلت :

وليلـــــــــة هركـــــــــــلة تحاكي المبيت ببيت الشـــرط

فان لم تكـــــــــن محــــــنة فلا تدخلنـــــها ولا تختبـط

فلست تــــــــــرى سمــــحة بزى و لا امـــــــرأة تمتشـط

كـــــان بهـــــا سلــــــطة تمس الغـــريب إذا ما خلـط

و فيها سمــــعت الخـــــــنى بأذني و فيها رأيت الشطــط

كأنهــــــا مزبــــــــــلة يعم بها الجـــن من قـد هبـط

فكـــــن حـــــذرا قـــــربها و لا تعتــورها إذا في نمـــط << [1] .

و قد اتخذ بعض الرحالين متون رحلاتهم منبرا لطرح القضايا الفقهية ، و الاختلافات المذهبية ،

---

(1)- ابن حمادوش،المرجع السابق، ص:79،80.

انطلاقا من تمجيد ذواتهم ، و رغبة منهم في التعبير عن رحابة علمهم ، و سداد رأيهم ، و عمق فكرهم ، و طول باعهم ، قي شتى المسائل و يكفي هنا الإشارة إلى ما جاء في فتح الإله لأبي راس حين قال بصريح العبارة :<< و لما ذهبت للحج سنة ست و عشرين [1] لقيت علماء الوهابية ، و هم تسعة علماء أكابر جماهير ، و أفضلهم الشيخ علي تاسعهم فوقع لي معهم مناظرة و مباحثة ، و اعتراضات و سؤالات و أجوبة فائقات ، و دلائل قاطعات ، و أحاديث مروية عن أكابر الأئمة ، ثم تناظرنا بعد صلاة العصر قبالة " الحجر" في " صلاة العصر " و قراءة " دليل الخيرات " و التسبيح بـ " السبحة " و مشاهد السادات و هدم مباني الأولياء ذوي الكرامات فرجعوا عن البعض بعد الاستدلال بالنصوص العظيمة العميمة و كان ظني فيهم أنهم حنابلة المذهب ففاوضتهم في " قصر الصلاة " ، فقلت : أن الإمام عنده نية إقامة أربعة أيام صحاح تقطع حكم السفر ، فقالوا عندنا " القصر " لا ينقطع ما دام السفر ، فعلمت أنهم خارجون عن المذاهب الأربعة في الفروع. و أما في العقائد فهم على ما عليه الإمام أحمد >> [2].

لا شك أن القراءة المتأنية لهذا المقطع ، تجعلنا نشعر بسلطان" الأنا "على الرحالة الذي سعا جاهدا – عن قصد أو غير قصد – لإبراز تفوقه ، و تبئير ذاته ، باعتماد " الأنا " بضمير المفرد مقابلا للآخر – القريب طبعا – بضمير الجماعة " هم " ، بل إن الأمر عنده يتعدى في بعض الأحيان حدا يستوجب الوقفة ، و يبعث في النفس التعجب و الاندهاش ، من ذلك قوله في رحلته ، بعد ما حدث بينه و بين علماء مصر من نقاش ، حين لم يتقبلوا منه زعمه أنه يحفظ عن ظهر قلب ألفية بن مالك ومنظوم البيان ، بل أكثر من ذلك يحفظ عدد أبيات كل فصل و كل باب فيهما :<< فأخرج أحدهم كتاب " الألفية "و فتحه عن آخره ، فخرج له " باب التصغير "، فقال لي : كم فيه من بيت ؟ فقلت : فيه اثنان و عشرون بيتا ، فحسبوه فوجدوه ثلاثة و عشرين ، فصاحوا ، و ضحكوا و أرادوا تزييف نقدي ، و تكذيب ما عندي ، فقلت : ناولوني الكتاب فأخذته و طالعته ، فإذا فيه بيت من جمع التكسير أدخلت فيه سهوا من الكاتب ، و تأملتها ، فإذا في أولها " خاء " بالحمرة لا يدركها إلا المتأمل ، و في آخرها " طاء " كذلك إشارة إلى أنها خطأ كما هي عادة الطلبة ، فرأوا

---

(1)- المقصود العام 1226هـ – 1811م.

(2)- محمد أبو راس، المصدر السابق، ص:119.

ذلك و لم تطب أنفسهم حتى رأوا تلك البيت بعينها في جمع التكسير ، و زاد عدم إنصافهم ، حتى طالعوا نسخا عديدة صحاحا من الألفية و حسبوا فيها " باب التصغير " فلم يجدوا فيه إلا اثنين و عشرين ، كما قلت و لم يجدوا تلك البيت فيه ، بل وجـدوها في الباب فوقـــه، و هو " باب جمع التكسير " فألقــوا السلم ، و اعترفوا لي بالفضل و النبل ، فصرت عندهم لا نجارى، ولا نبارى، و لا يقاس لي عندهم عبارة، ولا يشق لي غبار . و ارتفع ذكري و زاد فخري ، و علموا أن العلم سحري و نحري ، كما وقع لي مع علماء أتوني يوم الجمعة ، و أنا شغل بفور السفر ، فقالوا لي :لو حضرت " الجمعة " ، فقلت يندب للمسافـر الذي لم يجـب عليه حضـورها ، إذا لم تشغـله عن حوائجه ، فصاحوا و نكصوا ، وردوا علي كلامي ، و أكثروا ملامي . و قالوا – زيادة في تبكيتي و تنكيتي – من قال هذا ؟ ! فقلت: أعندكم شـرح الشيخ الخراشي الصغير؟ قالوا كلنا عنده ، فقلت – في نفسي إسرارا – هؤلاء **" كالحمار يحمل أسفارا "** ، فقلت هي فيه من المقولات ، تسهيلا لكم على المطولات ، فقالوا : أين موضع؟ قلت عند قول المصنف في باب الجمعة : " و عبد و مأذون، إن أذن سيدهما " فأسـرعوا لكتبهم فوجـــدوا كمــا قلت ، فأتـوني بعشرة شواش فائقات و سألوا مني الدعاء . >>(1).

و نظرا لطبيعة المرحلة العثمانية ، و ما عرفته من سيطرة للظاهرة الدينية على حياة المجتمع الجزائري ، فان حضور الخبر الديني وتغطيته لحيز كبير في رحلات هذا العهد ، يعتبر أمرا طبيعيا و هو ما يتجلى << بكثافة في الرحلات الحجية لارتباط الرحالة بهدف معين يعقد له فقرات و ذلك من خلال سرود مترابطة حول فضاء مكة و المدينة و المزارات و أخبار حول الأنبياء و المعجزات ، و إيراد بعض القصص المدعمة التي تتقاطع و الخبر التاريخي ... و عموما فإن صيغة الخبر الديني تأتي لإضفاء الطابع التجنسي على الرحلة ، و تحقيق التوازن النفســي و الروحي للرحالة >> (2).

و من الطبيعي أن يكون للكرامات حضورها المتميز في متون رحلات الجزائريين في العهد العثماني ، خاصة الرحلات الحجية و الزيارية ؛ لارتباط هذه الكرامات بالأولياء و الصالحين من أقطاب الطرق و سادتها الفاضلين ، الذين عظمت مكانتهم و ترسخت كراماتهم في قلوب العامة من

---

(1)- محمد أبو راس، المصدر السابق ، ص: 117.

(2)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص:224.

التابعين ،كما في قلوب الخاصة من الفقهاء و علماء الدين ، الذين كان بعضهم يؤيدون هذه الكرامات و يقبلون بها راضين ، و بعضهم ينكرونها و تجدهم لبعضها رافضين ، مثلما كان الشأن مع الورثيلاني الذي يتضح موقفه منها بجلاء ، يوم مر بمنطقة عقبة ، بأحد الأولياء، سيدي محمد بن علي ، قصد الزيارة كعادته ، و سمع ما يروى (بضم الياء) عن هذا الأخير من بعض الحجاج ممن زاره << أنه قال لهم: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (أي في المنام) أن النار لا تمس كل من رآك . و زعموا أنه قال و من رأى من رآك ...يقول الورثيلاني : أن الله أعلم بحقيقة ذلك ، و لكنه يضيف، أن هذا الكلام ، إن صح ، " يحتاج إلى تأويل و يبعد حمله على ظاهر و أن المراد مجرد الرؤية البصرية ، فان القواعد تأبى بقاءه على عمومه " و يضيف في سياق مشابه بعد ذلك " ، ولو صح حمل الكلام المتقدم على ظاهره و عمومه ، لكان أولى بذلك الأنبياء صلوات الله و سلامه عليهم " >>[1].

و لقد عقب الورثيلاني على كل هذا بما يدل على أنه نهج في توجهه نهج العقل لا النقل ، حين قال : << إلا أن كلام أولياء الله ، لا يمكن أن يرمى به جزافا ، فليحرص المرء جهده على لقائهم ، و رؤيتهم و التبرك بهم ... و مع ذلك فلا يركن إلى ظواهر ما يجري على ألسنتهم كل الركون ، حتى يعتقد أن من رأى أحدهم ممن قال مثل ما تقدم أمن من النار >>[2].

يبدو أن الورثيلاني كان حريصا على الدقة في موقفه هذا خشية ان يؤول تأويلا يثير فتنة ، ما يعني انه يضع في حسابه مدى تمكن الاتجاه الصوفي في النفوس ، و مدى سيطرة الفكر الصوفي على العقول ، لذلك و جدناه يوضح رأيه و يخفف من رفضه مضيفا أن << لكلامهم و جوها و احتمالات ...و أقرب ما يحمل عليه الكلام المتقدم أن تحمل الرؤية على القلبية ، و المرأى على صورته الباطنة التي توجب العلم بما هو عليه من سني الأحوال و سمي الأوصاف و رفيع المقامات و لا شك أن من منح شهود ذلك و أشرف عليه فله نصيب وافر من التخلق بأخلاق الأولياء >>[3].

---

(1)- عبد الرحمن عزي،التواصل القيمي في الرحلة الورثيلانية ،مؤسسة كنوز الحكمة للنشر و التوزيع الأبيار الجزائر دط ،سنة 1011 ، ص:63.

(2)- الورثيلاني،المصدر السابق ، ص: 119.

(3) - نفسه ص:119.

و أخيرا فإن الحديث عن متن الرحلة في حقيقة الأمر لا يكتمل ، و لا يمكن أن يستقيم ، إلا بالحديث عن المضمـون الأدبي ، الذي لا يكاد متن رحلة من رحلات العرب يخلو منه ، سواء عند الرحالين المشارقة أو المغاربة. و لم تكن الرحلات الجزائرية شاذة عن ذلك ، فقد توشحت صفحاتها بنصوص أدبية نثرية و شعرية مختلفة ، اختارها الرحـــالون أو مقيدو الرحـلات لتدعيم أفكارهـم ، أو محاولة منهم أن يبسطوا على المتلقي سلطانهم ، من خلال اختيار ما يناسب منها لطبيعة رحلاتهم و حقيقة توجههم ، فكثر شعر المناقب و المدائح النبوية في الرحلات الحجية ، و سيطر شعر الاستصراخ و المدح و الهجاء في الرحلات الرسمية أو رحلات الفتوحات كرحلة محمد الكبير ، و الرحلة القمرية في السيرة المحمدية.

و لكون الرحلة في حقيقة أمرها هي تلفيظ لسفر، بمعنى أنها تنقل السفر من حركة ، و الحدث من فعل إلى كلمات و جمل و نصوص ، فان المنطق يفرض أن يظهر فيها ما يروح و عن النفس ، و يخفف مشاق السفر، فالقلوب كما يقال تصدأ كما يصدأ الحديد ، و هو ما يحتم وقفات للراحة و استرجاع الأنفاس ، خاصة في الرحلات العلمية و التجارية ، التي يتنوع الشعر فيها ، بين الشعر التعليمي و النوادر و شعر الألغاز . و هذه جميعها نجد لها نماذج في رحلات الجزائريين : من ذلك ما جاء في رحلة المقري من حديث عن أفعال القلوب :

دوات لليقين بغير شك　　و للرجحان قولك عز حجه [1] .

" دوات " = درى، وجد، الفى ، تعلم . و " عز حجه "= علم ، زعم ، حجا ، جعل ، هب .

و يبدو أن ظاهرة التلغيز شعرا ، قد انتشرت انتشارا كبيرا بين الأدباء و العلماء و المثقفين في هذه الفترة ، و هي كما نعلم علامة مميزة لثقافة العصر ، و إن كانت في حقيقة أمرها تدل على التصنع و عدم القدرة على الإبداع ، و ما جاء في رحلة بن حمادوش من هذا النوع من الشعر يعتبر دليلا على ذلك يقول: << في عشية هذا اليوم ، قدم بركنتي من بلد العناب، و كنا منتظرين إليه ، لأنه كان وقع في أيدينا كتابا سيدي أحمد الشيخ البوني أحدهما أول شرح وظيفة سيدي أحمد زروق و الآخــر تأليف الألغاز ، فيهما:

---

(1)- أبو العباس أحمد المقري ، رحلة المقري إلى المغرب و المشرق ، تح :محمد بن عمر، منشورات مخبر مخطوطات الحضارة الاسلامية في شمال افريقيا مكتبة الرشاد للطباعة و النشرو التوزيع ، الجزائر، د ط ، دت ،ص:84.

ألا أيها الغادي على ظهر أجود　　يشق الفيافي فدفدا بعــد فدفد
تحمل ، رعاك الله ، منــي تحية　　تحي بها أهل المجالس في غـــد
و قل لهم ما سبعة خلقوا مــعا　　و ما سبعة في ثوب خز مــورد
حواجبهم سبعون في وجه واحد　　أعينهم تسعون في خلق هدهد
أبوهم له حرفان من اسم جعفر　　و حرفان من اسمي علي و احمد

فتداولنـاه بيننا حــتى بلـغ كـل عـالم و أديب قي البلد ، فلم يفتض بكرته ، و لم نجد علما عند أحد به .

سألت شيخنا حافظ العصر سيدي يحي الشاوي [1]– رحمه الله – عن قـول القائل و أظنه الجلال الأسيوطي (هكذا) [2]، رضي الله عنه ، فأجــابني في الحــال على ارتجــال بقــوله:

هم سبعة من بيضة خلقوا معا　　و مثلهم في ثوب خـــز مـــورد
حواجبهم سبعون في كل واحد　　و أعينهم تسعون صـــورة هــدهد
أبوهم رجيـــــــم مارد متمرد　　و قد جمعت من لفظ لغــز مقيد

فانظر كيف جمع السؤال و الجواب ، و نص على ذلك بأوجز عبارة و ألطف إشارة >> [3]و قد غطى الحديث عن هذا اللغز ، و اهتمام الأدباء و العلماء به ، و محاولة الإجابة عنه صفحات عديدة من الرحلة.

إن ما تقدم من حديث عن الشعر في متون الرحلات الجزائرية في العهد العثماني ، يؤكد أن الشعر دليل ثقافة الفرد و تميزه ، كما يؤكد أن الشعر بقي محافظا على مكانته ، و دوره المعرفي و التثقيفي من خلال حضوره الدائم في مختلف المصنفات و المؤلفات ، و بصورة لا فتة في الرحلات الجزائرية في هذه المرحلة ، و يكفي الإشارة هنا إلى أن رحلة المقــري على سبيل المثال ضمت ما يناهز

---

(1)– هو يحي الشاوي الملياني،المتوفى غي العام 1096هـ عند عودته من الحج من مؤلفاته منها :
" فتح المنان في الأجوبة الثمان " و " قرة العين في جمع البين " و " النبل الرقيق في حلقوم الساب الزنديق "
(2)– هو عبد الرحمان ابن أبي بكر السيوطي المتوفى في العام 911 هـ وهو صاحب الاتقان في علوم القرآن.
(3)– ابن حمادوش ، الرحلة ،ص:130-131.

ألفين و تســـع مئة و خمس و ثلاثين (2935) بيتا من الشعر[1] ، مما يعطي الانطباع أن ليس هناك رحلة خلت من الشعر ، سواء الذي ينظمه الرحالة أو الذي يأتي به لغيره من ديوان العرب ، عبر مختلف عصوره ، و من شتى أغراضه ، لتأييد فكرة أو إثبات خبر ، وهذا ما يفرض على الرحالة انتقاء المادة الشعرية المناسبة للهدف المسطر ، و لطبيعة ما يريد الوصول إليه..فقد << لازم الشعر الرحلة إلى الحد الذي تعذر فيه وجود رحلة خالية من الشعر >> [2]، سواء الفصيح منه أو الملحون . و هنا تتجلى الخدمة الكبيرة التي قدمتها الرحلة للعديد من الأدباء و الشعراء ، الذين مثلت بالنسبة إليهم وسيلة إشهار ، من خلالها عرفوا ، و لولاها ما كانوا ليعرفوا ، و نخص بالذكر هنا خاصة المغمورين منهم ، الذين لا نكاد نجد لهم و لا لإنتاجهم ذكرا إلا في الرحلات .

ج- خطـــــــــاب الختـــــــــام :

آخــر ما يقــف عنده قارئ الرحــلة أو متلقيها هو الخــاتمة ، التي تعتبر المحطـة النهائية لكل رحلة . و هي حتمية لا بد منها ، باعتبار أن الرحلة لا تبدأ إلا لتنتهي ، و من منطلق أن المرء لا يرحل إلا ليعود ؛ ذلك أن مسار الرحلة له ترتيبه الذي يفرضه الواقع ، فالرحالة في رحلته من " أ " نحو " هـ " لو لم ينطلق من نقطة الانطلاق " أ " لما وصل إلى " ب " ، و عندما نجده في نقطة النهاية " هـ " فهذا يعني أنه بالضرورة مر بـــ: " ب " ، " ج " ، " د " . و رغم أن الخاتمة تعتبر من البنيات الثابتة في الرحلة ، إلا أنها تختلف من رحلة إلى أخرى ، بحسب طبيعة الرحلة ، و ما أحــــاط بصاحبها فيها ، فقد تطول فتمتد صفحات ، و قد تقصر فلا تتعدى بضعة أسطر ، كل ذلك تبعا لاهتمام أو عدم اهتمام الرحالة بها . فنحــن حين وقفنا عنــد الرحلات الجزائــرية و رغـــم أنه صادفتنا بعض

---

(1)- في الرحلة الورثيـــــــلانية 896 بيتا.
في فتح الإله لأبـــــــي راس 397 بيتا.
في الرحلـــــة القمريـــــــة 697 بيتا.
في رحـلة محمد الكبير لابن هطال 97 بيتا.
في رحـــــــــلة ابن حمادوش 546 بيتا.
في رحــــــــــلة المقـري 2935 بيتا.
(2)- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية ، ص:56.

الرحلات انعدمت فيها الخاتمة، و الأمر هنا يتعلق بتلك الرحلات المبتورة التي لم يتمها أصحابها، أو أن أجزاء منها ضائعة، إلا أننا في الرحلات التامة، و التي سنخضع نماذج منها للدراسة ، وجدنا أن خطاب الختام فيها خلال العهد العثماني بالتحديد ، لا يختلف في العموم عن غيره في الرحلات العربية من كونه بنية ثابتة ، إلا أن الاطلاع على رحلات هذا العصر و ضعنا أمام مجموعة من الملاحظات. فالرحلة الورثيلانية باعتبارها رحلة حجية ، و نظرا لاهتمام الرحالة بكل صغيرة و كبيرة فيها ، فقد ألفيناه خصص لخطاب الختام أكثر من عشر صفحات ، و قد بدأ هذا الخطاب بالتدرج من خلال الإشارة إلى وصوله إلى مشارف موطن إقامته ، و على مدى هذا الخط ، و كعادته ، خصص حيزا كبيرا للحديث عن زياراته للشيوخ و الصالحين و الأولياء ، الأموات منهم و الأحياء ، تبركا تارة ، و تارة طلبا للتحية و اللقاء ، وقد تميز خطاب الختام في هذا النوع من الرحلات ببروز مظاهر الأفراح التي تقام احتفاء بالعائدين ، و اغتنام البركة منهم ، >> إذ الحاج مجاب الدعوة أربعين يوما بعد وصوله إلى داره ، فضلا عن ملاقاته في الطريق بروح و ريحان لمن جاء بالصدق و التصديق بالوعد الحق << [1] .

و أثناء هذه الاحتفالات التي شارك فيها الأهالي في مختلف المناطق، تقام الأفراح، و تذبح الذبائح ، ابتهاجا بعودة الغائب >> و بالجملة فالجموع من وطننا رجالا و نساء ، هذا يتصل بنا ، و هذا ينفصل عنا ، إلى أن وصلنا إلى مقامنا ، و دارنا، ليلة الجمعة و ليلة العيد و يوم عرفة عام 1181 أحد و ثمانين و مئة و ألف.فلما أصبح الله بخير الصباح، اجتمعنا كالعادة لصلاة عيد الأضحى ، فرآنا من لم يرنا عند الوصول ، فتمت النعمة ، و عظمت المنة << [2] .

و بالرغم من أن الرحالة في خاتمة الرحلة ، إلا أن الإطناب لم يفارقه ، حيث راح يتحدث عن استمرار أيام الفرح و الابتهاج و مراسيم الاستقبال مدة دامت أسابيع ، يؤكد ذلك قوله : >> ثم أنه بعد ذلك تأتي إلينا الوفود من الوطن، تارة ألفا ، و تارة أكثر من ذلك نحو الألف و أربعمائة ، ثم كذلك على حسب القلة و الكثرة ، إلى أن انقطعوا في مدة طويلة نحو الشهرين . جعله

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق، ص: 810.

(2)- نفسه، ص: 812.

الله حجا مبرورا ، و سعيا مشكورا >> [1].

و تأكيدا من الرحالة على دوره الإصلاحي ، و نهجه التعليمي الذي رافقه مع مختلف المحطات، و استجـابة >> إلى الغاية التعليمية التي تهدف الرحلة إلى تحقيقها >> [2]، ختم رحلته بكلمة " خاتمة " . و استغل الفضاء بعد ذلك ليتحدث عن شروط قيام الساعة ، معتمدا على كتاب " الجمان في مختصر أخبار الزمان "، حيث قال : >> قال صاحب كتاب الجمان في مختصر أخبار الزمان ما نصه : و لنختم إن شاء الله هذا التأليف المختصر بالعلامات التي تكون بين يدي الساعـة إلى انقـراض الدنيا و اعلـم انه لا خـلاف بين أهل العلم، أن مبعثه صلـى الله عليه و سلم من علامـاتها الكبرى لقوله تعالى و خاتم النبيين. ثم انشقاق القمر من عـلاماتها الكبرى، و أما الصغرى فكثيـر ، ذكـــــرها الرسول صلى الله عليه و سلم في أحاديث مختلفة >> [3] . ثم تحدث بعد ذلك عن كيفية صلاة التسبيح و فضلها ، موظفا نص حديث للرسول صلى الله عليه و سلم ، مروي عن ابن عباس رضي الله عنه رغبة منه في التأثير و الإقناع .

و لما كانت الرحلة رحلة حجية، و في عصر سيطرت عليه الروح الدينية ، فإن الحمد و الدعاء لم يفارقـا الخاتمـة ، كما لم يفارقا خطابي التقديم و المتن كما رأينا من قبل . و حضور الحمد و الدعاء بهذه الصورة ، يعتبر قاسمـا مشتـركا بين العـديد من الفنون ، فرضتـه الثقافة السائدة في العصر ؛ >> فالافتتـاح و الاختتـام من القواسم المشتـركة التي توفـرت في استهـلالات و خواتم الخطب ، والمراسلات ، و دروس الوعظ >> [4]. و هذه جميعها عند المسلمين عادة ما تختتم بالحمد و الدعاء ، استجابة لقوله تعالى : ﴿ **ادْعُونِي اسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [5] .

و يبدو أن مظاهر الاحتفال ، و خـروج الأهـالي للاستقبال ، لم يكن حـكرا على الرحـلات الحجية ، بل تعـداه إلى أنواع الرحلات الأخرى خاصة الرسمية ، كالرحـلة الحـرْكة و

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ، ص: 813.

(2)- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية ،مرجع سابق، ص:140.

(3)- الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص: 813.

(4)- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية ،مرجع سابق، ص:209.

(5)- سورة غافر ، الآية 60.

الرحلة الجهادية ففي رحلة محمد الكبير لابن هطال التلمساني و بعد العودة المباركة للباي منتصرا استعدت الجموع و هللـــت و كبرت ، و أكرمت و ضيفت ، << ثم جعـــلت الناس ترد عليه من " المعسكر " : مثنى و فرادى و جماعات . و استمر فعلهـم ذلك إلى البيات، و قـد تباشر بقـدومه الدهر ، و قابل أيامه بالإسعاد حتى صارت من حسنها كالمواسم و الأعياد ، و عم خصبه الأهـل و الرعيـة و البـلاد << (1). ولم يبق الأمر مقتصرا على الاحتفالات الشعبية ، بل تعـداها إلى الاحتفـالات الرسمية ، تماشيا مع الطبيعة الرسمية للرحلة << فلما وصل " غريس " وجد خدامه المخازنية تعرضوا له بإبل الأحرار...ركب و دخل " المعسكر " ، و قد تم له ما أراده من الأشياء ، و نال المحمدة التي استحق بها الاستعلاء على الثريا ، فألقت عصاها (المحلة) و استقر بها النوى ، كما قر عينا – بالإياب – المسافر <<(2) .

و لعل القاسم المشترك الأبرز بين هذا النوع من الرحلات و الرحلة الحجية ، هو التحديد الزمني الدقيـق ، حيث تكون الإشـارة في الخـاتمة إلى تاريخ الوصول ، بيومه وشهره وسنته و و وقته كذلك ، فالباي محمد الكبير <<كان دخوله يوم الأربعاء الثامن و العشرين من ربيع الثاني قبل وقت العصر << (3). و لم تخـرج الخـاتمة في الرحـلات الرسميـة في العهـد العثمـاني عن << الخاتمة النمطية المشفوعة بالحمد و مدح أولي الأمر مع الاعتذار عن التقصير << (4)، و هو ما يؤكده خطاب الختام عند ابن هطال ، في رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي ، حيث ختم قائلا :<< فلله الحمد على ما من به من إكماله ، و الشكر له على ما منحنا من إنعامه و أفضاله. و نسأله – سبحانه – أن يجعله موافقا لمن جمع لغرضه ، لأكون مؤديا لبعض حقه علينا و فرضه . فهو أكبر داع إلى جمعه ، و أقوى سبب و حامل على وضعه << (5).

و في كثير من الأحيان ، خاصة في العصر الذي نحن بصدد دراسة نماذج منه ، و الذي يبدو أن

---

(1)- ابن هطال ، المصدر السابق ، ص: 98.

(2)- نفسه ، ص: 100.

(3)- نفسه ، ص: 100.

(4)- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية ،مرجع سابق، ص:79.

(5)- ابن هطال ، المصدر السابق، ص: 101.

المساجـد و الزوايا ما زالت تلعب دورا كبيرا فيه ، تكون نهاية الخاتمة في الرحلة أقرب إلى نهاية خواتم الخطب الدينية ، و الدروس المسجدية ، التي عادة ما تنتهي بصورة نمطية بالصلاة على النبي ، و سبحنة العزة ، و هو ما جسدته رحلة محمد الكبير التي ختمها ابن هطال بقوله : << و صلـى الله على سيـدنا محمـد و صـحبه و آلـه عدد ما ذكـــرهالذاكـــرون ، و غفل عن ذكـره الغافلـــون ، و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . سبحان ربك
رب العزة عما يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين << [1] . و لا شك أن كل من يقرأ أو يسمع هذا المقطع ، يتبادر إلى ذهنه الصيغة التي كثيرا ما يوظفها العلماء ، و الخطباء ، في اختتام كلامهم الشفهي .

و الأكيد أن هامش الحرية الذي يتمتع به الرحالة في الرحلات الحجية أو الاستجمامية ، لا يتوفر لكاتبي الرحلات الرسمية ، التي يبقى الكاتب فيها مقيدا على طول صفحات الرحلة ، لا يخرج عن إرادة و رؤية الجهة الرسمية التي ينتمي إليها. و لأنه يعتبر مؤرخا رسميا ، يتحمل مسؤولية بصورة أو بأخرى ، فإن المنطق يفرض أن يكون كاتب هذا النوع من الرحـلات معـروفا وموقـعا باسمـه في نهـاية رحـلته ، و لعـل هـذا ما فـرض على ابن هطال أن يذيل خاتمته ، و ينهي رحلته ، بالتأكيد على أنه هو الكاتب فعلا و السارد لأحداث الرحلة ، مشيرا إلى ذلك بذكر اسمه كاملا ، حيث قال : << قال ذلك و كتبه فقير ربه ، و أسير ذنبه ، و أقل عبيده و أحوجهم إلى توفيقه و تسديده ، أحمد بن محمد بن محمد بفتح الميم بن علي بن أحمد بن هطال << [2]. و ترك ذكر الاسم إلى نهاية نص الرحلة فيما نرى ، له دلالة ، و لم يأت اعتباطا ذلك أن << ترك الاسم إلى نهاية النص يدل على مسؤولية الكتابة كفعل مادي << [3]. و هذا ما يتناسب مع ابن هطال الذي كتب عن أحداث ، و حـاول أن ينأى بنفسه عنها ، حتى بدا كأنه يكتب تقريرا عن مهمة ، بعيدا عن التفاعل مع أحداثه إلا ما كـان من تعابير دالة على الإعجاب بالشخصية المركزية في هذه الرحلة . و لن نكون مبالغين إذا قلنا أن المقطع الذي أشار فيه ابن هطال إلى اسمه ، يعتبر إلى حد بعيد بمثابة التوقيع كما نعرفه اليوم

---

(1)- ابن هطال ، المصدر السابق ، ص: 101.
(2)- نفسه ،ص: 101.
(3)- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية ،مرجع سابق، ص:97.

و يؤدي نفس الدور الذي تؤديه توقيعات المسئولين على الوثائق الرسمية . هكذا يتضح جليا ، أن الرحلات بجميع أنواعــها ، تبنى على تخطيــط معمــاري واحد ، ركائزه الأساسية هي : المقدمة ، و المتن ، و الخاتمة ، وإن كان التعامل معها طولا و قصرا ، لغة و أسلوبا ، شكلا و مضمونا ، يختلف من رحلة إلى أخرى ، تبعا لاختلاف الرحالين من حيث مستواهم ، و طرق تفكيرهم ، و ثقافاتهم ، و مستوياتهم العلمية و المعرفية .

البـــــــــاب الثانـــي

الرحلة الجزائرية في العهد العثماني

أنواعها و خصائصها

الفصـــــــل الأول

الرحلة الحجية بناؤها و خصائصها

الرحلة الورثيلانية للورثيلاني نموذجا

توطـــــئة :

لا يخفى على الباحثين اليوم المبتدئين منهم و المحترفين ، أن كلمة البناء أصبحت كلمة مفتاحيه منتشرة في جميع مجالات المعرفة ، توظف عند الحديث عن العلاقة بين العناصر التي تكون شيئا ما ، ما يعني أن البنية في ابسط معانيها هي استخدام مجموعة من الوحدات بنظام معين يرتكز في الأساس على مظاهر الاتساق و الانسجام .

على هذا الأساس يمكننا تعريف البناء الفني بأنه الطريقة التي ننتهجها لاستخدام العناصر المكونة للعمل الأدبي ، و الكيفية التي نخلق من خلالها الاتساق بين أجزائه ، و الانسجام بين جميع مكوناته ، حتى نرقى بهذا العمل إلى مرتبة تسمح له باكتساب صفة الأدبية ، من خلال توفر الجمالية في أسلوبه ، و الأسس الفنية في بنائه ، و تلك هي نقطة الارتكاز في هذا الباب الذي سأحاول من خلاله البحث عن البناء الفني ، الذي ميز الرحلة الجزائرية انطلاقا من نماذج من أنواعها الأكثر انتشارا خلال العهد العثماني ، فنظرتنا للرحلة يجب أن لا تبقى حبيسة تلك النظرة الضيقة ، التي لا ترى الرحلة إلا مجرد وثيقة تاريخية ، أو تقريرا جغرافيا لا صلة لها بروح الأدب و عالم نقده.

إن الحقيقـــــة التي لا يجب إنكارها هي أن التعامل مع الرحلة هو تعامل مع نص أدبي خاصة عندما يتعلق الأمر بتلك الرحلات التي تكتب بأسلوب النثر الأدبي ، و بلغة أدبية فنية راقية و تبنى بناءا فنيا له ملامح و خصائص تقربه من الفنون الأدبية السردية ، و هذا ما يمكننا أن نقف فيه على أفكار و عواطف و أخيلة و أساليب ، و مظاهر اتساق و انسجام ، من خلال تعانق الذات الراحلة مع الواقع ، و تفاعلها مع كل ما يحيط بها ، كما نلمح كذلك صورة الحياة الواقعية بجميع أشكالها و أحداثها في النص الرحلي من وجهة نظر الرحالة طبعا.

إن النص الرحلي كثيرا ما يخضع لسلطة التاريخ ، و شخصياته في العادة هي شخصيات من الواقع ، حياتها معروفة و يمكن الوقوف عليها من خلال كتب التاريخ و السير و التراجم و الأخبار ، و بهذا يصبح الرحالة شبيها بالروائي الذي كتب الرواية البدائية ، قبل أن تصبح فنا قائما بذاته ، يوم كانت تخطو خطواتها الأولى في تلك المرحلة التي كانت فيها الرواية >> متزاوجة مع التاريخ ... غير واثقة من نفسها ، و لا مؤمنـة بجمالهـا الفني ، و سلطانها الأدبي، فكـــــنا نلفيها تعول تعويلا شديدا على أحـــداث التاريـــخ إما بصورة مباشرة ، و إمـــا بإيهام القارئ بأن ما حدث هو فعــلا وقع

يوما في زمــن التاريخ ، و أن الشخصيات المرسومـــة هــي حقا تمثـل أشخاصا كانــوا يحيــون و يرزقــون >> [1] . نقول هذا الكلام من منطلق ما يعتقده بعض النقاد من أن هناك علاقة ما تربط كثيرا من الفنون السردية – سواء عند العرب أو عند غيرهم من الأمم – بالرحلة ، >> فلم تكن الملاحم أو المقامات أو الحكايات الشعبية التي تعد الرواية امتدادا لها في ظروف تاريخية جديدة ، إلا تعبيرا عن رحلات مهما اختلفت و تنوعت أشكالها و طبيعتها >> [2]. و عليه فان ربطنا للرحلة بالرواية التقليدية في صورتها البدائية ليس بدعة ؛ إذ أن كثيرا من الدارسين يعتقــدون بهــذه العـــلاقة و بحقيقـــة التأثيـر و التأثر و الإفادة و الاستفادة بين الفنين ، فـــ>> منذ روايات الفروسية تختلط الرحـــلات و الأشكـــال الـروائية و تغتني بعضها من بعض >> [3]بل أن هناك من كبار الروائيين من استأنس بفن الرحلة ، و بنـــى عليـه بعض رواياته كما هو الشأن مع نجيب محفوظ الذي اختار – عن وعي و قصد – لإحدى رواياته عنوان : " رحلة بن فطومة " [4] مع ما يحمله هذا العنوان من تقاطع مع رحلة بن بطــــــوطة >> ليقيم علاقة تناصية معها و يبني عليها نصا جديدا >> [5] مستفيدا من الشهرة الكبيرة لرحلة بن بطوطة قديما و حديثا عند العرب كما عند العجم.

إن هذا التداخل ، و بين فنون الأدب و غيرها ، هو في الحقيقة أمر طبيعي ،كما أن انفراد كل فن بمقوماته ، أمر طبيعي كذلك ؛ فالأمر مرتبط في الأصل بنواميس الحياة القائمة أساسا –كما هو معلوم – على التغير و التطور في جميع الميادين .

إن الرحلة كما رأينا من قبل تخضع لبناء معماري يكاد يكون واحــــدا ، من حيث اعتمادها على عناصر لا تكاد رحلة تخلو منها ، نعني بذلك العنوان ، و المقدمــــة ، و الوسط ، و الخاتمة . إلا

---

(1)- عبد الملك مرتاض،في نظرية الرواية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب الكويت،ديسمبر 1998، ص: 31.

(2)- محمود أمين العالم، ثلاثية الرفض و الهزيمة، دار المستقبل العربي ، بيروت 1985،ص:66.

(3)- دانيال هنري باجو ، المرجع السابق ص:60.

(4)- هي الرواية الحائزة على جائزة الدولة التقديرية و كذلك جائزة نوبل للآداب للعام 1988.

(5)- محمـــد رياض وتار ، توظيف التـراث في الرواية العربية المعاصـــرة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ص :205.

أنها تبقى إنتاجا سرديا حرا لا يتقيد فيها الرحالون ببناء فني و احد ، كما هو الحال في الرواية و القصة و غيرها من الفنون السردية ، التي حدد لها دارسوها و المهتمون بها في العصر الحديث مقوماتها الفنية التي تبنى عليها . ويبدو أن عدم التقيد ببناء فني واحد في الرحلة ، مرده إلى تعدد أنواع الرحلات و اختلاف سبل تعامل الرحالين مع مكوناتها ، إلا أن ذلك لا يمنع من وجود عناصر مكونة للرحلة يمكن أن تكون بناء فنيا ، و نعني بهذه العناصر: الشخصية ، الأحداث ، و بنية السفر ، السرد ، الزمان و المكان ، و زوايا النظر و مستوى اللغة ، و هي العناصر التي يمكننا أن نقيم على أساسها دراسة من خلال البحث في كيفية تعامل الرحالة أو من ناب عنه مع هذه العناصر أثناء كتابة الرحلة .

لا نظن أننا نجانب الصواب إذًا قلنا أن الرحلة يمكن أن نجد فيها جوانب فنية ، خاصة إذا توفرت فيها عناصر و مكونات تحقق لها سرديتها ، و أبرز هذه العناصر القصدية ، سواء تعلق الأمر بقصدية السفر و الانتقال ، أو قصدية الكتابة عن السفر و نقل فعله إلى نص ، يطلع عليه الدارسون و يقيمونه ، و يطالعه القراء و يستفيدون منه ، وبهذا يتحقق لهذا النص الرحلي ما يتحقق لكل نص أدبي أو نمط سردي ، من قانون خطابي يجعله مجسدا لمتطلبات النص الأدبي المتمثلة في : المرسل و الرسالة و المرسل إليه ، أو بعبارة أخرى السارد السرد و المسرود له ، و هذه جميعها إذا توفرت يصبح الرحالة مجبرا على احترام تقاليد الرحلة ، من حيث العنونة و الافتتاح و السرد و الختام (1).

و درءا لأي التباس بين الرحلة و غيرها من أنواع السرد الحديثة الأخرى ، التي وضع لها النقاد قوانينها التي تحكمها ، و مقوماتها التي تقوم عليها ، فإنه لا بد من الإشارة إلى أن الرحلة في حقيقة أمرها هي شكل فني و خلق أدبي حر ، يجد فيه الرحالة فسحة واسعة للمناورة و التصرف في مادته ، الأمر الذي يجعل لكل رحلة خصائصها التي تميزها عن غيرها ، و هذا ما يحتم علينا التعامل مع كل نوع من أنواع الرحلات على حده ؛ إذ أن هناك شبه إجماع بين الدارسين ، أن كل نص رحلي يستدعي مقاربة منهجية خاصة ، يتحكم فيها نوع النص و طبيعة مادته ، و هذا فيما نرى أمر طبيعي فليس من المعقول أن تتوفر نفس عناصر التحليل بنفس القيمة الجمالية ، كما أنه من غير المعقول أن توظف العناصر بنفس القيمة الفنية في الرحلة العلمية و الرحلة الحجية و الرحلة الجهادية أو السفارية أو غيرها من أنواع الرحلات ، و مع ذلك فان محكي السفر يبقى القاسم

---

(1)- ينظر عبد الرحيم مودن ،أدبية الرحلة ،مرجع سابق، ص:29.

المشترك بين جميع الرحلات ، بل يبقى المهيمن الأساسي ، و المؤطر الأول لجميع مكونات الرحلة

أولا : المفهـــــــــــــوم :

الرحلة الحجية أو الحجازية كما يحلو للبعض تسميتها ، هي تلك الرحلة التي يتجه من خلالها صاحبها إلى البقاع المقدسة بنية أداء فريضة الحج ، هي رحلة تشد فيها الرحال إلى مكة المكرمة من أجل إتمام الركن الخامس من أركان الدين ، و هي ليست كغيرها من الرحلات باعتبارها ذات عـلاقة بعقيـدة الإنســان و دينه ، و هي رحـــــلة مفروضة على كل قادر عليها من المسلمين ، فالحج لمن استطاع إليه سبيلا .

لا يختلـــف اثنان أن هـــذا النــوع من الرحـلات يعتبر الأكثر هيمنة على الرحلات الجزائـرية خــلال العهد العثماني ، بل عبر مختلف فترات التاريخ التي تلت الفتح الإسلامي و انتشار هذا الدين في المنطقة ، فالجزائريون على غرار أهل المغرب العربي عموما ، عشقوا البقاع المقدسة و تعلقت قلوبهم بها ، فشدوا الرحال نحوها رغم بعد المسافة ، و أهوال الطريق ، و مشقة السفر ، إلا أن ذلك لم يقف في وجه الراغبين في تأدية الركن الخامس ، بل انه كان مفجرا للأشواق ، و محركا للعواطف الجياشة نحو هذا المكان المقدس.

ثانيا :الرحلـــــة و الرحالـــــــــة :

نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار، انه العنوان الأصلي لما يعرف عند الدارسين بالرحــلة الورثيلانية التي قادت صاحبها لأداء فريضة الحج، سالكا المسار الذي ألف الجزائريون سلوكه :

الجزائر ← الجريد و قابس بتونس ← طرابلس بليبيا ← وادي الرهبان و الإسكندرية و سيناء بمصر ← العقبة بالأردن اليوم ← مكة المكرمة .

و الظاهر أن اهتمام الرحالة بالمحطات التي مر بها في رحلته كان متفاوتا ؛ إذ نجده يسهب و يطيل الحديث و التعليق مع بعضها ، بينما نجده يميل إلى نوع من الإيجاز مع بعضها الآخر .

و قد سبقت هذه الرحلة ""الكبرى " رحلة أخرى يمكن أن نطلق عليها الرحلة الصغرى ، نعني بها تلك الرحــلة الداخــلية التي كانت تمهيدا لرحـــلة الحج ، و التي قادته إلى العديد من مناطق الوطن حيث زار العلماء و الفقهاء ، و قبور الصالحين و الأولياء ، و شيوخ الزوايا و مريديها الأصفياء .

تعتبر الرحلة الورثيلانية اليوم من أهم الوثائق التاريخية التي تؤرخ لفترة العهد العثماني ، و ترسم

صورة الحياة فيه في الجزائر و في الوطن العربي . و يبدو أن الورثيلاني ذاته ، و من خلال ما يوحي به العنوان الذي اختاره لها ، >> أرادها وثيقة إخبارية للخلف عن تجربة موسم الرحلة إلى الحج ، بما تحمله من معان إيمانية عظيمة ، و تجربة روحية عميقة ، إضافة إلى ما يتخلل هذه الهجرة الظرفية في سبيل الله من عجائب و مخاطر ، ذكرها بالتفصيل في نص الرحلة << [1] .

و الأكيد أن الرحلة الورثيلانية تعتبر من أهم رحلات رحالي المغرب العربي ، نظرا لما تحمله على صفحاتها التي ناهزت الثمانمائة (800) من أخبار متنوعة ، بين أدبية ، و تاريخية ، و دينية و اجتماعية ، و سياسية ، و أوصاف دقيقة للمدن و الديار ، إضافة إلى ما نجده فيها من تحديد للممالك ، و تعريفا بالمسالك ، ناهيك عن التعريف بالشخصيات . يضاف إلى كل ذلك القيمة العلمية و الأدبية و الدينية لصاحبها سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني(1125هـ- 1193هـ) نسبة إلى بني ورثيلان ، قرب مدينة بجاية بالجزائر الرجل الذي >> تثقف في وطنه ثقافة عصره ، و اختلف إلى الزوايا الموجودة بمنطقته << [2] و جالس أهلها حتى أصبح واحدا منهم ، لم يجد حرجا في التعامل معهم ، و الاندماج في طرقهم .

و رغم مواقفه المنتقدة لبعضهم ، إلا أنه لقي عندهم التقدير و الاحترام ، إلى الحد الذي دفعهم إلى الإشادة به و بعلمه و بشرف نسبه ، حتى عده معاصروه و الذين كتبوا عنه و اهتموا بإنتاجه من خيرة العلماء ، و من سادة رجال التصوف ، فهو عندهم >> الإمام العالم العلامة الكامل، الأستاذ الهمام شيخ مشايخ الإسلام ...قدوة العلماء العاملين ، و بقية السلف الصالحين ... ذو التآليف المفيدة ، و التصانيف العديدة << [3] .

و لقد عرف عن الورثيلاني زهده و شدة تمسكه بدينه ، وبعده و انتقاده للبدع التي كانت تظهر عند بعض الطرقيين أو تنسب إليهم ، و مع ذلك كان شديد الاحترام للأولياء و الصالحين ، يبجل الشيوخ و يبدي لهم التقدير و الاحترام ، و يتواضع أمامهم تواضع العلماء.

---

(1)- عبد الرحمن عزي ، المرجع السابق ، ص: 10.

(2)- أبو القاسم سعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، مرجع سابق، ص:361.

(3)- أبو القاسم محمد الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة ، الجزائر ، د ط ، د ت ، ج 2 ، ص:133.

ثالثا : الشخصية.. الأنا و الآخر

تبنى الرحلة على مجموعة من الأعمدة ، يأتي على رأسها شخصية الرحالة باعتباره المحور الذي منه تنطلق الأحداث ، و حوله تدور و به تستمر ، وهو العنصر الدائم الحضور في الرحلة من نقطة بداية الانطلاق إلى نقطة النهاية و الوصول . و يمكننا القول أن شرعية الرحلة لا تكون إلا بالشخصية ، باعتبار أن لا رحلة دون شخص رحالة يقوم بها ، يروي تفاصيلها ، و ينقل مشاهدها ، ويذكر ما جرى له أثناءها ، مخبرا تارة و معلقا تارة أخرى ، إنها الشخصية التي لا تموت ، ولا يمكن أن تفارق المتلقي مادامت صفحات الرحلة مفتوحة أمام عينيه ، و أحداثها حاضرة في ذهنه .

من هذا المنطلق يأتي اهتمامنا بالشخصية و حديثنا عنها في المقام الأول، قبل غيرها من مكونات الرحلة ، خاصة أن الأمر يتعلق بالرحلة الحجية التي تكون فيها الشخصية متشبعة بمشاعر و أحاسيس خاصة ، تشاركها فيها شخصيات أخرى ، نعني بها المرافقين ، و جميعهم كما نعلم يتغير حالهم من حال إلى حال ، تبعا لطبيعة الطريق و تعاقب الليل و النهار و تغير الأمزجة ، و يقابل هذه الشخصيات المرتحلة في الرحلة ، شخصيات أخرى مرتحل إليها ، وهذه الشخصيات لا شك أنها تكون حاضرة في ذهن الشخصيات المرتحلة ؛ لان الاتجاه نحوها قائم منذ البداية على القصدية ، بمعنى أن الرحالة يقصد فعلا الاتجاه نحو شخصيات بعينها ، معروفة و محددة ، و هي بذلك تعتبر شخصيات فاعلة و مؤثرة بطريقة أو بأخرى ، سواء بحضورها المعنوي في ذهن الرحالة أثناء الطريق ، أو بحضورها الفعلي عند الوصول إليها و مقابلتها و التواصل معها.

وقد تظهر على مسرح الأحداث شخصيات أخرى لم تكن مقصودة ، و لا حاضرة في إستراتيجية الرحالة ، هي تلك التي يمكن أن نطلق عليها الشخصيات الطارئة ، و التي نعني بها الشخصيات التي يصادفها الرحالون في مسيرهم ، و هذا النوع من الشخصيات قد تكون سلبية تمثل خطرا فتعتبر عاملا معارضا ، كما قد تكون ايجابية و تدرأ خطرا فتمثل عاملا مساعدا.

و الشخصيات في الرحلة عموما ليست شخصيات من نسج الخيال ، و أسماؤها ليست مختارة بطريقة فنية لتحمل دلالة خاصة ، أو تؤدي وظيفة معينة ، بل هي شخصيات واقعية معروفة بأسمائها و أنسابها ، و انتماءاتها ، و ثقافاتها. و إذا كانت الشخصية في الرواية التقليدية <<كائن حي له وجود فتوصف ملامحها، و قامتها ،و صوتها و ملابسها و سنها و أهواؤها و هواجسها و آمالها

آلامها و سعـادتها و شقاؤها ...و تلعب الدور الأكبر فـي أي عمل روائي يكتبـه كاتب رواية تقليدي<< [1] فإن الشخصيات في الرحلة كذلك لها وجودها ، و لها أهميتها كذلك ، إلا أن الرحالة لا يتعامل معها بنفس إستراتيجية الروائي، و بما يفـرضـه منطــق الرواية، بل يركز في حديثه عنها على طبيعتها ومكانتها، و سلبيتها أو ايجابيتها،باعتبارها شخصيات واقعية، و ما يذكره عنها واقع يشهد عليه غير الرحالة من المعاصرين للشخصية، أو الناقلين لأخبارها من خلال الترجمة لها أو كتابة سيرتها .

من الطبيعي أن تكون من أبرز الشخصيات في الرحلة هي الشخصية المحورية فيها ، و نقصد بها شخصية الرحــالة الممــارسة لإنتاج الحــدث ، المتعامـــلة مع الأشياء ، المتحاورة مع الآخر، الناقلة للأخبار و المنشئة للأقوال ، بل أن كل ما في الرحلة مرتبط بها ، و في كثير من الأحيان لا يحضـر إلا لخدمتها . والرحالة إنسان لاشك أن الأنا فيه يراقبه ، ولا يرضى إلا بما يريده، و لا يمازج بينه و بين غيره ، إلا إذا وجد في ذلك ما يخدم شخصيته .

و على هذا الأساس فان حضور الشخصيات الأخرى في الرحلة ، و التعرض للحديث عنها و التعريف بها ، يأتي في الغالب من باب خدمة الشخصية المركزية ، لذلك يكـون اختيارها بطريقـة انتقائيــة ، و في نفـس الوقـت خاضعا لسلطة " الأنا " ، و لعل هـــذا ما يفسر طغيان ضمير المتكلـــــم – سواء جــاء بصيغة المفرد أو بصيغة الجمع– على الرحلة من البداية إلى النهاية ، و هيمنة ضمير المتكلم على الرحلة يعتبر ظاهرة تستحق الدراسة ، من خلال النظر إليه >> كبؤرة مركزية للقول و الفعل و المواقف ، باعتباره فاعلا و راحلا و مستمعا للعلماء و منشدا للأشعار و معلقا على ما سمع أو رأى أو قرأ ، باحثا و محققا انه يفعل ذلك ليضفي بعض الصفات المكتسبة على الذات لترشيحها تدريجيا لتكون شخصية عالمة محققة باحثة ، فضمير المتكلم تصريح بالوجود المفرد المؤسس على تجربة خصوصية لا تسري عليها المقارنة بغيرها << [2] .

إن توظيف الأنا بالصورة التي رأينا يجعل الرحالة السارد عندما يستعمل ضمير المتكلم الدال عليه ، لا شك أنه يركز على كل ما هو إيجابي ، من منطلق الرؤية البشرية للذات ، فنجده يفصل في

---

(1)- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية ، مرجع سابق،ص: 86.

(2)- إسماعيل زردومي ، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، نسخة مخطوطة ،أطروحة دكتوراه ،تحت إشراف عبد الله العشي، نوقشت بجامعة باتنة ، الجزائر في العام 2005 ، ص: 131.

عرض الأحداث تارة ، و تارة يومئ بها ، يسرع في الحدث تارة ، و يوقفه تارة أخرى وفق ما يتناسب مع إستراتيجيته ، و ما يريد قوله ، و ما يرغب في إخفائـه ، فالرحـــالة عادة ما يركز على الجوانب المشرقة التي يحاول جاهدا أن يعطي صورته من خلالها ، و على المتلقي في هذه الحالة أن يكون منتبها و واعيا بما يقرأ ، حاضرا بذهنه يتتبع السطر و ما وراء السطر ، يركز على الكلمة و ما وراء الكلمة لأن المنطق يفرض علينا أن نعتقد أن الرحالة لا يمكن إلا أن يكون بشرا ، و على هذا الأساس فهو << لا يقول كل شيء ، و على القارئ أن يتكهن بين السطور و الوقفات بأسباب الصمت أو تسريع الحدث أو الحماسة التي تنتهي إلى أن لا يجد كلماتها ، و التقزز الذي يفضل الصمت ، فالرحلة كتابة عاطفية ذاتية دائما >>[1].

إن الرحلة كغيرها من الفنون السردية التي تعتمد القص أو الحكي ، تقوم في الأساس على شخصية بطل هو الرحالة ، الذي يتميز بحضوره الدائم في الرحلة باسمه الشخصي المعروف به ، و الذي يعيّنه و يثبت و جوده كشخص متميز ، قد يكون إماما ، و قد يكون فقيها ، أو عالما أو أديبا أو غير ذلك ، و عـادة ما يبدأ ظهـوره مـع أولى عبـــارات الرحلة إن لم يكن مع العنوان ذاته ، و هذا الكلام يثبته الكم الهائل من الرحلات التي عنونت بأسماء أصحابها .

و إذا كانت<< شخصية البطل لا تكتمل و لا تدخل عالم البطولة إلا بعد عبور تجربة الرحلة >>[2]، فان بهذا المفهوم يصبح الرحالة الذي يخوض غمار الرحلة و يعيش أهوالها ، و يواجه مصاعبها و يتحدى أخطارها ، يعتبر بطلا ، لكنه بطل من نوع خاص ، فهو ليس من وحي خيال كاتب ، و لا يصنع بطولته روائي أو قاص أو كاتب مقامة كما هو الحال مع الفنون السردية الأخـرى ، كالـرواية أو القصـة أو المقامـة أو غيـرها ، إنما يصنع بطولته بنفسه ، و انطلاقا من ذاته ، من خلال التحرك بالفعل و القول ، و المواجهة مع الطبيعة و مع الآخـــر ، و هي الأمور التي تكون قد حدثت فعلا على أرض الواقع ، فالرحالة إذا بطل يخرج من رحم الواقع ، لا دور للخيال في تكوين شخصيته إلا ما يظهر من تجليات للعجائب في بعض الأحـــداث و الحكايات الـتي تظهر في بعض الرحلات .

---

(1)- دانيال هنري باجو ، المرجع السابق، ص:54.

(2)- عمر عبد الواحد ، السرد و الشفاهية دراسة في مقامات بديع الزمان الهمذاني دار الهدى للنشر و التوزيع ط2، 2003، ص: 33.

رغم ما قلناه من قبل من حديث عن الشخصية، و إن اقترب من مفهوم الشخصية في الرواية ، إلا أنه لا بد من التنويه انه لا يمكننا الزعم بان دراسة الشخصية الرحلية يمكن أن يكون بنفس آليات و طريقة دراسة الشخصية الروائية ، فالبون شاسع بين تعامل كاتب الرواية المعاصرة و الرحالة مع الشخصيات ، ذلك أن الشخصيات الرحلية كما رأينا شخصيات واقعية، يقدمها الرحالة بصورتها الحقيقية كما يراها و يعرفها في الواقع ، لا يحللها من داخلها و لا يصفها بطريقة فنية من خارجها ، إلا أن ذلك لا يمنع الاجتهاد و تناولها بالتحليل انطلاقا مما يصدر منها من أقوال و أفعال ، و ما تتركه من أثر في المكان و في من تلتقيهم و تتحاور معهم من الشخصيات ، و كذلك من خلال مواقفها من القضايا التي تطرح عليها أو الأحداث التي تشارك فيها .

أ- الشخصيـــــة المركـــــــــــزية:

إذا انطلقنا من الشخصية المركزية و التي نعني بها شخصية السارد و هو هنا الرحالة الذي يقــوم بفعل الحركة و الانتقال ، و هو ذاته المهيمن و المسيطر على كل مجريات أحداث قصة الرحـــلة ، منذ كـــــانت فعلا و حركة أو رؤوس أقلام و مذكرات ، إلى أن أصبحت رحلة مكتوبة ، رغم الاختلاف الذي نجـــده و يقره الواقع بين الرحلتين ، (الرحلة الفعلية / الرحلة المكتــوبة) هـــذه الأخيرة التي تكون في الغالب متشبعة بأحداث التاريخ ، و مختلف أنواع الأخبار ، التي عادة ما يوشح بها الرحالة رحلته ، فيؤكد بها خبرا ، أو يؤيد بها فكرة ، أو يوضح بها غموضـــا . و توظيفنا لتعبير قصـــة الرحلة جاء استنادا على ما يراه و يؤكـــده بعض المهتمين بأن >> الرحلة حكاية رحالة ارتحل إلى مكان ما بالجسد أولا ثم بالكتابة ثانيا <<[1].

و تلعب هـذه الشخصيــة أعني الشخصية المركزية دورا بارزا في الرحلة ، فهي إضافة إلى ما سبق، تمـثل الراوي الذي يمسك بيده جميع الخيوط ، على غرار الراوي الذي نجده في الأجناس السردية الكلاسيكية ، غير انه لا بد من الانتباه و التمييز بين الراويين من منطلق أن >> الراوي في الرحـــلة واحد ، فاعل و مشارك بالضرورة ، و منتج للنص، و منظم للحـكي ،و مخرجـــه ، انه راو و ممثل مجرب ، و موضـوع التجـربة ، يسجل مذكـرات أفعـاله و حركاته، بطل قصته الحقيقية <<[2] التي يرويها مــــــن منطلق

---

(1)- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية ،مرجع سابق ، ص: 202 .

(2)- شعيب حليفي، المرجع السابق ، ص:284

واقعي، وفق إستراتيجية تتحكم في ملفوظ الرحلة ، يسيطر عليها التاريخ و التقرير ، عكس الراوي الذي نجده في الرواية على سبيل المثال ، و الذي قد يخلقه الروائي من وحـي الخيال لينوب عنه ، و يحل محله ، ويخبر بما أراد هو نفسه الإخبار به .

و يبدو أن شخصية الورثيلاني تمثل هــذه الصــور التي ذكرنا للشخصية المركـــزية ، فهو المتحكم في جميع خيوط الرحلة من البداية إلى النهاية ، و الحاضر فيها في مختلف محطاتها ، و المشارك في جميع أحداثها بمختلف أشكالها . و قد تجلت منذ البداية صورته كشخصية اجتماعية ذات مكانة مرموقة بين أفراد المجتمع الذين يستأنسون بحضوره ، و يحزنون لغيابه ، و يبكون لانفصاله و إن كان له في الانفصال رغبة و إصرار ، وهو الأمر الذي يبرزه بقوله : >> و انفصلنا و وقع البكاء و الصراخ من أهل البلد لما كان من أنسهم بنا ؛ إذ اعتقادهم ما دمنا معهم لا يقـع بهم إلا الخـير و البركة ، كل ذا بعد التحيل على المنع من السفر أصلا و رأسا فلما امتنعت كـل الامتناع لم يبـق إلا الصـــبر و التسليم لله في حكمه و إبرامه و قدرته و إرادته و علمه <<[1]. ويبدو أن الاعتزاز بهذه المكانة الاجتماعية ، و محاولة إثبات أنها لم تتزعزع طوال مدة الحج ، كانت تشغل بال الرحالة في ليله و نهاره و في حركته و سكونه ، فقد كان حريصا كل الحرص أن يظهر بالصورة التي تدل على مكانته في مجتمعه و بين أهله ، يتجلى ذلك خاصة من خلال حديثه عن احتفالات الاستقبال الضخمة التي أقيمت له و لمرافقيه في كل منطقة مروا عليها احتفاء بالعودة و أداء الفريضة بل إن المستقبلين يتسابقون و يتنافسون في أيهم يتشرف باستضافته ، و إكرامه ، و التقرب منه ، و الظفر بدعائه ، و أخذ البركة منه . و قد تجدهم – في كثير من الأحيان – في ذلك يختصمون >> فلما سمعوا بنا لقينا من بها من العامة و الخاصة فرحين مسرورين ببنادقهم و غير ذلك من أنواع الفرح فكل يعزم علينا و يرغب في المبيت عنـــــده إلى أن وصلوا إلى الفتنة بسبب ذلك <<[2] و يقول في موضع آخر : >> و سلكنا طريق أبي خميس فوجدنا أكثر الأحباب منتظرين من وطننا ، و وطن بني يعلى ، إذ فرحوا بقدومنا و سروا برجوعنا العامة و الخاصة أحياهم الله على السنة و أماتهم على الملة ...فامتلأ الوعر و السهل و الغيضة و غيرها بالناس الذين رغبوا في رؤيتنا و اغتنام البركة منا من كل فج عميق لتشهد

---

(1)- الورثيلاني ، المصدر السابق، ص: 104.

(2)- نفسه ، ص: 806.

أحوالنا و تقتبس أنوار أصحابنا << [1].

كل هـــذا كان في طريق العـــودة ، ما يعني أن رقعة شهرته واسعة لا تحدها حدود داخل الوطن الكبير. أما في موطن الأهل و الولد و الزوج ، فلا بد أن يكون الأمر أعظم ، و هو ما تحقق فعلا فقد استمر الاحتفاء به و بعودته ، و لم تنقطع الزيارات عنه مدة طويلة من الزمن يقول : >> ثم انه بعد ذلك تأتينا الوفود من كل وطن تارة ألفا و تارة أكثر من ذلك نحو الألف و أربعمائة ثم كذلك على حسب القلة و الكثرة إلى أن انقطعوا في مدة طويلة نحو الشهرين << [2] .

مثلما نلاحظ فإن التعبير عن الشخصية المركزية جاء بضمير المتكلم الجمع ، وهذا الأمر يجعلها فعلا شخصية اجتماعية نابعة من عمق مجتمع ، لا تري صورتها إلا مع غيرها من أفراد هذا المجتمع ، و لم نقف على غير ذلك إلا في موطن واحد فصل بينه و بين مرافقيه من خلال توظيف كلمة " أحـــــوالنا " ثم " أصحابنا " حين قـــــال : >> لتشهـــد أحوالنا و تقتبس أنوار أصحابنا <<[3].و استعمال ضمير المتكلم بصيغة الجمع ، أو ما يمكن أن نطلق عليه " الأنا النحن " يضـــعنا أمـــام حقيقة ثابتة هي أن الشخصية في سردها تنطلق من حاضرها ، و من داخل مجتمعها منصهرة مع أفراده ، لتروي ماضيها الذي وقعت أحداثه فعلا و بنية مسبقة ، و ذلك ما عبرنا عنه من قبل غير مرة بالقصدية ، ونعني بها هنا قصدية الحكي عن الذات انطلاقا من الذات ، في علاقتها مع الآخر و مع ما يحيط بها ، ما يعني أن التطابق بين السارد و البطل اللذان يمثلان شخصا واحدا هو الرحالة البطل ، أصبح حقيقة ثابتة .

و يبدو أن هذا البطل ، بنى شخصيته على أساس أن المتلقي حاضر معه من بداية الرحلة – المكتوبة – إلى نهايتها ، و هو في الأصل ، و انطلاقا من قناعة راسخة عنده ، أنه يريد خدمة هذا المتلقي و إفادته ، و هو ما يمكن الوقوف عليه من خلال قوله : >> مبينا فيه بعض الأحكام الغريبة و الحكايات المستحسنة و الغرائب العجيبة و بعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من التصوف مما فتح به علي أو منقولا من الكتب المعتبرة مما يناسب المحل جعله الله خالصا لوجهه و عملا متقبلا بيـــن يديه و

---

(1)- الورثيلاني المصدر السابق ، ص، :809، 810 .

(2)- نفسه ، ص: 813.

(3)-نفسه ، ص: 810 .

حصنا حصينا من كل بلاء دينا و دنيا >> (1) .

والأكيد أن الذي يبني إستراتيجيته على إفادة غيره ، لا بد أن يكون على علم تام بما يقدمه أو ما يسرده من أحداث ؛ أي أنه يعرف كل شيء عن شريط السرد المكتوب ، باعتباره ينشطه و يوجهه وفق هدف محـــدد. و تلك حقيقة نلمحـــها في الشخصية المركزية في الرحـــلة الورثيلانية المتموقعة في المكان الذي يسمح لها بالوقوف و الإشراف على كل ما يتعلق بالعملية السردية ، >> و مثل هـذا الوضـع السـردي يجعـل من المتكلم مجسـدا لما يطلـق عليه تودوروف الرؤية المتصاحبة أي أن كل معلومة سردية أو كل سر من أسرار الشريط السردي يغتدي متصاحبا مع الأنا السارد >> (2).

و إذا تتبعنا حضور الشخصية المركزية في الأحداث المسرودة في الرحلة ، فإننا نجدها حاضرة فيها من خـلال ضمير المتكلم الجمع – مثلما سبقت الإشـارة إليه آنفا — و قد كان هذا الضمير في أغلب الأحـيان مرتبطا على وجـه الخـصـوص بالأفعـــال مثـل : انطلقـنا من ، دخلنا إلى ، ذهبنا ، مررنا ، بدأنا ، زرنا ... و هو ما يتناسب مع طبيعة الرحلة التي تقوم أساسا على الحركـة و الديناميكية التي يفرضها التواصل مع الآخر ، و هذا يعني أن الذات الساردة ، إنما تريد أن تبرز ذاتها بأنها واعية بكل ما يحيط بها ، و مشاركة في جميع الأحداث الواقعة في كل أزمان الرحـلة ، و في ذلك إشـارة إلى القدرة على التعامل مع كل المستجدات سلبا أو إيجابا ، و هذا ما تجسده شخصية البطل السارد من خلال ظهوره بصور متعددة .

فقد تجلت الشخصية المركزية بصورة شخصية رجل الإصلاح ذي العين المتفتحة على كل ما يحيط به فهي التي تلاحظ كل شيء ، تقيمه وتحكم عليه ، و تقول ما يجب أن يقال فيه ، و لا تخاف في ذلك لومة لائم ، فنجدها تنتقد الظواهر الاجتماعية المنتشرة في المدن و القرى بين العروش و القبائل بعبارة صريحة ، تصل في كثير من الأحيان إلى حد تحديد المقصودين بل تتعداها إلى التعنيف ، فرغم الاعتراف بحسن الاستقبال الذي لقيته هذه الشخصية في زمورة ، و رغم الإشـــادة بالـمدينة و بأهلها ، إلا أنه يرى في هذه البلدة من جهة أخرى أنها >> كثيرة السمن ، و اللحم ، و القمح ، و المياه الباردة ، و الديار الواسعـــة ، و الثياب الحسنة الرهيفـة من الصوف و الكتان ، و كـل ذلك مناقض للخشية و

---

(1)- الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص: 13.

(2)- عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية، مرجع سابق ص:175.

أوصاف العبودية، و إنما هو مثير للشهوات و المخالفات من إظهار المعاصي، و قد كان ذلك فيها فنجد النساء الطيبات المتبرجات كأنهن في ليلة الزفاف ، مكشوفات العورات باديات المستحسن منهن كالصدر و الثدي ، و تحت الإبط و الساق و الفخذ ، و مع ذلك إنهن أجمل خلق الله ، من رآهن من العباد ، فضلا عن أهل اللهو و اللعب ، افتتن بهن ؛ إذ يفزع و يرعب عند رؤيتهن ، و مشاهدة محاسنهن غير محجوبات ، بل كلهم ، أو جلهم يفتخرون بذلك ، فقد ضلوا و أضلوا ، فلا يسمعون إن وعظتهم ، و لا يرجعون إن ذكرتهم ، و قد اشتدت القسوة على قلوبهم ، و هي أشد قسوة من الحجارة ، و قد ألفوا ذلك من آبائهم و أجدادهم ، قبح الله رأيهم ، فان أنكرت عليهم ، أو تغيرت بسببهم ربما عادوك ، و رموك بما لا يليق بك ...حاصله أهل هذه البلدة متصفون بالبدع الشنيعة ، و الأحوال الخسيسة من الرذائل المنهي عنها شرعا ، و زادوا على ذلك أنهم لا تأخذهم الأحكام ؛ إذ يأكلون التراث أكلا لما و يحبون المال حبا جما... حاصله أوصافهم ، و طبائعهم ، خارجة عن طرق أهل الصلاح ، فلا تحسن معاشرتهم و لا السكنى معهم ، لأن الطباع تسرق الطباع ، و المرء على دين خليله ، فلا يبكون من خشية الله ، و لا يتباكون من خوف الله ... << [1].

إن هذه الفقرة تضعنا أمام شخصية تنظر لأحوال الناس من حولها بنظرة الرجل المصلح الذي ينطلق في نظرته للأمور من صورة ماثلة أمامه ، رسمها الواقع المعاش في نفس العصر الذي يعيش فيه ينظر إليها انطلاقا من ذاته ، و من زاوية نظره الموجهة بثقافته الدينية التي تجعل الطرف المنتقد – رغم إسلامه – لا ينتمي إلى الاتجاه الديني و الفكري الذي تنتمي إليه الشخصية المركزية ، و عليه جاء التعبير عن هذا الطرف بضمير الغائب الذي يخرجه من دائرة ضمير المتكلم ، و في هذا رغبة خفية في تهميش هذا الطرف ، لأنه لا يخدم الشخصية المركزية التي تسعى دوما و عبر مختلف محطات الرحلة إلى إبراز ما يخدمها ، و الحديث عما يبرز مكانتها و يعبر عن سلطتها.

إن الشخصية المركزية في مثل هذا الموقف ، تريد أن تلعب دور المنقذ ، من منطلق أن التنبيه إلى الخطأ خطوة أولى نحو إصلاحه أو الابتعاد عنه ، و دور المنقذ هو دور البطل في الملاحم و الروايات و في مختلف الأنواع التي تعتمد الحكي من السرديات القديمة .

بنفس المنطق في النظرة للأمور ، و بنفس تلك الروح المصلحة ، لا تجد هذه الشخصية أي

---

(1)– الورثيلاني ،المصدر السابق ، ص:808.

حرج في انتقاد الحجاج ذاتهم ، خاصة أولئك الذين يظهر منهم من التصرفات ما لا يليق بمن يتوجه لأداء فريضة مرتبطة بمكان محدد يعتبر أقدس ما على وجه الأرض كما تستوجب طهارة في الجسم و النفس و اللسان ﴿ **فَلَا رَفَثَ وَ لَا فُسُوقَ وَ لَا جِدَالَ فِي الْحَجِ** ﴾[1] هذه الآية لم يجـــد لها مكانا عند الحجـــاج من أبناء وطنـــه ، << فالركب الجزائري لا حكم عندهم أصلا و لا يقفون عند الأمر و النهي لا سيما أهل عامر فما فارقهم أحد في هواهم إلا أبغضوه و جعلوه عدوا و قد أصابتني منهم عداوة عظيمة من أجل أني لآمرهم بالسنة و القيام بالأحكام الشرعية لا سيما السير بسير الشيخ و النزول بنزوله و ستر نسائهم لأنهن يذهبن مكشوفات العورات فيبدين زينتهن لكل الناس بل يتزين لأجل ذلك ليرعن من فتن بهن فأردت إقامة الحد عليهن و على أزواجهن فصارت لي فتنة عظيمة غير أني من عاداني منهم ببركة السنة لم يرجع إلى بيته فأظهر الله أمري >> [2].

و لما كانت شخصية السارد / الشخصية المركزية من أهل العلم ، فقد آلمها كثيرا ما رأت من مظاهر الجهل الذي حل ببعض المناطق ، جهل بالدين قبل أن يكون جهلا بالدنيا و أمورها ، ففي أثناء الرحلة لأداء الفريضة و عند حلوله بمنطقة الزاب ، و بالتحديد طولقة كتب << و لما دخلت مسجدها لم أجد قارئا و لا مدرسا ، سوى رجل واحد متكئ يقرأ لوحه و هو ملقى أمامه على غير أدب و لا استقامة ، و أخبـرني بعض أصحابنا انه وجد رجلا واحدا يسرد البخاري وحده ، و وقف عنده و قال له رح يا حاج و وجد آخر كذلك ، و لعمري أن هذا أدل دليل على الخراب و أقرب الأسباب له ، بدليل ما روي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: إذا أراد الله عمارة قوم بدأ بما له فيهم و إذا أراد خرابهم بدأ بما له فيهم ....و لقد بدأ الله هذه البلدة بخراب بيته ... و لقد وددنا عمارتها بالعلم و العمل و رفع الحرج عنها ، برفع ذوي الزيغ و العلل و تدريس العلم و ذكر الله آناء الليل و أطراف النهار >> [3] .

هذا المقطع يؤكد حقيقة ما أشرنا إليه من أن الصورة الدينية لهذه الشخصية طاغية على جميع تمظهراتها في محطات الرحـلة ، فـهي الشخصية المتعايشة دوما مع الأماكن المقدسة ، ســواء كانت

---

(1)- البقرة ، الآية 97.

(2)- الورثيلاني ،المصدر السابق ، ص: 622.

(3)- نفسه ص: 121.

مساجد أو أضرحة أولياء ، و لعل ذلك مرده إلى طبيعة الرحلة التي كما هو معلوم متجهة نحـو البقـاع المقدسة ، و عليه فهي تتطلـب قدرا معينا من الوقار ، و طهارة النفس و صفاء اللسان .

و ما يمكن ملاحظته من خلال توظيف الضمير في المقطع المشار إليه آنفا ، هو ظهور ضمير المتكلم المفرد " دخلت... لم أجد..." و استعمال هذا الضمير جاء رغبة من الشخصية في إبراز التميز و الانفراد ذلك أن التعبير << من قبل الشخصية المركزية بضمير المتكلم المفرد هو نفي للآخر حتى لو كان موجودا ، و بالتالي فهو استئثار بسلطة الكلام >> [1]. و مع ذلك اضطرت الشخصية المركزية / السارد إلى إثبات و تأكيد ما وقفت عليه ، نظرا لعظمته و إثباتا لحقيقته و واقعيته ، فدعمت رؤيتها برؤية فردية أخرى لشخصيتين لم يسمهما بالاسم ، بل أشار إليهما بـ" بعض أصحابنا " و " آخر " ، و هو ما ينبهنا إلى أمر مهم ، هو أن استعمال ضمير المفرد لا يعنى أبدا سقوط الآخر و إنهاء دوره لان سقوط الآخر و انتهاء دوره ، يعني حتما سقوط مبرر الوجود ، و عدم مصداقية الخبر ، من منطلق ديني يحتم وجود الشاهد أو الشاهدين .

و انطلاقا من كـون الشخصية المركزية تعيش و تتحرك في بيئـة اجتماعيــة مضطربــة كثيرة الفتن – و تلك طبيعة العصر – فإنها ظهرت دوما في خدمة المجتمع من خلال محاربة مختلف أنواع الفتن ، و محـاولة إخماد نيـرانها ، و السعـي للإصلاح بين الأفــراد سواء الأقارب منهم أو الأباعد ، يقول عن ذلك : << فانفصلنا من مقامنا بنية الزيارة و قضاء الحوائج لبعض المسلمين ، من إصلاح ذات البين ؛ إذ القتال بين المسلمين في وطننا كثير ، و الفتنة بينهم قل أن ترتفع ، و الهرج بينهم قوي أزال الله ذلك بمنه و كرمه ... >> [2] .

كما نقف في هذه الرحلة على إشارات عديدة إلى من يقومون بهذه الفضيلة – محاربة الفتن و إصلاح ذات البين – كما حدث مع أهله المقربين ، و الشيخ الفاضل سيدي أحمد الطيب الزواوي ، الذي أشارت الأحداث إلى زيارته لهم قصد إخراج القوم من فتنة أصابتهم ، حيث قال : << قـدم إلينا زائـرا و واقفـا علينا ، و طالـع أحوالنا لعل الله يفـرج ما بنا من الفتنة مع بعض المخذولين الخارجين عن طاعة الله و رسولـه في الأحـكام الشرعية ...كقطـع الميراث

---

(1)- عبدالرحيم مودن ، الرحلة المغربية ،مرجع سابق ،ص:237

(2)- الورثيلاني ،المصدر السابق ،ص:18.

و أكل أموال الناس بالباطل و أموال اليتامى و لين الجانب كالأرامل فلما وصل إلينا فرج الله عنا ذلك >> [1]. كل ما تقدم يضعنا أمام شخصية جادة رزينة قوية هادئة ذات هيبة ، و تلك حقيقة جعلت الناس يحترمونها و يهابون جانبها ، إلا أن المتتبع لحركة هذه الشخصية من حيث أقوالها و أفعالها ، يمكنه أن يقف على صورة أخرى لها هي صورة أكثر ارتباطا بداخليتها ، إذ تبرز بعاطفتها و أبعـــادها الإنسانيـــة من خـــلال ما تكرر من الدعاء لكل من تحدثت إليهم ، أو تحدثت عن أحوالهم ، سواء من أهلها الأقربين أو من عامة الناس ، سواء الذين اتفقت أو اختلفت معهم في الرأي ، فأهل زمورة كما رأت الشخصية المركزية << لا يبكون من خشية الله و لا يتباكون من خوف الله ، فكثبرهم جليسهم الفسقة من الرجال و من يخدع من النسوان.... >> [2]، إلا أنها في الأخير تبرز تلك الروح الإنسانية ، التي لا تحمل البغض و الضغينة فتدعو لهم بالهداية و المغفرة و كثيرا ما تتكرر على لسانه عبارات الدعاء كقوله : << و بالجملة فاسأل الله أن يمن علينا و عليهم بالتوفيق و الهداية و المغفرة و التوبة الصادقة العامة لكلهم ...و قد وددت أن يكونوا على أحسن طريق و أكمله مع زوال الخصال المناقضة للشريعة المحمدية >> [3]. و لعل أرق صورة لهذه الشخصية ، تبرز في تلك الصورة التي ارتسمت لها وهي تذرف الدموع و تبرز الحرقة مع نهاية موسم الحج وبداية الاستعداد لرحلة العودة و هي الرحلة التي تودع فيها خير خلق الله محمد عليه الصلاة و السلام الذي يتجلى من خلال منطوق الشخصية الساردة كأنه حي و هو الحي فعلا في النفوس المؤمنة << فلما لاح لنا لائح الافتراق و انقدح زناد الاشتياق تحركت الأحشاء و ذابت الأكباد و انهمرت العيون بالبكاء و أصابت النفس العبرة فكادت أن تزهق الروح من شدة ما أصابها من ألم الفراق ...و عذاب البين و مفارقة الصديق الأمين صلى الله عليه و سلم فلم يوجد زمان أحلى و أعذب من زمان الوصول إليه و مشاهدة حضرته و التلذذ في محاسن روضته و لا أشهى من الوقوف بين يديه >> [4] . و تماشيا مع طبيعة بناء الرحلة دعم الرحالة هذه الفكرة بالشعر :

---

(1)- الورثيلاني المصدر السابق ،ص: 13.

(2)- تفسه ، ص:809.

(3)- نفسه، ص:809.

(4)- نفسه، ص: 610.

ما اشتقت علتي و هذا فراقي قد تحققته بســـير رفاقي
هذه مهجتي تذوب دموعها فانظروها تسيل من آماقي
كبدي تلظى و عيني تهمــي هكذا فليكن بديع الطباق
يا رسولا لنا أتى بكتـــاب لم تعارض آياته باتفـــاق

و من الأمور التي لا يمكن إغفالها في الشخصية المركزية في هذه الرحلة ، هي البعد الديني المسيطر عليها و المؤثر في تكوينها ، و الروح الصوفية التي تميزها في أقوالها و أفعالها، و ذلك مرده — في الغالب – إلى أن هذه الشخصية عاشت كما نعلم في عصر معروف باتفاق الدارسين بعصر التصوف و كثرة الطرق الصوفية ، فليس غريبا أن تكون لها علاقات عديدة و متباينة مع شخصيات متعددة من شيوخ الطرق و أقطاب التصوف ؛ فعلى امتداد صفحات الرحلة و في مختلف محطاتها الزمنية و المكانية ، تصادفنا هذه الشخصيات بأسمائها و أوصافها ، مقرونة دوما بعبارات المدح و الإطراء ، و لا تذكر إلا مقـرونة بكلمة " سيدي " إشارة إلى علو المقام و دليلا على التواضع معهم ، و اعترافا بقدرهم ، و إبداء للتقدير و الاحترام لمكانتهم ، إلا انه في نفس الوقت يبدى الملاحظة و يوجه الانتقاد ما رأى و اعتقد بمخالفة الشرع ، كما أنه يلاحظ على مؤيدي هؤلاء ما يصدر منهم من بعض الخزعبلات ينبه إليها و ينكرها ، لتتجلى بذلك شخصية السارد الشخصية المركزية شخصية تبدو في كثير من الأحيان معتدلة ، لها نظرتها للتصوف و المتصوفة ، و هي نظرة لا تخرج كثيرا على فلسفة التصوف المسيطرة في عصره ، إلا أنها نظرة —كما يرى الكثيرون – قائمـة في الأساس على الأحكام الشرعية و حسن التأويل ، حيث يرى أنه << يحق السعي إليهم ، مع خدمتهم و مودتهم و التحبب إليهم ، ليستمد منهم ، و يستفيد من أحوالهم ، و يقتبس من أنوارهم ، ليدخل في حضرتهم ،و يشرب من كأس قربهم و حينئذ يتخلق بخلق النبي صلى الله عليه و سلم ، فتسري فيه روحه الكريمة ، بل تسري فيه معاني أسماء الله و صفاته ، و ينكشف له بالـــذوق عن كنه ذاته ، فترد عليه شطحات إلهية ، و مواهب صمدا نية ، و أنوار فردانية ، فيغيب عن الأكوان بقدرة المكون حتى لا يراها إلا فتنة و بلوى ؛ إذ تقول بلسان حالها إنما نحن فتنة فلا تكفر، فلا يسير حينئذ سيرة المهل غير أنه لولا سلطان التمكين لطاش عقله فجاءة البعث فيقويه الله تبارك و تعالى في مقام الشهود...فجدير أن يؤيد في ذلك المقام و إلا فلا يستطيع أن يحمل ما للباقي ، إذ الفاني لا قدرة له على ذلك ، و لا يتحمل ما هنالك فيجول

قلبه في معارف الله تعالى ، و إذا تليت عليه آيات القرآن زادته إيمانا و على ربه يتوكل ، فإذا قوى عليه الله الشهود ، و سـار في الأرواح ذهب سـر الأسرار في قائمـة عروس التجـلي فلا ينعكس أصلا ، فذلك إسراء الأرواح لربهم فيحليها بما حلى بها المقربين من عباده و حينئذ تكون له شطحات يشطح بما حلي به أما بسر الذات أو بمعنى الصفات أو بشذاء الأسماء فإذا تغـذى بها ظهر ذلك على الأجباح و لذا قال بعض العارفين : إذا نـزل الوجـد على الرأس حركه ، و على العين أدمعها ، و على اللسان أنطقه بما به شطح ، و على اليد بطش بها و على الرجل رقصت ، فحينئذ يغيب الناس بسر اللاهوت فينـادي لسـان الحقيـقة بما يشبه الاتحاد فيقول مثلا أنا هو فإذا دام شربه ظهرت أنوار الحق عليه لأن ما فيك ظهر على فيك كل إناء بما فيه يرشح هذا و الن وسع التجلي لا يعرف قدره إلا صاحب التأييد ...و أما من غلبت عليه سطوة التجلي تلاشى كل شيء سواه و قال أنا هو غير أنه ممزوج بكدر الاتحاد و لذا لا تسمح الشريعة في مثل هذا القول نعم صاحب الحال محمول لا حامل فإذا رجع إلى صحوه قال أنت إذ لو قال أنا و هو مع الصحو لكفر بإجماع ... >> [1] .

إن الشخصية المركزية بالصورة التي تشكلت لها من خلال كل ما تقدم ، و من منطلق أنها خاضت الرحلة فعلا و حولتها فيما بعد إلى كتابة ، ابتداء من أول نقطة فيها و نعني بها نقطة البـداية التي عـادة مـا تمثل << الابتعـاد عن العـائلة أو الـدار و الذي يخـلخل الفضاء الهادي >> [2]. و على هذا الأساس فإننا دون شك سنجد أن هذه الشخصية قد صادفت في مسيرة رحلتها – على غرار أبطال السرديات الأخرى – الكثير من المصاعب التي وقفت في وجهها ، و التي تمثل المانع الذي يحيل بينها و بين تحقيق هدفها بنظر بروب ، كما أنها لاقت في مسيرتها من يمثل المساعد الذي يؤيدها ، و يساعدها ، و يقف إلى جنبها من اجل أداء مهمتها و الوصول إلى غايتها و تحقيق هدفها ، و لما كان الأمر يتعلق برحلة مقدسة لأداء مناسك الحج ، جاءت أصلا استجابة لنداء الحق ، فان هـذه الرحـلة و – في اعتقـاد الكثيرين – عادة ما يكون الله هو أول راعيها و

---

(1)-الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص،ص: 193 ،194،195 .

(2)- سعيدي محمد ، الأدب الشعبي بين النظرية و التطبيق، ديوان المطبوعات الجامعية ، الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر دط دت ص:73.

ميسرها ، و هو المجازي لمن أتمها ، و أعطاها حقها ، و أدى مناسك الحج فيها ، فـــ >> رحمــة الله واسعة ، و رأفته قوية ، و نعمته بالحجيج شاملة ، خصوصا أهـــــل المعرفة بالله تعالى<<[1] .

و لو أردنا أن نبحث عن الطرف الذي مثل دور المساعد لشخصية البطل الممثلة في الشخصية المركزية لوجدناها – بعد تلك القوة الخفية – تتمثل أول الأمر في الركب و مجموع المرافقين له ، الذين يتلاقى معهم دينيا و فكريا ، و الذين يتواصل معهم يوميا ، أولئك الذين لم يفارقوه من بداية الرحلة إلى نهايتها ، و كابدوا معه مشاق السفر وآلام الغربة و فراق الأهل و الولد في رحلة الذهاب كما في رحلة الإياب.

يضاف إلى ذلك الشخصيات الأخرى التي التقى بها الرحالة و استأنس بها و اطمأن إليها ، و قبل دعواتها للاستضافـــة أو للمجالسة العلمية . و هـــذه الشخصيات عـــادة ما تكـــون من الشخصيات المرموقة ، و الشخصيات العلمية أو الدينية من رجال التصوف ، خاصة أولئك الذين — كما يعتقد – في العسر يرافقهم اليسر، و في الظلمات ينبلج أمامهم الفجر ، و يتيسر بهم كما يتيسر لهم الصعب في كل أمر ، فهم قوم رضي الله عنهم ، و أنار بصائرهم ، و اصطفاهم لمحبته فلا تراهم >> في الصعبـــة إلا كالعرائس تتلألأ وجـــوههم نورا و تنبسط أثار محبة الله في طلعة خدهم << [2].

و أما ما يمكن أن يمثل المانع أمام الشخصية المركزية، و الذي يقف في وجهها لثنيها عن عزمـــها و إفســـاد رحـــلتها ، فلا شك أنه هو الآخر يتنوع بين العائق البشري و العائق الطبيعي فقـد >> تضمنت الرحلة العديد من المخاطر منها الظروف الطبيعية مثل الحر و الزوابـــع الرمـــلية .....يضاف إلى ذلك بعض العصابات من قطاع الطرق التي تعمل خـــارج ولايـــة الحاكم فتترصـد مواكب الحـــج و تأتـــي علـى أمتعتها عنوة و بقوة السلاح و أيضا بعض النصابين الـــذين يستغلون حســـن نــــوايا الحجـاج فيسلبــون مـا لهـــم من مال بالغدر و الخديعة << [3].

و الحق أن هذا أمر منتظر بل يعتبر من حتميات الرحلة ، فليس عجيبا بعد اليسر و الهناء ، أن يلاقي الرحالة العسر و الشقاء ، و ما ينغص عليه حياته و يثقل كاهلـه ، وذلك ما يتماشى مع طبيعة

---

(1) الورثيلاني، المصدر السابق ، ص:392.

(2)- نفسه ،ص:392.

(3)- عبد الرحمن عزي، المرجع السابق، ص: 55.

الرحلة التي يعتبر السفر البنية المهيمنة عليها ، و السفر كما يقال قطعة من العذاب ، و هو ما حدث فعلا لبطل هذه الرحلة ، فقد عانى و مرافقوه الحر و العطش في العديد من محطات الرحلة ، من ذلك ما أشار إليه بعد أن غادر " النعيم "و حل << بمفازة عظيمة يعسر أمرها على الحجاج ، لا سيما زمان الحر أن الشوب قل من يسلم منه الناس إذ مقطع الكبريت صراط الدنيا لقلة مائه و مرارته على تقدير وجوده و الماشي فيها يستوحش من تغير لون السماء أكثر من اغبرار الأرض....و إنما ينجو منها الإنسان بفضل الله و كثرة التزود من ماء " النعيم "إلى معطي النعم نعم سر الله مع وفده و الله يقــول :﴿ **إنَّ اللهَ مَعَ الذِينَ اتَّقُوا وَ الذِينَ هُمْ مُحْسِنُون** ﴾ و لولا فضل الله ، ما سلم في مثلها أحد من الماريــن به فان المـــــاشي بها كأن الشمس نازلـــة لديـــــه و متوجهة إليه << [1] .

و في موطن آخر كان الأمر أعظم ، و المرور أعسر ، يوم كشرت الصحراء عن أنيابها في ذلك الموضع الذي يتفجر دلالات من خلال اسمه أو الأحداث التي جرت فيه عبر التاريخ . انه << التيه الذي تاهت فيه بنو إسرائيل و قد سبق ما فيه من الكلام ما أوحشه من موضع و أصعبه من محل لكثرة حره ، و شدة أمره ، مع انعدام الماء فيه و قد كثر الهلاك فيه من العطش زمان الحر فلا تجد من يسخي بالماء إلا من قوي يقينه ، و غلب عليه الرقة و الشفقة و الرحمة و الخوف من الله تعالى ، ترى القوم فيه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية من ثوران الحر في ذلك الموضع إلا أن رحمة الله واسعة و رأفته قوية و نعمته بالحجيج شاملة خصوصا أهل المعرفة بالله تعالى<<[2].

لا يتوقــف المانع كما أشرنا سابقا فقط على العائق الطبيعي ، بل انه يمتد لنجده من بني البشـر ، من أولئـــك الــذين قـل فيهم الحياء ، و انعدمت فيهم النخوة ، و ضعف عندهم الإيمان فصغر غيرهم في أعينهم ، فكثرت اعتداءاتهم و تعددت صور ظلمهم . و من صور ما يصدر منهم من جور ، ما صورته الرحلة على لسان الرحالة حين كان مارا بالتراب التونسي ، و بعــد أن زار الــولي الصالح و القطب الواضح سيدي عبد الحق و هم بتوديعه ، قال له هذا الأخير : << قد ثبت عندي بأنهم خارجون أليكم و لا أدري أذلك من طريق الكشف و هو الأنسب به و الأليق بمقامه ...و في ذلك اليوم تلاقينا مع عدو نفسه المحارب لله و رسوله الشيخ ابن روب ...في وادي ريغ و الله اعلـــم

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ،ص: 264.

(2)- نفسه ، ص: 392.

في ثلاثين من الخيل ، و عشرين رجلا ، و معهم السلاح القوي و الزاد على الإبل ، و أتى إلينا عند صلاة العصر فأعلمناه بأننا حجيج و وفد من وفود الله و رسوله ، و أظن أن الشيخ أعطى له شيئا أحسبه فضة فذهب عنا ، و نحن جددنا في السير خوفا من شره إلى ثلث الليل أو نصفه ....عند الضحى غاروا علينا ....وقد داروا بنا كالحلقة ، و كثر الرصاص بأن ينزل علينا كالمطر، و مع ذلك و الحمد لله ، أن من وقعت فيه رصاصة نزلت كالطين، بحيث لم تضر أحدا << [1].

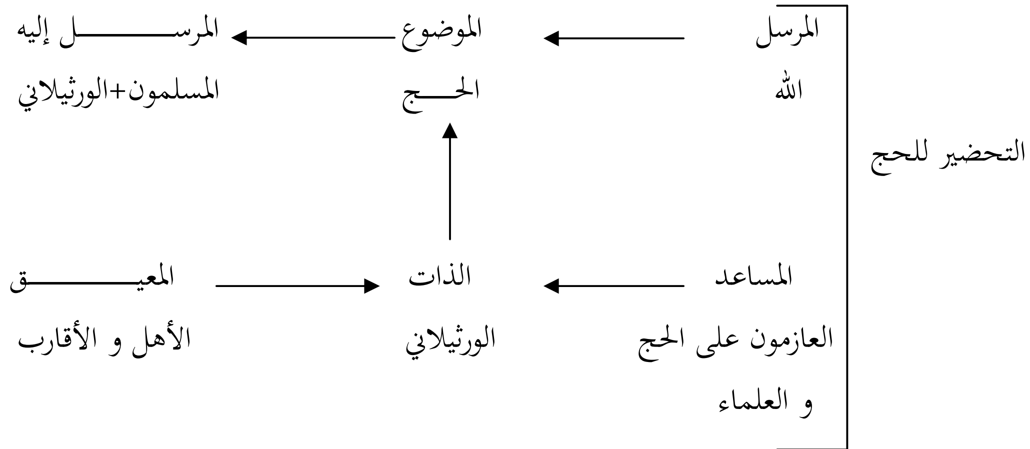
إن القراءة المتأنية لهذه المقاطع و غيرها مما هو ثابت في الرحلة و التي تمثل العائق ، يجعلنا نحس أن شخصية السارد ، و انطلاقا من قناعة دينية ، تسعى دوما إلى الإشارة بطريقة أو بأخرى ، إلى أن هناك قوة خفية عظيمة تقف إلى جانب البطل ، و تساعده على النجاة و التغلب على المصاعب التي تواجهه ، ففي كل مرة يشتد على الرحالة و مرافقيه الأمر ، إلا و يتدخل الله بقدرته و يسخر ما يساعد على النجاة ، و هو ما يشير إليه الرحالة و يعترف به >> ثم داروا بنا دورة أخرى ، غير أنهم لم يتمكنوا منا بفضل الله تعالى و قوته ، و نحن معهم كذلك ندور حيث داروا حتى أيسوا منا فاجتمعوا و انفصلوا منا مشرقين و الحالة إنا نسير نحو المغرب مع الالتفات إليهم إذ ربما رجعوا إلينا ... فلما وصلوا إلى محل مرتفع بعيد منا اجتمعوا و نحن سائرون و إذا بطائفة أكثر منهم قد غشيت الطريق تحيرنا منهم و ذهلت عقولنا من أجلهم ، فلما شاهدنا جمعهم تيقنا الموت و قلت لسيدي الآن متنا فكنت أستغيث بالنبي صلى الله عليه و سلم طالبا النجاة أو الموت على حسن الخاتمة فلما دنوا منا أردنا قتال من سبق منهم إلينا غير أن سيدي أحمد عرف بعضهم انه من زواوة فنهاني عن ذلك فإذا بهم أنهم رجعوا عن الركب إلينا لما سمعوا أننا تخلفنا فلما وصلوا إلينا حمدوا لنا السلامة << [2] .

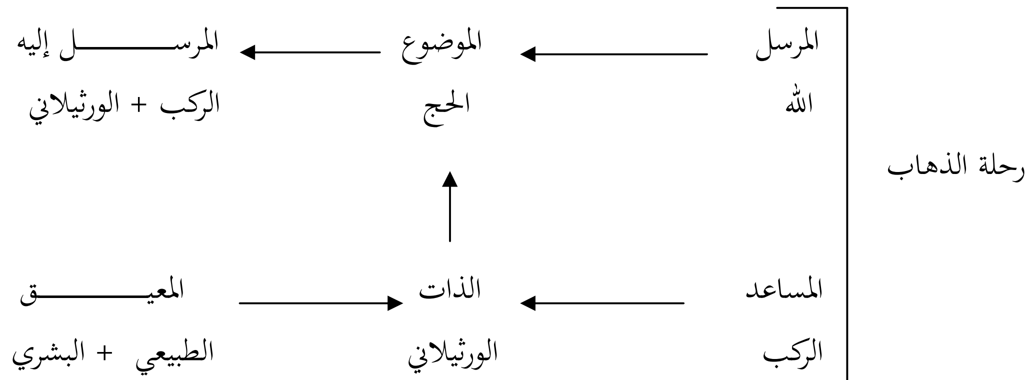
هكذا في كل مرة يتكرر هذا المشهد ، مشهد تدخل القدرة الإلهية وهو ما يعتبر تأكيدا إلى ما تمت الإشارة إليه من قبل ، أن رحلة الحج إنما الله ميسرها و هو أول راعيها ، فالله سبحانه و تعالى إلى جنب عبده ما دام العبد في الطريق إلى ربه. ما تقدم من حديث عن العوامل المساعدة و العوامل العائقة ، في علاقتها ببطل الرحلة و مرافقيه ، يمكننا أن نحصرها في ثلاثة دوائر كبرى كالتالي:

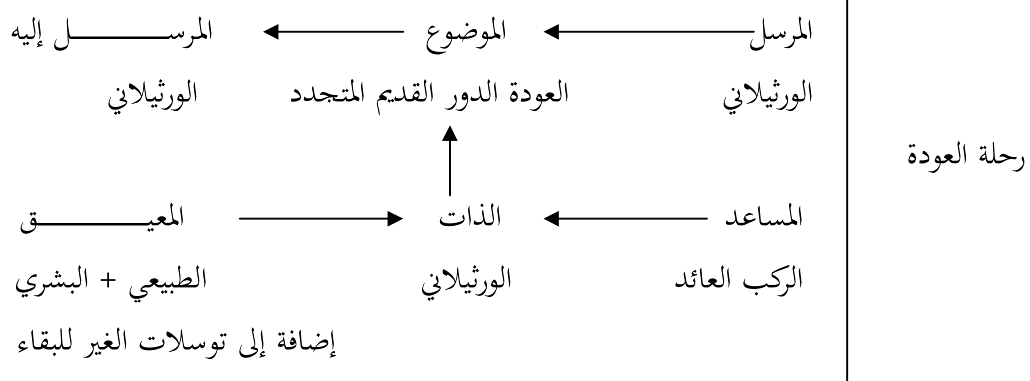
---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ، ص: 154.

(2)- نفسه، ص: 636.


التحضير للحج
المرسل
الله
الموضوع
الحـــج
المرســــــــل إليه
المسلمون+الورثيلاني
المساعد
العازمون على الحج
و العلماء
الذات
الورثيلاني
المعيـــــــــق
الأهل و الأقارب


رحلة الذهاب
المرسل
الله
الموضوع
الحج
المرســــــــل إليه
الركب + الورثيلاني
المساعد
الركب
الذات
الورثيلاني
المعيـــــــــق
الطبيعي + البشري


رحلة العودة
المرسل
الورثيلاني
الموضوع
العودة الدور القديم المتجدد
المرســــــــل إليه
الورثيلاني
المساعد
الركب العائد
الذات
الورثيلاني
المعيـــــــــق
الطبيعي + البشري
إضافة إلى توسلات الغير للبقاء

في رحلة العودة كما نلاحظ أصبح المرسل هو المرسل إليه ذاته ، إنه خطاب الذات إلى الذات ، فالورثيلاني بعد قضاء الفريضة و أداء المناسك ، تحرك فيه الحنين إلى الوطن و استبد به الشوق إلى الأهل ، فتحركت فيه الرغبة في العودة ، و كله رغبة في أن يخدم وطنه ، و يخدم مجتمعه من خلال النصح و إصلاح الحال و هذا كما نعلم يعتبر دورا قديما متجددا .

كما أننا في هذه المرحلة التي تمثل واحدة من مراحل قصة رحلته ، نلاحظ أن المساعد بقي هو نفسه ممثلا في الركب العائد ، بينما المعيق أضيف له طرف جديد يتمثل في توسلات من زارهم مودعا أو من مر عليهم و أكرموا ضيافته و أصروا عليه و توسلوا إليه البقاء عندهم و الإقامة الدائمة بين ظهرانيهم ، و هذا في وجه من وجوهه يؤكد المكانة المرموقة لهذه الشخصية ، و القبول الكبير الذي وجدته عند هؤلاء كما كان شأنها مع أهلها الأقربين ، و حاصل القول انه في النهاية استجاب لصوت القلب ونداء الوطن ، و تحرك فيه الشعور بالمسؤولية تجاه أهله و مجتمعه فعاد .

ب- علاقتـــها بالشخصيات الأخـــــرى:

لما كان الأمر يتعلق بالرحلة فان الواقع يفرض أن يكون للشخصية المركزية من يشاركها في رحلتها ، على الأقل عندنا نحن معشر المسلمين باعتبار أننا مأمورون بالرفقة التي تعتبر من المستحبات في السفر ، كما توحي بذلك بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم << لو أن الناس يعلمون من الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده >> [1] رواه البخاري. و عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : << الراكب شيطان ، و الراكبان شيطانان ، و الثلاثة ركب >> [2]. رواه الترمذي و النسائي. و الركب لا يعني الفرد و الفردين ، أو الصديق و الصديقين ، بل هو عبارة عن مدينة متنقلة بنظام ، و يشرف عليها وعلى سيرها و راحتها و أمنها أمير الركب ، و يساعده الإمام و القاضي و يتحرك الجميع في كتلة واحدة نحو هدف واحد [3].

---

(1)- يحي بن شرف النووي ، المرجع السابق ، ص: 310.

(2)- نفسه ، ص: 310.

(3) - ينظر مولاي بلحميسي ، الجزائـر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ط2، 1981 ،ص:25

إن تعدد الشخصيات في الرحلة أمر واقع لا يمكن تجاهله أو تجاوزه ، بل إن إطلاقنا صفة الشخصية المركزية على الرحالة من قبل يفرض علينا البحث عن الشخصية المقابلة ، من منطلق أن << تميز الشخصية بالمركزية ، يحيل على وجود الشخصية الثانوية << [1] ، التي تمثلها مجموع الشخصيات الأخرى .

إن وضع الشخصية المركزية في كفة ، و الشخصيات الأخرى في كفة أخرى ، يعتبر تصنيفا قائما في الأساس << على مبدأ التقابل الذي يهدف إلى الكشف عن التباين الذي يعد مبدأ أساسيا من المبادئ التي يرتكز عليها النقد البنيوي << [2] لمعرفة الشيء بما يقابله ، و من خلال هذا التصنيف يمكننا أن نقف على سلطة هذه الشخصية – الرحالة – الذي نجده في الغالب يكتب ليُعْلِمَ و يُعَلِّمَ ، متخذا من الرحلة << وسيلة نصية لإبراز رصيده الثقافي ، و معرفته العلمية و قدرته التعليمية << [3] . بل أكثر من ذلك يتخذ من ملفوظ الرحلة وسيلة لإبراز ذاته على انه صاحب الحق المطلق في التصرف في جميع مكوناتها ، و لا عجب في ذلك ، فالرحالة يملك متسعا من الحرية في التصرف و التحكم في مادته التي يقدمها ، فنحن لا نكاد نسمع من أحداث أو نرى من شخصيات ، إلا ما سمح لنا الرحالة بسماعه أو رؤيته ؛ لأنه ببساطة هو المشكل لها ، و المحدد لمكان و زمن ظهورها على مسرح أحداث الرحلة المكتوبة ، فالذي لا شك فيه أن هناك من الشخصيات و الأحداث و الأماكن التي يتجاوز الرحالة – أو من ينوب عنه – الحديث عنها عندما تُنقل الرحلة من الفعل إلى الكتابة ، رغم حدوثها أو حضورها أثناء الرحلة الفعلية ، و يكون إسقاط الحديث هنا بسبب عدم الأهمية ، أو عدم التناسب مع الهدف أو الاستراتيجة التي بنيت عليها الرحلة .

إن الحديث عن الشخصية المركزية التي تمثل " الأنا " أو الثانوية التي تمثل " الآخر " ، يجب أن ينطلق من وعينا التام بأننا نتحدث عن شخصيات واقعية ، قد تذكر بأسمائها و قد يشار إليها إشارة بحسب طبيعتها ، و بحسب غرض الرحالة من الإتيان بها . و حتى يستقيم الحـــديث عن الشخصية

---

(1)– عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية، مرجع سابق ، ص: 234.

(2)– عبد المالك قجور، القصة و دلالتها في رسالة الغفران حي بن يقضان،مطابع الاخوة مدني البليدة الجزائر، ط1، 2010، ص: 183.

(3)– عبد الرحيم مودن، أدبية الرحلة ،مرجع سابق ، ص:31.

المركزية و علاقتها بالشخصيات الأخرى ، سواء المرافقة أو المرتحل إليها ، و لتتضح لنا بعض توجهات الشخصية المركزية ، سنحاول تصنيف هذه الشخصيات بحسب مكانتها و طبيعتها >> من خلال استيعاب رؤية الراوي – الرحالة – للآخر سواء الذي يحتك به تحاورا و تعاملا ، أو الذي يسمع عنه بصفته جزءا من الماضي أو الحاضر << [1] .

– الآخــــر العالــــم و الولــــــي:

إن المطلع على الرحلات العربية في عمومها ، يلاحظ أن من أبرز الشخصيات و أكثرها حضورا ، هم العلماء الذين رفع الله من شأنهم ، و عظم مكانتهم ، كما اعتبرهم الرسول صلى الله عليه و سلم و رثة للأنبياء فكان من الطبيعي أن يجدوا التقدير و الاحترام بين أفراد مجتمعاتهم ممن يعرفون قيمة العلم و العلماء . ذلك ما يتجسد في الرحلة الورثيلانية التي احتفى فيها صاحبها بالعلماء فسيطر الحديث عنهم على حيز كبير من صفحاتها ، خاصة الفقهاء من علماء الدين و الأولياء و الصالحين ، و هو ما يتماشى مع طبيعة العصر الذي كما نعلم سيطرت عليه الظاهرة الدينية ،و يتماشى أيضا مع طبيعة الرحلة باعتبارها رحلة من أجل إتمام الركن الخامس عادة ما يلتقي فيها أصحابها بالعلماء و الصالحين و الفقهاء ، رغبة في الاحتكاك و التبرك، و طلب الفتوى أو مناقشة المسائل .

و على هذا الأساس فإن المقصود بالعلماء في رحلة الورثيلاني ، هم أولئك المعروفون بأصحاب العلــوم الـــربانية ، أو المعرفة النورانية . و حديثه عن هؤلاء يتميز في البداية بالتعريف بهم ، بذكر أسمائهم ، و سماتهم ، و فضائلهم ، و مناقبهم ، و مكاناتهم العلمية و اتجاهاتهم الفكرية ، و غرضه من ذلك أن يستفيد منهم المتلقي و يتأثر بهم و يسير على نهجهم ، و هو ما يقره الورثيلاني صراحة بقوله : >> إنما نذكر من ذكر الإخوان و المحبين و بيان أوصافهم ليتحقق السامع بأحوالهم و يتصف بأوصافهم و الأقل أن تحضر عنده بركاتهم << [2].

و قد يتعدى ذلك فيتحدث عن وظائفهم و شيوخهم و تلامذتهم. و عادة ما يكون الحديث عن هــؤلاء مقــرونا بكلمة " سيدي " التي تشــير إلى المكانة الرفيعة التي يتمتعون بها عند أفراد المجتمــع

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص: 303.

(2)- الورثيلاني ،المصدر السابق ،ص:178.

كمـــا تشير في نفس الوقت إلى تواضع الرجل أمامهم . و لما كان العلماء و الأولياء درجات و طبقات ، فإن الرحالة حرص على التمييز بينهم بالصفات التي تميز الواحد منهم عن الآخر؛ فمنهم من يصفهم بالعلم الكبير مثلما نجده في قوله : " العالم الكامل " "ذو العلم المتين " " ذو العلوم الربانية و المنح الرحمانية " و منهم من يصفه بالولاية كما في قوله : " بحر الولاية " و منهم من يصفه بحب النبي و التعلق به ،كقوله : " المحب للنبي " و منهـم من يصفهم بالصلاح و الفضل فينعته بـ : " الصالح الفاضل " و " إمام الصالحين " و " ذو الفضل و الصلاح " ...[1].

إن الحديث عن العلماء و الأولياء في هذه الرحلة ، ينطلق من وعي الشخصية المركزية بذاتها و طبيعة عصرها ، و حقيقة من يشاركها في أحداث رحلتها ، و عليه فان النظرة لهؤلاء سوف تقوم على مدى القرب و البعد ، من حيث الاتجاه الفكري و فلسفة التصور و طبيعة النظرة للحياة ، نقول هذا الكلام من منطلق أن هذه الشخصيات جميعها تنتمي إلى دائرة واحدة هي دائرة الدين الإسلامي ، و هذا يعني أننا أمام آخر منتم إلى نفس الأمة ، و نفس الدين ، و هو ما يجعل العلاقة به علاقة ايجابية قائمة على التواصل و التفاعل و المشاركة ، و تتجلى مكانة هـذا الآخر في تداخلـــه مـع " الأنا " من خـــلال " نا " "النحن " التـي تـدل على الجمـع بين " أنا " الشخصية المركزيـة – الرحالة – و << بين فرد أو أكثر من مرافقيه طوال الرحلة ، أو في مرحلة من مراحلها >>[2].

ليس ذلك فحسب بل يتعدى الأمر إلى الشخصيات الأخرى ، أعني الشخصيات المرتحل إليها ، و هؤلاء لا نكاد نحصي لهم عدا في الرحلة ، و لعل الميزة الأوضح في كل ذلك أن الرحالة يبدو أكثر تفاعلا مع المتصوفة الذين يخصهم بما يناسبهم من عبارات المدح و الإطراء التي تحمل في طياتها الألفـــاظ الـموحية بنهجهم الصوفي ، مثلما نلاحظه في قوله : << فقد أدركنا فيها محقق الصلاح ، و صاحب النجاح ، نجم الصباح ، ذا الأرباح ، صاحب الورع و العلم الصحيح، و الزهد و الدواء لإخوانه ممن هو بالحب جريح، العالم في كل المذاهب، الذي طاعت و انقادت له المواهب ، سيدي محمـد المعـــزي >>[3] ، إلا أن ذلك لم يمنع الأنا المركزية – الورثيلاني– أن يرى في المسلم آخرا سلبيا

---

(1)- ينظر ، عبد الرحمان عزي ، المرجع السابق ، ص: 69.

(2)- شعيب حليفي، المرجع السابق، ص:306.

(3)- الورثيلاني ، المصدر السابق ،ص:177.

مثلما هو الحال مع ذلك النموذج الذي يهين الحجاج ، أو يقسو في التعامل معهم ، أو لا يطبق حدود الله و إن وصفه بـــ " الشيخ " كقوله : << في ذلك اليوم تلاقينا مع عدو نفسه المحارب لله و رسوله الشيخ بن روب و هو شيخ من شيوخ نفزاوة >> [1].

و لقــد تنــوع الآخر في الرحــلة الورثيلانية بين آخر تركي و آخر عربي، بين آخر صديق و آخر عدو، تبعا لتنوع الطبقات الاجتماعية و اختلاف المراتب السياسية و المكانات الدينية .

- الآخـــــر التركــــي و الحاكم الظالـــــم :

الملفت في الرحلة الورثيلانية أن صورة الآخر التركي تجلت دائما بصورة سلبية ، انطلاقا من نظرة الأنا القائمة هنا على الأساس الديني السياسي ، فالتركي طاغ و ظالم بل جعله الورثيلاني سببا في انتشار الفساد و عموم الجهل و شيوع الخراب . يؤكد هذا الكلام على سبيل المثال حين كان يتحدث عن زمورة التي << اجتمع عليها أمران ظلم الأتراك و ظلم الأعراب ...حتى صارت في قلة حيث انسلخت عن أوصاف الأمصار بل عن أوصاف المدن الصغار فهي الآن لا حمام فيها و لا سوق يعتبر منها غير أن الأتراك استولوا عليها استيلاء عظيما يأكلون منها و ينتفعون بها أتم الانتفاع كالأملاك الحقيقية المباحة وهي ليست لهم و لا أنهم من أهلها بل لما طغوا و تمردوا جعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما و عدوانا و هذا و العياذ بالله سبب اندراس العلم و أهله من كل وطن يوجد فيه ذلك >> [2].

و هذه الصورة يبدو أنه متأثر فيها بما أقره العياشي قبله حين قال : << إلا أنها ابتليت بتحالف الترك عليها و عساكر العرب ، فيستولي عليها هؤلاء تارة و هؤلاء تارة ، إلى أن بنى الترك حصنا حصينا علــى رأس العين التي يأتي الماء منها ، فملكوا البلد و أضروا بأهلها و أجحفوا بهم في الخــراج و لم يقـــدروا علــى الخــروج عليهم لتمكنهم مــن المــاء الذي به حياة البلد و أهله >> [3].

و غير بعيد عن هذه الصورة نجد صورة الحاكم الظالم التي تمثل الآخر المنتمي إلى نفس الأمة دينيا و عرقيا ، إلا أنه على غير توافق معها فيصبح بذلك يمثل الحاكم السلبي الذي لا يخدم أهله ، و لا يهتــم بشؤون رعيته و أفراد مجتمعه ، بل يطغى عليهم و يثقل كاهلهم مثلما نجده مع حاكم تونس ، رمضان

---

(1)- الورثيلاني،المصدر السابق، ص: 154.

(2)- نفسه ، ص: 146.

(3)- نفسه، ص:118.

باي الذي صادفه الرحالة في الجريد << بمحلته جاء لقبض الخراج الموظف على البلد كما هي سنتهم و سنة من اهتدى بهم قطعها الله من سنة و أخلى منها جميع أراضي الإسلام بلا محنة و ملاها بالعدل المستقيم و الدين القويم << [1].

و كـذلك كان الحـال في مصر ، التي عـــانى فيها رفقـة مرافقيـه عناء كبيرا ، فنقـل عنها صـورة قاتمـــة عبر عنها بما نقلـه عن الشيـــخ الحفناوي الذي قـــال: << إن ظـــلم ولاتها قـــد وصل كـل جنس من أجناس الآدميين حـتى بلـغ ظلـم الحـاج المغـربي و العلماء و الطلبـة و الفقـراء و الأشيـاخ و الصنـاع و التجـار و المجـــاورين و ســـائر الناس ، و لذلك ابتلاهـم الله بالشقـاق و الفتنة ، و كانت مصر لمن غلب ....فإذا علمت هذا علمت أن والي بولاق قد تعدى على ركبنا أهلكه الله و أخلى منه الأرض ، و كذا معينه يمسك جماعة من الحجاج و يلقيهم في السجن ، فإن أخذ منهم شيئا من الدراهم سرح لهم من غير أن يدعوهم أحد للشريعة عدو نفسه << [2] .

- الآخـــــــــر الصـــــــــــديق :

ليس المقصود بالآخر الصديق هنا المرافقين من الأهل و الأقارب أو الركب فحسب ، إنما كذلك مجموع الشخصيات من العامة الذين صادفتهم الشخصية المركزية و تفاعلت و تواصلت معهم فوجدت منهم العون و حسن الاستقبال ، سواء في رحلة الذهاب أو في رحلة العودة ، و هؤلاء قد يكونون من التجار أو الفلاحين أو السماسرة أو غيرهم ممن يتم اللقاء بهم صدفة دون تخطيط مسبق. و مثل هؤلاء عادة ما يشير إليهم الرحالة إشارات عامة ناسبا إياهم إلى مناطقهم أو بلدانهم كأن يقول مثلا: << و لما ودعت أهل بجاية رجعنا إلى دارنا عازما على السفر<< [3]وقـــوله : << أولاد محجوبة فهم أهل الخير و الفضل و القرآن و العلم و الحلم ... << [4].و هؤلاء كثيرا ما يلاحظ عليهم الرحالة بعض ما لا يرضيه دينيا أو خلقيا، إلا انه لا يقف منهم موقفا معاديا ، بل يسعى إلى تنبيههم و إصلاح ما اعوج فيهم و يختم دائما بالدعاء لهم .

---

(1)- ، الورثيلانيالمصدر السابق، ص: 156

(2)- نفسه ، ص: 375.

(3)- نفسه، ص: 42.

(4)- نفسه، ص: 69.

- الآخـــــر العـــــدو و الآخر الكافـــــــــر :

يمثل هذا الصنف - أعني الآخر العدو- قطاع الطرق المسلحون الذين يترصدون بالمارة من القـــوافل و ركب الحجيج ، فيعتدون عليهم و يسلبون أموالهم و يجردونهم من متاعهم و مأكلهم ، و قد اخترنا لهؤلاء و صف الآخر العدو لأنهم لا يتوانون عن القتل لتحقيق مآربهم.

و أما الآخر الكافر فإننا لا نكاد نجد له أثرا في هذه الرحلة ، و هذا أمر طبيعي باعتبار أن أحداثها تجري داخل بلاد الإسلام " الجزائر تونس ليبيا مصر البقاع المقدسة " و عليه فان هذا الصنف من الآخر لا يظهر على مسرح الأحـــداث إلا بالإشارة الاسترجـــاعية ، من خـــلال تقنية الاسترجاع التي وظفها الرحالة كثيرا ، و كذلك من خلال إعادة ما رسخ في الذهن من حكايات حتى و إن كـــانت في بعض الأحيان تتســـــم بالعجـــائبية كمـــا هو الحـــال في ما قـــال عن فـرعون فقــد >> حكي أن فرعون لعنه الله كان يفتن الناس بها(الضفادع) فيعد تراب فرائسها فيحفظه عنده و يعد مطر النيسان في قوارير و يقيم عليها و كيلا و إذا أراد فتنة أحد أمر قيم التراب فيأتيه بقبضة منه و يأمر الآخر فيأتيه بشيء من مائه فيجعله في يده و يضمها عليه مدة حتى يحس بتكوينه ضفدعا فيفتح يده فإذا بها ضفدع تثب فيدعي أنه خلقها عليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين << [1].

و من نماذج ذلك أيضا ما نقله من أحداث حدثت لأهالي طرابلس على يد الكفار و كان شاهدا عليها و هو في طريقه إلى الحج في العام 1096م ، ففي رحلته هذه تحدث عن طرابلس التي >> حاصرها الكفار دمرهم الله تدميرا و ذلك أن يوم نزولنا بها بمنزل الركب بشط البحر إذا بسفن ثلاث ظهرت على متن البحر ثم تتابعت الفلك في اليوم نفسه إلى أن اكتملت اثنين و عشرين سفينة فأقاموا عليها دمرهم الله بقية الثلاثاء و الأربعاء و الخميس و الجمعة و أهل المدينة في تلك المدة في هول عظيم و نكد جسيم و عناء شديد و ليس فيهم مدبر و لا ذو رأي حميد أو نظر سديد بل أخذوا في نقل أمتعتهم من المدينة إلى خارجها و حريمهم إلى سوانيهم بالمنشية و لما رأينا ذلك تكلمنا مع وجوههم على فعلهم الغير اللائق فيما يبدو لنا من إظهار الجـــزع و الجبن لأعداء الله الكفـرة اللآم (هكذا) الفجرة << [2].

---

(1)- الورثيلانيالمصدر السابق ، ص:303.

(2)- نفسه، ص:189.

و على كل فان هناك شخصيات أخرى يمكن أن تمثل الآخر المعنوي ، و نعني بها تلك الشخصيات التي لا تحضر بجسدها على مسرح أحداث الرحلة ، و إنما تستحضر بالحديث عنها و عن علمها أو كراماتها و كل ما يتصل بها ، مما يهم الرحالة ذكره . و يمكن التمثيل لهذا النوع من الشخصيات بالأولياء و الفقهاء و غيرهم من الصالحين ، و كذلك الرحالة الذين استفاد الورثيلاني من رحلاتهم و اعتمد عليها و ذكر الكثير مما جاء فيها في رحلته ، كالشيخ سيدي أحمد بن ناصر الدرعي و أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي .

من خلال كل ما تقدم من حديث عن الشخصية التي تمثل الأنا ، و الشخصيات الأخرى التي تمثل الآخر و طبيعة التفاعل و التواصل بينها ، فإننا نستطيع القول مطمئنين ، أن الشخصية المركزية سيطـرت سيطرة تكاد تكون كاملة على جميع مكونات الرحلة ، و لم تسمح للشخصيات الأخرى – رغم تعددها – بان تتحرك أو تبرز موقفا مضادا إلا في القليل النادر فظلت هذه الشخصيات << عاجزة عن امتلاك هويتها النصية ، و أصبح تعددها دالا على بعد واحد ، لا اعتراض على موقف من مواقف الشخصية المركزية >> [1] و هذا يعني أن هذه الشخصيات جاءت في الرحلة لتلعب دور المؤيد المطلق للشخصية المركزية و المساعد على بروزها.

رابعا :بنـــــاء الزمـــان الرحلي :

أ– التتابــــــــــع

المعلوم أن الشخصية في الرحلة هي شخصية متحركة و متنقلة بالضرورة داخل فضاء لا يمكن أن تكون في حركتها فيه إلا مرتبطة بزمن ؛ فليس من المعقول أن نجد شخصية تتحرك أو تعيش خارج الزمن، فالزمن يحيط بنا و بأعمالنا << يقتفي آثارنا حيثما و ضعنا الخطى، بل حيثما استقرت بنا النوى ،بل حيثما نكون و تحت أي شكل ، و عبر أي حال نلبسها فالزمن كأنه هو وجودنا نفسه >> [2]. و تلك حقيقة ثابتة لا يختلف فيها اثنان ، فعمر الإنسان ذاته ما هو في حقيقة أمره إلا فترة زمنية محددة بمكثها الإنسان في هذه الحياة من أجل أن يـؤدي رسالة ، فللزمن إذا أهميته على مستوى حياة الإنسان ،كما له أهميته علــى مستوى الأعمال الأدبية السردية ، فالعلاقة بين الأحداث و زمن السـرد

---

(1)– عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية ، مرجع سابق، ص:237.

(2)– عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، مرجع سابق ، ص: 199.

و طبيعته ، مما يجب على الدارس أن يقف عليه وفق التقنيات النقدية الحديثة التي تؤكد على أهمية الزمن في كل عمل سردي يحمل في داخله حكاية مهما كانت طبيعتها ، فالتوجهات النقدية الحديثة اليوم أصبحت << تعتبر الحكاية مقطوعة زمنية مرتين زمن الشيء المحكي و زمن الحكاية >> [1] ، كل هذا يؤكد مشروعية دراسة الزمن في الرحلة ، خاصة من حيث توظيفه و كيفية استغلاله ، باعتبار أن ذلك << مبحث كرسته الدراسات البنيوية باعتباره العمود الفقري لكل عمل أدبي >> [2].

و لما كان الحديث هنا يتعلق بالرحلة الحجية ، فان طبيعة الحيز الزمني ستكون خاصة ، إذ الأمر يتعلق بفترة زمنية مقدسة معلومة البداية و محددة النهاية ، فيها تتطهر النفس و يتطهر البدن من دنس السنين ، فـ << من حج هذا البيت فلم يرفث و لم يفسق خرج من ذنبه كيوم ولدته أمه >> [3]. و هذه الفترة المحددة شرعا تفرض على المسلم المقبل على الحج أن يتميز عن غيره بأخلاق يجب أن يتحلى بها فـ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَ لَا فُسُوقَ وَ لَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى** ﴾[4].

و عليه فان الرحالة تجده حريصا على ذلك كل الحرص ، و ينظر إلى الزمن نظرة قائمة على احتساب أيامه و لياليه بدقة ، لأنه يعلم علم اليقين أن أي تأخر سيلغي الهدف من الرحلة كاملا. و هذا وحده كاف ليأخذ الزمن في مثل هذه الرحلات مكانة أساسية على غرار الرحلات الأخرى ، باعتبار أن << الرحلة هي نص زمني بامتياز، سواء كانت هذه البنية من أجل التأريخ أم بقصد إبراز الحرص على إمداد القارئ بوقائع حقيقية ذات مرجعيات مضبوطة لا متخيلة >> [5].

إن واقعية الرحلة تفرض على الرحالة أن يتعامل مع الزمن من منطلق إخضاعه إلى الترتيب التاريخي تناسبا مع الأحداث الكبرى للرحلة التي تخضع في الأساس للتعاقب الذي << يعتبر من

---

(1)- نبيلة زويش، تحليل الخطاب السردي في ضوء المنهج السميائي ،منشورات الاختلاف ،ط1، 2003،ص:73

(2)- حسين خمري ، المرجع السابق، ص: 92.

(3)- أبو بكر جابر الجزائري، منهاج المسلم، مطبعة الفن القرافيكي ، باتنة الجزائر ، ط4 ،1981، ص:320.

(4)- سورة البقرة، الآية :197.

(5)- شعيب حليفي، المرجع السابق، ص:330.

جماليات النص التقليدي الذي يحـــــرص على الاهتمام بالعلاقة المنطقية بين البداية و النهاية >> [1].

إن هذا التعاقب الذي يعتبر مؤشرا قويا على فرضية اعتماد الرحالة في كتابة رحلته على رؤوس أقلام مسجلة أثناء الرحلة ، و الذي يشير في نفس الوقت إلى قوة الذاكرة عنده ، يفرض علينا التمييز بين الزمن الفعلي للرحلة الذي استغرق مسيرة حوالي ستة آلاف كيلومتر ، قطعها الرحالة في ستة أشهر تقريبا ذهابا ، و حوالي سنة إيابا ، و بين زمن الرحـــــلة المدونة في مجلدين بعد رحـــــلة الحـــج الفعليــــــة بمــدة من الزمن إذ << يبدو أنه أكمل كتابة رحلته بعد سنين من عودته >> [2].

إن التتابع و تعاقب الأحداث يساعد بلا شك على إبعاد التشويش عن ذهن المتلقي من جهة ، و يجعل الأحداث أقرب إلى الصدق و الموضوعية من جهة أخرى . و الواضح أن الورثيلاني لم يخرج عن هذا الخط في كتابة رحلته التي يمكن الوقوف فيها على ثلاث دوائر كبرى ، تمثل حلقات الزمن المتتابع الذي جرت فيه الأحداث . و لا شك أن الزمن الأعظم و الأهم بالنسبة لمثل هذه الرحلات هو زمن الوسط ، زمن أداء الفريضة الزمن الواقع بين الإحرام و التحلل ، إنه زمن الحج الذي من أجله شد الرحال ، وهو الزمن المقدس الذي يستوي فيه الناس جميعا في لباسهم وتلبيتهم و تهليلهم و تكبيرهم . و يسبق هذا الزمن زمن يمكن أن نطلق عليه زمن الشقاء و الأخطار و المشاهد و التواصل ،ذلك أن المرتحل للحج لا يصل إلى مراده إلا بعد أن يقطع مسافة يقوم من خلالها برحلة مليئة بالأحداث يزور من خلالها العديد من الأماكن و يلتقي مع العديد من الأشخاص و<< ما يستتبع ذلك من أخبار و مرويات و صور و مشاهدات ، يقطع الرحالة عبر هذه الحزمة من الأشياء و الأماكن و الأشخاص العديد من الأزمنة التي تقوده إلى زمن الحج >> [3]. و يلتصق بهذا الزمن — أعني زمن الحج – زمن آخر هو زمن العودة ، الذي يعيشه الرحالة بصورة المتطهر الحامل لرسالة جديدة ، يطغى عليها طابع التعليم والإصلاح و الدعوة إلى الله ، وهـــذه النـزعة التعليمية كما هو معلوم تعتبر من ميزات هذا النوع من الرحلات ، يشهد على ذلك ظاهرة الإطناب التي يعتمدها الرحالة و التي تستدعي منه الشرح ، و التفصيل ، و الاستشهاد ، و الاستعانة بأقوال الآخرين في مختلف المواضيع ، و

---

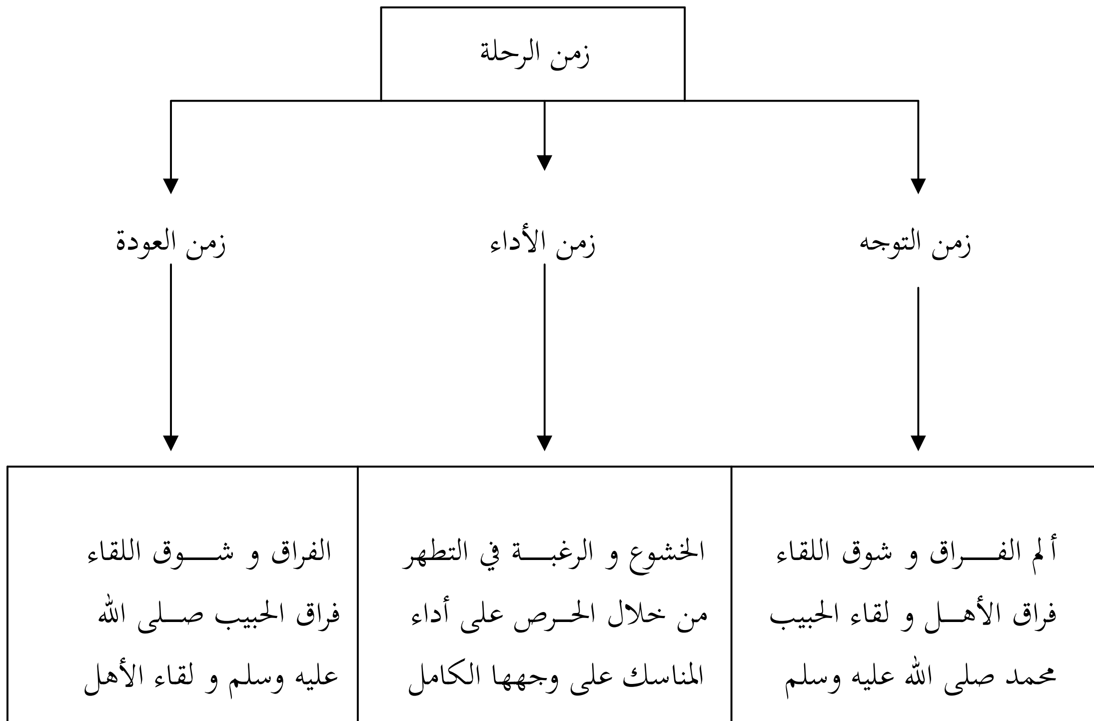
(1)- حسين خمري، المرجع السابق، ص: 93.

(2)- عبد الرحمن عزي، المرجع السابق ، ص: 10

(3)- أحمد بغلا ، المرجع السابق ، ص: 147.

مثل هذا كثير في رحلة الورثيلاني من ذلك ما نقله عن الشيخ أحمد بن ناصر في وصف مسجد ببسكرة قائلا : << قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه بعد ذكره كلاما يخصه ، و زرنا مسجدا و طلعنا إلى مئذنته و هي في غاية الإتقان و الطول و السعة تقدر الدابة على الصعود إليها بحملها و أدراجها مائة و أربع و عشرون درجة و المسجد في غاية السعة و إتقان البناء إلا أنه قل عامروه و ضعف ساكنوه .. مع أن هذه المدينة من أعجب المدن و أجمعها لمنافع كثيرة ... كما قال الإمام العياشي في رحلته ما رأيت في البلاد التي سلكتها شرقا و غربا أحسن منها و لا أحصل و لا أجمع لأسباب المعاش >>[1].

وحتى تكون الصورة أكثر وضوحا يمكن إبراز الدوائر الكبرى التي تمثل الزمن المتتابع لهذه الرحلة و الحالة التي يكون عليها الرحالة من خلال الشكل التالي :



(1)- الورثيلاني ، المصدر السابق، ص:117.

– زمـــــــــن التوجـــــــــــه :

الزمـــن هـذا الخيط الوهمي ، الذي لا نرى له لونا ، و لا نشم له رائحة ، و لا نسمع له صوتا ، و الذي شغل الناس جميعا ، عربيهم و أعجميهم ، ماضيا و حاضرا ، و سيبقى دون شك شاغلهم مستقبلا ، و رغم زئبقية حقيقته ، و فلسفة معانيه ، و عدم قدرة العلماء و المفكرين و الفـــلاسفة على تحـديد مـــاهيته ، إلا أن الإنســـان يعيشه و يتـــأثر به ، في ليله و نهاره ، في صبحه و مســـائه ، في خــــريفه و ربيــــعه ، في صيفه و شتائه ، كما يتأثر به كل موجود على وجه الأرض . فليس عجيبا إذا أن << نرى أثر مرور الزمن و ثقله و فعله و نشاطه في الإنسان حين يهرم ، و في البناء حين يبلى ، و في الحديد حين يصدأ ، و في الأرض حين تتخدد ، و في الشجر حين تتساقط أوراقه ، و في الزهر حين يذبل ، و في الفاكهة حين تتعفن ، و فيما لا يحصى من الأحوال و الأطوار ، و هي تحول من حال إلى حال ، و من طور إلى طور ، و من مظهر إلى مظهر آخر >> [1]. من هذا المنطلق يصبح تحديدنا لهذه الفترة بزمن التوجه ، يفرض علينا التنويه إلى أننا من خــــلال ذلك سنقف على عـــلاقة الزمن بالحـــالة النفسية للرحـــلة ، و مدى تأثيره فيه ، و كيفية تعامل هذا الرحالة معه مع العلم أن زمن التوجه الذي ارتضيناه بداية لا يعني بحال من الأحوال بأنه نقطة البداية التي لا سابق لها ، فهذا في حقيقة الأمر يعتبر مستحيلا من منطلق أن لا أحد يمكنه تحديد النقطة الأولى للزمن فالزمن امتداد لا نعرف له بداية و لا نستطيع كبشر أن نحدد له نهاية ، و كلامنا هذا ينطبق طبعا على مستوى الزمن الأكبر ، و الذي نعني به زمن الوجود.

و لما كان الأمر يتعلق برحلة محددة هي في الأصل جزء من زمن الوجود ، نعرف بدايتها كما نعرف نهايتها ، فإن هذه الفترة الزمنية التي أطلقنا عليها زمن التوجه ، نستطيع الحكم عليها بأنها تعتبر من أصعب الفترات التي يعيشها الرحالة ، باعتباره يفارق المكان الذي ألفه ، و يفارق معـه الأهـــل و الولد و العشيرة ، لكنه في نفس الوقت يتجه إلى مكان مقدس و إلى حبيب أعظم ، حبيب حبه مقرون بإيمان المرء ، إنه القائل : << و الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده و والده و الناس أجمعين >> [2].

---

(1)– عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية،مرجع سابق، ص: 201.

(2)– أبو بكر جابر الجزائري، المرجع السابق ، ص: 37.

و هذا الأمر دون شك يجعل تضارب الأشواق و آلام الفراق ، أكثر تأثيرا مما يجعل هذه اللحظة لحظة فارقة في حياة الرحالة ، لذلك نجده يهتم بها اهتماما بالغا و يؤكد ذلك حرصه على التأريخ بالشهر و السنة في هذه الرحلة خاصة عندما يتعلق الأمر بالمحطات الكبرى.

قصدنا بزمن التوجه زمن توديع الأهل و الخروج إلى الحج حتى لحظة الوصول إلى البقاع المقدسة ، و الذي لا شك فيه أن هناك زمن سابق على هذا الزمن كما أشرنا من قبل، و هو زمن يرتبط بالرحلة استغرقه الرحالة في الإعداد لها من خلال رحلة داخلية قبل انطلاق الرحلة الفعلية نحو البقاع المقدسة ، زار من خلالها – زيارة مودع – العديد من رجال العلم و الشيوخ من المتصوفة و الفقهاء ، كما زار ضرائح الصالحين من الأولياء ، و التقى بالعديد من المعارف في مسقط رأسه و غيره ممن توسم فيهم البركة و استجابة الدعاء ، و قد كان في الغالب يثني عليهم و يذكر هم بأسمائهم >> لعل الله بذكرهم يزيل الحجاب عنا و يرزقنا الوهب الرباني لي و لذريتي و لمن تعلق بي و أن يحفظني من العوائق عن الوصول إلى الله و أن يجمع شملنا و يرزقنا ما رزق به أهل وده و ليس لك إلا بالتسليم لهم مع محبتهم و كذلك بالتعظيم لأولادهم لقوله تعالى و كان أبوهما صالحا << [1] . إن هذه الرحلة تعتبر رحلة الاستعداد و التوديع و الإعلام بالتوجه إلى الحج ، كل ذلك يحمل الدلالة على القصدية ، و تثبيت نية التوجه إلى الحج طلبا للمغفرة و رغبة في التطهر .

بداية زمن التوجه ارتضى له الرحالة أن ينطلق بيوم المغادرة ، و انطلاق الرحلة المباركة التي اختار لها يوم الخميس موعدا ، و هو ما صرح به قائلا : >> نعم خرجنا يوم الخميس لما فيه من اليمن و البركة في كل سكون و حركة كما روي عنه صلى الله عليه و سلم << [2] و هنا يمكن ملاحظة إهماله التاريخ و الشهر . و أما السنة و إن هو لم يذكرها فإنها معلومة مسبقا ؛ سبق و أن ذكرها في بداية صفحات الرحلة حين وجه خطابا لمتلق مفترض بقوله : >> اعلم أيها الأخ لما أراد المشي منا إلى الحج و قد سبق في علم الله أن يكون حجنا في عام تسعة و سبعين و ألف (1179 هـ) << [3].

و المعلوم أن قبل الورثيلاني وقع اختيار العديد من الرحالين المسلمين على هذا اليوم (الخميس) موعدا

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ، ص: 104.

(2)- نفسه ، ص: 107.

(3)- نفسه ، ص: 13.

لانطلاق رحلاتهم ، كابن جبير (539- 614 هـ) الذي كان انفصاله في رحلته من غرناطة << أول ساعة من يوم الخميس الثامن شوال المذكور بموافقة اليوم الثالث لشهر فبرير الأعجمي << [1]. و كذلك كان الحال مع العياشي (1037- 1090هـ)الذي قال في رحلته: << خرجنا من بلدنا و العجلة لنا حادية و عناية الله هادية صبيحة يوم الخميس أول يوم من ربيع الثاني و ترجينا في ذلك اليوم رجاء بركة قول النبي صلى الله عليه و سلم اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم الخميس << [2] .

إن اختيار هذا اليوم الذي يعتبر تقليدا راسخا عند الرحالة المسلمين ، لاشك أنه يوحي بحضور الإحساس الديني مع أول خطوات الرحلة ، خاصة أن الأمر يتعلق بالرحلة الحجية و ما تحمله من خصوصية تجعلها ذات تقاليد خاصة . إن هذه اللحظة التي قلنا عنها من قبل أنها لحظة زمنية فارقة اختلط فيها ألم الفراق بشوق اللقاء ، ارتبطت بمواقف توديع الأهل و الأحبة التي عبر عنها الرحالة بما يناسبها من الألفاظ و المعاني << و انفصلنا على حسن الانفصال و وقـع البكاء و الصراخ من أهل البلد ...فلما امتنعت كل الامتناع لم يبق إلا الصبر لأن القلوب قد تعلقت بالمصطفى صلى الله عليه و سلم فسهل عليها الفراق من أجل ذلك قال الله تعالى النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم الآية << [3].

و يستمر زمـن التوجه في هـذه الرحـلة ليغطي المســـافة بين نقطة الانطـلاق و نقطة الوصول إلى مكة المكرمة ، وهذه المسافة تمتد على امتداد ستة آلاف كيلومتر كمسافة فعلية اختزلت بجميع أحداثها و ما جرى فيها على مستوى السرد في ما يقارب الخمس مائة و واحد وخمسين (551) صفحة تقريبا و هي صفحات المجلد الأول من الرحلة ، و لقد تميز تعامل الرحالة مع الزمن في هذه المرحلة بعدم الانتظام في تحديد الأزمنة بذكر التواريخ ، خاصة عندما يتعلق بالأزمنة الصغرى حيث نجـده في بعض الأحـيان يذكر التاريخ بيومه لا بتاريخه كأن يقول : << ثم مشينا من زمورة صبيحة الأحد>> [4] . و يقول في موضع آخر << ثم ضعنا صبيحة يوم الثلاثاء إلى أن وصلنا إلى قصر الطير فحططنا به الرحال

---

(1)- أبو الحسين محمد بن محمد بن جبير ، رحلة بن جبير ،دار صادر بيروت ، دط، دت ، ص:7.

(2)- أبو سالم عبد الله العياشي ، الرحلة العياشية ، ت .سعيد الفاضلي و سليمان القرشي ،دار السويدي للنشر و التوزيع أبو ظبي ،ط 1 ، 2006 ،ص:67.

(3)- الورثيلاني، المصدر السابق، ص:104.

(4)- نفسه،ص:110.

مع الغير و تلاقينا مع الحجاج و من يريد الزيارة بلا احتجاج و وصلنا عند الظهر و انتفى علينا و عليكم الضرر>> [1]. و قال في موضع آخر: >> ثم ظعنا منها إلى مدينة بسكرة فبتنا في الطريق ليلة واحدة ..و وصلنا عند الضحى و في الغد يوم الخميس ارتحلنا و دخلنا البلد ثانيا لزيارة سيدي محمد بن علي >> [2].

إن أهم ما يجب الوقوف عنده من خلال هذه النماذج هو تحرر الرحالة التام من ضغط الزمن و التاريخ ، حيث لا نكاد نحس منه بأي اهتمام بذلك ، و كأني به يركز جهده على نقل الوقائع ورواية الأحداث قبل أي شيء آخر ، حتى غدا الزمن عنده عنصرا داعما لا عنصرا أساسيا في إستراتيجية السرد التي اعتمدها في بناء الرحلة [3] و يبقى الزمن عند الورثيلاني زمنا يوميا و في أغلب الأحيان شديد الارتباط بالجانب الديني ، يؤكد ذلك التوظيف المتكررة للزمن بالإشارة إليه بأوقات الصلوات .

و نجده في مواطن أخرى و بالخصوص عندما يتعلق الأمر بالأزمنة الصغرى داخل مختلف محطات الرحلة في زمن التوجه يستغني الورثيلاني حتى على اليوم ، ليركز على التعميم مفضلا اعتماد الفعل بدلالته النحوية الدالة على حدوثه في الزمن الماضي و هي الحقيقة التي تفرضها طبيعة الرحلة إذ من الطبيعي أن >> يستعمل الرحالة في التعبير عن الخط الزمني للرحلة الفعل الماضي بالرغم من كون الرحلة جولة في فضاء الحاضر >> [4] .

و يمكننا الوقوف على ذلك من خلال بعض النماذج كقـوله : >> فنزلنا قرب بريكة و هي أرض طيبة و فيها نهر جار مثل النيل >> [5] . و قال في موضع آخر : >> وصلنا قرية مدوكال التي أمير الركب منها و هو الفقيه المحب الفاضل الكامل سيدي محمـــد السعود نجل الشيخ سيدي الموهوب أسعده الله >> [6] . و في بعض الأحيان يأتي بأحداث متسلسلة و لا يقــدم معها يومـا ولا شهرا ما عـــدا

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ، ص:110.

(2)- نفسه، ص:118.

(3)- ينظر ، شعيب حليفي، المرجع السابق، ص:330.

(4)- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية، مرجع سابق، ص:48.

(5)- الورثيلاني ،المصدر السابق ، ص:114.

(6)- نفسه ، ص:114.

ما يدل على تسلسلها الزمني من ذلك قوله : << ثم نزلنا بعدها بصعدة و بتنا ثم ظعنا فسرنا مرحلتين فوصلنا إلى معطن سلوك و نزلنا وقت العصر فبتنا فيه و أقمنا يوما انتظارا للتسوق من أهل بن غازي إذ بعثنـــا إليهم رســولا من المنعــم فأتوا إلينا في البلــدة الثانيــة بالشعير و بالسمن و العســل و بعض الإبل <<[1] . فالسارد هنا - و هو الرحالة ذاته - وظف الفعل الدال على الحركة (انطلاقا نزولا و وصولا) و غيب كل مؤشر على يوم حدوثه و تاريخه ، و رغم أن ذلك لا يؤثر في سير الأحداث و تتابعها الزمني ، إلا أنه يفرض علينا البحث عن الدافع أو الهدف منه .

إن تغييب المؤشرات الدالة على الزمن في ما تقدم من نماذج ، و رغم ما يخلقه من صعوبات للقارئ في تتبع أحداث الرحلة ، فإن الورثيلاني لا يعتبر بدعا فيه و لا يمكن اعتبار ذلك عيبا في بناء رحلته فهناك نصوص رحلية << تغيب عنها المؤشرات الزمنية لعدة اعتبارات تتعلق بأسلوب و طريقة الرحالة في الكتابة و التدوين <<[2] . و يبدو ان الورثيلاني في النماذج السابقة انصب اهتمامه على المكان و الشخصيات التي تتحرك فيه ، و غيب مرة أخرى المؤشرات الزمنية الدالــة على الأزمنـــة التي تتحرك فيها الشخصيات ، و تجـــري فيها الأحـداث ، و قد يكـون اتخذ من كل ذلك وسيلة فنية ليضفــي علــى النص الرحلي ديناميكية تبعث فيه الروح و تخلصه من سلطان التاريخ و صرامة التحديدات الزمنية ، رغبة في تحريره حتى يكون أقرب إلى الأدبية التي توفر المتعة و تخلق اللذة للمتلقي باعتباره العنصر رقم واحد في التواصل الأدبي و الفني .

كما نجده في بعض الأحيان و من منطلق إفادة غيره من المتوجهين إلى الحج بعده ، يركز و يحرص على تقديم المدة الزمنية التي يستغرقها السير من مكان معلوم إلى مكان معلوم آخر ، و هدفه من ذلك التعريف بالطريق و المدة الزمنية التي تستغرق في قطعه ، لتكون بذلك رحلته دليلا يهتدي به و يستفيد منه غيره في رحلاتهم ، و المعلوم أن إفادة القارئ أو المتلقي عموما ، تعتبر من التقاليد الأساسية التي عادة ما يشير إليها الرحالون صراحة في مقدمات رحلاتهم .

جاء في الرحلة الورثلانية ما نصه << تتمة عدد الأيام من سيدي أحمد زروق على الاحتياط إلى مصر بحسب مشينا الجزائري لا الفاسي فانه أسرع في المشي لتأخره فمن سيدي أحمد زروق إلى الزعفران

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ، ص:271.

(2)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص: 330.

خمسة أيام و منه إلى النعيم يومان و منه إلى المنعم خمسة أيام أو صبيحة السادس و منه إلى اجدابية ثلاثة أيام غير أن الثالث و وصلناه عند الظهر و منه إلى سلوك يومان مع عشية الثالث و منه إلى التميمي سبعة أيام و منه إلى مقرب خمسة أيام مع صبيحة السادس و منه إلى المدار أربعة أيام أو خمسة و منه إلى الشمامة أربعة أيام و منها إلى وادي الرهبان ثلاثة أيام و منه إلى أرياف مصر أعني كرداسة أو المنصورة يومان و منه إلى المنشية على شاطئ وادي النيل ثم إلى بولاق و هذا ليس بمشي و الناس إنما يقطعون إلى مصر في الزوارق أي المراكب... >> [1].

و سواء كنا على يقين أو خامرنا الشك في نية الإفادة عند الرحالة من خلال هذا المقطع ، فإن الأكيد أن المطلع عليه تتكون لديه صورة على جزء من الطريق ، و المدة الزمنية التي يمكن استغراقها في قطعه ، ما يفيذه أثناء التحضير للرحلة أو أثناء السير لقطع مسافاتها .

و في هذه المرحلة – زمن التوجه – يبدو جليا الحرص الكبير على التنويع في طريقة التعامل مع الزمن ؛ فبعد ما ألفينا السارد يوظف الإشارات العامة تارة ، و الإشارات الضمنية للدلالة على الزمن تارة أخرى ، وجدناه في محطات أخرى اعتمد التدقيق و وظف الإشارات الصريحة للدلالة عليه ، و يبدو أن الرحالة في كل ذلك خضع إلى منطق الأمور ، باعتبار أن توظيفه الصريح للإشارات الزمنية بيومها و شهرها الهجري و ما يوافقه في الشهر الأعجمي ، كان في الأساس مع أحداث و وقائع تفرض عليه أن يكتب و يوثق ما يتعلق بها ،كالتعاملات المالية في البيع و الشراء أو مع المحطات الكبرى التي جاءت في الرحلة الورثيلانية كأنها عناوين قائمة بذاتها [2]. ففي ذكر الخروج من بسكرة على سبيل المثال نجد قوله : << ثم لما فرغ الناس من قضاء أوطارهم من بيع و شراء و ازدياد ظعنا

---

[1]- الورثيلاني، المصدر السابق ، ص:291.

[2]- الرحلة الورثيلانية في دائرتها الكبرى – زمن التوجه – الممتدة من يوم الانطلاق إلى وصول مكة المكرمة جاءت مقسمة على النحو التالي :

- ذكر خروجنا من بسكرة الصفحة: 124.
- ذكر وصولنا إلى طرابلس الصفحة: 167.
- ذكر خروجنا من مصر الصفحة: 377.
- دخولنا مكة المشرفة الصفحة: 452.

ضحى الثلاثاء خامس و عشرين من رجب و عشرين من شتنبر و نزلنا سيدي عقبة عصرا... << [1].

و في ذكـــر الوصول إلى طرابلس قال: << و صلنا في أول شعبان صبيحة و سمع الاخوان بوصولنا ...... << [2] . و لاشـــك أننا نلاحـــظ غياب السنة في ما سبـــق من مقاطع ، إلا أن ذلك لا يعني الإهمال أو التجاوز ، بقدر ما يعني أن الرحـــــالة عـلى وعـي تام أن المتلقي أصبح على علم مسبق بالسنة التي تمت فيها رحلة الحج هذه ، باعتبار أن الإشارة إليها كانت مع بداية الرحلة .

من كـل ما سبق ، و بالرغــم من بعض المآخـذ التي تؤخـذ على الرحـالة ، نظرا لضبابيـة و عـدم وضـوح بعض الأزمنـة المتعلقـة ببعض الأحـداث الواردة في متن الرحـــــــلة المتعلق بمرحــلة زمن التوجــه إلا أنه يمكننا القــول مطمئنـــين أن الورثيـــــلاني في تعامله مع المؤشرات الزمنية ، لم يخرج على ما ألفناه عنــد غيره من الرحالة المسلمين من حيث التنويع و استعمال أوقـــات الصلاة و فترات اليوم . و مما ميز الورثيلاني هو توظيفه لتعبير " في ذلك اليوم " الذي وظفه بطـــريقة ملفتة ، و قـــد جـــاء هذا التعبير في الغالب مقرونا بأحداث ينتج عنها انفعالات نفسية متنوعة ، كالفرح و الحزن و الخوف بحسب طبيعة المواقف التي توظف فيها كقوله :

و في ذلك اليوم ولدت بعض النساء طفلا . ...عواطف الفرح [3].

و في ذلك اليوم سقط ولد ...لم يبق فيه إلا نفس ضعيف ....الحيرة و الحزن [4].

و في ذلك اليوم أيضا حصل شجار ....الهلع و الخوف[5].

و مثل هذا التوظيف لا بد أنه يوحي بالتتابع و واقعية الأحداث ، نقول هذا الكلام مع واجب التحفظ و ضرورة التنبيه أننا نتعامل مع الرحلة التي تفرض علينا النظر إليها من خلال حقيقة تاريخية أحداثها، و واقعية شخصياتها ، و لسنا نتعامل مع الرواية أو غيرها من الفنون السردية الحديثة التي يرفض أصـــحابها << بإصـــرار تاريخية الأحـــداث ، و واقعيـة الشخصيات ، في أي عمل من الأعمال

---

(1)- الورثيلانيالمصدر السابق ، ص: 124.

(2)- نفسه ،ص: 167.

(3)- نفسه ، ص: 276.

(4)- نفسه ، ص: 280.

(5)- نفسه ، ص: 280.

السردية << [1]. رغم ما في هذا الحكم من غلو و مبالغة .

– زمــــــــــــــــن الأداء :

يمتــد هــذا الزمــن لفترة محــدودة ، هــي فترة الحــج ابتــداء من الإحــرام إلى إتمــام المناسك و التحلل و الإتيان بالزيارات ، و هذا يعني أن هناك لحظة زمنيـة تربط هذا الزمن بالزمن السابق ، و هي اللحظة التي يفرضها المنطق باعتبار أن الزمن المتتابع لا يمكن أن ينقطع أو يتوقف ، و هذه اللحظة هي التي يمكن تحديد تسميتها بلحظة الوصول ، أعني لحظة الوصول إلى مشارف مكة المكرمة محور العالم و مهبط الوحي و نور الرسالة ، و لا شك أن هذه اللحظة لها تأثيرها بشكل أو بآخر في الرحالة ، ففيها يخف ضغط عناء الطريق، و ألم فراق الأهل ، و ضغط الماضي ، و تتحرك المشاعر و تتجه الأحاسيس نحو المستقبل المنتظر الذي من أجله كانت الرحلة. و الملاحظ أن الرحالة في هذه المرحلة لم يهتم كعادته بتحديد الفترات الزمنية ، و لم يؤرخ لها تأريخا دقيقا ، بل ركز فيها على المناسك و ما صاحبها من أحداث متنوعة ، وقفنا عليها من خلال مجموعة صفحات امتدت من الصفحة 443 إلى الصفحة 639 . و لن نكون مغالين في الحكم إذا اعتبرنا أن زمن الأداء رغم تحديده و محدوديته يعتبر من أقدس الأزمنة في الرحلة الحجية ، فهو لحظة فارقة في حياة الرحالة و يمثل بالنسبة إليه نقطة انتقال من حال إلى حال ، باعتباره <<لحظة كفارة عن زلات الماضي، و بداية زمن جديد << [2] تتعاظم فيه رسالة الرحالة الحاج الذي نجده يتفاعل مع هذا الزمن ، بصورة تفوق بكثير تفاعله مع الزمن الذي قبله أعني زمن التوجه .

و إذا كان الرحالة في زمن التوجه قد عانى من المتاعب و المشاق، و وأخطار الطريق و آلام الفراق، فإنه بمجرد دخوله زمن الأداء ، الذي عادة ما يرتبط بالدخول إلى مكة ، سيطرت عليه فرحة الحلول بالمكان المقدس، و نشوة الاقتراب من تحقيق الهدف، و بدا عليه الإحساس بالطمأنينة و الراحة النفسية ، و هو ما عبر عنه الرحالة و هو مع رفقته على مشارف مكة المكرمة ، حيث الجميع << في فرح و سرور ،و نشاط كبير، فرحا بقرب الوصول و الوصال ، إلى الأماكن الشريفة و حضرة الاتصال << [3].

---

(1)– عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية،مرجع سابق، ص: 210.

(2)–أحمد بوغلا، المرجع السابق، ص:147.

(3)– الورثيلاني ،المصدر السابق ،ص:443.

يمكننا أن نحدد بداية هذا الزمن بلحظة الإحرام ، الذي كما هو معلوم ، يرتبط بمكان محدد و زمن معلوم ، إذ المعروف شرعا أن << يبتدئ وقت الإحرام للحج من أول فجر يوم عيد الفطر أول شوال، و يمتد لفجر يوم النحر 10 ذي الحجة بإخراجه الغاية. فمن أحرم قبل فجره بلحظة و هو بعرفة فقد أدرك الحج >> [1]. و أما << مكانـــه فيختلــف باختـــلاف القادمين للحج ،فمكة نفسها لمن هو بها، و مثله من منزله في الحرم و خارجها ... و ذو الحليفة للمدني، و من وراءه لمن يأتي على طريق المدينة....و الجحفة للمصري، و للشامي و أهل المغرب و السودان و الروم ... >> [2].

في هذا الزمن – زمن الأداء – و بداية من لحظة الإحرام التي تفصل بين حياتين ، تسمو الروح و تتطهر النفس و تخشع القلوب و يتساوي الناس نطقا و لباسا . و قد عبر عن ذلك الورثيلاني قائلا : << حتى قرب وقت العصر ، فآن إحرام الكل فشمرنا عن ساعد الجد ، ليتأهب جميعنا لما فيه الكمال بالكد ، و رمينا ما كنا يصدده من مجاورة الضد ، و نبذنا ما كنا عليه من مجاوزة الحـــد ، بل طوينا مســـافة الإعراض و متابعة الدنيا و ما فيها من الأغراض و سعينا لما فيه رضاه ، و فعلنا ما أمرنا به و ارتضاه ، و أزلنا ثياب الحياة و لبسنا ثياب المماة ...فوجهنا النفوس لعلام الغيوب ،و ما مسنا في ذلك من لغوب ، و لبسنا الأزرار و الردا ، و تركنا ما طغى منا و اعتدى >> [3].

و رغم أن هـذا الــزمن زمن مقــدس ، إلا أن الرحــالة لم يهتم بالتــــــأريخ له باليوم ، فلم يخبرنا عن يوم الإحرام و تاريخه ، و اكتفى بالإشارة إلى أن إحرامهم كان عندما اقترب وقت العصر ، و اشتد الحر، ما يعني أن الفصل كان صيفا فـــ<< الحر في ذلك النهار قوي عظيم كأن النار اضطرمت في الأرض و اشتعلت فيها ، بحيث لا يستطيع أحد أن يصل إلى الماء و إلى السوق >> [4].

في هذه الأيام المعدودات ، لا يعيش الرحالة خارج الوجود و لا على أطراف المجتمع ، بل على العكس نجده يتفاعل مع ما يحيط به فيقبل و يرفض ، يشيد و يندد ، يسرد ما حدث و يصف

---

(1)- أحمد صالحي ، مناسك الحج و العمرة على مذهب السادة المالكية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، ط 2، 1986، ص:43.

(2)- نفسه ،ص: 45.

(3)- الورثيلاني، المصدر السابق ، ص:443.

(4)- نفسه، ص:449.

ما رأى ،و في كـل ذلك يكـون الرحـالة في حـالة نفسية مناسبة لـوضعيته داخل هذا الزمن و متفاعلة معه ، خاصة عندما يتعلق الأمر بالوصف باعتبار<< أن الوصف محكوم بعلاقة نفسية و زمانية بالدرجة الأولى مع الموصوف >>[1].

و يمكن أن نلاحظ ذلك من خلال الروح الإيمانية ، و القلب المطمئن الخاشع ، المتجلية في تعابير الرحـالة و هـو يصـف الحال قائـلا : << مـن وصـل هناك شـم رائحة الجوار و استراح من التعب ، بل الإنسان يغيب عن حسه إذا وصل إلى ذلك الموضع ، و يتقوى عليه شذاء تلك الأمـاكن العاليـة و المواضع الطيبة ، فلا تجد أحدا إلا انبسط وجهه ،و انشرح صدره ،و تمكن قلبه ، و اطمأن بالله صدره ، و طابت بذلك نفسه >>[2].

و هذا يعني أن للزمن (زمن الحج) كما للمكان (مكة المشرفة) أثرهما في الرحالة ، و يبدو أن قدسية الزمـن و شـرف المكـان لم يمنعـا بعض الصـور السلبية للآخـر المحـلي ، الذي يرى في الوافـدين فرصة لكسب المـال حتى لو تعلق الأمـر بالنصيحة أو التوجيه الديني ، و قد المح الرحالة لذلك عندما تحدث عن مساعدته و تعليمه للناس كيفية الطواف ، و حين رأى أهـل مكـة منه ذلك << تغيروا و قالوا ألم تعلـم أن أهل مكة لا ينتظرون إلا هذا الموسم .. فقالوا طف لنفسك و اترك الناس >>[3].

و هكذا كل ما تقدم الزمن ارتفع معه الخشوع وزاد فيه الاقتراب من أعظم لحظة من لحظات رحلة الحج ، تلك التي حدد الشرع بدقة وقتها و مكانها ، و التي لا يتم الحج إلا بها ، إنها زمن الوقوف بعرفة و التي أسهب الرحالة في ذكر أحداثها ، و وصف أحوال الناس فيها خانعين خاضعين ،خاشعين مبتهلين ، متضرعين داعين الله لأنفسهم و أهاليهم و عامة المسلمين . << و لما صلينا الظهر و العصر في المسجد المشهور و هو مسجد نمرة ، توجهنا إلى محل الوقوف و المشاهدة، و مكان التضرع و المساعدة، زاد الاشتياق للجليل ، و التعلق بكل حبيب و خليل ...دخلنا محل الوقوف بالذل و المهابة ، و الروع و الخوف والإنابة ، و الدعاء و التضرع و الاضطرار لتقع الإجابة ، فوقفنا راكبـين لسنـة

---

(1)- أحمد بوغلا، المرجع السابق، ص:147.

(2)- الورثيلاني، المصدر السابق ،ص: 446.

(3)- نفسه ، ص: 454.

نبينا صلى الله عليه و سلم ...و ألزمنا الدعاء لأنفسنا سرا و جهرا عموما و خصوصا... << (1). و قد سعى الرحالة إلى أن يلقى خطيب عرفة و قد تشرف بذلك و سعد فقال : >> فوجدت قلبي حين رأيته ، بل أخذ مجامع قلبي و أن الله أسعدني برؤيته فلما قضيت مآربي منه رجعت إلى موضعي و اشتغلت بالدعاء إلى أن تحقق الغروب لأخذ جزء من الليل .. << (2).

مثلما نلاحــظ من خــلال ما سبق عرضه من مقاطع ، فقد فرض زمن الحج نفسه على الرحالة في بناء رحلته و ترتيب أحداثه في هذه المرحــــــلة ، و حتم عليه أن يبقى محافظا على سيرورته و ترتيبه الطولي مثلما هو حاله في الواقع ، مخضعا إياه لترتيب المناسك ، بداية من الإحــــرام و انتهاء بطواف الوداع و الزيارات ، كما فرض عليه توظيف الأوقات الشرعية ، فظهرت الإشارات الزمنية عنده بصــــورة مكثفة لكنها في أغلب الأحيان مرتبطة بالنفحات الدينية ؛ إذ طغى عليها التعبير بأوقــات الصــلاة و طلــوع الفجــر و غروب الشمس ، خاصة عنــدما كان الأمر يتعلـــق بالشعائر، نظرا لعظمتها و أهمية الوقت فيها ، و حرص الحجاج على أن يأتوا بها بالصورة السنية كما ثبتت عنه صـــــلى الله عليه و سلم ، رغبة في الذنب المغفور والحج المبرور الذي لا جزاء له إلا الجنة ، و يمكــن الوقـوف على ظاهـرة توظيــف أوقـات الصلاة و ما يرتبط بها للدلالة على الزمن من خلال هذه المقتطفات من الرحلة في ما سميناه زمن الأداء :

- فبعد ذلك اليوم عند صلاة العصر ارتحلنا إلى منى ...
- بعض الأركاب من المصري و الشامي و المغربي لم يرحل إلى نصف الليل أو الثلث الأول
- فترك الكل الفضيلة و هو النزول هناك إلى شروق الشمس...
- فلما خرجنا من مزدلفة و وصلنا بينها و بين عرفة طلع الفجر...
- فوصلنا ضحى إلى مسجد نمرة .
- فخرجنا لمنى إذ السنة الخروج وقتئذ بقدر ما يدرك به الظهر كل على قدر حاله فإن المراد بقولهم يدركون بمنى الظهر أي يدركون أواخر الوقت المختار..

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ، ،ص:471.

(2)- نفسه، ص:483.

– سرنا بالليل إلى طلوع الفجر فقربنا المدينة المشرفة ثم كذلك إلى الإشراق بل إلى الضحى دخلنا المدينة.

و الحقيقة أن هذا لا يعني أبدا سقوط تقنيات السرد الأخرى ، كالاسترجاع و الاستباق و الوقفة و المشهد..التي بقيت حاضرة و هي ذاتها خاضعة لما يفرضه الزمن الآني ، فالرحالة عندما كان يتحدث عن وقت الإحرام و مكانه أوقف سرد الأحداث المتعلقة به ، و استعان بما قاله أولئك الذين سبق و اطلع على رحلاتهم من السابقين عليه ،كالعياشي و الدرعي.

– زمـــــــــن العــــــــــــودة :

زمن العودة هو دون شك جزء من زمن الوجود ، و نقطة من نقاطه لا يطول و لا يقصر و لا يتغير ، و لا يحمل سوى دلالة الاستمرار على مستوى الزمن الطبيعي ، وأما على مستوى الرحلة كسفر و انتقال داخل الفضاء الزماني و المكاني ، يصبح زمن العودة دليلا على الانتهاء من مهمة يفرض المنطق أن تكون لها بداية و نهاية ، و الذي يتحكم في طول هذا الزمن و قصره هو المسافة الطبيعية على المستوى المادي ، و أما على المستوى المعنوي فقد يطول و قد يقصر تبعا للحالة النفسية للرحالة و تقلباتها بسبب ما يطرأ من طوارئ أثناء المسير ، هكذا يصبح هذا الزمن زمنا نفسيا ذاتيا – على حد تعبير الدكتور عبد الملك مرتاض– لا يشارك صاحبه فيه أحد << فالمدة الزمنية من حيث هي كينونة زمنية موضوعية لا تساوي إلا نفسها ، و لكن الذات هي التي تحول العادي إلى غير عادي و القصير إلى طويل ؛ كما تعمد هذه الذات نفسها إلى تحويل الزمن الطويل إلى قصير في لحظات السعادة و فترات الانتصار >>[1].

يمتد زمن العودة في هذه الرحلة على مسافة هي بالتقريب نفس المسافة التي استغرقتها رحلة الذهاب ، مع تغير بسيط حدث داخل أرض الوطن << إذ توجه الركب بعد دخوله أرض الوطن من تونس نحو مدينة قسنطينة هذه المرة ، و منها إلى زمورة ثم بني حافظ ، و أخيرا مسقط رأس الكاتب الحسين الورثلاني >> [2].

و المؤسف حقا أننا ألفينا الورثيلاني في هذه المرحلة كسابقاتها ، لم يول كبير اهتمام بالتوثيق

---

(1)– عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ،مرجع سابق ، ص:205.

(2)– عبد الرحمن عزي، المرجع السابق،ص:35.

الزمني ، فلم نجد في الرحلة ما يدل دلالة صريحة على تاريخ انطلاق رحلة العودة ، إلا أنه يمكننا أن نعتبر انطلاقها مباشرة بعد إتمام المناسك ، حيث قال الرحالة : << بعد قضاء المناسك كلها ، و الإتيان بالعمرة على تفصيلها ، و الإحرام بها من مكان الإحرام ، فقد تم ذلك على الوجه الأكمل تقبل الله منا جميع ذلك و أننا مكثنا في مكة ما مكثنا أعني المدة المعلومة كما قيل :

أقمنا بها يوما و يوما و ثالثا و يوما له يوم الترحل خامس >>[1].

نقول هذا الكلام من منطلق أن الحاج في العادة إذا قضى مناسكه تحرك فيه الشوق إلى الأهل و البلد ، و بالتالي يبدأ التفكير في توديع المكان المقدس الذي ألفه ، و الحبيب الذي عشقه و قطع الفيافي ليقف على قبره و يسأله شفاعته ...و لا يختلف اثنان أن لحظة التوديع هذه لها وقعها على النفس ، و أثرها في القلب ، خاصة في هذا الموقف الذي تنقلب فيه الأمور عن لحظة التوديع في زمن التوجه ؛ إذ يصبح من كان يشتاق إليه يتألم من فراقه ، و من كان يتألم من فراقه يشتاق إليه ، تلك حالة عبر عنها الورثيلاني بقوله : << فلما لاح لنا لائح الافتراق ، و انقدح زناد الاشتياق ، تحركت الأحشاء ، و ذابت الأكباد و انهمرت العيون بالبكاء ، و أصابت النفس العبرة فكادت أن تزهق الروح من شدة ما أصابها من ألم الفراق ، من قوة ما وجد من عذاب البين و مفارقة الصديق الأمين صلى الله عليه و سلم ... و عظم علي ألم التوديع حتى علا صوتي و ارتفع و كاد أمري إلى العويل ، بل أنوح عليه نياح الثكلى العديمة لولدها ، كيف لا و هو أن فراقه أعظم المصائب و لم انفصل منه إلا بصبر عظيم و هول جسيم وحزن شديد ، فلم املك نفسي عند ذلك فعظمت المصيبة و عز الصبر ، غير أني تسليت بانتقاله من دار الدنيا و فراق أصحابه >>[2].

وقد بقي الورثلاني وفيا لنهجه في التعامل مع الزمن ، فعلى امتداد المسافة المقطوعة في رحلة العودة و ما استغرقته من وقت ، و رغم اختلاف الأماكن بين مكان عادي و آخر مقدس ، إلا أنه بقي يفضل الإشارات الزمنية المرتبطة بأوقات الصلاة و زمن الغروب و الشروق ، إلا أن هذا << التوثيق الزمني كان متقطعا و يرد في محطات و يغيب في أخرى >>[3].

---

(1)- ، الورثيلاني، المصدر السابق، ص:517.

(2)- نفسه، ص: 610.

(3)- عبد الرحمن عزي، المرجع السابق، ص:34.

و لقد غطت هذه المرحلة مراحل الزيارات في مكة و المدينة كمكانين مقدسين ، إضافة إلى باقي المسافة المقطوعة في طريق العودة . و هذه الرحلة أعني رحلة العودة يبدو أنها استغرقت سنة كاملة يوم وصول الركب إلى نقطة الانطلاق، و أما وصول الرحالة إلى داره و مقامه فكان يوم الخميس << ليلة الجمعة و ليلة العيد و يوم عرفة عام 1181 أحد و ثمانين و مئة و ألف << [1].مع العلم أن زمن العودة كان مباشرة بعد إنهاء مناسك الحج. و خلاصة القول فإن ذكر المعالم و الإشارات الزمنية الواضحة ، لا يتجاوز سبعة عشر موضعا كما أشار إلى ذلك الأستاذ إسماعيل زردومي[2] و جميعها مرتبطة بالدوائر و المراحل الكبرى للرحلة.

ب- التـــــــرتيــب الزمنـــــــي :

خ باعتبارها من الأعمال السردية فقد جاء الخط الزمني في الرحلة الورثيلانية خاضعا للتتابع كغيرها من السرود العربية الأخرى ؛ إذ المعلوم أن السرد في الرحلة عموما << قريب جدا من السرود التي ترعرع في حضنها و ارتـوى معهـا من نفس المعـين ، و خصوصا التاريـخ ، و أيام العرب و الوقائع ، ذلك أن الخلفية النظرية التي يكتب بها كل من المؤرخ و الراوي و الرحالة ، تعتمد إثبات يقين مرتبط بالأحداث و الآخر و الذات << [3] . و الورثيلاني في هذه الرحلة لم يخرج عن المألوف ، فقد سار على نفس النهج الذي اعتاد كتاب السرد السير عليه من حيث أنهم يعمدون إلى سرد الأحداث متتابعة .

لقد حاول الورثيلاني أن يقـدم أحداث رحلته مرتبة على نفس ترتيبها كما حدثت في الواقع مراعيا فيها الترتيب الزمني ، وهذا السلوك هو نفسه << السلـــوك السائد في الأعمال السردية ما كتب منها على القـــرطاس ، و مـــتا روي منها عبر أفواه الرواة << [4] .و يمكننا أن نقف على ذلك و نوضحه من خلال الجدول التالي :

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ، ص:812.

(2)- إسماعيل زردومي، المرجع السابق ،ص:367.

(3)- شعيب حليفي ، المرجع السابق،ص:213.

(4)- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية ، مرجع سابق،ص:220.

رحلة الذهـــــــــــــاب	رحلـــــــــــــــة العودة
- ذكر خروجنا من بسكرة - ذكر وصولنا إلى طرابلس - ذكر خروجنا من مصر - دخولنا مكة	- ذكر خروجنا من مكة - ذكر دخولنا مصر - ذكر خروجنا من طرابلس - ذكر وصولنا إلى تونس - ذكر دخولنا قسنطينة

و الحقيقة أن ظاهرة التتالي هذه ليست مقصورة فقط على المحطات المذكورة أعلاه ، بل تمتد حتى إلى الوحدات الأصغر منها ، ففي كثير من المواطن في الرحلة نجد عرضا لأحداث بتسلسل زمني و تتابع حدثي ، و هذا الأمر في كثير من الأحيان يفرضه تارة سلطان التاريخ الذي حافظ << في أغلب الأمم على هذه الخصية أي تتالي الأحداث >> [1]. و تارة أخرى تفرضه طبيعة الحدث و قدسيته مثلما هو مع المناسك فالشرع يفرض أن يكون التتابع كالتالي :



و من الإحرام إلى الوقوف بعرفة ، دام التعبير عن هذه الفترة من الصفحة 443الى الصفحة 472 . وهـذا يعنـي أن تتابع الأحـداث و تواليها لم يمنع الرحـالة من الإطناب بتوظيف تقنيات سيأتي الحديث عنها لاحقا . إلا أن كلامنا هذا لا يجب أن يحجب عنا توظيف الرحالة لعبارة تكاد تكون لازمة لكثرة تكرارها في تتالي سرد الأحداث و المتمثلة في قوله : " انعطاف إلى ما كنا بصدده " . و الحقيقة أن توظيف هذه العبارة أثر في سلاسة السرد و انتظامه ، فبدا مرتبكا مضطربا إلى الحد الذي

---

(1)- حسين خمري، المرجع السابق، ص:91

يجعل تتبع الأحداث صعبا ، خاصة مع كثرة الإطناب و التوسع المبالغ فيه خاصة حين يتعلق الأمر بالحديث عن الشخصيات ذات المكانة المرموقة من العلماء و الأدباء و الفقهاء و الأئمة و شيوخ المتصوفة

و مثلما حرص القدماء ممن تصدوا للكتابة السردية على تقديم صورة للبيئة و الشخصيات في بداية ما يكتبون ، فقد وجدنا الورثيلاني مثلهم في ذلك ، فالقارئ لما جاء في بداية الرحلة يتعرف على بيئة الرحالة التي عاش فيها و انطلق منها ، و التي حرص أن يبرزها بحديثه عن بلده و أهل بلده ، من خلال الزيارات التي قام بها قبل الانطلاق الفعلي في رحلة الحج ، و هي بيئة أكثر ما يبرز فيها هو الجانب الديني ، و كثرة الشخصيات المنتمية إليه ، سواء تلك التي ستبقى في الديار أو تلك التي سترافقه الرحلة وقد كان تركيزه بصفة خاصة على الشخصيات المرجعية منها .

و لما كانت أهم ميزة تميز الرحلة هي تعدد مواضيعها ، و تنوع أخبارها ، و تحكم بنية السفر فيها من خلال كثرة الانتقال و الحل و الترحال ، إضافة إلى تنوع الأهداف و الأساليب حتى أصبحت بحق تعد << نصا متعدد الأنظمة ، لغة ، و لهجة ، و أصواتا ، و محكيات متعددة المصادر و الرواة ، و هـذا التعدد تحكمـه بنية السفر المتحكمة في باقي البنى ، و التي أفرزت خصائص عديدة ساهمت في تشكيل بناء النص >>[1] . فمن الطبيعـي إذا أن يخضـع السـرد في الرحـلة إلى تلك التقنيات التي أصبحت اليوم من أساسيات الدراسـات النقديـة و التحليلية للأعمـال الأدبية خاصة السردية منها .

نقول هذا الكـلام مع ضرورة الإشارة إلى أن التنافر الحاصل بين ترتيب الأحداث في الواقع و ترتيبها في النص و إن كان أكثر بروزا في النصوص السردية القصصية الحديثة ، إلا أنه في واقع الأمر << لا يغيب كذلك حتى في النصوص القصصية القديمة كتابية كانت أم شفاهية و يعني هذا أنه خاصية أساسية للواقع القصصـي >>[2]. و ما الرحـلة في حقيقة أمرها إلا قصة رحـلة قام بها رحالة من مكان إلى آخر في زمن ما ، و لعل هذا يجعل تناولنا التقنيات السردية بالدراسة في الرحلة أمرا مشروعا ،و عليه سنحاول فيما يلي أن نقف على بعض هذه التقنيات في الرحلة الورثيلانية .

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص: 114.

(2)- سمير المرزوقي و جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة ، الدار التونسية للنشر ،دط ، دت، ص: 80 .

– الاسترجـــــــــــاع :

هو العودة إلى الوراء لإدراج أحداث سابقة على النقطة التي وصل إليها السرد ، و يسمى أيضا اللاحقة و << اللاحقة عملية سردية تتمثل في إيراد حدث سابق للنقطة الزمنية التي بلغـــها السرد >> [1]. بينما يسميــه الدكتور عبـد الملك مرتاض " الارتداد " لاعتبارات لغوية ، انطلاقا مما جاء في خطبة للإمام علي كرم الله وجهه " ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع و الاسترحام " ما يحيل – كما يرى إلى – قوله تعالى : " إنا لله و إنا إليه راجعون " ثم ان الاسترجاع في لغة الصناعة يعني إعادة تصنيع المادة المتلفة [2].

و ينقسم الاسترجاع إلى : << استرجاع خارجي ؛ و فيه يظل الحدث الذي يتم استرجاعه خارج الإطار الزمني للمحكي الأساسي. و استرجاع مزجي ؛ و فيه يلتقي الاسترجاع بلحظة بداية الحدث الأساسي >>[3]. و نظرا لبساطة مصطلح الاسترجاع و كثرة شيوعه بين النقاد و الدارسين فإننا سنعتمده في هذه الدراسة .

إن تقنيـة الاسترجــاع تعتبـر من التقنيــات الأكثـر توظيفــا في الكتـــابات الســـــردية قد يقصـــدها الكاتب فيتعامل معـها بوعــي و قصــدية ، و قــد تأتي عنـده عفـوية دون قصـد و إنما تفرضها عليــه طبيعة الكتــابة السردية – خاصـــة التـــاريخية – التي تحتـــاج في الغالـــب إلى الاستدراك و التذكـــر ، نظرا لتعـــدد الأحـــداث و تنوع القضايا و التواريخ فيها ، و هذا ما يكون خاصـة مع السرود التاريخيـة التقليديـة منها ، كالرواية التاريخية التي يرحل فيها الكاتب في الماضي ليبعث فيه الحياة ، و يجعله حاضرا في لحظته التي يعيشها رغبة في الاستفادة من أحداثه و الاقتداء بشخصياته .

و تقنية الاسترجاع سواء جاءت مقصودة أو مفروضة ، فالأكيد أن لها وظائف متعددة في العملية السردية ، فقد تعتمد ا للتذكير بأحداث و وقائـــع سبق إيرادها ، أو إعــطاء معلومات إضافية يرى السارد ضرورة إضافتها ، و تعتمد أيضا لغرض المقارنة بين وضعيتين .

---

(1)– سمير المرزوقي و جميل شاكر ، المرجع السابق ، ص:80.

(2)– ينظر عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية مرجع سابق ، الهامش ص:318.

(3)– أيمن بكر، السرد في مقامات الهمذاني ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط، 1998، ص: 96.

و الرحــلات كما هــو معلوم و أشــرنا إليه غـير مــرة ، تعتـبر أكثر الفنون ارتباطا بالواقع. و كثيرا ما يفـرض عليها سلطـان التاريخ منطقه ، فتـأتي الأحــداث و الأخبـار فيها خاضــعة لهذا الواقع ، مرتبطــة بما تفرضــه بنية السفـر وما يتبعهـا من ترتيب باعتبارها البنية الأكثر هيمنة على الرحلة ، وهذا لا يعني أبدا عدم تدخــل الرحالة و بسط سلطته و إثبات حضوره ، ليمارس لعبة الزمن من خلال التقديم و التأخير و التثبيت و الإلغاء التسريع و الإبطاء ، محاولة منه لكسب القارئ أو المتلقي عموما بالتخلص من خطية الزمن ، و رتابة الحدث ، ما يجعل الرحلة تحتوي بعضا من النصوص التي يمكن اعتبارها نماذج لما يمكن تسميته السردية المصطنعة [1] .

لقد وظف الورثيلاني في هذه الرحلة تقنية الاسترجاع توظيفا مكثفا من خلال إدراجه الكثير من الأحداث السابقة على النقطة الآنية للسرد ، منتهجا النهج الذي عادة ما ينتهجه المؤرخ ، و المعلوم أن << المـؤرخ أو الــدارس للأحــداث التاريخيـــة إنمــا يقــوم باسترداد الأحداث في الزمن الماضي للحاضر >> [2].

من نماذج هذه التقنية في الرحلة الورثيلانية ما يمكن الوقوف عليه من خلال ما جاء في السرد الذي يغطي الوحدة الممتدة من لحظة التوديع إلى دخول بسكرة ، و التي تمتد من الصفحة 107 إلى الصفحة 123.في هذه الوحدة توالت الأحداث كالتالي:

1 الخروج يم الخميس لما فيه من التيمن و البركة .
2 المبيت في بني حافظ مع الإشارة إلى كرم الضيافة
3 الرحيل منها لما أصبح الصبح
4 الوصول إلى بني يعلى عند الضحى و المبيت عند زوج صهرته سيدي بركات
5 التوجه إلى زمورة و المبيت بها ثلاث ليال
6 الخروج منها يوم الأحد

هنا يتوقف سرد الأحداث ليفسح المجال إلى الحديث عما هو سابق على لحظة السرد ، على سبيل

---

(1)- ينظر أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية تر: انطوان أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، ط 1، 1996، ص: 88.

(2)- حميدة عمراوي ، في منهجية البحث العلمي، دار البعث قسنطينة الجزائر ط 1، 1985، ص:19.

الاسترجاع الذي يمثله قول الرحالة << و فيها قائـد لأهلها سائد بهم يظلم و كيدهم في نحــورهم دائم يسعون يبعضهم بعضا قد أهلكوا و لم يكن من الله الرضى و بسبب ذلك اضطرمت نار الفتنة و حقت عليهم كلمة اللعنة ...بأنفسهم عذبوا و برأيهم أصيبوا ... و زمورة علمها قليل و جهلها جليل وكثيرة اللهو و اللعب >>[1].

إن ما أعطاه السارد من معلومات في هذا المقطع ، يصور حال زمورة قبل اللحظة التي وصلها السرد ؛ إذ الأكيد أن عدم الرضي من الله و الفتنة و الجهل...حاصلة من قبل ، و عليه فإن هذا المقطع يمثل استرجاعا و عودة إلى حدث سابق ، و لما كانت تلك الحال مستمرة إلى اليوم الذي حل فيه الرحالة بها ، فان هذا الاسترجاع يصبح من قبيل الاسترجاع المزجي باعتباره يلامس لحظة السرد ، و الأكيد أن توظيف مثل هذه التقنية لا يأتي اعتباطا ، بل لا بد أن يكون له هدف ما ، و لعل السارد أراد من وراء ذلك أن يقدم صورة واقعية للمنطقة في فترة من فترات التاريخ يستفيد منها المـؤرخ فيعتبر بذلك الرحالة شاهدا على عصره، و هـو ما صرح به الرحالة في مقدم رحلته ، و لا يمكن هنا إلغاء الجانب الإصلاحي فالتنبيه أو الإشارة إلى الخطأ و العيب يعتبر أول الخطوات لإصلاحه .

7 المشي من زمورة صبيحة يوم الأحد .

8 الوصول إلى أولا يحي عند المغرب .

9 الظعن صبيحة يوم الثلاثاء .

10 الوصول إلى قصر الطير عند الظهر .

11 الظعن إلى أولاد موسى بن يحي.

هنا يتوقف السرد مرة أخرى، ليعود الرحالة السارد إلى الوراء و يتحدث عن ماضي هؤلاء الذين << كانوا محاربين لا يمر أحد على طريقهم،و هم على ذلك إلى أن سلط الله عليهم الشر حتى عاشرتهم مع حسن ظنهم فينا، فأمرتهم بترك ذلك ليكثر عندهم الخير فامتثلوا، فأفاض الله عليهم بكثرة الأموال >> [2]. يمثل هذا المقطع استرجاعا مزجيا آخر جاء بنفس صورة الاسترجاع السـابق عنه، و لو أننا نلمس من خلالــه الطبيعة البشرية للرحالــة من خـــلال محاولته إبراز الأنا

---

(1)- الورثيلاني ،المصدر السابق ، ص: 108.

(2)- نفسه ، ص: 112.

و تمجيد الذات يتجلى ذلك من حرصه على إبراز صنيعه مع هؤلاء ، و كيف كان سببا في أن تركوا الغي و عادوا إلى طريق الرشاد .

12 التوجه إلى أولاد ناصر و الوصول إليهم قرب العصر ..الإقامة عندهم يومين .....

و مباشرة بعد ذلك يتوقف السرد ليضعنا الرحالة أمام استرجاع آخر، حيث يعود السارد إلى التاريخ القديم المتعلق بالأصول و الأنساب ، و يتحدث عن أصل أولاد ناصر و نسبهم قائلا : << و أولاد ناصر طائفة من العرب و قد رأيت في بعض الطرر أنهم من ربيعة و كدا أولاد رحمة و أولاد مخلوف...و بلد هؤلاء الصحراء >> [1]. و قد يكون الغرض من هذا الاسترجاع هو تصحيح خطأ ، و تأكيد نسب ، خاصة عندما نعرف أن المنطقة يسكنها البربر و يشاركهم فيها العرب الذين جاء آباؤهم إلى المنطقة أيام الفتح الإسلامي لبلاد المغرب العربي .

13 النزول قرب بريكة و التوجه نحو قرية مدوكال

14 التوجه إلى بسكرة و حديثه عن الزاب

و هنا نقف عند استرجاع من نوع خاص ؛ إذ الأمر لا يتعلق بالسارد ، و إنما باستعانته بما قال غيره ، و هذا الاسترجاع يتعلق باسترجاع مقروءات عادة ما يستدعيها و يفرضها السياق ، إلا أنه يبقى في نفس الموضوع ، متماشيا مع نفس الحدث ، و الملاحظ هنا أن الرحالة وظف الإشارة التاريخية بذكر تواريخ سابقة على تاريخ الرحلة التي كانت في العام 1179هـ ، ما يجعل هذا الاسترجاع استرجاعا خارجيا ، و قد وظفه السارد الرحالة من منطلق الموضوعية و التأكيد على صحة الخبر و واقعيته ، و بالتالي مصداقية خطاب الرحلة ذاتها ، و قد تجلى ذلك في قوله :<< قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه ...و زرنا مسجدا و طلعنا إلى مئذنته و هي في غاية الإتقان و الطول و السعة ، تقدر الدابة على الصعود إليها بحملها . و إدراجها مائة و أربع و عشرون درجة ، و المسجد في غاية السعة و إتقان البناء ، إلا أنه قل عامروه و ضعف ساكنوه ، فلا ترى فيهم مدرسا و لا فقيها و لا قارئا ... كما قال الإمام العياشي في رحلته ...إلا أنها ابتليت بتحالف الترك عليها و عساكر العرب ، فيستولي عليها هؤلاء تارة و هؤلاء تارة ...قال و لقد لقيت بها سنة تسع و خمسين (المقصود 1159هـ) رجلا من الصالحين ممن جمع بين العلم و العمل...قال و لما رجعت من الحجاز في

---

(1)- ، الورثيلاني، المصدر السابق، ص: 112.

سنة الستين وجدته قد توفي بالوباء الواقع في تلك السنة ، و كان وباء مفرطا مات به على ما قيل لنا نحو سبعين ألف نفس.. و قد دخلنا المدينة فوجدنا أكثر حوماتها خالية ، و مساجدها داثرة ، و لقيت بهذه المدينة سيدي محمد الصالح ، و هو رجل من أهل الخير منفرد (هكذا) في مسجد له بإزاء داره يلازم فيه الصلوات الخمس ، و يجتمع إليه أناس من أصحابه يذكرهم و يعلمهم ...و ذكر الأخ سيدي محمد بن عبد الواحد الرماني أن هذا السيد كان رجلا صالحا و كان أمير الركب في زمانه و سيدي عبد الواحد والد سيدي محمد المحدث عن صلاح هذا السيد كان من أصحاب والدنا رحم الله جميعهم و كان في حجتنا الأولى التي حججناها مع الوالد رحم الله جميعهم سنة (1076) ستة وسبعين و ألف في قيد الحياة .. << (1).

و الملاحظة الأكثر بروزا هنا ، هي الطول المبالغ فيه لهذا الاسترجاع الذي امتد على مدى أربع صفحات تقريبا ، و مباشرة بعد ذلك استأنف السرد من حيث انتهى بقوله: >>و لما دخلت مسجدها لم أجد قارئا و لا مدرسا سوى رجل واحد متى يقرأ لوحه و هو ملقي أمامه يقرأه على غير أدب و لا استقامة << (2) و هذا يؤكد ما ألمحنا إليه سابقا من أن الرجل أراد بالاسترجاع أن يستدل على بعض ما صدر منه ، ليطمئن القارئ أن الظاهرة التي وقف عليها و تحدث عنها ، لاحظها شيوخ مروا قبله على هذه المنطقة . و مثل هذا النموذج من الاسترجاع كثير في الرحلة ، إن لم نقل انه يغطي معظم أجزائها ، و مرد ذلك كما يبدو لنا هو الارتكاز الكبير للرحالة على رحلات السابقين عليه ، و توظيفه الحرفي لكثير مما جاء فيها ، خاصة رحلتي الشيخين محمد بن ناصر الدرعي و أبي سالم العياشي .

و مثلما جاء الاسترجاع في الرحلة طويلا ، وجدناه في بعض الحالات قصيرا ، مثلما نجده في رحلة العودة ، حين قرر الرحالة الإقامة و رفض العودة ، وهو ما رفضه المرافقون بقوة حيث قال : >> فلما رأيت شدة اتصالهم بنا ، و كثرة عويلهم علينا ، و قالوا إن خصه ما يوصله جمعنا له ما يبلغه إلى وطنه ، بل ما يغنيه علما منهم بأن الذي حملني قلة الزاد لا سيما أن الشيالة أعني أصحاب الإبل هربوا لي <<(3) فالاسترجاع هنا نجده في جملة واحدة " أن الشيالة هربوا لي "باعتبار أن ما أقدم عليه

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ، ص:120/117.

(2)- نفسه، ص: 121.

(3)- نفسه، ص:611.

هؤلاء كان دون شك قبل لحظة السرد ، و قبل أخذ القرار بالإقامة و عدم الرجوع ، و يبدو أن هذه الحادثة أرقت الورثيلاني و أثرت فيه ، لذلك وظفها مرة أخرى في طريق رحلة العودة قال : >> ثم ارتحل المصري و ارتحلنا بعده بعد الظهر و ما ذكرناه من النزول وراء الركب بل نزلنا تحت القرية في القيلولة ثم أن الشيال الذي اكترينا عليه من مكة الذي هرب لنا ببعض الجمال << (1) .

و الطريف عند الورثيلاني و الذي يعتبر أقرب إلى الفنية – قصد ذلك أو لم يقصد – هو توظيفه لرؤيا الغير كاسترجاع على لسان أمير زواوة الذي مرض مرضا شديدا و لما وجده الورثيلاني سأله عن مرضه فقال له : >> أحكي لك رؤيا أني رأيتها ، فقلت له و ما هي فقال أني رأيته صلى الله عليه و سلم و كنت أسأله الشفاعة أو كلاما هذا معناه و أعيد له ذلك المرة بعد المرة حتى قال لي شفعت فيك أو انك مغفور لك أو لا تخف مما هو حاصل << (2). فالذي لا شك فيه أن هذه الرؤيا كانت قبل نقطة السرد التي وصلتها الأحداث ، و قد جاءت استذكارا نتيجة لوضع محدد ، و هذا يعني أن ظروف السرد في كثير من الأحيان تفرض توظيف الاسترجاع ، تبريرا لمواقف أو تأكيدا لأحكام . و الرؤيا هنا رغم ما تجلى فيها من اضطراب في الحكي ، إلا أنها عرفتنا بحال شخصية من الشخصيات الكثيرة المتواجدة على مسرح أحداث الرحلة ، و التي عادة ما تكون على توافق مع الرحالة ، دينيا و خلقيا ، كما أنها أبرزت لنا دلالة الاعتقاد بأن ما جاء فيها صدق و يتحقق لا محالة — عند المسلمين طبعا – فمحمد صلى الله عليه و سلم قال : >> من رآني في المنام فسيراني في اليقظة أو كأنما رآني في اليقظة لا يتمثل الشيطان بي << (3) متفق عليه. و ورود مثل هذه الاسترجاعات المصبوغة بالصبغة الدينية ، يعتبر أمرا طبيعيا في هذه الرحلة، فإستراتيجية الرحالة التي فرضتها طبيعة الرحلة ، إضافة إلى التكوين الثقافي و الديني للرحالة ، و كذا طبيعة الحياة في عصره ،جميعها تدفع إلى أن تكون الرحلة في جميع مكوناتها ذات طابع ديني إن ما قدمناه من نماذج لتقنية الاسترجاع لا يعني أنه لا وجود لغيرها ، فالرحلة مثقلة بالعديد من مظاهره ، إلا أننا وقفنا على ما بدا لنا أن له أهميته تماشيا مع الاتجاه العام لإستراتيجية الكاتب في تدوين رحلته و هدفه الأساسي منها .

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ، ص: 615.

(2)- نفسه، ص: 518.125 .

(3)- يحي بن شرف النووي، المرجع السابق، ص:282.

- **الاستـــــــــــباق :**

هو ذكر حادثة أو التلميح إليها ، في حين يتأخر وقوعها إلى ما بعد النقطة التي وصل اليها السرد . بمعنى أن يورد الكاتب ما يمكن أن يوحي بما سيحدث لاحقا ، و هذه التقنية تجعل القارئ أو المتلقي في موقف المتابع المنتظر لما سيقع و كيفية وقــوعــه . و السابقة كما يعرفها أهل الاختصاص هي << عملية سردية تتمثل في إيراد حدث آت ، أو الإشارة إليه مسبقا ، و هذه العملية تسمى في النقد التقليدي بسبق الأحداث >> (1).

و الاستباق آلية من آليات السرد ، تدفع الكاتب إلى قلب نظام الأحداث عن طريق تقديم ما حقه التأخير ، و هذا يعني أن الاستباق يتجاوز النقطة التي وصلها السرد بمسافة قد تطول و قد تقصر ، و الظاهر إن الاستباق لم يجد مكانة بارزة له في السرديات التقليدية الواقعية القديمة .

و الاستباق مثله مثل الاسترجاع نوعان :

- استباق داخلي، و هو استشراف للمستقبل أو تنبؤ به ، لا يتعدى مداه المدى الذي يصله السرد في النهاية.

- استباق خارجي، و هو عكس سابقه، يخرج مداه عن المدى الذي يصله السرد و للسوابق وظائف متعددة، فقد تتخذ كإشارات و تمهيد لأحداث ما زالت في الغيب و ينتظر وقــوعها لاحقا أو التكهن بمستقبل شخصية من شخصيات العمل السردي ، كما أنها تلعب دور الإنباء و تساعد على خلق حالة من المعاناة الفكرية عند المتلقي ، الذي يصبح في حالة استنفار انتظارا لما سيحدث (2).

و مثلما تجلت في الرحلة مظاهر الاسترجاع ، فقد تجلت فيها كذلك بعض مظاهر الاستباق التي ساعدت هي الأخرى على تنويع حركة السرد ، و إضفاء الدينامكية عليه ، إلا أن المطلع على الرحلة يلاحظ أن توظيف هذه التقنية لم يكن بنفس الكثافة التي وظفت بها تقنية الاسترجاع ، و مرد ذلك دون شك يعود إلى طبيعة الرحلة من حيث هي إلى الفنون السردية الواقعية أقرب من جهة ، و من جهة أخرى أنها خاضعة في الأســـاس إلى التتابع الزمني الذي يفرض تتابع الأحداث فيها و ترتيبها في الوقت الذي نجد فيه أن هذه << التقنية تتنافى مــــع فكـرة التشـــويق التي تكون العمـــود الفقري

---

(1)-سمير المرزوقي و جميل شاكر ، المرجع السابق، ص:80.

(2)- ينظر سمير المرزوقي و جميل شاكر، المرجع السابق، ص: 85/84.

للنصوص القصصية القديمة ، التي تسير قدما نحو الإجابة على السؤال " ثم ماذا ؟ " >> [1].

سبق و أن أشرنا من قبل إلى التوظيف المكثف لضمير المتكلم في الرحلة الورثيلانية ، الأمر الذي يسمح لها أن تكون مجالا رحبا يتسع لتوظيف تقنية الاستباق بصورة كبيرة ، نقول هذا الكلام من منطلق ما يقره كثير من النقاد و الدارسين على رأسهم سيزا القاسم التي ترى أن الشكل السردي الذي << يستطيع الراوي فيه أن يشير إلى أحداث لاحقة هو شكل الترجمة الذاتية أو القصص المكتوب بضمير المتكلم >> [2] . إلا أن الأمر جاء عكس ذلك في الرحلة الورثيلانية إذ قل فيها استعمال هذه التقنية إلى حد الندرة ، و ما جاء فيها من ذلك جاء فيما يبدو بطريقة عادية بسيطة ، و قد لا يكون الرحالة قصده أو وظفه كتقنية فنية .

و من نماذج تقنية الاستباق التي يمكن الوقوف عليها في الرحلة الورثيلانية ما جاء في الصفحات الأولى منها في المقدمة ، التي يلاحظ عليها أنها أخذت صورة الخطبة الدينية ؛ إذ سارت على نهجها في تقنية افتتاحها تماشيا مع طبيعة عصر الرحالة الذي – كما أشرنا غير مرة – سيطرت فيه الظاهرة الدينية ، بل إننا نلاحظ أن الاستباق ذاته قد تعلق بجانب ديني يناسب طبيعة الرحلة حيث قال الرحالة : << و قد حجوا حجا مبرورا ، و لقاهم أبضا نظرة و رحمة و عزا و رفعة و معرفة و زهدا و بصيرة و سرورا ، و جزاهم أيضا بما صبروا لتعب السفر و مشقته حرا و بـــردا و سقمـــا جنـة و حـــريرا ، فـــلا يـــرون في ظـــل العرش عذابا أصـــلا و لا شمـــسا أيضـــا و لا زمـــهريرا ، فما أحسنها من رحـــلة و ظعن من الخـــلق إلى الخـــالق و إن إلى ربك المنتهى >> [3].

إن الحديث عن المغفرة و الثواب والحج و السفر إليه قبل الانطلاق نحوه ، ما هو إلا إشارة سابقة إلى ما سيكون على سبيل الاستبـاق الذي جـــاء مناسبا و متمـــاشيا مع طبيعـــــة الرحلة الحجية ، نقول هذا الكلام طبعا على الرحلة المكتوبة و الحاضرة بين أيدينا كنص .

كما نقف في الرحلة على نموذج آخر للاستباق ، يتمثل في تلك الإشارة الصريحة منه أنه سيعتمد في رحلته على رحلات سابقيه و تآليف لبعض شيوخه << و إن اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا

---

(1)– سيزا القاسم، بناء الرواية ،مهرجان القراءة للجميع مكتبة الأسرة ،2004، ص:65.

(2)– نفسه، ص: 65.

(3)– الورثيلاني ، المصدر السابق ،ص:12.

و قدوتنا و من على الله ثم عليه اعتمادنا سيدي أحمد بن محمـــــد بن ناصر الدرعي هذا و إني انقل أيضا من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة و مختصر الجمان في أخبار أهل الزمان و كذا حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة و غيرها مما يناسب المحل >> (1) . واذا كان هذا يثبت الأمانة العلمية للرحالة ، فانه يعتبر كذلك استباقا لأن القارئ يصبح على قناعة أنه سيصادف الكثير من النصوص المروية و المنقولة حرفيا من هذه الكتب و الرحلات في متن الرحلة ، الأمر الذي يجعله ينتظر و يتساءل عن كيفية توظيف الرحالة لتقنتي الاقتباس و التضمين و طبيعة ما يمكن أن يستعين به من هذه المؤلفات .

و لما كان العصر عصر تصوف و كرامات ، اعتقد فيه الناس بالأولياء و الصالحين و قدسوا كراماتهم و كل ما يصدر منهم أمواتا و أحياء * ، فإنه من الطبيعي أن نقف على بعض الاستباقات التي تؤيد هذا التوجه ، و تناسب طبيعة العقول و تفكيرها في ذلك الوقت ، و لعل النموذج الأمثل لذلك ما تعلق بالولي الصالح ، و القطب الواضح ، سيدي عبد الحق من أهل توزر الذي بدا منه استشراف رباني نبه من خلاله إلى خطر محدق بالرحالة و رفقته قبل وقوعه ، و قد نقل الورثيلاني ذلك في رحلته حين قال : << و عند الافتراق أزال جبة صوف عن جسده فالبسها لي ، و علمت أن الله تفضل علي بذلك ، ثم انه عند الانفصال قال لي: أخاف عليكم من المحاربين بان قال : قد ثبت عندي بأنهم خارجون إليكم و لا أدري من طريق الكشف و هو الأنسب به و الأليق بمقامه أو سمع ذلك ممن يوثق بهم فلما أخبرني بهذا رسم جدولا في الأرض و خط خطا و أمر جميع الحجاج أن يمروا بذلك الخط فمر عليهم ...و في ذلك اليوم تلاقينا مع عدو نفسه المحارب لله و لرسوله... >> (2).

هذا التنبيه هو نقطة من نقاط السرد ، و كما نلاحظ فقد تضمن إشارة إلى حدث لم يقع بعد ، ما يعني أنه من قبيل الاستباق ، و قد أشار الرحالة فيما بعد إلى تحققه الفعلي تماشيا مع صدق و مصداقية الأولياء و كراماتهم كما يعتقد الكاتب و أهل العصر .

---

(1)- الورثيلاني ،المصدر السابق ، ص:13.

* جاء في الرحلة ان أحدهم سأل شيخه : اذا مت من أشور قال :أنا قبل و بعد فلما مات كان الأمر كذلك فصار يكلمه من قبره ....ينظر الرحلة ص:101.

(2)- الورثيلاني ، المصدر السابق،ص:154/153.

و كما نلاحظ فإن هذا الاستباق جاء بطريقة مباشرة ، لم يستطـع من خـــلاله السارد أن يخلق عنصر التشويق الذي يشد المتلقي مثلما نجده في السرود المعاصرة كالرواية مثلا ، و هذا يؤكد ما قلناه من قبل بأن الاستباقات في الرحلة جاءت بطريقة عفوية تماشيا مع الأحداث و ما يفرضه السرد و لم تأت كتقنية فنية مقصودة .

ج- الديمـــــومـــــــــــة :

لا اختلاف بين النقاد على أن كاتب السرد مهما كان نوعه و مهما كانت طبيعته، يعمد فيما يكتب إلى الإطالة تارة و الإيجاز تارة أخرى، تبعا لما يريد الوصول إليه و قيمته و دوره في مخططه السردي، لذلك يحس القارئ بالتسريع في بعض الأحداث، و بالتبطيئ في أحداث أخري، و هي الأمور التي يدرسها النقـاد ضمن دائرة ما يصطلح على تسميته بالديمومة، التي تتمثل <<في ضبط العلاقة التي تربط بين زمن الحكاية الذي يقاس بالثواني و الدقائق و الساعات و الأيام و الشهور و السنوات و طول النص القصصي الذي يقاس بالأسطر و الصفحات و الفقرات و الجمل.و تقود دراسة هذه العلاقة إلى استقصاء سرعة السرد و التغييرات التي تطرأ على نسقه من تعجيل أو تبطئة << [1].

و سعيا للوقـوف على بعض الجـوانب الفنية في الرحـــلة من منطلق أنها تمثل فنا كغيرها من الفنون السردية الأخرى ، سنحاول فيما يلي أن نقف على بعض مظاهر الديمومة في الرحــلة موضوع الدرس.

- الحـــــــــذف :

في كثير من الأحيان و من خلال إشارات آنية و سابقة ، ينتظر متابع السرد أن أحداثا ستقع لكنه لا يجد لها في النص أثرا ، ذلك هو ما يعرف عند النقاد بالحذف الذي << يتمثل في الأحداث التي يتصور وقوعها دون أن يتعرض النص لذكرها << [2]. ذلك أن الكـــاتب يسقطها لغايات محددة ، سواء طال زمنها و امتد لسنوات أو قصر و لم يتعد ساعات .

الحذف إذا تقنية من التقنيات السردية التي كثيرا ما يلتجئ إليها الكتاب ، سواء عندما يريدون تسريع الأحدث أو عندما يريدون إسقاط بعضها لعدم أهميتها ، فيقفزون عليها عمدا خدمة لإستراتجيتهم المحـددة لما يكتبـون مسبقا، و بعبارة أخرى يعتبر الحذف أو الإضمار هو<< الجـزء المسقط في النـــص

---

(1)- سمير المرزوقي و جميل شاكر، المرجع السابق،ص:89.

(2)- أيمن بكر ، المرجع السابق، ص:97.

من زمن الحكاية ، سواء نص الســـرد على هـــذا الإسقـــاط (كأن يقول :

" و مــــرت خمس سنوات " أم لا (كــما في الجــملة المألـــــوفة في القصــص الشعبية التونسية " مشى زمان و جا زمان ") >> [1].

و الحذف عند النقاد حذفان :

- حذف صريح مذكور؛ يذكر فيه حجــم المــتدة الزمنية المسقطة بتحديدها بالساعات أو بالأيام ، بالأسابيع أو بالأشهر و السنوات .
- حذف ضمني ؛ حيث تبقى مدة زمن الحذف مبهمة ، و في هذه الحالة على القارئ استنتاجها و تحديد مدتها من السياق.

لقـــد تجـلت تقنية الحـذف في كثير من محطات الرحلة الورثيلانية ، و قد جاءت بعبارة صريحة تكررت كثيرا و عل فقرات متتالية . و لما كان الأمر يطول و قد يؤثر على تناسق البحـث فإننا سنقـدم نموذجـا لها مقتطعين منه ما لا تأثير له في المعنى أو في إبراز تقنية الحذف.

جاء في الرحلة : << عند وقت العصر ذهبنا إلى الخيمة فرفعنا الأهل و الدبش على تلك الجمال ثم لحقنا الركب الفزاني ثم ذهبنا كذلك إلى أن صلينا المغرب و لم نزل كذلك في أثر الركب الفزاني حتى مضى وقت العشاء بمدة فوجدناه نازلا فنزلنا معه ثم صبيحة تلك الليلة ظعنا معه إلى أن بلغنا وقت الضحى الوادي الشريف .... فلما دفنوها ارتحلنا عند الضحى ثم سرنا كذلك إلى أن اشتد الحر فوصلنا عسفان فنزلنا فأردنا الذهاب إلى الركب في خلبص فتشاورنا مع السيد الشريف الطرابلسي فقال إلى أن يتم الفراغ من الغداء فلما فرغنا ارتحلنا .... إلى أن طلعنا الثنية التي بعد عسفان .... >>[2].

القارئ للرحلة يمكنه أن ينتبه إلى مواطن الحذف بكل سهولة في هذه الفقرة ، لأن كاتب الرحلة تعامل معها بطريقة بسيطة حددها من خلال جمل متكررة بنفس الصياغة تقريبا لكنه لم يحدد مدتها ، فقوله : لحقنا الركب ثم ذهبنا كذلك إلى أن صلينا المغرب و لم نزل كذلك ...حتى مضى وقت العشاء ...ثم صبيحة تلك الليلة ظعنا إلى أن بلغنا وقت الضحى ...ارتحلنا عند الضحى....إلى أن اشتد الحر. فما وقع من أحـــداث في الفترات الممتدة بين : من....إلى لا وجـــود له على مستوى

---

(1)- سمير المرزوقي و جميل شاكر، المرجع السابق،ص:93.

(2)- الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص:522.

الخطاب ، حيث أن جميع ما وقع فيها استغنى عنه الكاتب و أحجم عن ذكره لغاية ما ، إما لعدم أهميته ، أو لأنه لا يخدم هدفه ،أو أنه يستعجل الوصول لما يرى أن ذكره أهم .

و في بعض المواطن نجد الرحالة السارد يوظف تقنية الحذف توظيفا صريحا ، و ذلك بتحديد المدة المسقطة و ما جرى فيها من أحداث كقوله : << فوجدنا ركبنا نازلا بإزائها و فرحو بلحوقنا فرحا شديدا و قالوا ما نزلنا إلا منتظرين أمركم لا سيما من انفرد عن رفقته منقطعا عنهم و هم جماعة انقطعوا معنا يأكلون و يشربون رحلنا نحو الثلاثة أيام إلى أن بلغنا إلى الخليص فتلاحقت الناس و تم الأمر و اجتمعت الأحباب<< [1] و الشاهد في هذا المقطع " نحو الثلاثة أيام " التي سقطت أحداثها و لم يشر السارد إلى ما جرى فيها .

في حين نجد الكاتب في مواطن أخرى يوظف تقنية الحذف توظيفا مخادعا؛ إذ بعد أن يوهم القارئ بأنه استغنى عن أحداث معينة و أسقطها من الخطاب ، نلفه يعـود إليها ليذكرها و يؤكد على حدوثها .

فقوله : << ثم أن الركب صار مقيما ذلك اليـــوم إلى أن صلينا الظهر فظعنا بعد صلاة العصر << [2].لا يخفى على القارئ انه يعبر عن حذف ؛ إذ لا وجود لأي إشارة لما وقع مدة الإقـامة تلك الليلة و حتى صلاة الظهر بعـدها ، إلا أن الكاتب عاد ليذكر أحداثها حيث يقول :<< بعد السقي و الاستسقاء و دفنا من مات هناك و هو الحاج عبد الله بن الحاج الشيبـاني و قد جعلني وصيا على أولاده و لم يكن له ابن و إنما له بنات << [3].

و لعل العودة لذكر الحدث بعد الإيهام بحذفه ، تحتم طرح السؤال عن هدفه و الغرض منه. و الحقيقة أن ذلك – فيم نرى – لا يخرج عن أمرين : فقد يكون ذلك بغرض إحداث هزة في المتلقي لوخز فكره و لفت انتباهه ، و قد يعود إلى أهمية هذا الحدث ، و هو الأقرب ، فالأمر يتعلـق بوفـاة و بوصيـة تمثـل حمـلا ثقيلا لا شـك أن الرحالة و هو في أعلى قمة الصفاء الديني يعـرف قيمة هـذا الحدث و أهميته ، باعتباره يتعلق بأيتام و اليتيم قال فيه تعالى ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر** ﴾ [4].و

---

(1)- الورثيلاني المصدر السابق، ص: 532.

(2)- نفسه، ص:523.

(3)- نفسه، ص:523.

(4)- سورة الضحى ، الآية 9.

الرسـول كما نعلـم كذلك أوصـى به خيرا ، حتى أنه قال : << أنا و كافل اليتيم في الجنة هكذا و أشار بالسبابة و الوسطى و فرج بينهما >> [1] رواه البخاري .

و على العموم فإن الرحلة الورثيلانية وظف فيها صاحبها تقنية الحذف بصورة مكثفة ، ولكنها جاءت برتابة و متميزة خاصة بقصر الجمل الدالة عليها و تشابهها ،كما جاءت في معظمها محددة المدة مثلما توضحه النماذج من خلال الجدول التالي:

النموذج	ص(صفحة)س(سطر)	الملاحظة
ثم ظعنا صبيحة يوم الثلاثاء إلى أن وصلنا إلى قصر الطير	ص: 110 س: 12	سقوط الأحداث و الفترة بين الظعن و الوصول
ثم ظعنا منها إلى بسكرة ذاهبين فبتنا في الطريق ليلة واحدة و وصلنا عند الضحى	ص:115 س: 8	ليلة المبيت إلى ضحى اليوم الموالي فترة سقطت بأحداثها
ظعنا ضحى ...و نزلنا سيدي عقبة عصرا	ص:124 س :1	سقوط ما وقع من أحداث في بسكرة و سيدي عقبة
أقمنا بها ثمانية أيام أولها يوم الجمعة و آخرها مثله	ص:209 س :7	ثمانية أيام إقامة سقطت مع أحداثها
لم يمكثوا في البحر إلا اثني عشر يوما و نزلوا الإسكندرية	ص: 210 س: 2	اثنا عشرة يوما في البحر لا وجود لها في الخطاب
ثم ضعنا من الطرفاوي قاصدين معطن التميمي فسرنا أياما إلى أن مررنا على عين الغزالة	ص: 702 س: 10	المدة غير محددة و لا أثر لما جرى من أحداث

---

(1)- يحي بن شرف النووي، المرجع السابق ، ص:117.

- الخلاصـــــــة :

هي تقنيـة من تقنيات السرد ، يطلق عليها بعض النقاد التلخيص ، و يسميها بعضهم الإيجاز ، و هناك من يطلق عليها اسم المجمل [1]. و الخلاصة في أسط تعريفها تعني أن يأتي الكاتب على حدث أو مجموعة من أحداث ، وقعت في ساعات أو في أيام ، في أسابيع أو في شهور ، في سنوات أو في قرون ، يعرضها مختزلة في أسطر أو فقرات أو في بضع صفحات ، بطريقة مجملة دون تفصيل . و في هذه الحالة يصبح زمن السرد أقصر من زمن الأحداث .

هكذا يتجلى بوضوح أن الخلاصة إنما يعتمدها الكاتب في الأساس من أجل تسريع السرد ، و هي بذلك شبيهة بالحذف ، و الفرق الجوهري بينهما أن الحذف يلغي فترة زمنية بجميع أحداثها بينما الخلاصة توجزها . لم تخل الرحلة الورثيلانية من هذه التقنية ، فالمتتبع لحركية السرد و تطور الأحداث في الرحلة يمكنه أن يقف على نماذج متعددة منها ،من ذلك قوله: << ما خرجنا من مصر حتى أوقع الله بها فتنة عظيمة و غـلاء قويا >> [2]. فالفتنة التي يتحدث عنها دون شك استمرت مدة من الزمن ، لكن السارد اختزلها الرحالة في جملتين لا أكثر. و في موضع آخر قال : << و نزلنا مغيب الشفق قبيل الخضيرة و صلينا بها الصبح و قطعنا الوعرات السبع المسماة على ألسنة الحاج بسبع وعرات و خرجنا إلى متسع من الأرض و بلغنا ينبع النخل غروب الشمس >> [3].

في هذا النموذج هناك إشارة عامة بثلاث جمل لا تفصيل فيها ، رغم ما يقع من أحداث خاصة مع وعورة الطريق في المنطقة المسماة الوعرات السبع ، و الوقت المختزل هنا امتد في الواقع من بعد صلاة الصبح إلى غروب الشمس.

و جاء في الرحلة أيضا << و حصلت لنا مشقة عظيمة و كربة قوية إذ طلبنا في بدر عند الأمير فلـــم يتفـــق لنا الاستواء معه لكثـرة فجـوره و تحيله ، فاختفى في المصري فرارا مما يلزمهم منا شرعا ، ثم اشتكيت لأمير مصر حاله حين نزلنا الصفراء ، فوعدني بالاستخلاص منه عند المدينة و لما وصلنا المدينة ذهبت إليه فأمرنا إلى كيخة الصوان إذ هو الذي يحكم بين العـــرب و غيرهم فأمرني بترك الثلث

---

(1)- ينظر سمير المرزوقي و جميل شاكر المرجع السابق، ص:89.

(2)- الورثيلاني،المصدر السابق، ص:376.

(3)- نفسه، ص:411.

من الكراء فلم أرض إلا بالربع فاختفى عند ذلك أيضا فلما شكوت له المرة بعد المرة أمرني بالذهاب إلى آغة عسكر المغربي فأمرني بترك الثلث أيضا و ظننت فيه و فيمن سبق عدم نصحي فلم يكن الأمر كذلك بل نصحاني جزاهما الله خيرا و لما امتنعت هرب و اختفى و لم أجد له خبرا >>[1].

لا شك أن ما أراد الرحالة إبرازه في هذا المقطع هو ما حدث من فعل و رد فعل ، و من أقوال امتدت إلى أزمنة طويلة ، و قد أتينا بهذا النموذج من أجل الوقوف على تلخيص ليس كسابقيه ؛ إذ ركز فيه الرحالة على تلخيص الأقوال لا الأفعال ، فالتقدم بشكوى إلى الحاكم أو من ينوب عنه أو يمثله يتطلب حوارا لا بد أن يكون طويلا ، لأن الأمر يتطلب أسئلة و أجوبة و جمع معلومات و تأكد منها ، و كل ذلك جاء مختزلا في الفعلين " شكوت " و " أمرني " ، ثم أن الوصول إلى اتفاق على الثلث و الأمر هنا يتعلق بأموال فالمؤكد أنه لن يكون إلا بعد حوار طويل تستعمل فيه كل و سائل الإقناع .

– الوقفـــــــــــــــــة :

لقـد وظف الرحالة تقنيتي الخلاصة و الحذف بغرض تسريع السرد و اختصار الأحداث إلا أن ذلك لم يمنعه من توظيف تقنية مقابلة قد تكون مجموعة من العوامل فرضتها عليه ، نعني بذلك تقنية الوقفة .

و المقصود بالوقفـــة أن يوقـف الكـــاتب سير الزمـن في العمل السردي ، و يعطل سير الأحـداث فيـه إلى حين ، << لينشغل بوصف ، أو تحليل، أو تعليق و ما إلى ذلك >> [2]. و كسابقتها فقد تعددت تسميات الوقفة عند النقاد ؛ فهناك من يستعمل بدلها الاستراحة ، و هناك من يستعمل التوقف كسمير المرزوقي ، الذي يرى أن المقصود بالتوقف هو << التوقف الحاصل من جراء المرور من سرد الأحداث إلى الوصف الذي ينتج عنه مقطع من النص تطابقه ديمومة صفر على نطاق الحكاية >> [3].

انطـــلاقا مما تقــــدم نلاحـظ أن الوقفة تبدو أكثر ارتباطا بالوصف ، سواء كان وصفا للأشخاص أو

---

(1)- الورثيلانيالمصدر السابق ، ص:616/615.

(2)- إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، دار الآفاق الجزائر، ط 1، 1999، ص: 73.

(3)- سمير المرزوقي و جميل شاكر، المرجع السابق، ص:90.

أو الطبيعة . و ينقسم الوصف في تقنية الوقفة إلى :

– و صف ذاتي ، وهو الوصف التأملي الذي ينبع من شخصية من شخصيات العمل السردي ، و فيه << تبين لنا مشاعرها و انطباعاتها أمام مشهد ما >>(1). و في مثل هذا الوصف يستمر حكي الحدث و لا يترتب عنه توقف الحكاية.

– وصف موضوعي ، و نعني به الوصف التقليدي الذي ينقطع عن الحدث ليمثل هو ذاته مقطعا نصيا مستقلا بذاته (2).

و للوقفة في السرد وظائف متعددة ، يمكن استخلاصها من السياق الذي ترد فيه ، فقد يوظفها الكاتب كتمهيد يهيئ به القارئ لاستقبال شخصية أو أحداث جديدة ، أو من أجل أن يقدم بين يدي المتلقي ما يدعم به فكرة أو يؤيد به رأيا ، أو من أجل توفير معلومات عن الإطار الذي ستدور فيه الأحداث ، كما قد يتخذها الكاتب وسيلة لإبراز قدراته في اللغة و براعته في الوصف مثلما يحدث في المقامات .

لقد حفلت الرحلة الورثيلانية بالعديد من الوقفات ، إن لم نقل إنها أخذت الحيز الأكبر من مساحة السـرد فيها . ويمكننا الوقـوف على نماذج متعـددة لها ، من ذلك قول الرحلة : << فسرنا آخر الركب رويدا رويدا إلى أن صلينا المغرب ثم كذلك إلى أن صلينا العشاء ثم كذلك إلى أن سرنا سويعة بعدها أخبرونا القاضي المذكور فاجتمعنا لتجهيزه ليلا ...فنزل الركب ذلك الوقت فحفرنا له و كفناه و صلينا عليه ...و علمنا قبره و هو بين تلك المرحلة و منزلة الينبع و أصابنا بموته مصيبة عظيمة لم أنسها إلى الآن لأنا ظننا أن يرجع إلى بيته سالما ينتفع به العامة و الخاصة غير أنه لما تاب و قبلت توبته مات بمرض البطن فهو شهيد و في طريق الحج و انه غريب فكل واحد من هذه الثلاثة تقتضي الشهادة لأن الشهداء غير شهداء القتل معدودون و قد حصر عدهم الشيخ اليوسى في حاشيته على كبرى السنوسي ... و كذا الشيخ إبراهيم الشبراخيتي في الجنائز في شرحه لمختصر خليل ثم ارتحلنا آخر الليل و ظعنا من ذلك المحل >> (3).

---

(1)- سمير المرزوقي و جميل شاكر، المرجع السابق ،ص: 90.

(2)- ينظر، نفسه ، ص:91.

(3)- الورثيلاني ، المصدر السابق ،ص:619.

ما يعتبر وقفة في هذا المقطع الكلام الممتد من " وأصابنا بموته مصيبة " إلى " في شرحه لمختصر خليل " ؛ إذ يمكننا أن نربط الأحـــــداث ببعضها مباشرة بعد الاستغناء على ما اعتبرناه وقفة فيصبح التعبير عن سير الأحداث كالتالي: " ...كفناه و صلينـــا عليه وعلمنا قبره و هــو بين تلك المرحلة و منزلة الينبع ثم ارتحلنا..." إن هذه الوقفة مثلما عبرت عن وصف ذاتي عبر من خلاله الرحالة عن عظم المصيبة ، و مدى تأثره بها ، استغلها كذلك ليبرز علمه و معرفته الدينية و كثرة اطلاعه فيما يتعلق بالشهادة و أصناف الشهداء ، وهي المعرفة التي حرص على أن يؤكد أنه مطلع عليها في كتب غيره ، و لا يخفى علينا هنا ما نجده من رغبة خفية من الرحالة في أن يتخذ من الوقفة سبيلا لنشر معرفة لتتأكد بذلك الطبيعة التعليمية للرحالة.

و الحقيقة ان الرحالة بعد ذلك و بعد بضع جمل، أوقف السرد ليفسح المجال لوقفة أخرى كانت أكثر ذاتية باعتباره يعبر عن ذاته ، و ما يختلج في داخله ، و ما يفكر فيه و هو في حالة سير مع أصحابه حيث قال: >> و الحال أني مشتغل في ذلك الوقت بالوظائف و الأذكار الواردة بعد صلاة الصبح نعم أحدثني شبه سنة و أنا راكب بغلتي متفكر في أمر الجمال...إذ شغلني أمرها أتم شغل بل تشوش خاطري .... << [1] .

لا شك أن المتلقي يمكن أن يلاحظ في هذا المقطع و غيره ، أن الوقفة لم تكن خالصة بل امتزجت مع تقنيات أخرى كالحذف و الخلاصة ، وهي ظاهرة رغم أننا نجدها في غير هذه الرحلة إلا أنها عند الورثيلاني تبدو أكثر بروزا.

و لا يجب علينا أن نبرح الوقفة دون أن نشير إلى أهم ميزة تتميز بها الرحلة الورثيلانية ، و هي الطول المبالغ فيه لبعض الوقفات التي تمتد إلى صفحات كما هو حاصل تحت العنوان : ذكر خروجنا من بسكرة .

قال الورثيلاني : >> ثم لما فرغ الناس من قضاء أوطارهم من بيع و شراء ازدياد زاد ظعنا ضحى الثلاثاء خامس و عشرين من رجب و عشرين من شتنبر و نزلنا سيدي عقبة عصرا و هو عقبة بن نافع الفهري التابعي .... << [2]. لقد توقف السرد بقوله : " نزلنا سيدي عقبة عصرا " لتبــدأ مباشرة و قفـــــة

---

(1)- الورثيلانيالمصدر السابق ، ص: 620.

(2)- نفسه، ص: 124.xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

موضـــوعية بقــوله :" و هـو عقبة بن نافـع ..." عرفنـا من خلالها بعقبة و حياته و كل ما يتصل به ، وبتنقلاته وبفتح المغرب العربي ، و ما قيل فيه و ما قيل عنه ، و عن تنحيته و عزله من قبل معاوية و عن إعادته من قبل ابنه يزيد بعد وفاته ، كما تحدث عن الكرامات و عن إفريقيا و المغرب و عن تاريخ المنطقة عموما...و هكـــذا استمر في الحديث عن المنطقة وما جرى فيها على امتداد اثنتي عشرة صفحة ، مستعينا في كل دلك بما كتب غيره ،و هو ما يؤكده قوله في ختام هذه الوقفة : ا هـ ملخصا من شرح السقراطسية للشيخ محمد بن علي و بعضه بالمعنى و بعضه بالتقديم و التأخير.

و تأكيدا لما قلنا عن طول الوقفـات عند الورثيلاني ، يمكن الوقـوف على الوقفـة الممتدة من الصفحة 456 إلى الصفحة 480 فبعــد و صوله إلى مسجد نمرة و حديثه عن إعادته الصلاة جمعا و قصرا << و هو أننا نوينا القصر و نوى هو الإتمام فلما اختلفنا في النية بطلت صلاتنا ثم أعدناها جماعة جمعا و قصرا >> (1) أوقف السرد ليستأنفه بعد أربع و عشرين صفحة بقوله : << انعطاف إلى ما كنا بصدده وهو أننا لما صلينا الظهر و العصر في المسجد المشهور و هو مسجد نمرة توجهنا إلى محل الوقوف و المشاهدة >> (2).

خامسا :بنـــاء المكـــان الرحلي:

تعتبر ثنائية الزمان و المكان كما يرى بعض النقاد وحدة واحدة ، يكاد يكون الفصل بينهما مستحيلا . و عليه فإن الحديث عن البنية الزمنية منفصلا عن البنية المكانية لا يعني بأي حال من الأحوال قطع الصلة بين البنيتين ن أو محاولة إبراز هذه البنية منفصلة عن تلك ؛ فالبنيتان متلازمتان معا بل مع جميع البنيات المكونة للعمل الأدبي .

و العمل السردي باعتباره عملا أدبيا يتضمن حكاية ما ، فإنه يستحيل أن يخلو من المكان أو الحيز – كما يسميه الدكتور مرتاض – الذي تجري فيه أحداث تلك الحكاية فـ<< في أي لغة من اللغات؛ فإن السرد من دون حيز لا يمكن أن تتم له هذه المواصفة . إنه لا يستطيع أن يكونه و لو أراد بل إنا لا ندري كيف يمكن تصور و جود أدب خارج علاقته مع الحيز >> (3) .

---

(1)–الورثيلاني، المصدر السابق ،ص:456.

(2)– نفسه، ص: 480.

(3)– عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، مرجع سابق ، ص: 154.

لقد فرض المكان نفسه على الأدباء و الشعراء منذ القدم ، و لم يغادر إبداعاتهم على مدى العصور كلها ، فقصائد الجاهليين و على رأسها معلقاتهم التي تعتبر رمز عبقريتهم ، احتفت بالحديث عن المكان كعنصر أساسي في بنائها من خلال المقدمة الطللية و وصف الفيافي و الجبال و الوديان في ثنايا القصائد ، كما نجد في السرديات التراثية نماذج سامية لجمالية المكان ، كذاك الذي نجده في ألف ليلة و ليلة و في مقامات البديع و الحريري و في غيرها من النصوص الحكائية .

إننا لا نعـني بالمكان في السرد ذلك المكان الواقعي الجاف المحدد بأرضه و جدرانه ، ببحره و وديانه ، أو بشجره و نباته ،أو بعبارة أخرى المكان الذي تدركه الأبصار و تعبث به الأيدي . إنما المقصود بالمكان ذلك الإطار الذي لا يدركه إلا الخيال ، فيغدو فضاء تجري فيه الأحداث و تعيش فيه الشخصيات و تتحرك و تتفاعل مع مكوناته .

إن المطلــوب من الكــاتب إدا أراد النجاح في توظيف المكان أن يخلق فيه الروح من خلال الوصف كعنصر ملازم له لا تظهر جماليته إلا به إذ << لا يمكن للفضاء أن يرد دون وصــف لأن هذا الأخير هــو الذي يجـعل الفضــاء يتبوأ مكــانة خاصـــة بين العنـاصر السردية الأخرى >> [1].

يعتبر الفضـاء المكـاني مـن أهـم الأبنيـة في الأعمال السردية ، مهما كانت طبيعتها أو جنسها ، رواية أو قصة ، مقامة أو مسرحية ، و لا نظن أن أهميته تقل في الرحلة التي تعتبر أكثر الفنون احتفاء بالمكان ، سواء بطبيعته المادية الجغرافية أو المتخيلة ، فالمكان مؤثر فاعل في غيره من البنيات ؛ إذ أن الأحداث و الشخصيات تتأثر به و تتلون بلونه و تخضع لخصائصه ، فليست الشخصية التي تعيش في الريف هي ذاتها التي تعيش في المدينة ، من حيث تفكيرها و تعاملها مع الآخر ، و الأمر كذلك مع من يعيش قرب البحر و من يعيش في قلب الصحراء .

لقد أثبتت التجربة الإنسانية أن علاقة الإنسان بالمكان هي علاقة مقدسة ، يستوي في ذلك البشر جميعهم : عربيهم و أعجميهم ، أسودهم و أبيضهم ، و هي العلاقة التي تدوم مهما تعددت الرحلات و بعدت المسافات ، فالحنين دوما إلى المكان الأصلي الذي عادة ما يكون الوطـــن الأم الذي يعتبر حبه من الإيمان ، و الــذي تغنى به الشعـــراء و قدسوه قديما و حديثا و ما أجمل قـــول

---

(1)- عبد العالي بشير ، تحليل الخطاب السردي و الشعري، دار الغرب للنشر و التوزيع ، د ط، دت،ص:64.

شوقي :

وطني لو شغلت عنه في الخلد لنازعتني إليه في الخلد نفسي.

و على مدى صفحات الرحـــلة الورثيلانية ، تصـادفنا مجمـــوعة من الأفعال تتكرر بصورة مكثفة مثل : خرجنا ، ظعنا ، نزلنا ، اتجهنا ، سرنا ، و صلنا ، حللنا ...ما يؤكد ارتباط الرحلة بالمكان و هو ما يصوغ لنا << القـول إنها فن مكاني بامتياز ، فالتنقل و الحركة يتمان عبر المكان و منه و إليه >> [1].

لقد لعب المكان دورا كبيرا في هذه الرحلة رغم انتفاء الإشارة إليه في العنوان كما هي العادة في بعض الرحلات ، و لأن الأمر يتعلق برحلة حجية فإن المكان فيها دون شك سيكون خاضعا لمنطق محدد ، تحكمه ثنائية المقدس و غير المقدس ، و هي الثنائية التي تتحكم أيضا في علاقة الرحالة به ، من خلال الحميمية و العدوانية ، و من خلال النفور و الإقبال ، و من خلال الاطمئنان و الاشمئزاز .

لقد خـــرج الورثيلاني باعتبـاره الـراوي و الشخصيـة المهيمـنة على كل ما في الرحـــلة من موطنــه الأصلي متجها لأداء فريضـــة الحـــج ، علـــى مسافة قد تفوق الستة آلاف كلمتر ، ما يعـــني انه سيمر و يحل و يتفـاعل مـــع كـم هـائل من الأمـكنة التي تختلف صورتها في ذهن الرحـــالة باختلاف الــموقع الجغرافي ، و اختلاف المجتمعات و ما تحتويه من نماذج بشرية ، و عادات و تقاليد . الأمـــر الذي يجعل علاقته بهذه الأمكنة متراوحة بين علاقة طبيعية تارة ، و علاقة متوترة تارة أخرى ، و الذي يتحكم في ذلك طبيعة المكان من خلال تأثره بـــ<< المنظومات الاجتماعية و الدينية و السياسية و الأخلاقية و الزمنية ، بل إن هــذا التبـادل بين الصـــور الذهنية و المكانيـــة يمتــد إلى التصـــاق معـــان أخلاقيـــة بالإحداثيات المكانية نابعة من حضارة المجتمع و ثقافته >> [2]. و هذا يعني أن المكان في الرحلة لن يكون واحدا ، وبالتالي تكون العلاقة به قائمة على أسس متعددة و متنوعة و على هذا الأساس يمكننا أن نقسم المكان في هذه الرحلة إلى قسمين :

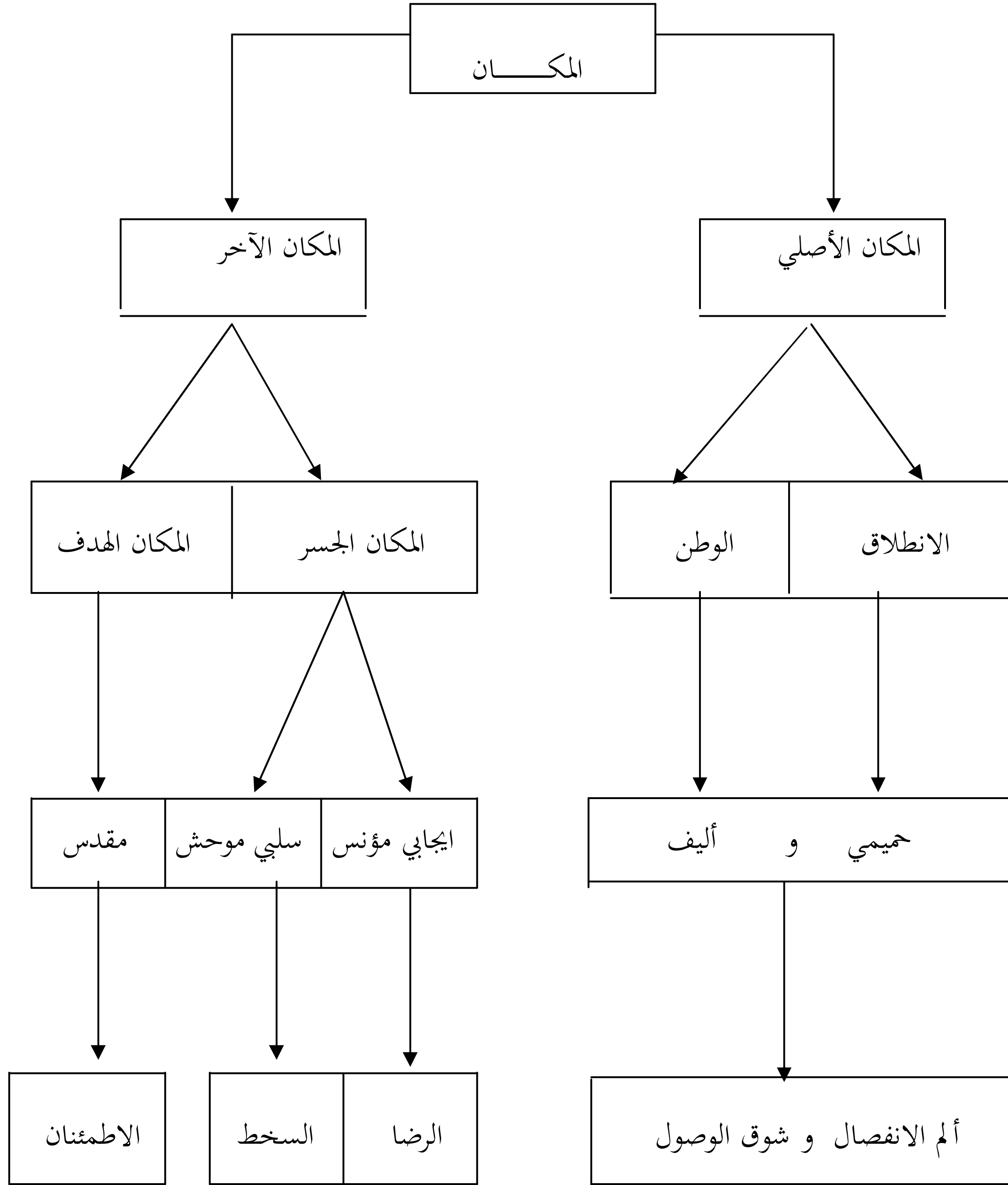
- المكان الأصلي ....و هو مكان عـــــــــادي .
- المكان الآخـر ....و هو مكان عادي ثم مقدس .

---

(1)- أحمد بو غلا، المرجع السابق، ص: 158.

(2)- سيزا القاسم ، المرجع السابق، ص:105

و لتتضح الصورة يمكننا إبراز المكان في الرحلة بالترسيمة التالية :



مع ملاحظة أن الاطمئنان بعد انتهاء المناسك يتحرك بعده شوق العودة لتكتمل الرحلة ذهابا و إيابا.

أ – المكـــــــــــان الأصلـــــــــي :

من الطبيعي أن تكون العلاقة حميمية بين الرحالة و مكان الانطلاق مسقط الرأس ، و موطن الأهل و العشيرة ، إنه المكان الذي يمكننا أن نعتبره الأساس الأول في الرحلة ، باعتباره المكان الذي يلازم الرحالة ، فهو حاضر في ذهنه لا يفارقه و إليه يشتاق في كل موقف، و في كل لحظة من لحظات الرحلة، سواء لحظات الانشراح و الاستئناس، أو لحظات الانقباض و الإحساس بالغربة، و لا اختلاف بين الفلاسفة أن العلاقة بين الإنسان و المكان هي علاقة معقـدة يصعب الوقوف على حقيقتها و كشف جميع أسرارها ، لارتباطها بعقل الإنسان و روحه و مشاعره و أحاسيسه .

وهذا المكان ؛ أعني مسقط الرأس بمنطقة بني ورثيلان قرب بجاية ، يعتبر جزءا من المكان الأصلي الواسع – الوطن – و يمكن الوقوف على علاقة الرحالة بمسقط الرأس من خلال لحظات التوديع المفعمـة بالحميمية ، حتى كأن أرجل القوم قد التصقت بالمكان لا تريد مفارقته و الابتعاد عنه، و عادة ما يمارس هذا المكان سلطة على الرحالة تفرض عليه البوح بحبه تجاهه، و إبداء الولاء إليه، و تجبره من خلال ذلك العودة إليه ، أو على الأقل بقاء التفكير في ذلك إذا وقف أمامه المانع القاهر ، و يكفي دليلا على هذا الحب و الحميمية بين الرحالة و الوطن ، زيارة التوديع التي جاب من خلالها الجزء الأعظم منه ، متنقلا من مـدينة إلى أخرى ، زائرا قبور الأموات و أضرحة الأوليـاء ، و مودعا الأحياء ، و في ذلك نظم قائلا :

حقي على الأوطان بالرعاية   و حقهم علي بالهدايـــة
ما أصعب التوديع للأحباب   و عنده بالحزن و اكتئاب
و كل نفس تزعج للافتراق   لفقدان المألوف باختناق [1].

و رغم أن هذا المكان لا يدخل في دائرة المكان المقدس ، إلا أنه يبقى مكانا يمثل قيمة أساسية سواء في بناء الر حلة ، أو في توجيه كل ما يلامس ما يشعر به الرحالة على امتداد خط السير و حتى بعد العودة إليـه ، رغم ما تكتسبه شخصيـة الرحالـة من جديد على المستـوى المادي أو المعنوي ، فعـلاقة الرحـالة بهـذا المكـان إذا << هي علاقـة مركزية تسقـط التباسها بعد مغـادرته ، فيصبح مرجـعا للمقارنة ، و أفقـا للتذكـر و الحنين، و و ما العـودة إليه مسلحـا

---

(1)– الورثيلاني ، المصدر السابق ، ص:105.

بالعلم أو مطهرا نفسيا إلا رغبـة في بداية علاقـة جـديدة << [1]. تتناسب و الحـالة التي يعود بها الرحالة بعد أن يكتسب الجديد ، و يضاف إلى شخصيته لقب الحاج ، مع ما تحمله هذه الكلمة من دلالات يأتي على رأسها الطهر و التقوى .

و رغم مكانة هذا المكان و قيمته في بناء الرحلة ، لم يحتف به الرحالة بقدر ما احتفى بالشيوخ و الأئمة و الأولياء و الصالحين ، فتنقلات الرحالة بين مدن و قرى و مداشر الوطن سيطرت عليها الرحلـة الزيارات التي قـام بها الورثيلاني لهؤلاء في منازلهم و قبابهم ، و في أضرحتهم و خلواتهم ، بل أكثر من ذلك عندما يأتي الحديث عن الوطن يأتي عادة مرتبطا بالحديث عن شيخ من الشيوخ ، من الأموات أو من الأحياء ، مثلما نجـده على سبيل المثال عند حلوله بمجـانة ، فبعد ذكـر الدخـول إليـها و الإشارة إليها بالاسـم دون وصـف و لا تحديد ، قال مباشرة : >> و مـررنا علـى قبـر الولي الصالح ، و القطب الواضح ، رحمة وطننا ، و غيث بلدنا ، سيدي يحي العبدلي نفعنا الله به آمين . و قد شهد بقطبانيته الشيخ الولي الصالح ذو التصانيف المفيدة ،سيدي عبد الرحمان الصباغ شارح الوغليسية << [2]. و قال : >> و قد دخلنا طولقة فاجتمعنا بها أيضا مع أهل الفضل و العلم و زرنا أيضا الشيخ المذكور و الولي المشهور سيدي عبد الرحمن الأخضري << [3] و هكـذا في كثير من المواطن ، عوض أن يتحدث عن المكان فيصفه و يحدد معالمه ، نجده يتحدث عن النازلين فيه بطريقة انتقائية تتناسب مع طبيعة الرحلة و إستراتيجيته فيها .

و لأن الرحلة هي فن مكاني بامتياز كما قلنا من قبل ، فقد وجد الرحالة نفسه مضطرا لأن يقـف وقفـات مـع العـديد من الأمكنة خاصة تلك التي استهوته ، فقدم لها عن طريق الوصف صورة متميزة ، سواء تعلق الأمر بصورة التقطتها عينه أو منقولة عن غيره ، فطولقة عاد إليها و اعتبرها >> من أعجب المدن و أجمعها لمنافع كثيرة مع توفر أسباب العمران فيها فقد جمعت من التل و الصحراء ذات نخيل كثير و زرع كثيف و زيتون ناعم و كتان جيد و ماء جار في نواحيها و ارحاء عديدة تطحن بالماء و مزارع حناء إلى غير ذلك من الفواكه و الخضر و البقول و كثرة اللحم و السمن

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص:320.

(2)- الورثيلاني، المصدر السابق ،ص:19.

(3)- نفسه، ص:16.

في أسواقها . و بالجملة كما قال العياشي ما رأيت في البلاد التي سلكتها شرقا و غربا أحسن منها و لا أحصل و لا أجمع لأسباب المعاش>> (1).

لقد ركز الوصف في هذا المقطع على إبراز أسباب الحياة مشيرا إلى توفرها ، و قد أعطى صورة لهذه المدينة حتى غدت كأنها جنة على وجه الأرض ، بها من علامات التقدم ما يبهر العقل و يسحر العين ، و قد كان الاعتماد في كل ذلك على ما نقلته العين التي هي هنا كآلة التصوير ، و عليه يصبح هذا الوصف يمثل كليشهات لصورة قديمة ، يمكننا إعادة تحميضها بواسطة الخيال ليقع عليها بصرنا من جديد ، فنكتشف صورة مدينة و طبيعة حياة من عصر غير عصرنا ، و هذا في حقيقة الأمر هو دور << مختلف النصوص الأدبية باعتبارها مخزونا لمظاهر الحياة المادية التي ظهرت في عصر تأليفها >> (2). و من الأماكن التي أهتم بها الرحالة ، و تصدى لتقديم وصف دقيق لها ، المساجد التي يبدو أن طبيعة الرحلة و شخصية الرحالة كان لهما دور في ذلك ، مثلما ورد في الرحلة نقلا عن رحلة الدرعي << و زرنا مسجدا و طلعنا إلى مئذنته و هي في غاية الإتقان و الطول و السعة تقدر الدابة على الصعود إليها بحملها و إدراجه مائة و أربع و عشرون درجة و المسجد في غاية السعة و إتقان البناء إلا انه قل عامروه و ضعف ساكنوه >> (3).إن دقة الوصف هنا تحمل دلالة الاهتمام بمثل هذه الأماكن المقدسة، و أما حديثه عن قلة المرتادين ، فيؤكد ما قلنا من قبل أن اهتمام الرحالة بمن يشغلون المكان كان اهتماما كبيرا ، وهو فيما نرى أمر طبيعي ، فالرحالة مفروض عليه إن يكون أكثر احتكاكا بالبشر الذين منهم المرافق الذي يؤنسه، و التاجر الذي يمونه، و الدليل الذي يوجهه ، و العالم الذي يفتي له ...و هو في كل الأحوال يبحث دوما عن الفائدة من جهة و على المؤنس من جهة أخرى.

ب – المكـــــــــان الآخـــــــــر :

يدخل هدا المكان ضمن ما يمكن تسميته المكان الجسر ، و يغطي مسافة تمتد من نقطة مغادرة المكان الأصلي بصورته الموسعة إلى دخول المكان الهدف ، و عليه يقسم هذا المكان بالنظر إلى طبيعة الرحلة إلى قسمين : مكان مقدس و آخر غير مقدس . ولأن المكان المقدس هو الهدف

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق، ص:117.

(2)- سيزا القاسم ، المرجع السابق،ص:112.

(3)- - الورثيلاني، المصدر السابق، ص:117.

الأساسي المخطط الوصـــــول إليه مسبقا ، فإن المكان غير المقدس يصبح مكانا جسرا من خلاله يتم الوصول إلى الهدف .

و يمتد هذا المكان إلى مسافة هي الأطول ، يعبر من خلالها الرحالة أماكن جغرافية متعـددة معروفـة على سطـــح الخريطـة ، و تمثـــل مجموعة دول متلامسة حـــدوديا : تــــونس ، ليبيا ، مصر و جميعها تقع في دار الإسلام ، و هو الأمر الذي يجعلها متآلفة في الغالب ، إلا أن اختـــلاف العـادات و التقـاليد و طبائع البشــر فيها ، تجعلها تتباين فيما بينها ، ما يجـعل الـمرور عليها هـو في الحقيقـة مـرور على مجمـوعة من الأمـكنة ، و بالتالي علـى مجمـوعة من النمـاذج البشرية المتباينـــة في عـاداتها و تقاليـدها و طبـــائعها ، وعلى هذا الأساس << يصبح المكان أمكنة ليس فقط للعبور ، و إنما للتـزود بالـزاد و المعلومات و الحكايات و التجارب ، مما يجعل العبور أخصب مرحلة في الرحلة ، نظرا لتعدد الأمكنة و تنوع التجارب من جراء اللقاءات و الصدامات و المفاجآت >> [1].

و في هذا المكان يبدأ الإحساس بالغربة ، و تبدأ معه التناقضات و المقارنات ، ويصبح الرحالة أكثر انفعالا جراء ما يتوقع من أخطار الطريق ، سواء الطبيعية منها أو البشرية ، فالتهديدات تحيط بالرحالة – و بكل مسافر – من كل الجهات ، و تترصده من مختلف المصادر ، وهكذا يصبح المكـان آمنا تارة و خطيرا مضطربا تارات أحرى ، يمتـاز بالإيجابيـة تـارة ، و بالسلبية تـارة أخـرى ، و تبعا لذلك يعيش الرحـــالة حياة اللا تـوازن ، حياة الاضطراب و عدم الاستقرار ، و تصبح يومياته بين لحظات انشراح و لحظات انقباض . و من خلال تتبعنا لتجليات هذا المكان في خطاب الرحلة ، و من خلال علاقة الرحالة به و بمن هم فيه ، يمكننا أن نقسمه إلى قسمين :

– المكـــــان الإيجابـــــــي :

إيجابية المكان أو سلبيته ، لا يمكن أن تحدد إلا من خلال نظرة الرحالة إليه و إلى القاطنين فيه انطلاقا من طبيعة العلاقة التي جمعته بهم ، و ما وقع له في المكان معهم ، هذا يعني أن هذه القيمة لا يحددها المكان ذاته ، فهذا المكان قد يكـــون من أروع الأماكن ، إلا أن الرحالة يصنفه في خانة السلبي ، تبعا لما يحـدث فيه من أفعال ، و ما يقال فيه من أقوال ، فالمكان يتأثر بأهله و قاطنيه سواء

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص: 221.

الحكام منهم أو المحكومين بمختلف فئاتهم ، كما أنه يؤثر فيهم باعتباره كما يراه الكثيرون يمثل << جزءا في بناء الشخصية البشرية (قل لي أين تحيا أقول لك من أنت) فالذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها ، و لكنها تنبسط خارج هذه الحدود لتصبغ ما حولها بصبغتها ، و تسقط على المكان قيمتها الحضارية << [1]

و من نماذج الأمكنة الإيجابية كما صورتها الرحلة طرابلس التي نقل الورثيلاني بما قاله عنها الشيخ محمد بن علي شارح الشقراطسية عن البكري << و على مدينة طرابلس سور ضخم جليل البناء و هو على شاطئ البحر و بها أسواق حافلة و حمامات كثيرة فاضلة ، و فيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون ، و مرساها مأمون من أكثر الرياح و مدينة طرابلس كثيرة الثمار و الخيرات و بها بساتين جليلة ... << [2].هذا المكان و بالصورة التي قدمت له يعتبر مكانا ايجابيا ففيه دلالة القوة و التحصن ممثلة في السور الضخم و دلالة الدين ممثلة في رباطات الصالحين و دلالة طيب العيش ممثلة في كثرة الثمار و الخيرات . ويبدو أن هذا كله ما هو إلا تقديم لايجابيته الحقيقية التي يثبتها ما أنجبت طرابلس من رجال صالحين ، اطمأن إليهم الرحالة فقال فيهم مادحا : << فإذا تمهد هذا فاعلم أن مدينة طرابلس خصها الله بالصالحين و محبة أهل الخير حتى أنهم لا يصبرون عليهم فإذا شموا رائحة المعرفة في أحد سعوا إليه بالإحسان جزاهم الله أحسن الجزاء ...فيها من الصالحين الموتى ما لا يستطيع أحد أن يعدهم و أما الأحياء فبحسب زماننا هم أكثر من غيرهم ، و قد قيل إنها تنبت الصالحين كما تنبت الأرض العشب << [3].فهذا الفضاء و من خلال ما تقدم ، يتضح جليا أن الرحالة اطمأن إليه و طاب له المقام فيه ، فبدا في الخطاب الرحلي فضاء ممدوحا خصه الرحالة بالصفات الحميدة و عبر عنه بألفاظ التمجيد.

إن الرحالة بطبعه يعمد دوما إلى المقارنة بين الماضي و الحاضر ، بين المكان الذي انطلق منه و المكان الذي يمر فيه ، بل أن المقارنة تمتد حتى إلى عمق الرحالة ذاته ، في مشاعره و أحاسيسه

---

(1)- يوري لوتمان ، مشكلة المكان الفني ، تر سيزا قاسم ، جماليات المكان ، جماعة من المؤلفين، عيون المقالات الدار البيضاء المغرب ، الطبعة 2، 1988، ص: 63.

(2)-)- الورثيلاني، المصدر السابق، ،ص:182.

(3)- نفسه، ص: 197.

من منطلق أن الرحالة لا يرتحل إلا بحثا عن جديد ، أو رغبة في التغير و التغيير ، و هو ما تحقق في الرحلة الورثيلانية حين تحدث الرحالة مقارنا << غير أن أهل الجزائر ، يعني من سكن المدينة ، و كـذا أهـل وطننا ، فإنهـم أعظـم منهـم ، لا سيمـا جبال زواوة فإنهم أكـرم شيء في الوجـود؛ إذ يأكلـون الـرديء ، و يطعمون الضيف الطيب و وطنهم في غاية الضيق من المعيشة >>[1].

- المكـــــان السلبـــــــي:

سلبية المكان كإيجابيته لا ترتبط بالمكان بقدر ما ترتبط بالنازلين فيه ، سواء المقيمين أو العابـــرين . و المكان السلبي هو المكان الذي يخيب ظن الرحالة فيه عندما يجد فيه المصاعب أو يتعرض فيه للظلم و الإذلال ، فتهان كرامته أو يسرق ماله ، فيكون ذلك سببا في أن يتخذ منه موقف العداء ، فيهجوه و يهجو من فيه .كل هذا يلخصه ما نقله الرحالة عن عرب منطقة الجبل الذين اعتبروا << من أشد العرب كفرا و نفاقا لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله ليس عندهم من الدين إلا اسمه لا حرفة لهم بعد تربية المواشي إلا النهب و الغارة قل ما مر بهم ركب فسلم من انشاب الحرب بينهم و بينه بسبب غدرهم و فتكهم >>[2].

ما نلاحظه في هذا الفقرة أن الإشارة إلى المكان لم تأت إلا إشارة بسيطة لم تتعد تحديده بالاسم ، لينتقل الحديث مباشرة إلى قاطنيه ، الذين تميزوا بسوء أخلاقهم ، وبشاعة ما يصدر منهم من ظلـم و اعتـداءات علـى الركبان ، و هو ما طبع هذا المكان بالطابع السلبي الذي يثير الاشمئزاز و يبعث القـلق ، فاتخـذ منه الـواصف مـوقفا معاديا ، عبر عنه بعبارات الذم و الهجاء ، لقد أصبح هنا الكائن دالا على المكان ، و التركيز مثلما هو واضح ، مرتبط بالجانب الديني أكثر من غيره من الجوانب، دلالة على قداسة الناحية الدينية عند أهل العصر، بغض النظر عما يمكن أن يقال عن الجانب العقائدي عندهم .

و يكون الأمـر أعظم عندما يصل إلى حد التدخل بالضرب ، و هو ما قام به الرحالة وقد حدث ذلك فعلا في إمبابة ، و نقله الورثيلاني بقوله : << إلى أن وصـلنا إمبابة وجاهة بولاق فنزلنا فرادى و نزل معنا بعض الركـب ، و بقينا أياما هنـاك غير أن النـاس لم ينزجروا عن التعـدي عـن

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق، ص: 198.

(2)- نفسه، ص:270.

زرع النـاس ، بل حصـدوه و رعوه بالإبل ، و الفلاحون يتشكون و يبكون و يتباكون ، فنهيـناهم و زجــرناهم ، بل ضـربنا بعضـهم فلـم ينزجـروا بــل زادوا ظلــــما و عدوانا << [1]. لقد بلغ الأمر هنا ذروته ، فالرحالة فقد الحكمة و رزانة الشيخ لإحساسه العميق بقسوة الظلم ، رغم أنه لم يكن مظلوما و لا معنيا بما يحدث ، إلا أن شخصيته كرجل حق و التي سعى إلى إقناع المتلقي بها عبر مختلف محطات الرحلة ، حتمت عليه مثل هذا التصرف خاصة أن الظالم لم يرحم المظلوم و لم يمتثل لمدلول قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ [2]. و هما معا ينتميان لنفس الثقافة ، و ينطلقان من نفس المرجعية ، و يعيشان معا في دار الإسلام .

و هناك أماكن مثلت الاستثناء فكانت سلبيتها من ذاتها ، نعني بذلك المكان الطبيعي الذي وجد فيه الرحالة و مرافقوه المصاعب و المخاطر التي كادت تودي بحياة البعض منهم ، من ذلك وادي النـار الــذي نقـل لنا صـورته بقوله : >> و هذا الوادي قد وافق فيه الاسم المسمى ؛ إذ لا يخلو من شدة تقع للحاج فيه من طش و موت و مرض ، و هو واد كبير قد انطبق عليه الجبلان من النبط إلى الخضيرة ، فلا ينفـذ فيه الهـواء غالبـا لأن الهـواء إذا تحـرك بالـرياح انطبـق عليـه الجبـلان فينعكــس الـريح إلى ما وراء و تحـدث الحـرارة و السمـوم في الهــواء ، فينشأ الهـلاك منه . و لا ماء هناك مــن النبط إلى الينبـع فإذا قبـح الهـواء مع الحرارة مات من الناس ألـوف مؤلفة في أسـرع مـدة فيأخـذ الرجـل المــاء فلا يضعـه من يده حتى يمـوت ، و قـد صار ذلك في رجـوعنا << [3]. و من هـنا نفهم قيمة الماء و تجلياته في الرحلة ، و سر حضوره الدائم فيها ، سواء بالتلميح أو بالتصريح و سواء تمت الإشارة إليه باسمه أو بما يدل عليه.

و في مثل هكذا وضع و هكذا مكان يصبح لا ملجأ من الله إلا إليه ، فلا اشمئزاز و لا هجاء ، و إنما الصبر و الدعاء و انتظار الفرج ، و هو ما كان فعلا بعد تدخل القدرة الإلهية كعامل غيبي مساعــــد >> نعم اشتد بنا العطش أنا و جماعة من الفضلاء كثيرا قرب و صولنا إلى النبط ، و إذا بأعرابي أتانا بقربة ماء عذب أظنه من ماء المطر ، بارد كأنه من ماء الثلج ، و سقــى جميعنا لوجــه الله

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ،ص:326.

(2)- سورة الحجرات ، الآية 10.

(3)- الورثيلاني، المصدر السابق، ص:439.

العظيم و لو طلب الدراهم لأخذ منها كثيرا لقرب الموت و الهلاك منا فاستغربنا حال الرجل و ما صدر منه إلينا من غير طلب و لـــو دعـــوة خير إذ عـــادة الأعـــراب لايعطون شربة الماء إلا بفلوس كثيرة لا سيما عند العطش و نحن و الحمد لله قد وقع بنا فضل عظيم و جود كريم << [1]. إنها الصورة المأساوية التي قدم لها الرحالة بما أوحى بها عندما وضعنا في تلك البيئة التي لا ينتظر منها إلا الموت ، و بطريقة اقرب إلى الفنية نقلنا إلى لحظات الفرج التي تتناسب وهذه الرحلة ، حتى يستمر البطل الرحالة في إتمام رحلته ، و الوصول إلى هدفه . وفي هذا المقطع يتجلى الاستثناء الثـــــاني المتمثل في هذا الأعرابي الذي لم يبد منه ما يستلـزم الهجاء ، و إنما ما يستلزم الإشادة و الثناء . لقد خرج الرحالة من الخطر و حل بالمحل >> الذي تزهو فيه النفوس ، و هو روضة من رياض الله تعالى ، تصلح للمنقطعين و للغرباء و المساكين و هي باب من أبواب الله تعالى ...فيها أسواق كثيرة فلا تكاد تنعدم فيها الخيرات و تقضى فيها جميع الحاجات و فيها غالب الحبوب و الثمرات و كذا الخزبز أعني الدلاع و جميع الأقوات و المشتهات << [2]. لم يخرج الورثيلاني عما ألفناه عند غيره فقدم لنا هذه الصورة لهذا المكان بلغة مسجوعة على عادة معظم رحلات العصر ، و صورة هذا المكان جاءت إيجابية ناصعة و قد أحسن توظيفها حتى أن المتلقي أو القارئ يحس بأنها جاءت كتمهيد للمكان الهدف الذي فيه تهدأ المشاعر و تطمئن النفوس ، فمن و صله كأنه وصل مكة .

ج – المكـــــــــان الهـــــــــدف :

سوف لن نكون مبالغين إذا قلنا أن المكان الهدف هو أهم مكان في الرحلة ، خاصة انه مكان محدد سلفا ، و مخطط الوصول إليه معروف مسبقا ، وهو أكثر من ذلك مرتبط بمقصد الرحلة الأساسي و هو أداء فريضة الحج ، وعليه يصبح حضور جميع الأمكنة الأخرى تمهيدا له ، و تأتي في خدمته . و يكتسب هذا المكان صفة القداسة باعتباره يرتبط بمعلمين اثنين من معالم الاسلام :

أولهما : مكة المكرمة و ما تحمله من رموز ، فهي بيت الله الحرام ، بها الكعبة المشرفة مركز الكون و قبلة العالم ، و هي مهبط الوحي و حاضنة رسول العالمين محمد صلى الله عليه و سلم ، ومحطة تكونت فيها نواة دولة الإسلام...

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ،ص:439.

(2)- نفسه ، ص: 440.

و ثانيهما : المدينة المنورة و ما تحمله هي الأخرى من رموز ، فهي وجهة هجرته عليه الصلاة و السلام ، و بيت التآخي بين المهاجرين و الأنصار و أول عاصمة في تاريخ الإسلام... ولاشك أن علاقة الرحالة الراوي بهذا المكان سوف تكون علاقة حميمية ، بل أكثر من ذلك إنها علاقة استثنائية ، تتجلى من خلالها الفرحة و السعادة و روح الاطمئنان و الخشوع ، و تعتبر في خيال الرحالة الراوي روضة من رياض الله تعالى ، و المحل الرباني الذي تزهى فيه النفوس ، و تخشع فيه القلوب .في هذا المكان يصبح الرحالة قاب قوسين أو أدنى من أداء المناسك و تحقيق الركن الخامس ، و بالتالي إتمام العقد و تحقيق الهدف .

إن الوصول إلى هذا المكان يمثل لحظة الراحة من التعب ، والشفاء من المرض، و النقاء من الدنس ، و قد عبر الرحالة عن ذلك بلغة أهل التصوف قائلا : << فدخلنا مكة ...في زحمة عظيمة كادت النفوس أن تزهق غير أن سرورها بالوصول إليها خفف بعض الألم بل قد زال التعب و النصب كأن النفوس في وليمة عظيمة لا يعلمها و ما فيها من الفـــرح إلا من منحه الله بل الأرواح ، قد تجلى عليها ربها فخرت صعقة مغشية عليها ، فغيبها عن الأكوان كلها ، بمشاهدة مكونها ...فلما هب نسيم جوار الحبيب عليها أيقضها و أشهدها رسوم مكان الوصال ، و دلائل الحضرة و سواطع الانتقال ، فعلمت بيت الرب ، و تعلق به اللب ، سدل كل حبيب سوى هذا الحبيب ...فهبطنا منحـدرين إلى أن وصلنـــا قـــرب البيت فـدخلنا المسجـد مـن باب بـني شيبة ، فأفاض الله علينا من جوده كرامة و هيبة ، فظفرنا بالأمن و الأمان و السلام من باب السلام >>[1]. و كعادته مثلما وقفنا عليه في مواطن أخرى من هذه الرحلة ، دعـم الرحالة السارد كلامه بكلام غيره بعبارة صريحة << ثم أقول كما قال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر الدرعي ما نصه فشاهدنا البيت العتيق الذي تزيح أنواره كل ظلام و قد تدلت أستاره ، و قد شمر البرقع عن أسافله ، حتى لا يكاد الطائف يناله بأنامله ، يفعلون به ذلك من أول تقدم الوفود ، ولا يطلقون أستاره حتى تعود >>[2] .

و في هذا المكان نعني المكان المقدس يتميز الرحالة بالحيوية و النشاط ، و كثرة التنقلات و الزيارات التي تجبره على الوقوف عند الأماكن ذات الدلالة الدينية ، و ما تفرضه من توظيف للأحاديث النبوية

---

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ، ص:452.

(2)- نفسه، ص:452.

و الآيات القرآنية ، و استرجاعٍ و تذكرٍ لتاريخ الأمجاد و تعريج على حياة خير العباد – صلـــــى الله عليه و سلم – إذ المعلوم أن الزيارات في الرحلة الحجية تتخللها << آيات قرآنية و أحاديث نبوية ، و معارف تاريخية ،و أخيرا الوصف المفصل للبقاع المباركات >> [1].

و يتميز هذا المكان المبارك عن غيره من الأمكنة بأنه يتكون من مجموعة أمكنة جميعها مقدسة ذات دلالات دينية مرتبطة بتاريخ دولة الإسلام ، و بالتالي فهي معروفة و محددة ، يتجه إليها الجميع متساوين لا فرق بين غني و فقير ، و لا بين حاكم و محكوم و لا أبيض و لا أسود ، و الأمر هنا يتعلق بالأماكن المرتبطة بأداء المناسك : مكان الإحرام وما فيه من غسل و الكعبة المشرفة بأستارها و ما كان حولها من طواف و تقبيل للحجر الكريم ، و الصفا و المروة و السعي بينهما ، عرفات و الوقوف فيه ، مزدلفة و ومنى و المبيت فيهما. ومن أهم الأماكن التي تنتمي إلى المكان المقدس و التي كان التركيز عليها رغبة في التبرك بها و إبراز قيمتها و ثواب زيارتها ، تلك المشاهد التي قال انه ينبغي للحاج أن يزورها بمكة و منها:

البيوت و القبور:

من ذلك الدار التي ولـد فيها الرسول صلى الله عليه و سلم فيها يحتفل بالمولد النبوي الشريف ، مع الإشارة إلى اختلاف المسلمين في تأكيد ذلك ، و كذلك الدار التي ولدت فيه فاطمة بنت محمد رضي الله عنها ، إضافة إلى البيت الذي سكنه الرسول صلى الله عليه و سلم مع زوجته خديجة ، و دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه و غيرها.

و من القبور قبر الولي الصالح القطب الشهير عند أهل مكة سيدي العرابي ، و كذلك قبر أمنا حواء و يزعم البعض أن ابن خلكان يؤكد وجوده ، و كذلك قبر ترجمان القرآن حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما ، و هذه الأماكن جميعها لم يذكر لها أوصافا ، و لم يقدمها بطريقة فنية ، و إنما ذكرها و ذكر أماكن تواجدها ؛ إذ أن الغرض من ذكرها هو التعريف بها و بمواقعها ،حفاظا عليها كمواقع تاريخية ذات ارتباط وثيق بتاريخ المسلمين .

المساجد:

من أهم هذه المساجد مسجد العقبة ، و مسجد إبراهيم ، و مسجد الكبش و غيرها ، والملفت

---

(1)- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص:389.

أن السارد اثنا ذكره لمساجد مكان العبور كان يهتم بوصفها ، و في بعض الأحيان يقف على دقائق الأمور فيها ، كعدد أدراج المآذن و النوافد و الأعمدة ...و هو ما لم يفعله مع مساجد المكان المقدس ، و يبدو أن الغرض من ذكر مساجد هذا المكان هو التعريف بها و استحضار تاريخها ، و ما تعلق بها من أحداث ، ذلك في نظره ما يساعد الحاج أن يعيش ذاك الزمـــن فيعرف قيمة رجاله .

الأماكن الأخرى:

غار جبل ثور الذي اختفى فيه الرسول صلى الله عليه و سلم و الصديق رضي الله عنه ، و جبل حراء و فضله مشهور فقد كان الرسول صلى الله عليه و سلم يلجأ إليه قبل البعثة ، و غيرها من الآثار ذات العلاقة بالبعثة المحمدية يذكرها و يذكر ما قال السادة العلماء بشأنها.

و أما في المدينة:

فقد ذكر مجموعة من الأماكن نذكر منها خاصة جبل احد ، و قبر سيدنا حمزة ، و مسجد الفسح ، و مسجد جبل عينين و مكانه موضع طعن سيدنا حمزة ، و مسجد مصلى الأعياد وغيرها من المزارات و الآثـار التي لا يأتي الناس علـى ذكـرها . و على هذا الأساس يصبح الهدف من ذكرها هو التوثيق لها ، من أجل الحفاظ على الذاكرة خاصة أن بعضها لم يعد له أثر .

كما ذكر أماكن ذات علاقة بالماء ، لما له من أهمية بالنظر لطبيعة الجزيرة العربية ، فمن الآبار كمصادر اصطناعية للمياه ذكر :

بئر أريس – بئر البصة – بئر بضاعة – بيرحا – بئر رومة – بئر اليسيرة – بئر غرس .

و من المصادر الطبيعية ذكر مجموعة من الأودية منها :

وادي العقيق – وادي بطحان – وادي رانوناء .

إضافة إلى التعريف بأماكن تواجد الآبار و الأودية و ذكر قيمتها التاريخية ، و التركيز على من زارها أو توضأ أو شرب من مائها ، فإن تركيزه كان كذلك على طبيعة مائها من حيث المذاق و الوفرة و القلة .

و مثلما نلاحظ فان جميع الأماكن التي ذكرنا و المنتمية للمكان المقدس، تصنف ضمن دائرة المكان الإيجابي . إلا أن هذا الأمر لن يكون مطلقا ، فهذا المكان دون شك قاطنوه من البشر و عليه فمن الطبيعي أن تصادفنا فيه بعض الأماكن السلبية ، و هو ما لم تخل منه الرحلة فالسارد و ضعنا أمام

نماذج لهذه الأماكن كالأسواق التي يأتي شرها من أهلها ، و قد قال فيها الرسول صلى الله عليه و سلم :<< أحب البلاد إلى الله مساجدها و أبغض البلاد إلى الله أسواقها >> " رواه مسلم ". لقد رأى فيها الرحالة ما جعله يجمل القول فبها قائلا : << حاصله كل سوق من الأسواق أو جمع من الجموع لا يخلو من أهل اللهو و الباطل ، لكن أن كانوا غير مقصودين فلا يلتفت إلى ذلك ؛ إذ النظر إلى من يصلح منهم فلا يخيب من له قصد صحيح و إن كان أهل اللهو هم المعتبرون فلا يصلح المجتمع بهم فاعلم هذا رحمك الله و اشدد يدك عليه >> [1].

(1)- الورثيلاني، المصدر السابق ،ص: 559.

الفصـــــــــــــل الثاني

الرحلة / الحركة بناؤها و خصائصها

رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي لابن هطال نموذجا

أولا : المفهـــــــــــــــــــوم:

هي الرحلة التي تتخذ الطابع الرسمي مما يجعلها ذات أهداف و دوافع سياسية بحتة ، و عادة ما يشبهها الدارسون بالغزوة أو المسيرة العسكرية ، يقوم بها الحاكم ضد المارقين عن القانون أو المتمردين على السلطة المركزية ، يتجه نحوهم بجيوشه ليفرض القانون أو ليعيدهم إلى سلطته ، و لعل هذا يعتبر المؤشر الأساسي الذي يعطيها شرعية التسمية بالرحلة ما دام الأمر فيها يتعلق بالحركة و الانتقال في الإطار الزماني و الفضـاء المكاني الذي يكـون دون شك على أطراف الـدولة و ليس في عاصمتها . فهـي كغيرها من عموم الرحلات العربية قائمة على بنية السفر و الارتحـال ، خاضـعة لنفس المعمـار الذي ألفناه في غيرها من الرحلات و المتمثل في الانطلاق و السير و الوصـول ، مما يجـعلها تتوفـر على ثالوث العناصر الأساسية التي لا تخلو منها رحلة ،نعني بذلك : التقديم ، المتن ، الختام.

قبل القرن السادس عشر الميلادي كانت الحركة تطلق على الأعمال الجهادية خارج حدود السلطة ، أما بعد ذلك فان الرحلة الحـركة << أصبحت تعني تلك العمليات الداخلية التي تنظمها السلطة المركزية لإثبات سيادتها على جهة ما من البلاد ، ارتباطا بجدلية المركز الخاضع دوما لسيطـرة الـدولة ، و الهامـش المتمرد لبعده عـن أعين السلطان ، و قـد ارتبـط بهـذا التقليـد مرافقـة السلطان بالإضـافة إلى الجيش ، كتـابه الذين يضطلعون بمهمـة تسجيل هذه الحركة >> [1] . الأمر في الحركة إذا يرتبط ارتباطا وثيقا بسلطة حاكمة ، و هذا يعني أن الهدف منها يكون محددا تحديدا دقيقا ، سواء تعلق الأمر فيها باختيار الزمان أو تحديد المكان ، و على هذا الأساس فان هذا النوع من الرحلات يعتمد بالدرجة الأولى على خريطة التضاريس ، و لا ينجز إلا بعد التخطيط و التحضير و تهيئة جميع شروط النجاح ، ما يعني أنها تشترك مع غيرها من الرحلات من حيث قيامها على القصدية ، و القصدية كما رأينا من قبل تعتبر أمرا حتميا بالنسبة للرحلة .

ثانيا : الرحلـة و الرحالـة :

الرحلة التي سنتخذها نموذجا هي رحـلة داخـلية قـام بها محمـد الكبير داخـل البلاد " الجزائر " ، قادته إلى الجنوب الصحراوي الجزائري في إطار حملة واسعة مدروسة و مخطط لها ، قام بها

---

(1) - أحمد بوغلا، المرجع السابق ، ص: 205.

بعد توليه الحكم لإصلاح شؤون الرعية ، و السهر على مصالح العباد ، و تنظيم البلاد رغبة منه في أن يبرز شخصيته و يمتن أركان حكمه .

و محمد الكبير هذا هو محمد بن عثمان الكردي ، الملقب عادة بالكبير ، ينتمي إلى أسرة كردية ، أمه جارية اسمها زائدة ، أهداها سلطان المغرب الأقصى لأبيه أبي إسحاق الحاج عثمان بن إبراهيم الكردي ، الذي كان خليفة على مليانة ، ثم عين بايا على التيطري التي كانت ثاني منطقة خضعت للأتراك بعد العاصمة ، و نظرا لإخلاصه ، و عمله ، و ولائه ، كان يحظى بمكانة راقية و احترام كبير عند الأتراك ، الذين وثقوا فيه و فضلوه على غيره.

كان لمحمد الكبير مواقف مشرفة ، و قدرة عالية في القيادة و سياسة الناس ، إضافة إلى علم لم ينكره عليه أحد ، و هو ما سهل عليه الارتقاء في المناصب الحكومية السياسية منها و العسكرية ، حتى وصل إلى رتبة باي الإيالة الغربية في العام 1192هـ .

و بمجرد جلوسه على كرسي الحكم ، ظهر بصورة الحكيم الذي كرس حياته من أجل رعيته ، و بدأ نشاطه الإصلاحي و التنظيمي من خلال تنقلاته داخل البلد ، و تعتبر غزوته في اتجاه القبلة " نحو الجنوب " من أشهر رحلاته الرسمية الداخلية .

لقد قادته هذه الرحلة نحو الجنوب الصحراوي الجزائري ، بغرض إخضاع هذه المنطقة للسلطة المركزية ؛ إذ أن الكثير من القبائل في ذلك الوقت كانت غير خاضعة لسلطة الدولة العثمانية ، كما أن الكثير من أعراب المنطقة متمردون ، يفضلون عيشة الأحرار على العيش تحت سلطة الغير .

لقد جهز محمد الكبير لذلك جيشا عظيما ، و نزح به من معسكر مرورا بجبل عمور و البيضاء و آفلو و الطويلة ، إلى أن وصل الأغواط و دخلها بقوة ، جعلت المنطقة و المناطق المجاورة لها تنقاد له ، و تخضع لسلطته في العام 1199هـ .و تتخــذ هــذه الرحــلة اهميتها التاريخية من أنها << تتضمن أخبارا جغرافية و اجتماعية و سياسية و عسكرية و أدبية لا يستغني عنها >> [1] الدارسون و الباحثون في تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية .

أما مقيد هذه الرحلة فهو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن علي بن أحمد المشهور بابن هطال التلمساني ، و هو– رغم جهل الكثيرين به – يعتبر من أهم و أبرز رجال الأدب و التاريخ و السياسة

---

(1)– أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، مرجع سابق ،ص:280.

فقد اشتغل << كمستشار و كاتب و ديبلوماسي و محـارب ، و عاش فترة خصبة من تطور هذه البلاد >> [(1)] كان يشتغل كاتبا لمحمد الكبير الذي وثق فيه و قربه إليه ، و اتخذ منه مستشارا و مبعـوثا خاصا له ، و هو ما يثبته أحمد بن علي بن سحنون في كتابه " الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني " عندما أشار إلى أن محمدا الكبير عندما كان يستعد لاستعادة وهران ، أرسل أحمد بن هطال إلى سلطان المغرب ، ليفاوض على السماح لهم بشراء السلاح [(2)]. بل كان أكثر من ذلك المرافق الدائم لمحمد الكبير في جميع تنقلاته ، خاصة في رحلته نحو الجنوب الجزائري التي سجل أحداثها بأمر من الباي نفسه ، و قد كان حاضرا و مشاركا فيها ، و شاهدا علي ما جرى فيها من أحداث عبر مختلف مراحل سيرها . و بالرغم من أن هذه الرحلة تعتبر ذات طابع تاريخي بأبعاد سياسية ، و بالرغم من أن التركيز فيها كان على أحداث تاريخية متعلقة بحركة عسكرية ، الغرض منها إخضاع منطقة متمردة إلى سلطة مركزية ، إلا أن المتتبع لها يمكنه أن يقف على بعض المظاهر الفنية في بنائها ، باعتبارها أصبحت نصا بعد أن تم تلفيظ وقائعها و أحداثها ، و على هذا الأساس لا نشك أبدا في أنه أصبح لها بناء بصورة من الصور ، إلا أن الأمر سوف لن يكون بنفس الصورة التي و جدناها في الرحلة الحجية ، وهو ما يفرض علينا عدم التعامل معها و مع عناصر بنائها ، بنفس طريقة التعامل مع سابقتها. ولقد قامت هذه الرحلة كغيرها من الرحلات على ثلاثة عناصر :

أ – التقـــــــديم : و يمكن الوقوف على تقديمين:

- الأول : تقديم الناسخ الذي لا يعدو أن يكون مدحا لابن هطال و تعريفا به .
- و الثاني: تقديم لابن هطال ركز فيه على قيمة التاريخ و مكانته عند الأمم ، باعتباره حافظا للذاكرة ، و موثقا لأعمال أهل الحاضر ، ليستفيد منها ابن المستقبل و محددا في نفس الوقت الهدف من تقييده للرحلة .

ب – المـــــــتن: اقتصر فيه ابن هطال على عرض لكرونولوجيا أحداث تاريخية في فترة زمنية محددة ، بموضوعية و باختصار بعيدا عن الإطناب .

ج – الختــــــام : تمت فيــه الإشــارة إلى نجــاح المهمـــة ، و نيل المراد ، و تحقق العودة ، مع ذكر

---

(1)- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، مرجع سابق ، ص: 279.

(2)- ينظر ، ابن هطال التلمساني المصدر السابق ، ص:13.

التاريخ باليوم و الشهر .

ثالثا : الشخصيـــــــــــات :

إن طبيعة هذه الرحلة ، تفرض علينا قبل الحديث عن الشخصيات فيها أن نقدم بما ييسر الفهم ، و يجلي القصد ، و ذلك بوضع كل شخصية في مكانها الطبيعي الذي تحتله في الرحلة.

و من خلال الاطلاع على هذه الرحلة ، تبين لنا أن هناك ثلاث شخصيات لابد من الانتباه إليها بتحديد دورها في الرحلة المتوفرة بين أيدينا كنص قابل للدراسة و التحليل .

أولا : هنـــاك شخصية الناســخ التي لم يتعد دورها عملية النسخ ، و هذه الشخصية حاضرة في بداية الرحلة بالبسملة و الاستهلال فلم يتعد منطوقها قول : << بسم الله الرحمان الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه . قال الشيخ الفقيه ، النحرير النبيه، لسان الدولة ، و فارس الجولة – أبو العباس السيد أحمد بن محمـــد بن علـــي بن أحمد بن هطال التلمساني – كثـــــير العـــلم و صحيـــح الأقـــوال ، رضي الله عنه >> [1].ثم تختفي بعد ذلك تماما ، و لا تظهر إلا في نهاية الرحلة ، من خلال عبارات الختام << كمل تقييد هذه الأوراق عشية يوم الخميس الثاني و العشرين من شهر الله "ذي القعدة" سنة اثنتين بعد المائتين و الألـــف ، على يد عبيد ربه ، و أحــوجهم إليه ، المقــر بذنبه ، و تقصــيره : محمد بن البشير بن محمد " آفراي " التلمساني دارا ، و منشأ . غفر الله له ، و لوالديه ، و لأشياخه ، و لجميع المسلمين و المسلمات ، و المؤمنين و المؤمنات ، الأحيــاء منهــم و الأمــوات ، و لا حول و لا قــوة إلا بالله العلــي العظيــم . و آخـر دعـوانا أن الحمـــد لله رب العالمين . يوم (22) ذي القعدة (1202هـ >> [2].

من خلال الفقرتين يتجلى لنا بوضوح ، العبارات الدالة على طغيان العبارة الدينية ، التي نجدها حاضرة بقوة ، و التي تمثل تقليدا في الخطاب الأدبي لهذا العصر و مؤلفاته عموما.

ثانيا : هناك شخصية المخطط و المنفذ للرحـلة ، و القـائم بأفعـالها ، و المشـرف علـى كل ما يتعلق بها و ما يقع فيها ، و هذه الشخصية هي شخصية محمد الكبير بصفته السياسية و العسكرية ، و بالتالي فهي الشخصيـة الأساسيــة المسيطرة علــى كل أحـــداث الرحلة ، و المتميزة

---

(1)- ابن هطال التلمساني المصر السابق ، ص: 34.

(2)- نفسه ، ص:102.

بحضورها الدائم في جميع أحداثها ، و على جميع صفحاتها من البداية إلى النهاية ، و هو ما يعطيها الشرعية أن تأخذ صفة الشخصية المركزية .

ثالثا : هناك شخصية السارد لأحـداث الرحـلة ؛ نعني بها شخصية بن هطال التلمساني ، و هـذه الشخصيـة تطرح مجموعة من التساؤلات عن علاقتها بأحداث الرحلة ، و بالشخصية المركزية فيها ، و دورها في توجيه الأحداث بالسلب أو بالإيجاب ، بالإضافة أو بالحذف.

أ – الشخصية المركزية :

هي تلك الشخصية التي بنيت عليها أحداث الرحلة من خلال حضورها المكثف فيها، و أثرها الكبير في توجيه أحداثها، إنها شخصية محمد الكبير بدون منازع ، فهو المخطط، و المنفذ، و المتابع، و الموجه . لقد حضرت هذه الشخصية بصفتها السياسية و العسكرية في مختلف محطات الرحلة ، من بداية التخطيط إلى نهاية انجاز و تحقيق الهدف . و قد كان حضور هذه الشخصية في الأساس بحركة الجسد ، أعني أن انتقالاتها عبر فضاءات الرحلة كانت بالجسد ، من خلال الحضور الفعلي في مسرح الأحداث . و عليه فإن مركزية هذه الشخصية تتجلى بأفعالها لا بأقوالها ، و ذلك هو شأن الشخصية المركزية في الحركة بسكون الراء.

و كما هو واضح ، فإن هذه الشخصية لا نسمع من خلالها صوت الأنا الذي عادة ما نسمعه في الرحلات الحجية ، و مرد ذلك دون شك إلى أن هذه الشخصية — كما أسلفنا – تنجز الأحداث لا تسردها ، ذلك أن النقاد و الدارسين ، خاصة المهتمين منهم بفن الرحلات ، يتفقون جميعا ، أن من يمارس << الفعل في الحركة شخصية مركزية ، و تترك السرد لشخصية مرافقة تأتمر بأوامر الشخصية الأولى عبر محطات الطريق المادي و السردي أيضا <<[1]. و عليه فان إبراز قيمتها و أهميتها ، و التبشير بانتصارها و تحقيق هدفها ، تكفل بها السارد الذي عمد منذ البداية إلى أن يلمح إلى طبيعة النهايـة ، بالاعتمـاد على إبراز الصورة المثالية لبطل هذه الرحلة << قامع المبغضين . و مـدوخ المارقين ، من جمع الله له خصال الشرف و المجد ، و موجات الشكر و الحمـد : محـل الجـلال و العظمـة و الجـود ، المخصـوص بنصر الآراء و البنود، ذا الأيادي العميمة ، و المنـن العظيمة و السياســة السديدة، و النعـم المديدة ، الـذي انعقـد على تفضيـله الإجمـاع و جعـــل من فلك

---

(1)– عبد الرحيم مودن ،الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق، ص:85.

اليمن و السعد في درجة الارتفاع ...السد محمد باي بن مولانا السيد عثمان باي ، رحم الله السلف و جعل البركة في الخلف و خلف الخلف – آمين – << [1].

لقد عمل السارد من خلال هذا الكلام الاستفتاحي ، أن يضع الشخصية المركزية في أعلى مقام ، و قد استطاع فعلا أن يعطي لها جميع الصفات التي تهيئ المتلقي و تجعله ينتظر أحداثا تنبئ فعلا عن شخصية مركزية ، تبدو في صورة البطل المتشبع بالثقافة الدينية التي فرضت نفسها في هذا العصر << الذي يعبق بالعرف الروحي الذي تنسمته كل الطبقات الاجتماعية ، و انجذبت إليه كل الفئات << [2]. بل أكثر من ذلك تنبئ بصورة البطل المثالي ، الذي يقهر الظلم و الطغيان ، و يتفوق على الأقران ، و يتميز بالخلق الرفيع ، و حسن الصنيع ، و نجدة الصريخ ، و تلك هي الصفات التي كثيرا ما تغنى بها العرب و وشحوا بها قصائدهم التي نظموها في مدح السادة و الخلفاء و الأمراء .

لقد كانت الشخصية المركزية في هذه الرحلة نقطة الارتكاز الأساسية التي خضع لها كل ما فيها ؛ فهي شخصية فاعلة متحركة آمرة ناهية ، و قد ظهرت هذه الشخصية دوما << في حالة فعل ، سواء كان هذا الفعل عسكريا أو فعلا رمزيا من عطايا و هبات << [3] .و هو ما تؤكده صورتها التي نجدها عليها في مختلف مراحل الرحلة ، حيث ظهرت منذ البداية بصورة العسكري الذي لا يتحرك إلا بزاد و جيش ، واضعا نصب عينيه أسوأ الاحتمالات ، فقد << جمع جموعه و قواده ، و نشر أعلامه ، و لم يزد على أن كان جيشه حشمه و خدامه ، و خرج يوم الخميس من ربيع الأول بقومه و عسكره << [4].

وهذه الصفة العسكرية لم تمنعه من تقبل هدايا البعض ممن توسموا فيه الخير من أهل دائرته المنتمية لسلطته << فبعض أهل دائرة سيدنا "الباشة"– نصره الله – بعث فرسا أنثى من عتاق الخيل محبة و رغبة في سيدنا << [5]. و على هذا الأساس تصبح نظرة الشخصية المركزية في هذا النوع من الرحلات

---

(1)– ابن هطال التلمساني، المصدر السابق ، ص:36.

(2)– الحسن الشاهدي، المرجع السابق، ص:68.

(3)– عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر مرجع سابق،ص:102.

(4)– ابن هطال التلمساني، المصدر السابق،ص:37.

(5)– نفسه ، ص: 39.

قائمة على تقابلات ثنائية محكومة بطبيعة الرحلــة مثل : التمرد و الخضوع ، الصديق و العدو ، الاضطراب و الاستقرار ، السلم و الحرب ، الانتصار و الهزيمة...

و حتى تكتمل الصورة المثالية لهذه الشخصية فى صورتها العسكرية ، فقد تجلت فيها صفات القائد المسلم المتميز بالإنسانية ، و المستفيد من وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه لقائد جيش المسلمين أسامة بن زيد فمحمد الكبير – الإنسان المتشبع بالقيم الإنسانية – نبه >> أن المرأة لا يتعرض لها ، و لا يأخــذ أحــد شيئا مــن لباسها ، صــونا لحرمتها و تنزيها عن حقارتها ، فلما رأى ما حل بهم أدركته الشفقة عليهم . فأمر بإطلاق الشيوخ و الصبيان و ترك الكهول ، و الشبان و الأعيان حتى أوصلهم إلى المحلة و باتوا على حالهم تلك الليلة ...ثم أطلقهم مناً منه عليهم ، ...و كــان أكثـر ما أدركتــه الــرقة حيــن رأى شيخـا كبـير الســن مــــن ذرية بعض الصـالحين أنه لا يقــدر علــى المشــي ، أمــر خــدامه أن يحملوه ، و كساه و أعطاه دراهم << [1].

و في موضع آخر أوصى جيشه >> على الأشجار و النخيل ، فلا يقطعون شيئا منها و من قطع شجرة أو نخلة فالله حسبه و متولي الانتقام منه << [2].

و الملفت للانتباه في هذه الشخصية ، أنها بعيدة كل البعد عن مظاهر البهرجة و حب الظهور ؛ إذ لم يذكر كاتب الرحلة في بدايتها مظاهر تجمع الأهالي للتوديع و الصياح بالدعاء له بالنصـر و العــودة ســـالما بالغنائم ، و التي عادة ما تصاحب غيره من الحكام الذين يخرجون للقتال . و يبدو أن ذلك راجع لطبيعة شخصيته المعروفة بالحكمة ، و الرزانة ، و الجد . و قد استحق بذلك المدح و الثناء لشخصه و الإشادة بأفعاله و قد تكفل بذلك أتباعه و مرافقوه ممن يقرضون الشعر ، و إن كان ذكره (الشعر) في الرحــلة على– غير العادة – قليل تماشيا مع رغبــة الكاتب في أن لا يطيل كما أشار إلى ذلك صراحة كما رأينا من قبل في مقدمة الرحلة ، و مما يمكن الإشارة إليه في هذا المقام قــول: >> السيد الحاج أحمد بن السيد محمد بن علال القرومي دارا و منشأ في قصيد مطولة :

لقـد أنجـز الآمال وعـــدا من النصر ... كما أبرز الإقبــال ما كــان في القـدر
و أهــدى فــؤاد الفتح عــذراء بلدة ... مثقـلة الأرداف في الحــلل الخضــــر

---

(1)– ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص:47.

(2)– نفسه، ص:57.

أحــاط لها بالثغــر من كـل جـانب   أســود الشـرى و الغيل يرمق عن شزر
أمـير لــه في النـاس عـدل و سـطوة   فعامـــــــــله في تلـك يرفـع بالجـــر
لقــد دوخ الأرض البسيــطة طـــوله   لصاحب مرمى الحق أو صاحب الجور
على رحبها ضاقت على وسع جنده   فتسمـــع من بعـد صـــدى نقـــر البتر
كأن قــرى الأغـواط جمـــع مـؤنث   فيعمـــل فيــه الفتــح جيشه بالكـسر
لــذاك تــرى الأغــواط أن ذكر اسمه   تفقــد رأســا هــل أبيــن من النحـــر
كـأن بــلاد الشـرق و الغـرب كفــه   فيأمــــر بالعمـــران فيــها و بالقفــــــر
إذا رام شخــص أن يحــدث نفســه   خــلافا طوى عنــه الأصابع بالعصـــر
تــرى مترف الأعـــداء حول خبائه   مصــرعها للوحـــش أكـــلا و للطير<< [1].

لم تبرز الشخصية المركزية في هذه الرحلة بصورتها الجسدية ، رغم أن كتب التراجم و السير و غيرها من المؤلفات في هــذا العصــر و قبله ، كانت تحفل كثيرا بالحــديث عن طـول الجسم ، و لون البشرة ، و عرض المنكبين ، و لـون العينين ، و إنما برزت بصفاتها المعنوية التي تنبئ بطبيعتها و قيمتها كالحلم ، و العلم ، و الشجاعة ، و القوة ، و السماحة ، و غيرها من صفات الأبطال و خيرة الرجال .

كما لم تبرز من خلال لعبة الضمير على مستوى السرد بضمير المتكلم ، و إنما تجلت بأقوالها و أفعالها من خلال أكثر الضمائر استعمالا في السرديات – القديمة على وجه الخصوص – سواء الشفوية منها أو المكتوبة ، أعني ضمير الغائب الذي يعود عليها كشخص موجود في هذا الوجود ، عاش حياته على وجه الأرض بلحمه و دمه ، و ذكر في كتب السير و التراجم و التاريخ باسمه و نسبه.

و ضمير الغائب –كما هو ثابت – يعتبر من أشهر الضمائر و أكثرها تداولا في السرد قديما و حديثا ، حتى أن بعض النقاد –كعبد الملك مرتاض– يصفونه بـ >> سيد الضمائر السردية الثلاثة ، و أكثرها تداولا بين السراد، و أيسرها استقبالا لدى المتلقين ، و أدناها إلى الفهم لدى القراء<< [2]. و الحقيقة أن توظيف ضمير الغائب هـو الأنسب في هذا المقام ، باعتبار أن الكاتب– كاتب الرحلة –

---

(1)– ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص، ص:84، 85.

(2) – عبد الملك مرتاض،في نظرية الرواية، مرجع سابق،ص:177.

يروي أحداثا تاريخية واقعية مرتبطة بالفعل السردي " كان " ، و رغم مشاركته في هذه الأحداث ، أو على الأقل حضوره أثناء وقوعها ، إلا أنه يحكي عن ماض و لا يصور حاضرا و لا يستشرف مستقبلا ؛ فالحاضر لحظة لم يستطع أحد تحديد مدتها ، و لن يستطيع ؛ فالزمن يمتد في الماضي إلى ما لا نهاية ، و كذلك يمتد في المستقبل إلى ما لا نهاية . و الماضي هو المادة الخام التي يمكن استرجاعها ، بينما المستقيل فهو في علم الغيب، لا يعلمه و لا يدري ما سيقع فيه أحد و كل ما يأتي من حديث عنه ما هو إلا محض خيال و محاولة استشراف .

و توظيـف ضمير الغائب للدلالة على الشخصية المركزية في سرد أحداث هذه الرحلة ، هو بطريقة غير مباشرة مدح و تعظيم و خدمة لها ، و تلك حقيقة أرادها كاتب الرحلة و صرح بها صراحة بقوله : >> و قد أردت أن أذكر منه نبذة أخدم بها حضرة قامع المبغضين... << [1]. و بذلك تبرز هذه الشخصية كشخصية عظيمة ، تذكرها أفعالها و يحكى عنها تاريخها ، و يمجدها غيرها ، و لا تحكي عن نفسها بضمير" الأنا " الذي قد يحط من قيمتها ، و قد يدخلها في دائرة الذين يزكون أنفسهم .

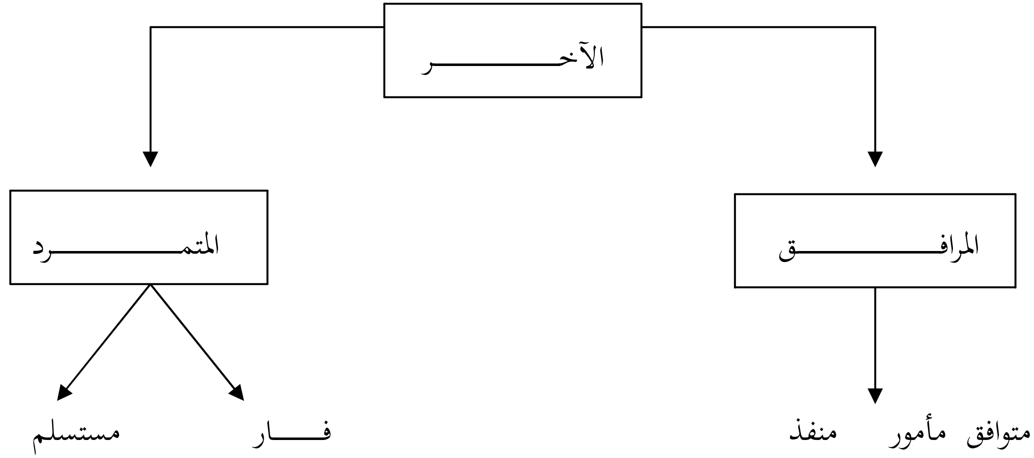
ب – علاقتـــــــــــها بالآخـــــــــــــــر:

لا شك أن الشخصية المركزية في هذه الرحلة ليست وحدها ، و لن تكون ؛ فالمنطق يفرض تواجد شخصيات أخرى على مسرح الأحداث ، هي التي تساعدها على الظهور، و تسمح لها أن تتحرك و تفعل ؛ فالشخصيات الأخرى بالنسبة للشخصية المركزية كالماء للسمكة ، ذلك أن الشخصية مهما كانت ، لا يمكنها أن تعيش وحيدة منعزلة .

و من خلال اطلاعنا على الرحلة و قراءتنا لها ، تبين لنا أن تعامل السارد مع الشخصيات كانت تحركه نظرة خاصة للآخر ، قائمة في الأساس على السعي الحثيث لإبراز هذا الآخر في خدمة الشخصية المركزية . و عليه فقد بدا السارد منحازا بصورة واضحة للشخصية المثال وفق رؤيته التي بنى عليها سرده للرحلة ، حتى غدت الشخصية المركزية في هذه الرحلة تمثل كفة ، و بقية الشخصيات تمثل كفة أخرى ، و هذه الأخيرة جميعها تمثل الآخر الذي يمكن أن نقسمه إلى قسمين اثنين على الشكل الذي يوضحه الجدول التالي:

---

(1)- ابن هطال التلمساني، المصدر السابق،ص:35



لقد مثل الآخر المرافق هنا أفراد الجيش الذين يمكن اعتبارهم شخصية جماعية ، و هم الذين ينتمون لنفس الثقافة و نفس الاتجاه اللذين تنتمي إليهما الشخصية المركزية ، لذلك تجدهم على توافق تام معها ؛ يوافقونها الرؤية ،و يشاركونها الحلم ، و قد ظهروا في الرحلة بصورة المجاهد الذي ينفذ الخطة ، و يستجيب للأوامر ، و يسعى للانتصار. كما نجد على مستوى الرحلة الآخر الذي جاء بصورة الفرد المعروف باسمه و نسبه ، و الذي تجلى كشخصية مرموقة أخذت مكانتها ، و برزت قيمتها ، بفضل الشخصية المركزية التي وثقت بها و بإمكانياتها ، فكلفتها بالمهام الجسام . الأمر هنا يتعلق بمن << كان مصاحبا له (1) في هذه المحلة قرة ناظره ، و عضد ساعده ، صاحب الفخر و الامتنان ، جامع شتات الفضل و الإحسان ، وارث مجده ابنه السيد عثمان فأمره أن يقوم بأمور المحلة و يسير بها رائدا من غير عجلة >> (2). غير خاف أن طريقة التعامل مع هذه الشخصية من خلال اللغة المستعملة ، شبيهة إلى حد بعيد باللغة المستعملة في الحديث عن الشخصية المركزية ، و هذا يعتبر أمرا طبيعيا من منطلق أن علو همة الابن و لمعان صورته ، هو في الأصل تلميع لصورة الأب الذي يمثل الشخصية المركزية .

ونموذج مثل هذه الشخصية – نعني شخصية الابن – لا يتكرر كثيرا ؛ إذ أننا لم نجد مثلها في هذه الرحلة إلا مرة واحدة ، حين قام الباي محمد الكبير بتكليف مشابه تمــاما لتكليـــف ابنه ، كان ذلك

---

(1)- الضمير هنا يعود على الباي محمد الكبير .

(2)- ابن هطال التلمساني، المصدر السابق ، ص:43.

عندما عزم الخروج لقتال أهل " الزنينة " * لكنه << استصغرهم في عينيه . فعلت همته أن يتولى قتالهم بنفسه ، فأمر خليفته و متولي خدمته ، من له قدمه في المفاخر السيد محمد بن عبد الله أن يذهب إليها و يرجف بخيله و ركابه عليها ، و حيث سمع كلامه نهض إليها و أخذ معه بعض العسكر<< [1].

و بالرغم من السيطرة الكاملة للشخصية المركزية على القول و الفعل ، و الأمر و النهي ، أو هكذا أراد لها مقيد الرحلة و سارد أحداثها أن تكون ، إلا أنها في الأحداث الكبرى نجدها تعمد إلى الشورى و تطلب المشورة من كبراء القوم و أركان الدولة الذين تتوسم فيهم الرأي النصيح و الحزم الصريح ، مثلما حدث مع أحداث الأغواط حين << رجع إلى محلته ، و جمع كبراء قومه ، و أرباب دولتــه ، و اختبرهــم في كيفية قتــالهم ، لينظر سيدنا رأي القوم ، و يدفع بمشاورتهم عنه اللوم ، فوجد الكل متفقين على رأيه ، و مسلمين أمرهم إليه << [2] و تلك علامة من علامات القيادة الناجحة .

أما الآخر العدو المتمرد، فإنه بالنظر لطبيعة إستراتيجية كاتب الرحلة المعلنة منذ البداية، فانه سوف لن يكون إلا آخر سلبيا، مقابلة بالآخر المرافق، و عليه فإن تجليات هذا الآخر سوف لن تكون إلا في صورة الفار المستغني عن أملاكه و موطنه << فلما رآه أهل تلك القرية ، علموا أنهم لا قــدرة لهــم و لا طاقـة لمـلاقاته ، فخــرجـوا منها بأجمعهـم ، ولم يأخــذوا شيئا من أمتعتهـم و قوتهـم، و تركـوها خاوية على عروشها، أسيرة في يد ممقوتها، فدخلها من غير حصار عليها و لا قتال<< [3]. أو في صورة المستسلم الصاغر أمام السلطة ، << مثل أولاد صالح ، و أولاد يعقوب " القبالة " ، و أولاد يعقوب " الغرابة " و غيرهم. كلهم أتوا بالقادة طالبين الأمان لأنفسهم متحملين لما فرض عليهم << [4].

إن الفرار أو الاستسلام كلاهما يعني قوة السلطة و تمكنها من فرض سلطتها . و هذا يعني أن الآخر خدم بصفة أو بأخرى الشخصية المركزية ، و من خلالها السلطة فـ<< الاهتمام الواسع بأسماء الأماكن و الأعـــلام ، و لحظات المعــارك ، و نوعــية المتمردين ، فضلا عن صـــور الولاء و تحـديد

---

* مدينة قديمة تعود الى ما فبل العهد الروماني تحمل اسم ابنة اللك "دمد" تقع الأن بإقليم ولاية الجلفة

(1)- ابن هطال التلمساني، المصدر السابق ، ص:51.

(2)- نفسه ، ص: 56.

(3)- نفسه ، ص: 51.

(4)- نفسه ، ص: 45.

البيعة، و صور الهزائم التي مني بها الأعداء، و المظاهر الاحتفالية الدالة على الانتصار >> [1]. هذه الاهتمامات جميعها، تحمل من جهة دلالة تاريخية الرحلة و واقعيتها، و من جهة أخرى تعمل على تلميع صورة السلطة ، خدمة لرأس الهرم فيها محمد الكبير الذي سعى إلى ذلك – أعني تلميع صورة السلطة – فهو بمجرد جلوسه على كرسي الحكم، بدأ بالإصلاح و راح ينشر الأمن و يؤلف بين القلوب. و ما يتوجب الإشارة إليه فيما يخص الآخر السلبي ، أنه لم يكن عدوا دينيا و إنما هو آخر متمرد، يأخذ صفة العداوة السياسية ؛ إذ لا حديث في الرحلة عن الآخر النصراني أو الكافر الذي يستوجب الجهاد بمفهومه المقدس .

ج – الســـــــــــــــــــــــارد:

نعني به هنا مؤلف الرحلة أو بعبارة أخرى كاتبها الرسمي ، الذي أخذ صفة الرسمية من كونه أحد أعوان الشخصية المركزية المرافق لها في الرحلة التي زحف من خلالها إلى الجنوب ، قصد تأديب المتمردين و ضم الخارجين عن سلطان الدولة ، بل يعتبر من أقرب المقربين لهذه الشخصية ، و يكفي دلالة على ذلك ،كما أشرنا من قبل، أنه اختاره مبعوثا خاصا له ، يبلغ رسالاته للحكام و يتكلم بلسانه معهم . المقصود هنا ابن هطال التلمساني ، الشخص المعروف باسمه و نسبه و وظيفته ، و بالنظر لما قلنا آنفا و من خلال اطلاعنا على مجريات أحداث الرحلة كما نقلها لنا السارد ، فإنه كان على توافق تام مع الشخصية المركزية، إلا أن العلاقة بينهما بقيت علاقة حاكم بمحكوم، مما يجعله كغيره مأمورا و منفذا للأوامر .

و بالرغم من أن السارد كان مرافقا و في بعض الأحيان مشاركا في الأحداث ، إلا أننا ألفيناه حريصا على أن ينأى بنفسه عن الظهور ، رغبة منه أن يترك مجال الأفعال مقصورا على الشخصية المركزية ، التي تمثل السلطة رغبة في إظهارها في صورة البطل الأوحد ، و إن لم يعد لمثل هذا البطل وجود ، و صنيعه هذا مشابه تماما لدور الإعلام المعاصر مع الشخصيات البارزة التي يريد أن يســـوق لها ، و يقدمها بالصورة التي عادة ما يكون قد حصل الاتفاق على جميع تفاصيلها، و هذا الدور لا يختلف عليه اثنان في عالم اليوم .

و لو بحثنـا علـى ما يثبت رغبـة الســـارد في أن يبقـــى بعيدا عن الأحـــداث في ملفـــوظ الرحلة

(1)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر مرجع سابق، ص:104.

لوجـدنا ذلك متجسـدا من خـلال ظهـوره بصورة ذلك النوع من السراد ، الذي يطلق عليه النقاد << السارد بضمير الغائب >> [1] . و يبدو ذلك واضحا من خلال تركيزه على استعمال هذا الضمير مركزا على أفعال ذات دلالات تناسب طبيعة الرحلة و الغرض منها ، مثل : خرج ، نزل، أقام، ركب، زجر، عزم، أمر، أوصى أسر عفا ...الخ لقد سعى ابن هطال عبر مختلف محطات الرحلة أن يظهر بصورة الراوي الشاهد على الأحداث ، و لكنه على عكس ما نجده في الرواية ، فهو عالم بما حـدث باعتبار أنه يمـارس الـرواية البعدية للحـدث ، و لأنه يكتب تحت أنظار عين سلطة تتحكم فيه ، و قد ألفيناه هو الآخر يمارس سلطة على المتلقي ، و دليل ذلك أننا لم نقع على امتداد الرحلة على أي سلبية في الشخصية المركزية ، فلا خطأ و لا خطيئة اقترفتها ، و لا نكسة و لا هزيمة واجهتها.

و لأن السارد أراد أن يجعل من الشخصية المركزية محور الأحداث و الوقائع جميعها ، فإنه لم تقع أعيننا في الرحلة على ضمير المتكلم متصلا بالأفعال و الأحداث إلا ناذرا ، و قد كان ذلك في مناسبات متفرقة في الرحلة ، كما في قولـه : << و ركب مسـاء يوم الاثنين وقت المغـرب ، و **مـررنا** بموضـع يسمي " اللفيحة " فنزل فيـه بعـض الليل >> [2]. و كذلك في قوله : << و نزل " عين وزاحة " و بهذا المنزل مدينة إلا أنها خالية و **أصابنا** الثلج في الطريق و دام كذلك حتى **نزلنا** ... >> [3].
كما ظهر في الدعاء في ختام الرحلة << فقد انتهى ما كنا أردنا جمعه....فلله الحمد على ما من به مـن إكماله ، و الشكر له على ما منحنا من إنعامه >> [4]. و قوله : << و انما اشتغلـوا بتوسع طـريقها ، و قطع جناحها ، حتى أننا إذا حملنا عليها بعد اليوم لم نجـد ما يشغلنا عن قتالهم >> [5].
و إسقاط هذا الضمير يعتبر علامة فارقة في هذه الرحلـــة ، تميزها عن غيرها من الرحلات التي اعتدنا

---

(1)- عبد الرحيم الكردي،السرد في الرواية المعاصرة الرجل الذي فقد ظله نموذجا ، دار الثقافة للطباعة و النشر، القاهرة،الطبعة الأولى، 1992، ص: 150.
(2)- ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص:39.
(3)- نفسه ، ص:82.
(4)- نفسه ، ص:105.
(5)- نفسه ، ص:57.

أن نسمع حكاياتها و نقرأ متنها ، من خلال ضمير الرحالة الذي يتحرك بجسمه ، و يتحدث بلسانه ، و يعبر عن ذاته بضمير الأنا جمعا أو مفردا .

إن الأفعال المقترنة بضمير المتكلم الجمع و المشار إليها آنفا ، تؤكد و تثبت ما قلناه من قبل بأن السارد / الراوي كان مشاركا في الرحلة ، إلا أنه آثر البقاء خارج حكاياتها ، و تلك هي طبيعة السارد في هذا النوع من الرحلات باعتبار أن << سارد الحركة مجرد شاهد يحكي من خارج الحكاية بالرغم من وجوده في ركاب الحركة ، فهو لا يحكي إلا من خلال ذات أخرى تعيش حكايتها فعلا و قولا >> (1) . و هذه الذات ما هي إلا الشخصية الرامزة للسلطة و الممثلة لها .

و إذا تتبعنا ما جاء من أحداث في الرحلة ، فإننا نجدها منتقاة ، و مال فيها السارد إلى الاختصار مبتعدا عن التعليق و الشرح و التفصيل – إلا ناذرا – و قد أكد في بداية سرده لأحداث الرحلة أنه سيكون في حديثه << مقتصرا على ذكر خروجه إلى جهة القبلة >> (2) . و حتى في المواطن التي تتطلب التعليق ، أو الرفض و القبول ، بدا لنا السارد في كثير من الأحيان متحفظا ، و هو ما يوحي بالحذر الشديد من قبل السارد ، و هذا الحذر قد يكون طبعا فيه ، كما قد يكون مفروضا عليه ، و يبدو أن وضعه السياسي داخل السلطة ، فرض عليه أن ينظر لما حوله بمنظار هذه السلطة ؛ فرؤيته لما حوله لا تتجاوز رؤية الشخصية المركزية التي أصبحت بالنسبة إليه هي المرآة التي تعكس له ما يجري أمامه من أحداث ، ذلك ما جعله يبدو غير حر في التصرف فيها بالإضافة أو النقصان ، مثلما فعل ابن جزي مثلا مع رحلة بن بطوطة.

و لا عجب في ذلك ، ما دام الأمر هنا يتعلق بسلطة حاكمة لا ترضى إلا بما تراه ، و لا تقتنع إلا بما يخدمها ، و يحقق مصالحها ، و يسهل تنفيذ إستراتيجيتها ، و عليه فقد كان – كغيره من سراد الحركة – << هاجسه الأساسي تقديم الأحداث على مسرح خريطة قدت سلفا على مقاس السلطة .فهو لا يفسر المسرود أو يؤوله >>(3). و لا يقدم منه إلا ما يناسب توجهات هذه السلطة ، و يتوافق مع وجهة نظرها ، و لعل هذا كاف بأن لا نعثر على صفة سلبية واحدة في الشخصية المركزية أو عمل

---

(1)– عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر مرجع سابق،ص : 100.

(2)– ابن هطال التلمساني، المصدر السابق،ص:36.

(3)– عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر مرجع سابق،ص:88.

سلبي واحد صادر عنها بل أنه حتى حينما يذكـــر خسائر المتمردين لا يذكر أبدا خسائر الباي .

رابعـــا : بنـــاء المكان في الرحلة /الحركة :

ما دامت الرحلة – مهما كان نوعها – تبدأ من نقطة على سطح الأرض و تنتهي إلى أخرى ، و بين النقطتين تنتشـر الأماكن بأسمائها المعروفة بها على الخريطة ، كما هي معروفة بها على أرض الواقع ، بمدنها و قراها ، بجبالها و سهولها ، بأوديتها و أنهارها ، ببراريها و بحارها ... فإنــه من الطبيعي أن يصبح المكان دعامة من الدعامات التي لا غنى عنها في الرحلة ، << فالانتقال من مكان إلى آخر، هو العنصر الأساسي و الدعامة التي تؤطر الأحداث و الأفعال >> [1]. في جميع أنواع الرحلات ، إلا أنه يجب الانتباه إلى أن علاقة المكان بغيره من مكونات الرحلة ، يختلف من رحلة إلى أخرى ، بحسب طبيعة الرحلة و الهدف منها ، و حتى بحسب طبيعة الراوي و حالته النفسية التي يكون عليها ، أو وضعه بالنسبة لأحداثها بعدا و قربا حضورا و مشاركة ، أو علاقته بالشخصية المركزية فيها .

و لما كان الأمر هنا يتعلق برحلة رسمية بأبعاد عسكرية ، مخطط لها داخل دواليب السلطة ، فإنه يفترض فيها الخضوع لأعراف خاصة ، تجعل المكان فيها محددا و مدروسا وفق خطة عسكرية على خريطة تكون المسارات و المحطات فيها محددة تحديدا دقيقا ، و معروفة بجميع تفاصيلها ،الجغرافية و الانثربولوجية، فاختيار المسار لن يكون اعتباطيا، بل لا بد أن يكون قائما على دراسة معمقة تأخذ في الحسبان طبيعة الأماكن و جغرافيتها ، و كذلك طبيعة ساكنيها و أهلها ، و أماكن تواجد الماء فيها و آبارها . إضافة إلى كل ذلك لا بد من تحديد أوقات السير و التوقف، تبعا للمستجدات ليلا و نهارا .

و مع ذلك فقد صادفتنا في الرحلة بعض من المواقف تنبئ عن جهل بأهل المكان، ذلك ما يمكن الوقوف عليه مع شخصية محمد الكبير يوم << أتوه بخبر منزل القوم ، و أنه خلف الجبل ، فلما سألهم عن اسمهم وجدهم غير الذين أرادهم ، فزجر الطوالع و وبخهم ، و قال لمشايخهم إن لم تدلوني على ما ذكرت لكم ، فلا نقبل منكم غيرهم ، فعند ذلك جدت الطوالع في غارتها ، و تفرقت الخيل في نواحيها>> [2]. واضح من خلال هذه الفقرة أن الشخصية المركزية تطلب العلم بما تجهله ، عن طريق طلب مساعدة الآخر .

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق ، ص:317.

(2)- ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص:39.

و قد جاء المكان في هذه الرحلة – بطبيعتها العسكرية – خاضعا لمنطق السلطة الساعية إلى تغيير واقعه على وجه الأرض ، انطلاقا من الهدف المحدد مسبقا للرحلة و هو السيطرة و التحكم في المكان المنفلت ، و الذي من أجله كان التحضير و التجهيز ثم التحرك ، و التحرك في هذا النوع من الرحلات يكون في الأساس من أجل تغيير صفة المكان ، فـ<< الحركة إلى المكان تمهيد و ترويض له ، و تحويل لصفته من المنفت إلى المتحكم فيه، و من الثائر إلى الخاضع >> [1]. والحقيقة أن عملا من هذا الحجم ، يستحيل أن لا يكون وراءه أهداف أخرى غير معلنة ، و عليه يمكننا القول مطمئنين ، أن محاولة السلطة إخضاع المناطق المتوجه نحوها في الجنوب، سواء المتمردة منها أو الخارجة على سلطان الدولة، الهدف منها في كثير من الأحيان هو الرغبة الملحة في جمع المال لتدعيـــم الحزينة بالدرجة الأولى، و هو ما يوحي به قول الراوي من خلال خطابه المباشر للمتلق: << اعلم انه لما اتفق نظر سيدنا المذكور أطال الله بقاءه و أيامه و جعل النصر دائما خلفه و أمامه في جهة القبلة رأى إنها ذات بلدان كثيرة و أعـراب راحلة و مقيمة إلا أنها لم تنلها أيدي السلطنة ولم يكن للملك مصلحة ولا منفعة >> [2]. فأي مصلحة ؟ و أي منفعة ؟ لا شك أن الأمر يتعلق بالأتاوى التي كان يطلبها من المنهزمين و المستسلمين و يدفعها إلى بيت المال و قد كان مجموع ما يدفعه مائة ألف سلطاني ذهبي دون الهدايا ...[3]

و إذا كان المكان في الرحلة الحجية يخضع في الغالب إلى ثنائية المقدس و المدنس، فإن المكان في رحلة الحركة باعتبارها رحلة عسكرية داخلية يخضع إلى ثنائية المكان الخاضع و المكان المستقل أو المتمرد و عليه فإن نقطة الانطلاق من الطبيعي أن تكون من المكان الخاضع، و الخضوع هنا نعني به طبعا الخضوع إلى سلطان الحكم، و الظاهر أن هذا المكان لم يعره السارد كثير اهتمام، ولم يأت على ذكره إلا بالإشـارة إليه كنقطـة انطلاق، تقابل الحرف"من" في سير الرحلة يتجلى ذلك في قـوله : << فخرج من" المعسكر" التي هي محل وطنه >> [4].مع ما تحمله كلمة " وطنه " من دلالة الانتماء و الحميمية .

---

(1)– أحمد بو غلا ، المرجع السابق، ص:206

(2)– ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق، ص:36.

(3)– ينظر نفسه ، ص: 30.

(4)– نفسه ، ص:37.

والواضح من خلال الاطلاع على الرحلة و تتبع حداثها، أن التركيز الأساسي فيها كان على المكان المرتحل إليه ، و الذي يقابله الحرف " إلى " . و هو ما يدل عليه و يثبته بوضوح قـــوله : << مقتصرا على ذكر خروجه إلى جهة القبلة >> [1]. و على طول خط الرحلة، وفي مختلـف الأماكن التي مر بها الرحـالة محمد الكبير عبر مختلف محطاتها، كان كل شيء مرتبطا به، كشخصية مركزية، رئيسية مسيطرة و متحكمة في الوضع ، فالأماكن التي مر بها جميعها ، كانت إما تستسلم أو تنهزم ، فتنتقل بذلك من التمرد أو الاستقلال ، إلى الخضوع الذي عادة ما يرتبط بتقديم الكثير مما يجب تقديمه ، مما يفرضه الحاكم الغازي من خيل و ابل و زاد ...وعليه فان الحديث عن هذا الصنف من الأماكن كان مرتبطا دوما بعبارات قريبة المعنى و موحدة الدلالة مثل: " ففروا هاربين " "فهربوا بأنفسهم" "فغادروا صاغرين" " فخرجوا منها بأجمعهم " ...

و في بعض الأحيان يبدو المكان مستعصيا ، فيكون الحديث فيه عن المعارك و ما يتصل بالحرب ، من قلاع ، و أسوار ، و سلاح ، و أبراج ، و في هذه الحالة يتدخل الوصف كتقنية فنية فيقدم لنا صورة المكان كما تصورها عين السارد و يفرضها واقع الحال << و رتبوا أعيان البلاد أهل النجدة و البأس في الأماكن التي يخاف منها ، و جعلوا الرماة في الأبراج العالية المشرفة على جميع البقاع ، و غلقوا أبواب المدينة بالبنيان ، و ربما غلقوا السكك و أبواب الدور بالبنيان كذلك...مع أن هذه المدينة عظيمة في نفسها ، محمية بأسوارها و رجالها ، و لذلك لم يطمع أحد ممن كانوا قبله فيها >> [2].

هذا المكان المستعصي الذي ظهرت فيه قوة المتمـــرد ، تعامـــل معه الرحـــالة تعاملا خاصا وفق خطة استحدث من أجلها فرقة حاملي الفيسان ، التي يقتصر دورها على كسر الجدران و تهديم القــلاع ، رغبــة منـه أن يجعــل من المكان نموذجــا للمكان المهدم ،تماشيا مع الطبيعة العسكرية لهذه الرحلة ، فقد << بعث لأهل الفيسان، أن يأخذوا فيسانهم ، و أمر العسكر أن يذهبوا معهم...و أمر عسكر الترك أن يقصدوا الجبل مكانهم بالأمس، و باقي الطوائف أن يحدقوا بالبساتين من الجـهة الغربيـــة ، و يكون معهم أصحاب الفيسان ، ليهدمـــوا الحيطان التي في طريقهم ... >> [3].

---

(1)- ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق ، ص:36

(2)- نفسه ، ص:54.

(3)- ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق ، ص: 57.

لاشك أن هـذه الصـورة التي أعطـاها السارد للمكان ، من حيث انه كـان مشيدا يزهـو بالحياة ، فأصبح مهـدما قد هزت المعارك أركانه ، و خرت إلى الأرض سجدا حيطانه ، تحمل دلالة هي من وجهة نظر تأويلية في خدمة الشخصية المركزية – سواء قصد السارد ذلك أو لم يقصده – لأنها بكـل بساطة تثبت شدة بأس هذه الشخصية ، و قوة فتكها بأعدائها و المعارضين لتوجهاتها .

و ما يلفت الانتباه حقا في هذه الرحلة ، و خلافا لما نجده في غيرها من رحلات العصر خاصة الحجية و الزيارية منها ، أننا لا نجد حديثا صريحا مباشرا أو مفصلا عن الأماكن ذات البعد الديني ، كما لا نجد فيها علاقة واضحة بين الشخصية المركزية و أماكن المزارات كالمساجد العتيقة و أضرحة الأولياء قبور الصالحين ، بالرغم من أن العصر كما أسلفنا عصر تصوف . لكن رغم ذلك فإن هـذه الرحـلة لم تحجب عنا عبق الظاهـرة الدينيـة ؛ فهي حاضرة في ثنايا الرحلة من خلال تسميات بعض الأماكن بأسماء شخصيات مسبوقة دوما بلازمة " سيدي " مـع ما تحمله هذه الكلمة من دلالة اجتماعية و دينية على وجه الخصوص و هي شخصيات لا نظنها إلا من أولياء الله الصالحين ، كسيدي سليمان و سيدي عبد الله و سيدي علي و ضاية سيدي الطيب و غيرها .

– أنـواع الأمكنـة في الحركـة وعلاقتها بالوصف:

إن تجليات المكـان في الرحـلة لا يمكـن أن تكون بصـورة واحدة ، فهي متفاوتة و متباينة بتفاوت و تباين الأمكنة من حيث درجة اهتمام السارد بها ، تبعا لأهميتها الإستراتيجية من حيث الموقع و القيمة بالنسبة للرحلة و أهدافها . فهناك عدد غير قليل من الأماكن في هذه الرحلة تجاوزها السارد و لم يول اهتماما لها لا عـن رغبة و قصد منه بل لأن الرحالة تجاوزها ، إما لعدم أهميتها ، أو لأنها لا تدخل ضمن خطته المرسومة .

و لأنه – أعني السـارد – خاضـع لسـلطة يعتبر موظـفا عنـدها و خاضـع لقوانينها التي وضـعتها علـى مقاسـها ، فإنـه لا يسـجل إلا لحـظات كسر الحواجـز و العـراقيل ، أو لحـظات المجد و الانتصار التي تزين صورة السلطة في عين الرعية ، و عليه فإن سرده الذي يقدم من خـلاله الأمـاكن و الأحـداث و الصـور هو في الواقع << سرد صادر " عن مؤسسة ساردة " قبل أن يكون صادرا عن سـارد ما . و مـن ثم فهو سـرد مخـزني يهدف إلى الحـديث عما ترغب

فيه المؤسسة ، أي ما يجب أن يكون دون زيادة أو نقصان ، أو تأويل ينبني على المتخيل أو الذي لم يتحقق >> [1].

من نماذج هذه الأماكن التي قدمها السارد كمحطات ثانوية قوله : << و ارتحل من القطيفة و مر بالبيضاء فأمر الناس أن يسقوا دوابهم ...ثم جاوزها و نزل بمكان قريب منها ثـــــم ارتحل و نزل "الحليات " و ارتحل فنزل " مركانة "على يمين " واد سبقاق" بنسبة الذاهب جهة القبلة >> [2]. فهذا المقطع كما نلاحظ عبر فيه السارد على مرور الرحالة على مجموعة من الأماكن ، دون أن يقيم فيها أو يهتم بها ، أو يحدث له حادث عظيم فيها ، و بالتالي لم يكن للسارد كذلك أي اهتمام بها في متتاليات السرد .

و من خلال الاطلاع على الرحلة و محاولة إحصاء الأماكن فيها و تصنيفها، تبين لنا أن هذه الأماكن يمكن تقسيمها إلى أنواع بحسب تعامل السارد معها، من خلال اعتماده على الوصف الذي هو دور السارد، باعتبار أن دور الشخصية المركزية << هو القيام بالحركة، و توجيه أحداثها و مسارها، و هذا يعني تكفله بالأفعال السردية و ضمان توالي أحداثها، تاركا الوصف لمن يحيط به >> [3] .

و الحديث عن السرد في حقيقة الأمر ، لا يمكن أبدا أن يستقيم و تتم دلالته ، ما لم يكن مقرونا و ممتزجا بالحديث عن الوصف ، خاصة في الأعمال الأدبيــة التي كثيــرا ما ترتبط بالواقــع كما هو حال الرحلة ؛ إذ الأكيد أن هناك نوعا << من التداخل بين الوصف و السرد فيما يمكن أن نسميه بالصورة السردية ، و هي الصورة التي تعرض الأشياء متحركة >> [4] .

و لأن الرحـلة تقدم أحـداثا واقعيـة ، فهي ليست بعيدة عن كتابات الواقعيين الذين شغفوا كثيرا بوصف الأماكن و المدن ، خاصة كتاب الرواية الواقعية الحديثة. و يبدوا أن السارد في هذه الرحلة لم يبتعد كثيرا عن ذلك ، باعتماده على الوصف و بصورة ملفتة ، و من أبرز أنواع الأمكنـة ذات القيمــة و الـدلالة ، و التي يبـدو أنها كـانت في ذهـن الرحـالة كما في ذهن السارد ، المدن التي

---

(1)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر مرجع سابق ، ص:93.
(2)- ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق، ص: 44.
(3)- أحمد بو غلا ، المرجع السابق ، ص:213.
(4)- سيزا قاسم ، المرجع السابق ، ص:117.

يتفـق النقـاد علـى أهميتها و مكـانتها في الأعمـال السردية و غير السردية ، قديما و حديثا .

لا نظن أننا سنختلـف مع أحـد عنـدما نعتبر أن المكان هو الخلفية التي تقع فيها الأحداث ، و أن العلاقة بين الاثنين هي علاقة تكامل في جميع الأعمال السردية التي تتطلب الحكي ، و عليه فان كتاب السرود خاصة التقليدية منها ، تجدهم شغوفين بالأمكنة و يولونها اهتماما خاصا ، فيصفونها و ينقلون صورتها كما هي ، تمهيدا لبسط الأحـــداث على مساحاتها ســـواء كانت طبيعيــة أم اصطناعية ، ضيقة أم واسعة . و الوصف كما يراه القدماء << إنما هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال و الهيئات >> [1] .

وهذا التعـريف – على بساطته – يتطابق من حيث أنه يـــوحي بأن غايته أن يعكس صورة الشيء من خارجه ، بنقل تلك الصورة من مظهرها المادي كما هي عليه ، إلى صورة تنقلها اللغة ، و بالتالي يستقبلها العقل و لا تستقبلها حاسة البصر ، أقول يتطابق مع واقع الحال في هـذه الرحلة التي تجلت فيها صورا لبعض المدن في العهد العثماني ، تشكلت لها صورة في مخيلتنا و أن لم ترها أعيننا بعد أن نقلها لنا السارد عن طريق اللغة ، و هي المدن التي اعتبرت كعلامات بارزة بأهميتها و قوة حضورها عبر مختلف محطات هذه الرحلة الحركة ، من ذلك :

أ– المعسكر مدينـــــــة المنطلـــــــــق:

المقصود بها مدينة معسكر بالغرب الجـــزائري ، أهميتها تستمـدها من عبق التاريخ ، الذي يفوح من كل أرجائها ، و عبر مختلف العصور و مراحل تاريخها ، منذ العهد الروماني و حتى اليوم .
ترتبط هذه المدينة في الرحلة بحرف الجر " من " ، ما يعني أنها تمثل المنطلق الذي انطلقت منه الحركة ، و بالتالي فهي تنتمي إلى المدن الواقعة تحت سلطة الشخصية المركزية ، فهي عاصمة بايليك الغرب الجـزائـري ، و بالتالي فهـي لا تمثل هدفا ، وقد يكون ذلك من الأسباب التي جعلت الحديث عنها قليلا ، و حضورها في الرحلة لم يأخذ حيزا كبيرا ، ففي بداية الرحلة /الحركة لم تذكر إلا بجملة واحدة " من المعسكر التي هي وطنه " .و الشح في أخبار هذه المدينة ، و عدم الاهتمام بها على مستوى السرد و عـدم التعـامل معها بالوصـف الذي يعتبر من ملازمات السرد ، له تفسير واحد ، هو اهتمام

---

(1)– أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيـــق محمـــد عبد المنعـــم خفاجي،دار الكتب العلمية بيروت لبنان، د ط ، د ت ،ص:130.

الشخصية المركزية و همها الأكبر اتجهـــا نحو المدن التي هي خـارج السيطـرة ، و التي تمثـل الهـاجس الأكـبر بالنسبة لهـا، و نفـس الاتجـاه كـان من قبل السارد الذي كما نعلـم و سبقـــت الإشـارة إليــه يعتــبر << في الحركة ناطقا رسميا باسم المؤسسة الشرعية >> [1]. و عليه لم نجد في هذه المدينة إشارة إلى خروج الأهالي ، و لا إلى مظاهر مراسيم احتفالات التوديع التي عادة ما تصاحب الحكام و السلاطين ، حين مغادرتهم لعواصمهم أو بلدانهم.

إلا أن الأمر اختلف في نهاية الرحلة بعد انجاز المهمة ، و العودة المظفرة ، فقد أصبحت هذه المدينة تمثل نقطة الوصول بعد أن كانت من قبل تمثل نقطة الانطلاق ، هذا الانقلاب في النظرة للمدينة لا شك انه سيكون له أثره في تغير وجهة النظر لها ، سواء عند الشخصية المركزية أو عند السارد كتابع لها ، فقد أصبحت معسكر و ما يحيط بها من مداشر و قرى ، محط أنظار الأهالي المتوافقين مع شخصية الباي محمد الكبير ، الذين توافدوا عليها و علامات الابتهاج و الفرح بادية عليهم ، و هم ينتــظرون عودة بطل منتصر << ثم جعلت الناس ترد عليه من " المعسكر "مثنى و فرادى و جماعات و استمر فعلهم على ذلك الحال إلى البيات و قد تباشر بقومه الدهر و قابل أيامه بالإسعاد حتى صارت من حسنها كالمواسم و الأعياد و عم خصبه الأهل و الرعية و البلاد فزال عنهم كل غم و ارتفعت عنهم الأحزان و الأنكاد و كانوا يريدون أن يفدوه بالأهل و المال . و ذكر وروده عندهم أحلى من العذب الزلال ، و أحق الناس بالتقرب و المال... هذا و قد تضاعف الفرح في ذلك اليوم ، و بات أكثر الناس يراقب الصبح ، فلم يساعده النوم. ....و دخل المعسكر و قد تم له ما أراده من الأشياء ، و نال المحمدة التي استحق بها الاستعلاء على الثريا ، فألقت عصاها و استقر بها النوى،كما قرعينا بالإياب المسافر >> [2].

هكذا عمت الاحتفـالات مدينة معسكر، التي أجهد السـارد نفسه ليبرزها في حلة العروس ، لتصبح بذلك المدينة الرمز ، التي منها انطلق محمد الكبير غازيا ، و إليها عاد غانما .

و لا شك أن مظاهر البهجة و الفرح التي وصلتنا من خلال متتاليات السرد ، هي من صنيع السارد بمباركة من السلطة ، و يبدو أن السارد هنا وجد فسحة ليضيف على أحداث الرحلة مقاطع من

---

(1)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر مرجع سابق، ص:94.

(2)- ابن هطال التلمسلني ، المصدر السابق، ص:100.

الشعرمن ذلك ما جاء في ثنايا الفقر المقتبسة السابقة حين أشار إلى قول القائل : إلا انها بقيت ت من ذلك :

لعمرك قد سرت بلاد المغـــارب سرور ضمئ بشـــر بالمشـــارب
وأُنسها من مرتع الخصب يحـــــــــــدِّث أن الـــــروض ليس بعــــــازب
استشعرت روح الأماني رواحها و شامت بروقا ألمعت بالسحائب
و عند طلوع البدر ليلا تسابقت إليه تحي راكبا بعـــــد راكـــب

و هـذا الشعر وظفه السارد عن قصد و وعي منه بما للشعر من مكانة في ثقافة العصر ، و ما له من قوة تأثير و إقناع للمتلقي المعاصر له على وجه التحديد ، وقد جاء هذا الشعر ، و غيره مما هو موجود في ثنايا هذه الرحلة ، في خدمة الشخصية المركزية ، و صب – دون شك – في خانة إرضائها و مدحها . و قد استطاع السارد من خلاله الانتقال من نمط تعبيري إلى نمط تعبيري آخر، و هو ما ساعد على تغيير إيقاع النص الرحلي ؛ فخفف عن المتلقي ثقل النثر ، و انتقل به إلى خفة الشعر ، فحرك فيه بذلك المشاعر و الأحاسيس التي عادة ما يحركها مثل هذا الشعر الغنائي .

ب – مـــــــــدن العبــــــــــور:

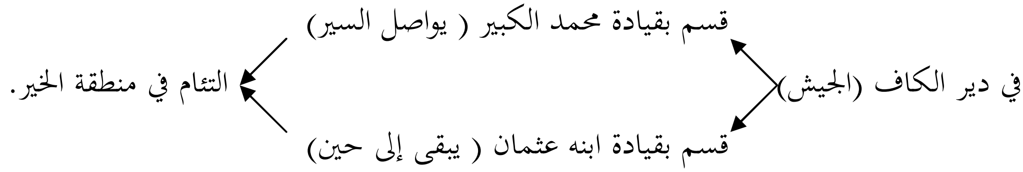
مادام هناك مدينة أطلقنا عليها صفة نقطة المنطلق ، فإن ذلك يفرض أن تكون هناك مدن للعبور و التعامل مع الآخر قبل الوصول إلى نقطة الهدف ، و ما دام الأمر يتعلق بحملة عسكرية فإن الأكيد أن هناك " محلة " تمثل جيشا بجميع مكوناته ، من قادة و عدة و عتاد ، ينتقل عبر محطات محددة ، يتخذ من بعضها أماكن للاستراحة و استعادة الأنفاس و مراقبة التنظيم ، و هذه الأماكن تمثلها مجموعة من المدن و المداشر ، تجلت في الحركة من خلال وقوف السارد عندها تارة بالإشارة و تارة بالوصف .

و الأكيد أن هـذه المدن خضعت لمنطق السلطة الراغبة دوما في التحكم باعتبارها الطرف الأقوى ، ما جعل هذه المدن و رغم أنها في الأصل مناطق عبور تبدو في أحد الموقفين : الاستسلام ، أو المقاومة ثم الانهزام ، و أماكن العبور في رحلة محمد الكبير هذه ، عديدة و متنوعة ، بين قرى ، و مداشر ، و جبال ، و وديان ...و نظرا لهذا التنوع و هذه الكثرة ، سيكون حديثنا في هذا العمل مركزا على المدن التي شغلت بال الدارسين قديما و حديثا باعتبار أن << المدينة عالم خصب مليء

بالنماذج الانسانية و الحياة و المفارقات >> (1) و من أهم المدن التي ذكرت في مسيرة هذه الرحلة العسكرية نجد :

- ديـــر الكـــــــاف :

بالرغم من أنها لم تذكر إلا بالاسم ، إلا أنها تعتبر من الأماكن الهامة في الرحلة ، و تأخذ أهميتها من أنها المنطقة التي تكشفت فيها خطة الداي محمد الكبير في هذه الغزوة ، و التي بنيت على تقسيم الجيش إلى قسمين ، قسم يكمل المسير و الآخر يبقى ليكون حاميا لظهر الأول مثلما يوضحه الرسم التالي:



- البيـضـــــــــــــاء :

و صلها محمـــد الكبير بعد مسيرة ثمان ساعات ، ويبدو أن المدينة مبرمجة كمحطة للراحة و التـــزود ، يؤكـــد ذلك تركيـــز الســارد على الحديث عن منابع مائها المتعددة و آبارها الكثيرة ، التي رغم تباين طيب مائها إلا أنها سهلة التناول ، ففي هذه المدينة >> استسقت الناس و علفت دوابها >> (2). و نفس ما قيل عن هذه المنطقة يقـــــال علـــى >> موضع يسمى " اللفيحة " ، نزل فيه بعض الليل للاســـتراحة >> (3). و لا شـك أن الاستراحة في الليل في موطن من المواطن ، دليل على أمنه و انعدام الخطورة فيه .

---

(1)- مختار أبو علي ، المدينة في الشعر العربي المعاصر ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد 196، الكويت ، ابريل 1996، ص:77.

(2)- ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق ، ص:38.

(3)- نفسه ص:39.

– الخضــــــراء و تاويـــــــــلة :

تمثل المنطقتان صورة المدينة المغلوبة عل أمرها ، فقد وقعتا بسهولة في يد جيش محمد الكبير << فأهلهما من الرجال و النساء لما سمعوا بقدومه قبل وروده عليهم ، هربوا بأنفسهم و ذرياتهم ، و تفـــرقوا في رؤوس الجبـال... >> (1). لقـد وظف السارد الوصف في حديثه عن المدينتين على شاكلة موازنة بينهما << و همـا مدينتان كل واحدة لها بساتين كثيرة ، و ماء غزير و مزارع ، إلا أن تاويلة أكثر عمارة ، و أوسع مزارع ، فلما نزل المحلة و حطت الناس أثقالها ، و ضربت خيامها ، و أخبيتها شرعوا في نهبها >> (2).

و الملفت في هذه الفقرة هو التعبير بكلمة " نهبها " و ما تحمله من معان و دلالات تطرح التساؤل عن سر توظيفها ، إن كان مقصودا أم جاء عفويا ، و مهما كان الأمر فإن الأكيد أنها تعطينا صورة للحكام الأتراك التي كثيرا ما تحدث عنها الدارسون و المؤرخون ، و هي الصورة التي يطغـى عليها الظلـم و الطغـيان ، و الاعتـــاء على الأملاك ، و إثقال كاهل الأهالي بالضرائب ، حتى قيل بأنه لا يوجد في الإمبراطورية العثمانية علاقة أسوأ من علاقة الأتراك بالعرب في الجزائر (3).

– الخيـــــــــــــــر :

يبدو أنها مدينة صغيرة ، إلا أنها ذات أهمية كبيرة بالنسبة لهذه الحركة ، و قد استمدت أهميتها من كونها المكان المتفق عليه مسبقا لإعادة التئام الجيش بعد أن قسم إلى قسمين لدواع أمنية كما رأينا من قبل ، و منطقة تختار لعملية كهذه ، لا بد أن تكون منطقة مناسبة ؛ بأن تتوفر على ما يساعد على التجمــع ، خاصــة فيما يتعلق بالأمن ، و الذي يبدو أنه توفر بنسبة جعلت السارد يقول : << فبات الناس على هناء >> (4).

و الخير كما وصفها ابن هطال << منزل فيه ثلاث عيون ،كل عين منها في غاية ما يكون في صفـاء الماء و قوتـه، و اتساع الأرض التي تسقـى به ،ثم تلك العيـــون مفترقة في أماكن ينابيعها ، و

---

(1)- ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق ص:42.

(2)- نفسه ، ص:41.

(3)- حنيفي هلايلي المرجع السابق ،ص:166.

(4)- ابن هطال التلمساني، المصدر السابق،ص:43.

حيث انفصلت عن أماكنها ، انحدرت من بلادها ، و اجتمعت فوق المضيق ، الذي يقال له : " رأس واد الشلف "... >> (1).و الملاحظ من خلال تتبعنا للوحات الوصف التي وقفنا عليها في هذه الرحلة ، اتساع الحقل الدلالي الدال على الماء ، و موضوعة الماء كما نعلم من الموضوعات التي تتكرر بصورة ملفتة في كتابات الأدباء ، و دواوين الشعراء قديما و حديثا ، و الماء كما يقال أعز مفقود و أهون موجود ، فلا عجب أن نجد أن تركيز ابن هطال في هذه الرحلة كان في أغلب الأحيان على الماء و ما يتعلق به ، باعتباره يحمل دلالـــة التطهير و دلالة الخصب و هو فوق ذلك كله سر الحياة للإنسان و النبات و الحيوان ، و الضامن لكل مرتحل لإتمام المسير و تحقيق الهدف .

– الـــــــــــــدبداب:

و تسمى أيضا "أبو شكوة " و قف عندها ابن هطال و دقق في وصفها فقال : >> و كما يسمى الدبداب يقال له: " أبو شكوة " أيضا . و " الكرط " في جهته الشرقية على نحو الميلين ،و فوقه " حاس الحمار" على نحو ثلاثة أميال و الجبل الذي في قبلته يسمى " الأخضر " و في طرف " الأخضر " من جهة الشرق قرية تسمى " الشارف "... >> (2).

هذا الوصف لا نحس فيه بجغرافية المكان بقدر ما نحس أنه وصف دقيق لموقع هذا المكان على الخريطة ، و موقعه بالنسبة للمناطق المجاورة له ، من خلال تحديد الأبعاد و المسافات ، ما يعني أن أهميته لا تكمن في ذاته بل تكمن في علاقته مع غيره من الأماكن المحيطة به شرقا و غربا ، شمالا و جنوبا ، و هو ما يجعل هذا الوصف يلامس التحديد العسكري للأماكن ، و بذلك فهو يخدم الجانب العسكري في شخصية محمد الكبير و يضع بذلك السارد في موقف الناظر بعين الشخصية المركزية و الناطق بلسانها ، و هي كما سلف ذكره الشخصية التي تمثل السلطة .

يؤكد هذا الرأي أحداث ماضي المكان من خلال قربه من " زنينة " التي >> هي لبعض الأعراب الذين لا حكم عليهم لأحد ، و أهلها أصحاب قوة و عدة و عزة ، و قد ذكروا له أن باي (تيطري) نزل عليها فطردوه و قتلــوا له رجـــلين ، و ذهب مذمـــوما مدحـــورا >> (3). و لا أظن أننا سنكون

---

(4)- ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق ، ص: 42.

(1)- نفسه ، ص:49.

(2)- نفسه، ص:50.

على خطأ هنا عندما نقول أن السارد لعب دور الإعلامي الذي يريد تلميع صورة شخصية ما ، فيسعى إلى إبرازها من خلال وضعها في مقابل غيرها في مواقف محددة مع إظهار تفوقها ، و هذا ما نستشفه من خلال طريقة عرض السارد للأحداث ؛ فبعد أن أشار إلى عجز الباي السابــق عن إخضــاع هذه المدينة "زنينة " ، هــا هـو يشير معظما بطريقته الخاصة الباي محمــد الكبير الـذي استصغـرهم في عينيه . فعلـــت همته أن يتولى قتالهم بنفسه ، فأمر خليفته و متولي خدمته ... السيد محمد بن عبد الله أن يذهب إليها ، و حيث سمع كلامه نهض إليها >> [1] . هـــــذا الكلام يحتم علينا الإشارة إلى أن الدبداب تتجلـــى أهميتها من خـــــلال قربها و ارتباطها بأحداث منطقة زنينتة من جهة ، و من جهة أخرى أنها كانت مسرحا لمفاوضات و لقاءات بين محمد الكبير و أهل تاجموت و عين ماضي ، حيث وفــدوا عليه بعلمائهم و كبرائهم عارضين عليه الخدمة الدائمة << حتى تأتي على جميعهم المنية .فقسط لكل واحة منهم قسطا معتبرا يعطونه في كل عام إلى آخر الدهر >> [2]. و على العموم فان جميع محطات العبور استسلمت – عن طوع أو عن كره – و جميعها أخذ منها محمد الكبير ما يمكن أن نسميه إتاوات و ضرائب متنوعة ، من إبل و غنم و ثمار ...و هذا الصنيع يؤكد – بلا شك – ما قلنا من قبل أن من أبرز أهداف هذه الحركة هو جمع المال لتدعيم رصيد الخزينة .

و حتى يكون الحديث عن مدن المسار مكتملا ، لا بد من الإشارة إلى العوائق و المخاطر التي وقفت في وجه الشخصية المركزية في مختلف المحطات عبر مدن العبور ، و هي أمور تعتبر أمرا طبيعيا مادام الأمر يتعلق برحلة ، و الرحلة بطبيعتها – كما يقر بذلك الرحالون و الدارسون على السواء – تحضر فيها المصاعب ، و تتخللها المخاطر و العوائق ، سواء تعلق الأمر بالعوائق البشرية أو بالعوائق الطبيعية . و الظاهر أن هـــذه الأخيرة كانت حاضرة في هذه الرحلة ، و هو ما أشار إليها السارد << و أصابنا الثلج في الطريق و دام كذلك حتى نزلنا و استرسل حتى غطى السهل و الجبل ، و عجز عن مكابدته الفرس الضعيف و الجمل >> [3]

---

(1)- ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق ، ص:50.

(2)- نفسه ، ص:52.

(3)- نفسه ،ص:82.

ج – الأغـــــــواط المكان المتمرد / الهدف :

و هي المدينة التي أوليت لها الأهمية القصوى باعتبارها تمثل المكان المتمرد الذي كان مسرحا للأحـداث الجـادة التي اختبـرت من خـلالها قـوة السلطــة ، و قــد أخذ الحديث عنها و عما فيها ، و عن المناطق القريبة منها ذات الصلة بالأحداث حيزا كبيرا في صفحات الرحلة ، و هو ما نراه أمرا طبيعيا باعتبارها كانت المكان الهدف و الفضاء المقصود [1] . و هـذه المدينــة كغيرها من سابقاتها ، لم تكن مدينة من عالم الخيال بناها السارد في مخيلته ، و إنما هي مدينة لها وجودها الحقيقي على وجه الأرض ، كما لها موقعها كنقطة على سطح الخريطة.

و عليه فإنها شبيهة في صورتها بصور تلك الأمكنة التي نجدها في الأعمال السردية غير الرحلية ، و التي تنقل عادة من الواقع ، و تخضع إلى عالم الحقيقة ، و التي يمكننا إدراك صورتها من خلال الصورة المنقولة لنا عبر اللغة . و ما يؤكد أهمية هذه المدينة ، هو حجم التحضيرات التي سبقت غزوها ، و القوة الهائلة التي أعدها الباي محمد الكبير من أجل إخضاعها ، الأمر الذي فرض على علمائها أن يقدموا على بطل الرحلة بصورتهم الدينية التي نستنتجها من خلال حملهم لصحيح البخاري معهم طالبين الأمان ، مذعنين بطاعته ، راغبين أن يكونوا من رعيته ، مقدمين من أجل ذلك << مائة خادم و خمسة آلاف سلطاني و مائة ثوب و أربعة أفراس >> [2] . فكان الرد بالقبول .

و حرصا من السارد أن يبرز نبل الشخصية المركزية ، و شدة اهتمامها بالعلماء ، فقد ركز على أنه أحسن استقبالهم ، و أكــرم وفادتهم ، بأن << كساهم كلهم ، كما كانت عادته مع غيرهم ، و زاد لكبيرهم منطقة فائقة ، و حلة رائعة >> [3]. و كان بعد ذلك الاتفاق على الافتراق، إلا أنه تذكر فيما بعــد أنه لم يشتـــرط عليهم شـئا معلوما يدفعونه ، استدرك و بعث إليهم رسله يخبرهـــم بذلك فوجدوا أن نيتهم تغيرت، و تحضيراتهم للحرب قــد بدأت. و قـد دقــق السارد في وصف الحـال حين

---

(1)- المقصود بالمكان الهدف هو المدينة ذاتها بأسوارها و قلاعها و أبوابها ...أما الفضاء المقصود فقصدنا به المدينة و ما يحيط بها ما أماكن فعين السلطة ممثلة في الشخصية المركزية لم تكن على الأغواط فحسب بل على كل ما يحيط بها و قرب منها من قرى و مداشر .

(2)- ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق،ص:53.

(3)- نفسه ، ص:53.

قال: <<فلما فتحوه (الكتاب) ألفوه مخالفا لغرضهم ، فجعلوه سببا لنقض عهدهم ، و حجة لمكرهم ...و اشتغلوا بعمارة الأسوار، و يقولون لبعضهم الحصار الحصار، و جعلوا يبعثون لمن حولهم من الأعراب و القرى ...و رتبوا أعيان البلاد أهل النجدة و البأس في الأماكن التي يخاف منها، و جعلوا الرماة في الأبراج العالية المشرفة على جميع البقاع، و غلقوا أبواب المدينة بالبنيان...و الحاصل أنه لم يسبق لهم باب من أبواب الخوف إلا و غلقوه، و لا أمر نافع إلا و استعدوه، و المواضع القديمة جددوها، و الجديدة حصنوها و شيدوها ، مع أن هذه المدينة عظيمة في نفسها ، محمية بأسوارها و رجالها ، و لذلك لم يطمع أحد ممن كان قبله فيها >> [1] . هكذا بين التمرد و الإخضاع ، أصبح المكان ساحة حرب تجلت فيه التكتيكات العسكرية خاصة تلك التي اعتمدتها السلطة ممثلة في شخص الباي محمد الكبير ، وقد بنيت هذه التكتيكات أساسا على عمل سرايا الاستطلاع .

و لتجلية كل ذلك اعتمد السارد على ما يمكن أن نسميه << الوصف التصنيفي الذي يحاول تجسيد الشيء بكل حذافيره >> [2]. و هذا النوع من الوصف هو الذي اعتمده كتاب السرد الواقعيون الذين نظروا للأشياء كما هي في عالم الحقيقة ، على أساس أنها أشياء مستقلة عن الشخصية ، إلا أن ما يجب ملاحظته هنا في هذه الحركة أن الوصف بقي دوما مرتبطا بطبيعة الرحلة ، و بالصفة العسكرية للشخصية ، و ما يؤكد ذلك الوصف ذاته ، و الذي ارتكز على كل ما هو ذي صلة بالحرب و الجانب العسكري .

و كنتيجة حتمية للغزو ، و بعد أن كانت المدينة رمزا للمكان المشيد بقلاعه ، و أبراجه ، و حيطان حمايته ، أضحت بعد الغزوة نموذجا للمكان المهدم ،كسرت فيه الجدران ،و حطم فيه البنيان ،و محيت فيه الآثار ،كل ذلك من أجل فرض واقع جديد ، تمهيدا لإعادة تشكيل هذا الفضاء بصورة جديدة، تكون البصمة الأكبر فيه للشخصية المركزية التي تمثل للسلطة الحاكمة ، و ذلك استجابة لـ << طموح الذات السلطانية التي تعمل عادة على تكوين مجموعة من العلامات لتثبيت ذاتها و لابراز رموزها >> [3] فيكون ذلك بمثابة اللوحة الإعلانية التي تؤكد إخضاع المكان و انجاز المهمة.

---

(1)- ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق ، ص:55.

(2)- سيزا قاسم ، المرجع السابق، ص:113.

(3)- أحمد بو غلا ، المرجع السابق ، ص: 210.

د – المكـــــــان الطبيعـــــــــــي:

إن اختيار الأماكن المشار إليها آنفا لا يعني انه لا يوجد سواها ، إنما كان تفصيل الحديث عنها من اعتبارها أماكن ذات دلالات ، و تعتبر علامات في بناء الرحلة و سير أحداثها ، و هذا يعني أن هناك أماكن أخرى يمكن الإشارة إليها باختصار ، كالأماكن الطبيعية ممثلة في الجبال و الأودية التي في كثير من الأحيان، و خضوعا لمنطق قوة السلطة و انتصاراتها ، أصبحت ملجأ للفارين من أولئك الذين قاوموا بشدة إلا أنهم انهزموا فكان نتيجة ذلك أن << تفرقوا في رؤوس الجبال و بطون الوديان >> [1].

و يبدو أن الأماكن الطبيعية لها سلطانها على الأدباء و الفنانين ، إذ بسحرها و قيمتها تفرض نفسها فتجبرهم على و صفها و التفاعل معها ، و هو ما جسده السارد في هذه الرحلة ، فرغم عدم اكتراثه بالوصف كثيرا ، و محاولته الظهور بوجه المؤرخ الصارم البعيد عن الذاتية ، إلا أنه اتخذ من المكان الطبيعي مطية للوصف ، بل أكثر من ذلك للتفكر و للتدبر في قدرة الله سبحانه و تعـالى ، مثلـما كان حـاله عندما وصـلوا إلى جبل "خنيق الملـح " << و هذا الجبل كله من ملح ، إلا أن أكثره يظهر في رأي العين أخضـر ، و البعض منه كشفت ترابه الأمطار و غسلته فصار ملحا أبيض ما يكون . فإذا نظر العاقل هذا الجبل ظهر له ما يدل على قدرة الله تعالى التي لا يعجزها ممكن فسبحان مكون الأشياء بقدرته و مظهر العجائب بحكمته >>[2].

و لا شك أن سارد أحداث الرحلة اتخذ من الوصف وسيلة لإبراز عمق العقيدة ،من خلال حديثه عن العقل و ارتباطه بالتدبر في ملكوت السموات و الأرض ،و الذي تكون نتيجته رؤية قدرة الله تعالى و هذا يعني أن الرحلة الجزائرية في عمومها في هذا العهد بقيت خاضعة لسلطان الدين .

هـ– المكـــــــان المتحـــــــرك (المحلة):

يطلق وصف المكان المتحرك عادة على السفينة أو الباخرة ، أو كل ما هو متحرك ، و يمكن اتخاذه مكانا للفرد أو للجماعة شريطة أن يلعب دورا في الأحداث ، و قـــــــد اتخذنا نفـس هذا الوصف" للمحلة " ، و إعطاؤنا صفة المكان لها ، يجد ما يبرره في كونها ترتبط بالمكان الحقيقي ارتباطا وثيقا ، بل أن هـذا المكان ملازم لها باعتبارها تحل فيه لتلبث مدة محددة ، ثم منه تنطلق لغيره

---

(1)- ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق ،ص:42.

(2)- نفسه ، ص:40.

و هكـذا يستمر الوضع إلى نهاية الرحلة و تحقيق الهدف . و المحلة كما يراها الكثيرون أشبه ما تكون << بالمدينة المتنقلة تشمل مضارب السلطان ، و أحماله ، و متاعه ، و كل متعلقاته >> [1].

و من خلال الاطلاع على رحلة الباي محمد الكبير ، تجلى لنا بوضوح أن المحلة حاضرة في الرحلة، من البداية إلى النهاية، ذهابا و إيابا، مصاحبة للشخصية المركزية متنقلة معها من مكان إلى آخر، و هذا التنقل دون شك يجعلها أكثر ارتباطا بالأحداث . لكن رغم ذلك فان الحديث عنها في هذه الرحلة ، لا يتعدى في الغالب تحديد أماكن نزولها للاستراحة ، أو التزود أو التنظيم أو توزيع المهام أو تحديد انطلاقها لمواصلة المسير ، و هذا يعني أن السارد لم يحفل بها كثيرا ، تماما مثلما هو الحال مع الشخصية المركزية التي ظهرت لنا منذ البداية بعيدة عن مظاهر الفخامة.و عليه لم يظهر لها من مظاهر الفخامة ما كان لغيرها ، مما نجده عند غيره من السلاطين ،كما هو الحال مع سلطان المغرب أبي عنان المريني (ت759هـ) الذي تحدث عن محلته مقيد رحلته ابن الحاج النميري قائلا : << و أفراق السعيد كالبلد الواسع الأقطار القائم الأسوار..و رحلت المحلات المنصورة في كنف السعود التي تكائبت و تصاقبت و المسرات التي تشايعت و تعاقبت...و المباهج التي تراصدت و تراقبت ..على أجمل هيئة و أفضلها و أبدع شارة و أكملها. فما ران العيون كالهوادج التي علت ..و بدت كأنها الأكمات المكللة بأنواع الأزاهر ، سامية الهامات جامعة في الحسن بين المتفق و المفترق قد أحكمت بالعيدان أطول من العبدان..و جعلت عليها أغشية من الحلل المنسوجة بالذهب >> [2]. و يبدو أن عدم أخذ صفة الملك لشخصيـة محمـد الكبير وراء انعدام مظاهر البهرجة في حياته ، و الملوك كما هو معروف و ثابت تاريخيا ، أكثر الناس حبا في الظهور الفاخر .

---

(1)- أحمد بو علا، المرجع السابق، ص:215.

(2)- ابن الحاج النميري ،فيض العبـاب و إفاضـة قـداح الآداب في الحـركة السعيـدة إلى قسنطينة و الزاب دراسة و إعداد محمد بن شقرون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1990، ص: 35.

خامسا : بناء الزمـــــــــــان في الرحلـــــــــــة / الحركة :

يعتبر الزمن من أهم العناصر المكونة للنص الأدبي السردي ، خاصة المرتبط منه بالقص و الحكـي ،و تلك حـقيقة أقـرها النقـــاد باتفـاقهــم علـى << أن القص هو أكثر الأنواع الأدبية التصـاقا بالزمن >> [1]. من هنا تأتي شـرعية الاهتمـــام بالــزمن في العمـل السردي ، اهتمام تفرضه << الطبيعة الزمانية للتجربة فالعالم الذي يفترعه أي عمل سردي هو دائما عالم زماني >> [2] .

و لا نظن أننا نجانب الصواب إذا اعتبرنا الرحلة زمنا فنيا بامتياز ، باعتبار أن الزمن هو المحـدد لعصر الرحلة ، و المحـدد لبدايتها و نهايتها أيضا . و المعلوم أن المتلقي للرحلة عموما ، و الدارس و المحلل لها على وجه الخصوص، و باعتبارها تمثل وثيقة تاريخية تسرد أحداثا – في الغالب— واقعية ، نجده حريصا على معرفة عصرها و زمن القيام بها ، من منطلق أن << النص ينتج في زمن محـدد هـو زمـن يؤدي دورا رئيسـيا في فك رموز النص و الكشف عن دلالته ، و تحديد الدافع لكتابته >> [3] و على هذا الأساس ألفينا الرحالة جميعهم تقريبا أو من ينوب عنهم في كتابة رحلاتهم ، يعمدون منذ البداية إلى التحديد الدقيق باليوم و الشهر و السنة، و في بعـض الأحيـان بالـوقت و السـاعة ، لنقطـة بداية الرحلة و نهايتها ، و هــذا ما وقفنا عليـه في هذه الرحلة التي سرد أحداثها بن هطال التلمساني حيث قال في بدايتها : << فخرج يوم الخميس التاسع من ربيع الأول >> [4] .و في نهايتها قال : << و كان دخوله يوم الأربعاء من ربيع الثاني قبل وقت العصر في أول الساعة الثامنة >> [5].

أ– زمن الحركة و عين السلطة:

و تتميز الحركة عن غيرها من أنواع الرحلات الأخرى ، أنها لا تنجز إلا بعد تحضير و دراسة

---

(1)– سيزا قاسم ، المرجع السابق،ص:116.

(2)– بول ريكور ، الزمان و السرد الحبكة و السرد التاريخي،ج1، تر: سعيد الغانمي و فلاح رحيم ، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت لبنان ، ط1 2006، ص: 19.

(3)– محمـد رياض وتار ،توظيـف التراث في الـرواية العـربية المعاصـــرة، منشـــورات اتحـــاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2002 ، ص: 38 .

(4)– ابن هطال التلمساني ، المصدرالسابق،ص:37.

(5)– نفسه،ص:100.

دقيقة ، باعتبارها رحلة رسمية تقوم بها سلطة حاكمة تسعى دائما لأن تظهر بالصورة الإيجابية ، و عليه فإن كل شيء فيها يكون محسوبا ، خاصة الزمن الذي يتعامل معه كاتب الحركة بوعي تام ، و بطريقة تجعله يبرز في المقام الأول ، لأنه ببساطة يرتبط ارتباطا وثيقا بتحركات الشخصية المركزية و تنقلاتها، عبر محطات الرحلة، فالسارد في الحركة يبقى دائما محافظا على تلك المكانة التي تجعله في خدمة السلطة، من خلال تعامله مع الشخصية المركزية الممثلة لهذه السلطة على مسرح أحداث الحركة ، بطريقة فيها الكثير من الدقة في عملية التوثيق المصبوغة في كثير من الأحيان بالمجاملة، التي تفرضها طبيعة العمل داخل الديوان أو المؤسسات الرسمية العليا، و على هذا الأساس نجده دائما يعمل على >> تسجيل أفعال السلطان و حركاته داخل الحركة، بوعي زمني كبير يجعل أحداث الحركة و تحرك السلطان مؤطرين زمنيا << [1].هذا التأطير الزمني فرض على السارد أن يجعل الزمن من اهتماماته الأولى، و قد تعامل معه في الرحلة تعاملا خاصا من خلال ذكر اليوم بصباحه أو مسائه، بشروقه أو بغروبه ، و في كثير من الأحيان يربط بداية السير أو النزول بأوقات الصلاة ، كعلامة بارزة دالة على أن الظاهرة الدينية ، لم تفارق الحركة أنها كما لم تفارق – في الغالب– غيرها من رحلات العصر و مؤلفاته.

ب– زمن الحركة و عين السارد:

إن اهتمام السارد بالزمن تجسد من خلال حرصه على اعتماد التتالي في ذكر الأحداث ، و إبراز تتابعها بطريقة بسيطة ، تماما مثلما >> كان القاص البدائي يقدم لسامعيه الأحداث في خط متسلسل تسلسلا زمنيا مطردا ، و بنفس ترتيب وقوعها << [2]. وقد ساعده على ذلك انه يروي أحداثا وقعت قبل زمن حكيها ، و مثل هذه الطريقة في السرد دون شك فرضتها واقعية الأحداث التي ما كانت لتكون إلا متسلسلة تسلسلا خاضعا للترتيب الزمني.

و كل ما قيل يمكن ملاحظته و الوقوف عليه من خلال تجلياته في الرحلة كقوله: >> خرج يوم الخميس التاسع من ربيع الأول ...و أصبح مرتحلا يوم الجمعة...و أقام هناك بالغد (السبت) ...و ارتحل يوم الأحد ...و في يوم الاثنين ترك المحلة ...و ركب مساء يوم الاثنين وقت المغرب .... << [3].

---

(1)– أحمد بو غلا ، الرجع السابق، ص:229.

(2)– سيزا قاسم ، المرجع السابق،ص:54.

(3)– ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق،ص:38/37.

و الملفت للانتباه في هذه الرحلة /الحركة أن السـارد لم يكتف بالتحديد اليومي ، بل تعدى ذلك لتحديد مدة الإقامة في المدن و القرى ، و تقدير المسافات بينها بالساعات ، و ما ذلك إلا مظهر من مظاهر الاهتمام بالزمن ، الذي تتميز به الحركة و الرحلات الرسمية على غيرها من الرحلات الأخرى ، و هو الأمر الذي يتضح بجلاء على طول مسار هذه الرحلة و محطاتها . الأمر الذي يمكن ملاحظته من خلال النماذج التالية :

- نـزل " وادي الزلامطة " و بينه و بين المعسكر ست ساعات .
- نـزل " وادي العبـد " و مسافـة ذلك خمس ساعات.
- نـزل " ديـر الكـاف" و فيها من المسافة ست ساعات .
- أصبح "في عين سيدي علي" و تقدير هذه المسافة تسع ساعات .
- إلى أن فات وقت العصر فركب و جـد في السير خمس ساعات.

هذا النمط من التعبير المرتكز على الأفعال الدالة على الحركة ، و الذي يتجسد من خلاله التتالي بالأيام ، و تبرز فيه المسافات مقدرة بالساعات ، وجدناه بصورة أوضح في مناطق العبور التي لم يجد فيها الباي محمد الكبير صعوبة لإخضاعها ، أو إجبارها على الاستسلام ، ما فرض تسريعا للأحداث غيب التقنيات التي تبطئ السرد ، و الأمر هنا طبيعي لأن الباي ذاته كان يسعى للوصول إلى هدفه ، و انجاز مهمته في أسرع وقت ، و لعل هذا ما يفسر غياب تقدير المسافات بالساعات ابتداء من بداية الاستعداد لغزو الأغواط ، و هي المرحلة الأشد صعوبة التي واجهها الباي محمد الكبير في غزوته نحو الجنوب الصحراوي . و عليه فقد أخذت الأغواط جزءا كبيرا من اهتمام الشخصية المركزية ، جسده السارد من خلال تخصيص حيز كبير من صفحات الحركة للحديث عن هذه المدينة ، من خلال الحديث عن الاستعداد لغزوها ، و عن حصارها ، و كيفية اقتحامها ، و الصعوبات التي واجهها الباي حينها ، كما صور حالها و حال أهلها.

إن طول الحديث النسبي على مدينة الأغواط ، سمح للسارد أن يوظف بعض تقنيات السرد كالاسترجاع في قوله : " لم يطمع أحد ممن كان قبله فيها " وفي هذا كما هو واضح عودة إلى ما هو قبل النقطة التي و صل إليها سرد الأحداث . و كذلك الاستباق في قـوله : " ...و تحقق أن يدخلها " و يبدو السارد هنا أنه على علم تام بكل ما حدث ، و كل ما يحدث ، و حتى ما سيحدث ، و هو

ما يؤشر على أن الرحلة رغم كتابتها أثناء القيام بالرحلة الفعلية كما قال : << لأني قيدت هذه الأوراق أثناء السفر >>[1]. إلا أنها خضعت على ما يبدو للتعديل بصورة أو بأخرى.
ثم يأتي المشهد في قوله : << لأنه أطال الله بقاءه كان له فطنة زائدة ، و تجربة صادقة مع ما هو عليه ممارسة الحروب ، و فهمه لما ترمزه العيون و ما تضمره الجيوب و أما ثبوت الجنان و الشجاعة فشيء تحار فيه العقول و تقصر فيه العبارة >>[2]. فقد توقف السرد و فسح المجال أمام هذا المشهد الذي استغله السارد للتعريف أكثر بالشخصية ، و إبراز جوانب أخرى فيها ، كما نجد كذلك المشهد الذي قوامه الوصف في قوله : << فقال لهم عند ذلك أن هذه المدينة قد أحيطت بها البساتين و الأبراج و بساتينها كلها مدورة بالسور فحيطانها متراكمة و أسوارها متخالفة متكاثرة و لو كان سورا واحدا لم يردنا أو اثنان أو ثلاثة لم يضرنا >>[3] . و المشهد كما هو معلوم من التقنيات التي كثيرا ما يوظفها كتاب السرديات ، و هي تقنية تسمح لكتاب السرد التفصيل بسرد الجزئيات المتعلقة بالأحداث أو بالشخصيات ، الأمر الذي يعطل الســـرد و يبطـئ حركة الحدث ، ذلك << أن رصد التفاصيل يؤدي إلى الإحساس ببطء ملحوظ في حركة الزمن داخل المشهد >>[4].

و أخيرا فإن أهم ملمح يمكن الخروج به من خلال الحديث عن الحركة كنموذج لهذا النوع من الرحلات في العهد العثماني في الجزائر ، هو الحركية التي تميزها من خلال اعتماد الأفعال الدالة على طبيعتها : نزل ، انطلق ، جد في السير ، فر ، استسلم ، خضع ، قدم ...و هذه الحركية ناتجة أساسا على أن القائم بالرحلة – وهو شخصية رسمية – يخطط لها بمعية أعوانه ، ليجعلها رحلة محددة من حيث أماكنها محدودة من حيث زمنها ، و هو ما تجسد فعلا في هذه الرحلة التي لم تحد عن خط سير محدد سلفا ، كما أنها لم تدم سوى فترة محدودة امتدت " من التاسع من ربيع الأول إلى الثامن و العشرين ربيع الثاني " ما يعني أنها لم تتعد شهرا و تسع عشرة يوما ذهابا و إيابا .

---

(1)- ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق ،ص:72.
(2)- نفسه ، ص:55.
(3)- نفسه، ص:56.
(4)-أيمـــن بكـــر ،السرد في مقـــامـــات الهمــــداني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، د ط، 1998، ص: 101.

الفصـــــــــــــل الثالث

الرحلة الجهادية بناؤها و خصائصها

الرحلة القمرية لابن زرفة نموذجا

أولا : المفهـــــــــــــــــــــــوم :

هي رحلة ذات طابع رسمي باعتبار أن اتخاذ القرار بشأنها لا يكون إلا من سلطة عليا ، و تحركها لن يكون إلا وفق خطة محددة و مدروسة ، و تحت إشراف سلطة رسمية ، و تتخذ هذه الرحلة صفة الجهادية من كونها تتجه نحو عدو كافر ، مناقض للمعتقد و الدين ، يكون قد اعتدى على ثغر من ثغور المسلمين ، أو وقف في وجه نشر الإسلام و هو الدين الذي ارتضاه الله للناس دينا ، و الأكيد أن هذه التسمية هي تسمية إسلامية بامتياز ، جاءت مقابلة لما كان يسمى من قبل بالرحلة الحربية .

و مع ما أحدثه الإسلام من انقلاب في حياة البشر ، و ما أحدثه من تغييرات في الأفكار و القيم ، فقد تغير كذلك مفهوم الرحلة الحربية من مفهوم القتال بغرض الاستلاء على الأوطان و سلب الأموال و نهب الخيرات ، إلى مفهوم فلسفي إنساني أصبح من خلاله القتال – أعني قتال الآخر– لا يكون إلا إذا توفرت له المبررات الشرعية ، و لا يقوم إلا على أسس واضحة ، و لا يكون إلا من أجل تحقيق أهداف شرعية مشروعة ، و مصالح إنسانية نبيلة . و على هذا الأساس فرض الله الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، و من اجل الدفاع عن الوطن في حال هاجمه الأعداء .

إن صفة الجهادية التي يعرف بها هذا النوع من الرحلات ، تضفي عليها عند المسلمين صفة القدسية من منطلق أنها ترتبط بعقيدة المسلم ، و بأسمى ما يصبو إليه في الحياة الأخرى بعد رحلة الحياة الدنيا ، فالله تعالى قال في محكم تنزيله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُكُمْ عَلَى تِجَارَة تُنْجِيكُم مِنْ عَذَاب أَلِيم ¤ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون ¤يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخلْكُمْ جَنَّات تَجْري منْ تَحْتهَا الأَنْهَارُ وَ مَسَاكنَ طَيِّبَةً في جَنَّات عَدْن ذَلكَ الْفَوْزُ الْعَظيم ¤** ﴾ (1)

و تتميز الرحلة الجهادية بطابعها العسكري ، الذي يفرض سلطانه عليها و على جميع مكوناتها ، من البداية إلى النهاية ، سواء تعلق الأمر بلغتها ، أو وصف شخصياتها ، أو في الحديث عن العدة و العتاد فيها ، أو حتى في الشروح و التفاصيل التي نجدها في ثنايا صفحاتها ، و بين مختلف أحداثها و محطاتها . و الذي يعطينا الشرعية لتسمية هذه الغزوات بالرحلات ، أنها من جهة تقوم على بنية السفر من خلال الانتقال من مكان إلى آخر ، و من جهة أخرى أنها نقلت من الفعل إلى التلفيظ

(1)- سورة الصف الآية 10-11.

معنى أنها أصبحت عبارة عن نص بين أيدينا يمكننا دراسته و رؤية صورة عصره من خلاله .

ثانيا : الرحلـــــــــة و الرحالــــــــــة:

الرحلة القمرية هي رحلة فرضتها – دون شك – أوضاع أمنية عرفها عصرها ، أعني العهد العثماني الذي كما هو ثابت تاريخيا ، عرف مظاهر الكر و الفر بين المسلمين و الصليبيين على امتداد سنوات طوال ، ما يرجح أن هناك رحلات أخرى غير هذه الرحلة إلا أنها ضاعت ، أو لم يتم تلفيظ فعلها و بالتالي لم تنقل إلى كتابة ، أو أنها أسيرة المكتبات الخاصة التي يخشى عليها أصحابها من نظرة العين أو حتى من أن يلامسها الهواء !

تؤرخ هذه الرحلة – الرحلة القمرية – كما هو معلوم لأحداث تاريخية، و تخلد في نفس الوقت سيرة بطل هو الباي محمد الكبير، الذي يبدو أنه وجد الإجماع على عظمة شخصيته ، و قيمة مشروعه الذي أراد تحقيقه بعدما وصل إلى مركز القرار ، من خلال توليه السلطة على الايالة الغربية ، فمثلما تحدث عنه و عن أعماله بن هطال التلمساني ، و ابن زرفة ، امتدحه أبوراس الناصري الجـزائري ، و اعتبره << الباي الأسعد الأمجد الأوحد، عزيز النصر ، و نخبة العصر، و ريحانه الدهر ، السادل علـى الرعية الأمن و الأمان ، الباي السيد محمد عثمان ، أتحفـــه الله بالرضى (هكذا) و الرضـوان ، و ألحقه مطاريف التكـريم في الجنان >> [1] كذلك فعل إسماعيل بن عودة المزاري في كتابه " طلوع سعد السعود " ، و أحمد بن سحنون في " الثغر الجماني " ، و محمد بن يوسف الزياني في كتابه " دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران " ، و قد تحدث عنه دون شك غير هؤلاء من معاصريه ، أو الذين جاؤوا بعده من المهتمين بتاريخ المنطقة و أدبها. و من خلال الاطلاع على الرحلة القمرية و تتبع أحداثها ، بدا لنا أن ابن زرفـة مقيد الرحلة كان على وعي منهجي في البناء المعماري لهذه الرحلة ، و يكفي أنه أشار منذ البداية إلى طريقة تقسيمه لمضامينها ، فقد اعتمد مقدمة مفصلة قبل متن الرحلة الذي سماه المقصود حين قال : << و جعلت أمام المقصود مقدمة تشتمل على أربعة فصول و خاتمة >> [2].و هو ما جسده فعلا كما تمت الإشارة سابقا.

---

(1)– محمد أبو راس ، المصدر السابق ، ص:75.

(2)– ابن زرفة، الرحلة القمرية تح : مختار حساني مخبر المخطوطات جامعة الجزائر، دط، 2003، ص: 156.

و أما مؤلفها فهو الشيخ مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمان الدحاوي بن محمد المدعو سيدي أحمد المشهور بابن زرفة نسبة إلى جدته أو أمه في بعض المصادر، و هناك من يرى أنه عرف بهذا الاسم نسبة لمرضعته .

يعتبر من المنتسبين لزاوية سيدي دحو، و أحد تلامذة أبي راس الناصري الذي لازمه مدة من الزمـــن . حفـظ القـــرآن الكـريم ، و نبــغ في علـــوم عصـــره التي كـانت في الغـالب علوما دينية ، فاشتهر و عظمت مكانته بين قومه ، الذين عظموه و احترموه ، فكانت له المشورة المقبولة و الكلمة المسموعة ، ما جعـل الأتـــراك يقـربونه إليهـم رغبة في استغلال مكانته في كسب قومه . تولى القضاء و لما بلغ محمد الكبير السلطة و عين بايا في العام 1192هـ ، ألحقه بديوانه و جعله من خاصة المقربين منه ، كما << كلفه هذا الأخير (الباي محمد الكبير) بالإشراف على الطلبة المرابطين في وهران قبل تحريرها >> [1] و قد كان كما هو واضح من خلال الرحلة القمرية ، مرافقا للباي لمحمد الكبير في رحلته لتحرير مدينة و هران ، مما يجعله شاهدا على العصر عموما ، و الفتح على وجه الخصوص . و قد ألف هذه الرحلة رغبة منه في تخليد مآثر هذا الباي و قد اعتبرت أعظم هدية قدمها له ، لتضمن له بقاء اسمه مقترنا بهذا الفتح العظيم . و قد بقي بن زرفة على علاقته الطيبة معه حتى وافه أجله – في الأرجح – في العام 1215هـ بعد سنتين من وفاة الباي محمد الكبير .

هكذا نحن إذا أمام رحلة رسمية ، قام بها شخص لكنه أوكل تدوين أحداثها لشخص آخر مرافق له.

ثالثا : البعد الجهادي في الرحـــــــــلة :

توسم الرحلة عادة بدوافعها و أهدافها ، و نجدها في أغلب الأحيان في مكوناتها خاضعة للغرض الأساسي منها، فيطغى عليها الحـديث عن العلم و العلماء و المناظرات و الإجازات إذا كانت علمية و يسيطر عليها الجانب الروحي و الديني إذا كانت حجية ، و تسيطر عليها الرسميات إذا كانت سفارية

و لما كانت هذه الرحلة كما سميناها جهادية ، فإن البحث عن البعد الجهادي فيها يصبح ضرورة تفرضها طبيعة الدراسة و منطق التعامل مع المادة الخام في البحث ؛ إذ من غير المعقول أن نغفل عن هذه النقطة في رحلة هي في الأساس مبنية على ركيزة أساسية هي الجهاد في سبيل الله ، و في سبيل تحرير جزء من الوطن.

---

(1)- ابن زرفة المصدر السابق، ص: 147.

و من خلال الاطلاع على الرحلة القمرية وقراءة بعض ما كتب عما يتعلق بموضوعها (استرجاع وهران من يد الأسبان) ، تبين لنا أن الباعث على القيام بفعل الرحلة هو الجهاد فعلا ، و عليه فإننا سنحاول أن نثبت حضوره ، و نبرز تجلياته في مختلف محطات الرحلة .

أ– الجهاد مشروع حاكم :

لم تنطلق فكرة الجهاد عند الباي محمد الكبير من فراغ ، فهي نقطة في مشروع ضخم لإعادة بناء حكم على أسس متينة ، فبعد رحلته الداخلية نحو الجنوب الصحراوي لفرض النظام و إعادة المارقين إلى السلطة ، بدأ تفكيره في الاتجاه نحو العدو الكافر ممثلا في الأسبان الذين كانوا يحتلون مدينة وهران ، و لم تغب لفظة الجهاد عند مقيد الرحلة الذي وظف الكلمة مباشرة مع الحمدلة حيث قال : << الحمد لله الذي أطلع في سماء المجد أهلة الجهاد و جلى بنورها حلك الضلالة فأشرقت البلاد، و عم بشعاع وميضها الأغوار و الأنجـاد ...>> [1] و في ذلك إشارة إلى أن الجهاد سيكون المحور الأساس الذي ستدور حوله أحداث الرحلة و ما يتصل بها ، و يبدو أن الجهاد بمفهومه الشـرعي من الناحية الإستراتيجية التي حـــددها الباي احتل المرتبة الثانية ، ما يعني أن عمل الداي كان قائما على منطق العمل وفق المراحل ، و هو ما تؤكده تحركاته التي كانت كالتالي :

– أولا : العمل في اتجـــــاه المارقين و قد رأينا صورة له من خلال رحلته نحو الجنوب الصحراوي الجزائري .

– ثانيا : العمل في اتجاه العدو الكافر و هو ما سنقف عليه من خلال هذه الرحلة الموسومة بالرحلة القمرية .

ب– قدسية الجهـــــــاد :

يبدو أن التركيـز على هذه النقطة ، كان من أسباب النجاح في تحقيق الهدف و انجاز المهمة ، و قد تعامل الباي مع الدعوة للجهاد بحكمة عالية كشفت على قدرة في الإقناع ، خاصة إقناع الرعية من خلال عزفه على الوتر الديني ، الذي يعلم – كما يعلم غيره – أنه المؤثر الأول في الرعية ، و المحرك الأساسي لمشاعرها ، و ذاك فعلا ما جعل الجميع ينخرطون في العملية استجابة لنداء الجهاد ، من منطلق ديني عقائدي ، فقد<< نادى الباي في الناس حي على الجهاد ، و أرسل إلى

---

(1)– ابن زرفة ، المصدر السابق ،ص: 154.

جميع نواحي " معسكر " رسله ليخبروا رعيته بما عزم عليه و صمم في تنفيذه ، فأتته الناس زرافات و وحدانا ، و اجتمع لديه جمع غفير من أهل كل ناحية من نواحي الإيالة الغربية في مدة أسبوع منذ انطلاق الخبر << [1].

و إذا كان هذا على مستوى الشخصية المركزية التي تمثل شخصية البطل الذي قام بفعل الرحلة ، فإن مقيد الرحلة تردد صدى صوت الباي في صوته ، و لم يكن له بدا من الاستجابة لندائه، فسار على نفس النهج تابعا، باعتبار أنه >> لم يختر توقيتها أو مكانها أو سيرها ، تماما كما هو الشأن مع أحمد بن هطال << [2]. و عليه فقد ظهر هنا تابعا للشخصية المركزية الممثلة للسلطة ، و السارد في مثل هذا النوع من الرحلات الرسمية ، يعتبر موظفا رسميا يخضع لقانون قد يحد من حريته ، و بالتالي فهو يمثل صوت الناطق الرسمي الذي كما هو معلوم لا ينطق إلا بلسان السلطة ، و لا يذكر من الأحداث إلا ما يخدمها ، و لا يخطط إلا لما تريد هذه السلطة أن تصل إليه [3].

على هذا الأساس وجدناه و تماشيا مع إستراتيجية السلطة القائمة في شق هام منها على مقاتلة الآخر الكافر ، قد خصص فصلا كاملا في الرحلة للحديث عن الجهاد من حيث الترغيب فيه ، و الإقبال عليه ، و الترهيب من التثاقل و التخاذل عنه ، مركزا في كل ذلك على الآيات القرآنية الكريمة ، و الأحاديث النبوية الشريفة ، و سرد بعض غزوات الرسول صلى الله عليه و سلم ، وذكر أخبار بعض القادة من المسلمين الأوائل .

و يمكن الوقوف على ذلك من خلال قوله في الفصل الأول : >> الفصل الأول في الترغيب في الجهاد و الترهيب لمن تغافل عنه من العباد ، قال تعالى : الذين آمنوا و هاجروا و جاهدوا في سبيل الله بأموالهم و أنفسهم ، أعظم درجة عند الله و أولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه و رضوان و جنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا ...و عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما خرج عليهم ، و هم جلوس في مجلس لهم فقال : ألا أخبركم بخير الناس. منزلا قالوا :

---

(1)- ابن هطال التلمساني ، المصدر السابق ، ص:19.

(2)- شعيب حليفي، المرجع السابق،ص:146.

(3)- ينظر عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن 19،مرجع سابق ، ص:92.

بلى يا رسول الله قال : رجل أخذ برأس فرسه في سبيل الله حتى يموت أو يقتل ... <<[1]

لا شك أن كاتب الرحلة سعى جاهدا من أجل إبراز البعد الجهادي فيها ، و التأصيل التاريخي لها ، و قد كان له ذلك من خلال اعتماده على مجموعة من الآليات يمكن تحديدها فيما يلي :

- اعتماد النص الديني سواء القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف ، بصورة ملفتة تدل على ثقافة مقيد الرحلة و ما اكتسبه من علوم و معارف ، هي في الأساس علوم دينية فرضتها طبيعة ثقافة العهد العثماني المتميز بسيطرة العلوم الدينية فيه .

- اعتماد التاريخ الإسلامي ، و هي الالتفاتة التي أشار إليها مع أول بوابات الرحلة من خلال اعتماد عنوان " الرحلة القمري في السيرة المحمدية " ، في إشارة واضحة للأشهر القمرية المرتبطة بهجرة الرسول صلى الله عليه و سلم .

- تكثيف الألفاظ الدالة على الجهاد و الموحية بمعانيه ؛ فالقارىء للرحلة لا بد أن يلاحظ كثافة لألفاظ مثل: الغزوة الصهوات الطبول الخيل النصر النصارى الأسرى الحصون المدافع المهارس البومبة ..

- الاتجاه نحو الماضي التليد للحفر فيه و البحث عن الذات بين ثناياه ، و هذا يعني بصورة أو بأخرى ، أن الواقع الحاضر في نظره لا يبني مجدا ، و لا يحقق نصرا ، و عليه فإن القوة إنما تستمد من العودة إلى أيام سيادة الأمة ، للاستئناس بها ، و أخذ العبرة منها ، و اتخاذها كنقطة انطلاق جديدة لأمة أصبحت تبحث عن ذاتها ، و لن يكون لها ذلك إلا من خلال >> بعث أمجاد الماضي و بطولاته التي تدفع إلى طريق المستقبل << [2]. و هذا النهج نهجه كثير من رجال الأدب و الفكر و التاريخ ،على اخلاف أجناسهم و لغاتهم و الأمم التي ينتسبون إليها، رغبة منهم في >> إحياء القديم و دمجه كجزء عضوي في تصورهم للعالم و ميزان القيم لديهم <<[3]سعيا منهم لحياة أفضل ، انطلاقا من إيمانهم العميق بأن الماضي يلعب دورا هاما في تحديد استراتيجية الاتجاه نحو المستقبل.

---

(1)- ابن زرفة ، المصدر السابق، ص: 160.

(2)- عبد الله خليفة ، نجيب محفوظ من الرواية التاريخية إلى الرواية الفلسفية ،منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 1428هـ-2007م، ص:18.

(3)- أ أ مندلاو ، الزمن و الرواية ، تر : بكر عباس ، مر: إحسان عباس ، دار صادر بيروت لبنان ، ط 1 1997، ص: 8.

رابعا : صورة المكـــــــــان في زمن الجهاد:

الرحلة كحركة و تنقل بين مكان منطلق منه ، و آخر متجه إليه ، و باعتبارها أحداثا واقعية مرتبطة بزمن محدد ، ينتمي إلى دائرة الزمن الكبرى ، ينقلها الرحالة من خلال تلفيظ الحركة و القول و الفعل ، إلى القارئ أو المتلقي الذي يصبح بطريقة أو بأخرى مشاركا فيها .

و على هذا الأساس، نجد قارئ الرحلة بمجرد أن يمسك بما دون منها بين يديه ، و بمجرد سقوط بصره على أول عتباتها ، و مع بداية تصفح صفحاتها ، ينتقل مباشرة إلى مكانها و زمانها ، من خــلال ما يتوفـر من إشارات دالـة على ذلك ، سواء من خلال ظهور الاسم في عنوان الرحلة ، أو من خــلال خطاب التقـديم الذي عادة ما يشير فيه الرحـــالون >> إلى تاريخ التقييد و المكان و القصد ، ثم إلى الرحـلة بشكل مباشر << [1]، و الأمر نفسه سواء تعلق الأمر بالرحلات التي كتبها الرحالون أنفسهم ، أو قيدها بالنيابة عنهم غيرهم .

و قراءة الرحلة – كما يفرضه المنطق – تكـون بعد زمن كتابتها ، و عادة في مكان غير مكانها، و عليه تصبح هذه الرحلة هي الناقل لصورة مكان ، قد لا يكـون وقـع عليه بصر القارئ ، و قد لا يقع عليه مطلقا ، كما تصبح هي المعيد لزمن مضى و لن يعود في الواقع أبدا .

و من المؤكد أن ثنائية الزمان و المكان في الرحلة تلعب دورا أساسيا ، تماما كما هو الشأن في الرواية و غيرها من الفنون السردية الحكائية ؛ ففي الرحلة مكان للتحرك ، و القيام بالفعل ، و التواصل مع الآخر، و اكتشاف الغير ، كما أن فيها كذلك زمنا محددا للانجاز يتباين بتباين الرحالين و تباين طرائق تعاملهم معه ، و كلاهـــما (الزمن و المكان) له علاقته بالشخصيات التي قد تصطبغ بهما ، كما هـو الشـأن في الرحلـة الحجية [2] .كمـا قـد يصطبغا بها كما هو الشـأن في الرحلة الحركة (بسكون الراء) حيث >> لا ينفصل المكان في الحركة عن الفعل السلطاني ، فهو مسرح لكل سكناته و حركاته << [3].

---

(1)-شعيب حليفي، المرجع السابق ، ص: 173.

(2)- كلما اقترب الرحالة من زمن الحج و مكانه كلما كان لذلك أثره فيه فتسمو عنده الروحانية و تزداد عنده الرهبة و الرغبة و الخشوع .

(3)- أحمد بغلا ، المرجع السابق ،ص:207.

كما أن لنوع الرحلة و طبيعتها سلطانه على النظرة للمكان و تقسيمه ، ففي الرحلة الحجية، يكون الحديث عادة عن المكان المدنس و المكان المقدس ، و في الرحلة الحركة يكون الحديث عن المكان الثائر و المضطرب ، و المكان الخاضع و المستقر ، و أما في الرحلة العلمية ، فالحديث يكون عادة عن المساجد ، و مراكز الإشعاع العلمي ، و الثقافي ، و بصورة عامة عن المكان الذي نجد فيه صورة الجهل في مقابل المكان الذي تتمظهر من خلاله صورة العلم .

أ- وهـــران الموقـــع و التاريـــــــــخ:

إن الحديث عن ثنائية المكان و الزمان في الرحلة القمرية كنموذج للرحلة الجهادية ، يحتم علينا الإشارة أولا إلى سياق هذه الرحلة التي جاءت كما نعلم في فترة زمنية معروفة بكثرة اضطراباتها ، و تعـدد الصـراعات فيها ، وسعـي السلطـة العثمانية ممثلـة في الباي محمد الكبير على إعادة ترتيب البيت ، و فرض النظام ، و استعادة ما ضاع و ما هو تحت احتلال دولة الكفر.

و المعلوم أن التركيز في هذه الرحلة - كفعل - كان أساسا على محاولة استعادة و هران من يد الأسبان ، و هـذا يعني بكل بساطة ، أن المكان الذي وقعت فيه الأحداث معلوم و محـدد جغرافيا ، بين معسكر التي منها كان المنطلق ، و وهران التي تمثل المكان الهدف المراد تحريره ، و التي أخذت الحيز الأوسع ، و الاهتمام الأكبر في الرحلة .

لقد تعامل مقيـد الرحـلة مع المكـان تعاملا عاديا و بسيطا ، لم يرق إلى ما نجـده في الرواية أو في القصة ، أو في غيرهما من السرود الحديثة ، و قد جاء تعاملـه هذا قائما أساسا في المرحلة الأولى على التعريف به ، من منطلق معرفي ، و ليس من منطلق وصفي تخييلي ، إلا أنه رغم ذلك اهتم به اهتماما بالغا ؛ فقد اعتبره << القضيـة المركزيـة في الرحـلة قبل تقـديم حكاية الرحـلة ذاتها >> [1].

وعلى هذا الأساس فقد خصص ابن زرفة الفصل الرابع من خطاب التقديم للتعريف بوهران، حيث انطلق في ذلك مباشرة بربطها من خلال التشبيه بتلمسان كحاضرة علمية، عانت في تاريخها مثلما عانت وهرا، لتغدو بذلك المعاناة قاسما مشتركا بين المدينتي << وهذه المدينة(وهران)كتلمسان كثيرة الأهـوال ، تلاعبت بها أيد الدهور فغيرت الأحوال.و لذلك لم تدم على حال >> [(2)].

---

(1)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر مرجع سابق، ص:42.

(2)- ابن زرفة ، المصدر السابق، ص: 210.

و تأكيدا لما قلنا من قبل أن الكاتب انطلق من المنطلق المعرفي ، ما نجده عنده من اعتماد على ما قيل و كتب عن المدينة ، عبر مختلف مراحل تاريخها منذ أقدم العصور ، فـ . >> وهران مدينة كبيرة بناها ملوك مغراوة سنة تسعين و مائتين بالمعنى ، ثم ملكها في جملة أمصار المغرب الأوسط ملوك الشيعة لما استفحل ملكهم بالقيروان ، ثم ارجع ملكها بنو خزر ملوك مغراوة حينما امتدت يد مواليهم الأموية كما يأخذ ذلك من ابن خلدون ، و كان ذلك في نحو عشرين سنة من تاريخ بنائها << (1). ثم بعد ذلك فصل الحديث عن وهران في عهد أمراء زناتة ، و في عهد المرابطين ، و في عهد بني عبد الوادي و بني مرين، ثم في عهد الأسبان ، ثم في عهد الأتراك حيث ركز على فتح محمد بكداش لها (2).

و في كل ذلك لم يعتمد وصفا أدبيا ، و لا سردا فنيا، و إنما اعتمد على تاريخ كتبه مجموعة من المؤرخين ، الذين اهتموا بتاريخ المدينة ، وقد تعمد ذكرهم بالأسماء (3) تأكيدا على واقعية و حقيقة ما ذكر، رغم أن الأمر لا يخلو من بعض الإشارات الدالة على التعميم ، و عـــدم التحديد ،كقوله في بعض الأحيان " و قد ذكر بعض المؤرخين ".

ب – وهـــــــران فضاء الجهـــــــاد:

و الملفت للانتباه عند بن زرفة ، أنـه عندما تحدث عن وهران من كونها فضاء للجهاد، انطلق في ذلك من ثقافته الدينية المسيطرة عليه ،كما هي مسيطرة على علماء و مؤرخي و فقهاء عصره فالدمار الذي حل بالمدينة في نظره، و الدال على تفـوق الآخر على الأنا ، إنما هو جزء من عقاب الله تعالى لأهلها ، على ما صدر منهم تجاه أحد أشرافها و متصوفيها ، الشيخ محمد الهواري >> دفينها الأواه بدر سمائها ، و واسطة عقد علمائها ، و حب أسلافها و أولياءها ، القطب الكامل مثل الكرم أبو عبد الله الشيخ محمد الهواري رحمة الله عليه و رضي عنه ، و هـو الذي أسلمها في يد النصارى فتملكوها لبغي أهلها على ولـده ، حيث استهلكوه (هكذا) فسبـق بدعـواه عليهم بذلك و أسلمهم

---

(1)- ابن زرفة ، المصدر السابق، ص: 210.

(2)- كان ذلك في يوم الجمعة 20 شوال من العام 1119هـ الموافق 20 جانفي من العام 1708م و قد كان هذا الفتح على يد صهر محمد بكداش أوزن حسن و الباي مصطفى أبي الشلاغم لمزيد من التفصيل ينظر ، محمد بن ميمون ، المرجع السابق، ص: 30.

(3)- كابن خلدون و ابن خلكان و الجامعي و الحلفاوي و ابن هطال ...

و كان رضي الله عنه من الذين لو أقسموا على الله لأبر قسمهم و أشار أن هذا الشيخ هو سبب تدمير وهران و قال أعز من قائل : و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهم القول فدمرناها تدميرا و من أعظـم الفسق نبذ الشريعة ، و إيذاء أهل الحقيقة >> (1).

و على هذا الأساس كما يرى و يرى غيـره من أهـل عصره ، لن يكون خلاصها إلا من خلال العودة لسابق العهـد من الطهـر و التدين ، من خلال احترام المقدسات و تبجيل أهل العلم الرباني ، أو كما سماهم ابن زرفة أهل الحقيقة .

ولما كانت وهران في الرحلة فضاء للجهاد الذي يقوده الباي محمد الكبير ، باعتباره يمثل سلطة الخلافة التي كما نعلم – على الأقل في الظاهر – جاءت من أجـل نصرة المسلمين ، و التمكين للدين، فإن مقيد الرحلة جعل همه الأكبر هو هذه المدينة، ليقدم لها الصورة الواقعية التي رأينا من قبل .

و هذه الصورة التي تحدثنا عنها ، هي صورة وهران من خلال المقدمة. أما حال هذا المكان (وهران) في المتن ، فأظن أن الأمر فيه سيكون أقرب للأدبية ، من خلال ارتباطه بالشخصية أو لنقل الشخصيات المتحركة على مسرح أحداث الرحـلة ؛ إذ المعلوم أن << هناك بناء فوقي للمكان يأتي من حركة الشخصيات في المكان ذهابا و إيابا ، و سفرا و استقرارا ، و هذه الحركة لها دلالة هامة حيث أن الرحلة تمثل تيمة بني حولها العديد من النصوص القصصية ، ابتداء من الأوديسا أقـدم الملاحـم >> (2) . و هـذه الملحمة – أعني بالطبع الأوديسا الهوميرية — و كما هو معلوم عند الدارسين ، و المؤرخين على السواء ، تصور في جزء منها تفاصيل رحلة عوليس و مغامراته ، و ما لاقاه من عراقيل لاسترجاع ملكه ، ما يجعل بينها و بين رحلة محمد الكبير تشابها من خلال القاسم المشترك بينهما ، حيث أن هذا الأخير كما نعلم هو بدوره في رحلة واقعية لاسترجاع ملك مغتصب، رغبة منه أن ينقله من صورة المكان المدنس بالاحتلال ، إلى صورة المكان المطهر بالتحرير.

و بعدما أعطى كاتب الرحلة في البداية صورة لوهران كفضاء مصاب مستغيث ، تبدأ رحلة الاسترجـاع في متن الرحـلة بما أصاب هذه المدينـة و مثل في الحقيقـة بشارة و في نفس الوقت إشارة لبداية تحريرها ، و استرجاعها ، و قد << جاءت البشارة لسيدنا الأمير المنصـور بعون من بيده مقاليد

---

(1)- ابن زرفة ، المصدر السابق، ص:230.

(2)- سيزا قاسم ، المرجع السابق، ص: 107.

الأمور ، بأن مدينة و هران قد زلزلت أركانها ، و دكت دورها و حيطانها ، و أن النصارى أخزاهم الله قـد خيموا خلالهـا بأبراجـهم في الفساطيط و الخيام ، رعبا مما حل بهم من وابل الانتقام >> [1].

هذه الصورة التي قدمها ابن زرفـة للمكان ، هي صورة مرتبطة برحلة الفتح ، هذا الفتح الذي لن يتحقق إلا بالحركة و التنقل ، و هو ما جسده النص الرحلي من خلال ربط العملية بالزمن ، ربطا فيه دلالة التتالي و الترتيب ؛ فالبشارة جـاءت << في يوم الاثنين أول يوم من شهر صفر >> [2]

- بعدها << ركب أيده الله فيمن حضر من جيشه في الحين >> [3] .
- بعدها << رحل منذ ليلة الثلاثاء قبل الفجر فنزل غربي وادي سيق>> [4].

فإذا أخذنا الأفعال الواردة من قبل بالشكل التالي :

زلزلت ← ركب ← رحل ← نزل

نلاحظ أن جميعها جاءت أفعالا ماضية ، ما يدل على أن وقوع الأفعال كان قبل زمن الكتابة ، و هذا يعني أن ما حدث من أحداث ، بأزمنتها و أمكنتها ، كانت جميعها حاضرة في ذهن الكاتب قبل أن يكتب ، وهو ما يوفر له فرصة الانتقاء و التصرف ، الذي يسمح له بتقديم ما يخدم السلطة المشرفة على الجهـاد ، بنية تلميع صورتها ، و لإضفاء صور البطولة على رجالاتها .

ثم أن هذه الأفعال لا يمكن أن نتصور حدوثها إلا في إطار لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يخرج عن ثنائية الزمان و المكان :

فزلزل .... فعل لا بد له من مكان يقع فيه و زمن يرتبط به.

و ركب .... فعل لا بد له من مكان (مركب) و زمن يرتبط به.

و رحل ....فعل لا بد له من مكان (مسافة) و زمن يرتبط به.

و نزل ....فعل لا بد له من مكان يكون فيه و زمن يرتبط به.

---

(1)- ابن زرفة ، المصدر السابق، ص: 254.

(2)- نفسه ، ص:254.

(3)- نفسه ، ص:254.

(4)- نفسه ، ص:254.

و الأكيد أن الذي يركب ، أو ينزل ، أو يرحل ، لابد أنه يقوم بفعل أساسه الحركة ، و الذي يتحرك لا بد أنه يتحرك من << حيز ما ، و مقصده إلى حيز ما آخر ؛ ففعله و حركته تجري في حيز ، و حيزه مظهر من مظاهر الفراغ و الامتلاء ، الانجزار و الامتداد >> (1).

إن حديثنا عن المكان و علاقته بالزمان بهذه الطريقة ، قصدنا به أن نقف على ما يمكن أن يمثل بصورة ما بناء فنيا في الرحلة ، باعتبار أن هذه التقنية أعني تقنية الربط بين الزمان و المكان تعتبر من أهم التقنيات التي يقـــوم عليها البناء الفني للفنون السردية العربية ، خاصة الرواية التقليدية ، التي رغم أن أصحابها يسعون كل جهدهم أن يقدموا صورة المكان الواقعية بزمانها و مكانها ليوهموا المتلقي أن ما يقرأه حقيقة. لكن رغم كل ذلك تبقى أعمالهم تفرض التساؤل عم هو غير معلن ، ما يحتم على هذا المتلقي أن يطرح أسئلة عديدة ، قصد استكشاف ما وراء السطور و الكلمات ، و هو ما لا يمكن أن يصل إليه إلا من خلال القراءة الفنية أو الشاعرية التي يُـــقرأ بها النص من خلال شفرته ، انطلاقا من معطيات سياقه الفني مثلما يرى الغذامي. (2)

و نفس الشيء يمكن أن يكون مـــع الرحـــــلة ، حيث أن طريقة التعامل مع المكان في علاقته مع الزمان ، بل و علاقته بشخصيات الرحلة ، يمكن أن يحيلنا على سؤال كبير. هو : هل يمكن أن تكون تمظهرات المكان و الزمان ، و علاقتهما بالشخصيات ، سببا في خلق المعاناة الفكرية عند المتلقي، مثلما هو الحال مع الأعمال الأدبية الفنية ؟

لا شك أن الإجابة عن هذا السؤال صعبة ، و الإجابة عنه بالإيجاب أصعب ، بل تعتبر مغامرة ، إلا أن ما حاولنا السعي إليه ، أو على الأقل التنبيه إلي أهميته خدمة لفن الرحلة ، يجعلنا نجتهد لنعتبر الأمر ممكنا ؛ فالزلزلة التي هزت مدينة وهران ، لا يجب أن ننظر إليها أنها حدث طبيعي فحسب ، بل يجب أن ننظر إليها كعامل مساعد للبطل من أجل أن ينجز مهمة. و هنا نتساءل ، هل يجب أن تبقى نظرتنا إليها كظاهرة طبيعية أثبتها المؤرخون ؟ أم يمكننا أن نتجه إلى التأويل و نتساءل إن كان الحديث عنها في الرحلة جاء من أجل خدمة إستراتيجية ما ، و تلك هي فيما نرى القراءة التأويلية الأنسب. و ما يؤكد وجهة نظرنا هده هو توظيفه كلمة " البشارة " و ربطها بالتحرك المباشر للشخصية

---

(1)- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية ، مرجع سابق، ص:145.

(2) ينظر، عبد الله الغذامي، الخطيئة و التفكير، المرجع السابق ،ص:70.

المركزية و جيشها من خلال قولــه : >> ففي يوم الاثنين أول يوم من شهر صفر المذكور جاءت البشارة ...بأن مدينة وهــران قد زلزلت أركانها و دكت دورها و حيطانها و أن النصارى أخزاهم الله قد خيموا خلالها بأبراجهم في الفساطيط و الخيام رعبا مما حل بهم من وابل الانتقام . فركب أيده الله فيمن حضر من جيشه في الحين << [1] ، كما يمكننا أن نتساءل إن كان هناك قوى أخرى تتدخل في واقع البشر، فتكون هذه الزلزلة عقابا لأهل المكان الآنيين ، و إيذانا بميلاد مكان جديد مأهول بقوم غير القوم السابقين .

و لعــل هــذا ما يمكــن أن يتبــادر إلى ذهــن القــارئ المشـارك لصاحب الرحلة و بطلها، سواء في العقيدة و الدين ، أو في الثقافة و التاريخ ؛ أعني القارئ المسلم الذي سينطلق في نظرته إلى ذلك و حكمه عليه ، من قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الذِينَ آَمنُوا مَّنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُهُمْ وَ يُحِبُونَهُ أَذِلَةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِين أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُـجَاهِدُونَ فِي سَبِيِلِ اللهِ وَ لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** [2].

و قوله تعالى كذلك :﴿ **وَ إِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴾ [3]. و هذا ما يتناسب مع واقع الحال في هذه الرحلة ؛ إذ أن الأمر يتعلق بعقاب تطلب جهادا للتكفير و العودة إلى جادة الصواب .

خامسا : السرد.. بين سلطـة التاريــــــخ و حضــــور الأنا:

أ- الســـــــــــــرد

السرد هو الكيفية التي تروى بها الحادثة ، أو تقص بها القصة ، و هو في أبسط معانيه ، يعني الكلام بسلاسـة، و دون اضطراب و لا تلعثم ، فـ>> سرد الحديث و القراءة تابعهما و أجاد سياقهما << [4].

و السرد لا بد أن يرتبط بحادثة معينة، تكون هي نواته التي يرتكز عليها باعتباره >> عملية ترتيبية لمجموعة من الأحداث، ينتظمها إطــار معين، و تخضــع لخاصيات شكليــة تميزهــا عــن أنواع الخطاب

---

(1)- ابن زرفة ، المصدر السابق، ص: 254.

(2)- سورة المائدة ، الآية 54.

(3)- سورة محمد ، الآية 38.

(4)- جبور عبد النور ، المرجع السابق،ص: 139.

الأخرى،كالشعر، و النقد، و المسرح، و أنواع خطاب العلوم التجريبية و العلوم البحتة << [1].

في خضم تطور الحياة بجميع مظاهرها ، و على جميع المستويات، تطور كذلك العمل السردي تماشيا مع المنطق الذي يفرض الإقرار بأن << في كل منظومة فكرية ، يحدث تطور في الرؤية ، استكمالا لنواقص ، أو تجذيرا لمفاهيم ، أو تأصيلا لمستجد . و هذا ديدن كل انجاز بشري << [2] و عليه فلم يعد السرد ترتيبا لأحداث متخيلة فحسب، بل أصبح<< قطعة من الحياة، فهو عادة ما يحكي عن شخصيات تقوم بأفعال يمكن تصور وقوعها في الواقع المعيش << [3].

و لا شك أن مفهوم السرد كذلك تطور عبر العصور، تبعا لتطور الحياة، و تبعا لمعطيات كل عصر، من حيث مستوى و طبيعة الثقافة السائدة فيه، و الحياة الاجتماعية لأهله ، و المستوى الفكري لعلمائه و أدبــائه ، و النشاط النقدي الذي يميز نقاده ، و قد لخص هذا التطور عبد الملك مرتاض الذي انطلق في ذلك من المفهوم اللغوي للسرد ، حيث اعتبر أن المقصـود به هو << التتابع الماضي على سيرة واحدة ، و سرد الحديث و القراءة من هذا المنطلق الاشتقاقي ، ثم أصبح السرد يطلق في الأعمال القصصية على كل ما خالف الحوار ، ثم لم يلبث أن تطور مفهوم السرد على أيامنا هذه في الغرب إلى معنى اصطلاحي أهم و أشمل ، بحيث أصبح يطلق عل النص الحكائي، أو الروائي ، أو القصصي برمته. فكأنه الطريقة التي يختارها الروائي،أو القاص،أو حتى المبدع الشعبي (الحاكي) ليقدم بها الحديث إلى المتلقي. فكأن السرد إذن هو نسيج الكلام و لكن في صورة حكي.و بهذا المفهوم يعود السرد إلى معناه القديم ، حيث تميل معظم المعاجم العربية إلى تقديمه بمعنى النسج أيضا << [4].

و الأكيد أن الأشكال السردية متعددة في الأدب العربي ، إلا أنها تبقى متقاربة من حيث تقنية السرد ، سواء تعلق الأمر بالقصة ، أو الرواية ، أو السيرة ، بل حتى الرحـلة التي يرى كثير من النقاد أن السرد فيها لا يختلف << عن باقـي السرود باعتبـاره مجموعـة من المتواليات الجميلة المؤسسـة

---

(1)- حسين خمري ، المرجع السابق ، ص: 83.

(2)- ناهضة ستار ،بنية السرد في القصص الصوفي المكونات الوظائف و التقنيات ، منشورات اتحاد الكتاب العرب د ط ، 2003 ،ص: 66.

(3)- أيمن بكر ، المرجع السابق، ص: 33.

(4)- عبد الملك مرتاض ، ألف ليلة و ليلة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د ط، 1993، ص: 84.

لتيمات ذات وظائف و أهداف تتعين توظيف تقنيات و أساليب لضمان تواصل محقق مع الجنس الذي يكتب فيه، و مع الذات الفاعلة التي تصوغ الأحداث و الأفكار، ثم مع المتلقي >>[1].

و عليه فإن طبيعة الرحلة القمرية ، و طريقة عرض السارد لأحداثها ، من منطلق أنها أحداث تاريخية واقعية كان ابن زرفة حاضرا فيها، و في بعض الأحيان من المشاركين و الفاعلين في انجازها، تفرض علينا أن ننظر إليها انطلاقا من العوامل المؤثرة في سردها؛ فإذا كانت بعض الرحلات رويت شفاهة ، ثم بعد ذلك نقلها من سمعها إلى كتابة كما هو الحال مع رحلة بن بطوطة، فإن الأمر عند بن زرفة في هذه الرحلة مختلف تماما ، باعتبار أنه سرد أحداثا كان هو ذاته حاضرا فيها، ما يعني أنه كان على علم بتفاصيل مشروعه السردي، وهذا يتماشى مع منطق يتفق عليه النقاد في السرود الواقعية، حيث << لا يبدأ السرد إلا بعد انتهاء الحكاية ؛ أي بعدما يكون القائم بالسرد على علم تام بتفاصيل متنه الحكائي>> [2]و قد أراد من سرده لها خدمة سلطة من خلال ممثلها محمد الكبير كشخص كان له حضوره على أرض الواقع ، أو كشخصية فاعلة في أحداث الرحلة بعد تلفيظها . و في كل الأحوال – سواء عن قناعة أو مجاملة– فأن ابن زرفه أراد أن يبرز تاريخ الباي، و يخلد سيرته، اعترافا ببطولته و سمو مكانته ، و جليل خدمته للأمة .و الظاهر أن بن زرفة– كما ثبت من خلال اطلاعنا على الرحلة و قراءة ما تعلق بها– لم يعتمد فيها على المشافهة، و إنما اعتمد على ما شاهدته عينه على أرض الواقع وعلى ما حضر أحداثه بنفسه ، و كذلك على ما استقاه من كتب التاريخ و الأخبار و غيرها مما وفره له الباي، و هو ما أشار إليه في الرحلة بقوله : << و لما عزمت على الانطلاق، و عقدت لتقييد الرحلة حبل النطاق ، دخلت إلى مجلسه الرحيب، و تظللت بأفياء غصنه الرطيب، فكان من سابغ فضله أن زودني من خزائن كتبه ، عمرها الله تعالى بطول عمره ، و دوام منصبه ، ما استظهر به على ما أنا بصدده، فكان كالدليل المعين على السفر بزاده ، و الطبيب إلى أتحف المريض بجميل أياديه >> [3].

و لقد تميز السرد في هذه الرحلة بميزتين أساسيتين :أولهما سيطرة روح التاريخ . و ثانيهما سيطرة طبيعة كاتب الرحلة و هدفه من كتابة رحلته .

---

(1)- شعيب حليفي، المرجع السابق،ص:213.

(2)- أيمن بكر ، المرجع السابق ، ص: 65.

(3)- ابن زرفة ، المصدر السابق، ص: 155.

ب- سلطة التاريخ و حضور الأنا :

ما تقــدم من حــديث يضعنا أمـام رحلة بسط على أحداثها التاريخ - الإسلامي خاصة - سلطانه ، فجاءت في جميـع مكوناتها مبنية على أحــــداث تاريخيــة بالدرجـة الأولى ، و هي بذلك شبيهة بالرواية التي هي الأخرى - خاصة الرواية الواقعية - تعتبر نتاجا اجتماعيا تاريخيا باعتبار >> أن التاريخ هو مستوى من مستويات الخطاب الروائي ، أي أن النص هو نتاج جمالي لمرحلة متحققة واقعيا << [1]

إن علاقة التشابك بين التاريـخ و الرحـلة علاقة ثابتة من خلال المادة التي يوظفها كل من المؤرخ و الرحالة باعتبار>> أن مـــادة الــمؤرخ تتكـــون من الحدث و مكان الحـــدث و تاريـخ (توقيت) الحـــدث و كـذلك من أسمـــاء المشاركين في الحـــــدث << [2] و الرحـلة كفن ، تحتم – بلا ريب - على كاتبها أن يجمع بين موضوعية رجل التاريـخ ، و فنية رجـل الأدب ، و مثل هذا الجمـع يعتبر أمرا طبيعيا ؛ فالتاريخ كما هو معروف يجمع بين روح الأدب و صرامة العلم ، كما تحتم في نفس الوقت على متلقيها (الضمير يعود على الرحلة) ، أن يقـــــــرأها و يتفاعل معها ، من خلال السياق التاريخي الذي جرت فيه أحداثها ، و تلك حقيقة يقرها كثير من النقاد و الدارسين خاصة أولئك الذين يعتقدون بحتمية تأثير البيئة في الإنسان عموما ، و في الأديب المبدع و الكاتب المصنف على وجه الخصوص ، و في ما ينتجانه و ما يكتبانه .

إن هذه الرحلة هي رحلة ذات مرجعية تاريخية ، تماشيا مع السياق التاريخي لمادتها. و المعلوم أنه >> إذا هيمنت الوظيفة المرجعية التي لها علاقة بالسياق ، فالنص يأخذ موقعا بحيث يقوم بوظيفة مرجعية بالدرجة الأولى<< [3].و عليه فإن الرحلة القمرية تحيلنا و بنسبة معتبرة إلى التاريخ ذلك أن كاتبها بن زرفة إنما كتب ليخبر بما يمكن أن نحكم عليه ، و نتساءل عن صحته و خطئه .

و لما كان ابن زرفـة هو كاتب الرحلة ، و هـــو نفسه أحــــد المشاركين فيها حضورا و فعلا و

---

(1)- مشري بن خليفة ، سلطة النص، منشورات الاختلاف ،الطبعة الأولى 2000،ص: 101.

(2)- عبد الفتاح كيليطو، الأدب و الغرابة دراسة بنيوية في الأدب العربي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء المغرب ، ط 3 ، 2006، ص: 76.

(3)- علال سنقوقة ، المرجع االسابق ، ص:21.

شهادة ، فإن تموقعه في السرد يجعل منه عنصرا أساسيا ، لا يمكن اغفال دوره ، و لا تجاوز الوقوف عنده ؛ باعتباره يأخذ موقع الراوي >> و موقع الراوي في السرد له أهمية كبيرة من حيث أنه يوجه الخطاب السردي الوجهة التي يريدها <<(1).

و على هذا الأساس، فإن السارد الراوي في هذه الرحلة، و في مثيلاتها، يصبح ركيزة أساسية باعتباره هو الذي يقدم الخبر، و يروي الحدث، و في نفس الوقت هو من يوجهه توجيها- دون شك - يتماشى مع الوجهة التي يريدها ، و الهدف الذي حدده مسبقا من أجل الوصول إليه .

و يبقى ابن زرفة على مدى امتداد صفحات الرحلة ، و في كل الأحوال ، هو المتحكم في ما يرويه من أحداثها باعتباره هو من >> يخبر بها ، و يعطيها تأويلا معينا يفرضه على القارئ و يدعوه إلى الاعتقاد به << (2) . و بهذا يصبح التركيز عليه يجد ما يبرره من منطلق أننا أمام نص تراثي ، و كاتب تقليدي ، لا يفرط أبدا في فرض سلطته .

و سواء قصد ذلك أو لم يقصد ، فإن الإنسان عندما يسرد حكاية ، أو يروي حدثا ، فهذا يعني أنه مارس سلطة ما بطريقة ما ؛ لأن المرسل إليه هنا يصبح متلقيا مستمعا إذا كان المقام مقام مشافهة و يصبح قارئا و مؤولا إذا كان المقام مقام كتابة .

و ابن زرفة حاول فعلا أن يثبت سلطة التاريخ توظيفا و إفادة ، من خلال الاعتماد على الخبر التاريخي ، و الذي كما هو معلوم يعتبر علامة بارزة من علامات فن الرحلة ، باعتباره حاضرا فيها بشكل أو بآخر ، لا يبرحها مهما كان نوعها ؛ إذ >> لا يمكن لنص رحلي أن يخلو من أخبار تاريخية بالمعنى الذي يعطي للمؤرخ و الجغرافي الاعتماد على الرحلة ، مثل مصدر معتمد يمده بمعلومات حول أحداث و تواريخ و عمران و طرق << (3). و تلك حقيقة يثبتها الواقع ، و يقرها المؤرخون الذين لا تخلو رفوف مكتباتهم من الرحلات ، التي تعتبر من أهم مصادرهم ، خاصة فيما يتعلق بالتاريخ القديم .

---

(1)- علال سنقوقة ، المرجع االسابق ، ص: 206.

(2) - حميد لحمداني ، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي ،المركز الثقافي العربي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ط 1 1991 ، ص: 47.

(3)- شعيب حليفي، المرجع السابق ،ص:221.

لقد اعتمد بن زرفة الراوي في هذه الرحلة على الخبر التاريخي اعتمادا كبيرا، بل مبالغا فيه ، و يكفي أنه في كل محطة من محطاتها ، و في كل حادثة من حوادثها ، إلا وعاد بنا إلى الماي لينبش فيه ، و يأتي بما يناسب لحظته ، و الحدث الذي هو بشأن تثبيته ، ما يعني أنه استرجع الأخبار التاريخية الماضية بأمكنتها و رجالاتها ، برمزيتها و دلالاتها ، و استفاد منها في تدعيم متن الرحلة ، و قد كان اعتماده في ذلك << على مصدرين في بناء هذا النوع من الأخبار التاريخية : المؤلفات التاريخية و السماع المتصل بالأخبار الماضية (التاريخية) ،فهناك استرجاع للفضاءات و الأمكنة بعمرانها ، و أيضا للقادة و الحكام و بعض الخصوصيات و الأحداث المشهورة <<[1]. و هو في هذا لا يختلف عن الروائي التقليدي الذي يكتب و قناعته راسخة أن ما يكتبه هو جزء من التاريخ و أن شخصياته هي في حقيقة الأمر أشخاص لهم وجود و ينتمون إلى حقبة زمنية . لذلك تجده يسعى دوما إلى << أن يفيد من التاريخ و يستند إلى بعض عناصره ، و مكوناته الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية ، فيبلورها في كتابة أدبية مخضلة بالعطر و الجمال و الأناقة <<[2]. و هنا لا بد من الإشارة إلى أن << عمق بنية الخبر التاريخي ، ليس هو التاريخ المحض في ذاته ، و إنما هو تسجيل مراحل الرحلة ، و ما تلتقطه عين الرحالة ، و ما يسمعه في ارتباط بالزمن ، أو ما يحيل على الماضي<<[3].

هذا الماضي اعتمده بن زرفة ليربط بينه و بين الحاضر، و على هذا الأساس تصبح عملية الاسترجاع عنده مبنية على أساس محدد ، يتماشى مع إستراتيجية مرسومة مسبقا لكتابة هذه الرحلة و لم تأت عفوا ، بل يعتبر ذلك من صميم وظيفة السرد ، و وظيفة السرد << هي وظيفة خطية استرجاعية تحيل في السياق العام على الماضي <<[4]. الذي يبدو أن ابن زرفة رأى فيه النقطة الناصعة ، و النموذج الأمثل في تاريخ الأمة .

و ما يؤكد ما ذهبنا إليه هنا ، هو عملية الانتقاء التي مارسها عندما كان يسرد أحداث الرحلة ، فقد ألفيناه كلما تعلق الأمر بأمر معين ، إلا و بحث له في التاريخ و التراث الإسلامي عموما

---

(1)- شعيب حليفي، المرجع السابق ، ص: 221.

(2)- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، مرجع سابق ، ص:83.

(3)- شعيب حليفي، المرجع السابق ، ص: 221.

(4)- نفسه ، ص: 291.

عما يدعمه ، و يثبت أن السلف قد نهجوه أو قاموا به ؛ ففي حديثه عن الجهاد ، أثقل الرحلة بكم هائل من الآيات القرآنية ، و الأحـاديث النبـويـة الشريفة الدالة عليــه ، و المبرزة لفضله ، و عظيم جزائه ، بل يتعدى ذلك ليذكر الوقائع المشابهة له ، من غزوات و معارك خاضها المسلمون قديما ، في أيام عزهم و قوتهم ، أيـــام فتوحاتهم التي طالـــت العالم كله .

و ما يؤكد هذا ، أن كاتب الرحلة عندما بدأ حديثه عن فتح وهـران في شهر صفر، و بمجرد تحديد التاريخ ، انتقل ليذكر بما حدث في هذا الشهر في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم ، حيث قال في بداية الرحلة : << ها أنا أشرع في المقصود ..مبتديا بشهر صفر فأقول و من الله استمد المأمول . شهر صفر أحد شهور سنة خمس و مأتين و ألف ، و في هذا الشهر كانت غزوة بير معونة رضي الله عنهم الذين أنزل الله فيهم: اللهم بلغ غدا قومنا إذا لقـينا ربنا فرضي عنا ، و رضـينا عنه ، و جاء في الحـــــديث أنه كان قــــرآن (هكذا) يتلى ثم نسخ . و فيه كانت غـــزوته صلى الله عليه و سلم الإيـــواء ، و هي أول غزوة غزاها في المهاجرين ....و فيه زلزل النبي صلى الله عليه و سلم أركان خيبر ، و دوخ حصونها ، و استنزل معاقلها ... <<[1].

و الأمر كذلك حتى مع تحركات الباي و تعامله مع عسكره ، و كيفية تفكيره في خططه ، و توزيع جيشه ، قصد ضمان هزم عدوه . و هو ما نقف عليه من خـلال ما جاء في متن الرحلة حيث قال : << ثم أن سيدنا الأمير فرق عساكره ترهيبا للكفرة ..فأفرد السيد عصمان بمحلة عسكر تلمسان ، فنزل بها غـربي شعب الهائج ...و أفـــرد صهـــره بـــدر السعادة أبا الفضل الحميم الفقيه السيد محمد بن الباي إبراهيم بعسكر الشرق ، و أنـزله بناحية الشلف ، و بقي هـــو أيده الله في دائـرته المنيفـة ، و ذوي خاصته الشريفـة بالمحلة الكبرى ، و قد اكتنفاه المحلتان يمنة و يسرة و هو وسط كالبدر .... <<[2].

مباشرة بعد ذلك ربط كل الأحـداث بحادث ممـاثل من تاريخ المسلمين ، فقـال : << أقول و لهـذه القصـة أسوة بما وقع للقعقاع بن عمر رضي الله عنه ، يوم عماس في القادسية ، فقد كان يبعث أصحابه ليلا يتوارون بالجبل ...و يقول لهم : إذا طلعت الشمس فأقبلوا مئة مئة ، كلمـــا توارت منكم

---

(1)- ابن زرفة ، المصدر السابق، ص: 253.

(2)- نفسه ، ص:267.

مئة فلتتبعها مئة أخرى..فكان فيه تشريد بالعدو << [1]. و هكذا كلما سرد حدثا ، إلا و حاول أن يلصق به الطابع الإسلامي،تماشيا مع التوجه الثقافي و الديني السائد في عصره ، و المتميز باستغلال الظاهرة الدينية على جميع المستويات . و عندما كان الحديث عن رباط رجال الباي محمد الكبير، لم يخالف نهجه السابق ، فولى وجهه كذلك شطر التاريخ ، ليضع بين يدي القارئ و منذ خطاب التقديم ما يناسب واقع الحال ، منطلقا من توظيف آية قرآنية دالة ، ثم بدأ في تفسيرها و استمر بعد ذلك يذكر الأحاديث التي تتحدث عن فضل الرباط حيث قال : >> يا أيها الذين آمنوا اصبروا و صابروا و رابطوا قال في الجواهر الحسان في تفسير هذه الآية روى مسلم في صحيحه عن سلمان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : رباط يوم و ليلة خير من صيام شهر و قيامه و إن مات أجرى عليه عمله الذي كان يعمله ... عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : كل ميت يختم على عمله ، إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة <<[2].

بل أكثر من ذلك تحدث عن الرباط في العهود السابقة ، فذكر فضاءات مكانية عرفت رباطات كما هو الشأن في حديثه عن رباط جدة، و الإسكندرية. و لا شك أن الحديث عن فضاءات و تحديدها بهذه الطريقة، الغرض منه أن يربط بينها و بين الفضاء المكاني الهدف في الرحلة ، و نعني به وهران. و المعلوم أن الباي محمد الكبير، اعتمد اعتمادا كبيرا على المرابطين في خطته العسكرية، و قد خصص لذلك فرقة كاملة من طلبة العلم، مما يعني الأهمية التي أولاها للرباط كقوة فاعلة في إنهاك العدو .

إن استرجاع تواريخ الفضاءات المكانية ، يعني بالضرورة استرجاع نموذج الشخصيات التي كانت فاعلة فيها ، من قادة و حكام ، ليكونوا قدوة و نموذجا لمن كانوا يعاصرون الكاتب .

ولا شك أن المطلع على الرحلة القمرية ، يلاحظ بوضوح كثرة الإطناب و التوسع عندما يتعلق الأمر بالعودة إلى التاريخ ، و التعامل مع الأخبار فيه ، و كأن كاتب هذه الرحلة ، يمارس وظيفة تعليمية تقليدية ، يحرص من خلالها على تقديم الكم الهائل من المعلومات ، تماشيا مع نظرة معاصريه إلى التعليم .

و الأكيد أن مصدر بن زرفة في ما أتى به من أخبار و روى من أحداث ، هو المؤلفات التاريخية التي

---

(1)- ابن زرفة ، المصدر السابق ، ص:267.

(2)- نفسه ، ص:237.

اعتمدها في كتابة هذه الرحلة . و هذه علامة فارقة تميزه عن كثير من كتاب الرحلات، باعتبـــاره لم يعتمد فيما يبدو على رحلات السابقين عليه مثلما فعل غيره ، و تلك حقيقة ثابتة ، يؤكدها خلو الرحلة من أي إشارة – سواء بالتلميح أو التصريح – إلى تلك الرحلات ، و إنما كان اعتماده الصريح على المؤلفات التاريخية التي أصر على ذكرها بعناوينها و أسماء مؤلفيها ، و هو ما يجعل الرحلة القمرية أكثر مصداقية ، و أقرب للوثيقة التاريخية. و لم تكن سلطة التاريخ وحدها هي البارزة ، بل أن الكاتب ذاته مارس سلطة –كما ذكرنا آنفا– و قد كان له ذلك من خلال عملية السرد؛ إذ عادة ما << يستخدم الراوي السرد بتنويعاته من أجل السيطرة على القارئ عبر استراتيجيات من التشويق، و بناء الحكاية الموازي لبناء الذات>> [1]. التي تبرز من خلال توظيف الضمير الدال عليها، أعني ضمير الأنا سواء تم توظيفه بصيغة المفرد أو بصيغة الجمع.

و رغم أن بن زرفة يقع تحت سلطة حاكمـــة ، تفرض عليه أن يجاملها ، و يعمل على تلميع صورتها ، بل تفرض عليه أن لا يتحرك ، و لا يتحدث ، إلا بأوامرها ، إلا أنه على عكس كثير من الذين كتبوا الرحلات الرسمية ، لم ينأ بنفسه عن الأحداث ، مثلما فعل ابن هطال التلمساني على سبيل المثال ، بل حرص على أن يبـرز نفسه مشاركـا حيويا و فاعلا أساسيا فيها ، من خلال الاعتماد على ضمـير الأنا بصيغة الجمـع في المتتـاليات الســردية التي << يتمظهر فيها من خلال الضمائر المرتبطة بالجمل الفعليـة ، و هـي حركة تحكي عن انتقال في الزمان و المكان >> [2]. و بالتالي مشاركة في الحدث وبفاعلية ، و ما توظيف الجملة الفعلية إلا دلالة على الديناميكية و الحركة .

و يمكـــن الوقوف على ذلك في الرحلة و منذ البداية ، حين أشار إلى حضوره و انتباهه لأهم اللحظات ، أعني لحظة الزلزال الذي اعتبرناه عاملا مساعدا للبطل ، موظفا ضمير الأنا مع الإصرار على التأكيد بالضمير " أنا " ليضفي على تعبيره دلالة قوة الحضور ، و هو ما يبرز بوضوح في قـــوله : << و زلـزلت الأرض تلك الليلـة زلـزالا عظيما و أرجـــفت إرجــافا جسيما...كنت أنا عـبد الله ممن أيقضه زلزالها ، و خاف أن يلحقه وبالها >> [3].

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع نفسه، ص: 280.

(2)- نفسه، ص: 286.

(3)- ابن زرفة ، المصدر السابق، ص:254 .

و الحق أن هذا الضمير " أنا " المبرز للذات، سواء باستعماله مفردا أو باستعماله جمعا لم يختف عبر محطات الرحلة وبقي شاهدا على حضور الرحالة فيها و في أغلب الأحيان قريبا من مركز صنع القرار.

سادسا : الســـــارد و طريقـــــة الســـــرد:

أ – الســــــــــــارد:

لا يحضر بن زرفة في الرحلة كشخصية مشاركة فحسب ، بل يتعدى حضوره إلى كونه كاتب الرحلة و سارد أحداثها ؛ فهو من >> يقـوم بنقل الأحداث و الأوصاف و التعاليق بواسطة اللغة << [1] من البداية إلى النهاية ، لا يشاركه في عملية السرد غيره ، ما يعني أنه صاحب السلطة المطلقة على هذه العملية ، رغم أنه بقي ملتزما بالتقاليد التي تحكم الحاكم بالمحكوم ، خاصة في العهد العثماني ، و التي تحتم عليه أن يضع في حسبانه دائما فرضية أن السلطة الرسمية هي القارئ الأول لما يكتب .

و الحقيقة أن ابن زرفة يحضر في الرحلة كشخص >> من لحم و دم و اسم علم ينتمي إلى المدونة الرسمية التي نجدها في كتب الأنساب و الطبقات و الأوراق الرسمية << [2]. و أعني بهذا الكـلام ، أن ابن زرفة هو شخصية واقعية – من لحم و دم – تحركت على أرض الواقع ، و رحلت فعلا من أجل الجهاد، معلنة بذلك عن وجودها و مكانتها ضمن الشخصيات المشاركـــة في الرحلة فالجهاد بالنسبة إليه ، هو شرف ، بل هو الطريق إلى الجنة مثلما أشار في التقديم لهذه الرحلة ، و هذا يعني أن ما جاء في الرحلة من أحداث ، هي أحداث تاريخية وقعت فعلا في يوم ما من أيام فترة محددة من فترات التاريخ ، هي نقطة ممتدة بين نقطة انطلاق رحلة الجهاد ، و نقطة نهايتها بتحقيق هدفها .

وكما أعلـن بن زرفة (كاتب الرحلة و سارد أحداثها) عن وجوده ، و تخليد اسمه في الرحلة من خلال اعتماده ضمير " الأنا " الذي وظفـه بصورة ملفتـة كما أسلفنا ، فقد أعلن كذلك عن وجوده من جهة أخرى، من خلال إبراز حضوره، الذي أصر من خلاله في كثير من الأحيان على تأكيد قيمته الذاتية كشخصية فاعلة ، لها مكانتها في إستراتيجية الشخصية المركزية . وقد استطاع فعلا أن يبرز العلاقة القوية التي تربطه بهذه الشخصية التي تعتبر المحور الذي تدور حوله جميع الأحداث ، و المصدر الذي تعود إليه جميع القرارات ، باعتبارها الأساس الذي تبنى عليه جميـع بنيات الرحلة ، فهذه

---

(1)- عبد المالك قجور، المرجع السابق، ص: 36.

(2)- عبد الرحيم مودن ، أدبية الرحلة ، مرجع سابق، ص: 31.

الشخصية – التي هي في الواقع الباي محمد الكبير– هي الشخصية << التي تنجز الحدث ،و هي التي تنهض بدور تضـريم الصـراع أو تنشيطه من خلال سلوكها ، و أهوائها ، و عواطفها ، و هي التي تقع عليها المصائب ، أو تشتار النتائج ...و هي التي تعمر المكان ، و هي التي تتفاعل مع الزمن << (1) .

لقد سعى بن زرفة جاهدا من أجل أن يبرز شخصيته قريبـــة دومـــا من مـــــركز صنع القرار ،كواحد من المنتمين إلى ديوان الكتابة ، يؤكد ذلك حرصه على الالتصاق بالشخصية المركزية ، و إشارته في أكثر من موضع على استقباله رسائل ، و كتابته أخرى تتعلق بشؤون إدارة الجهاد ، و كذلك من خلال حرصه على تقييد كل صغيرة و كبيرة لها علاقة بذلك ، و تقييده هذا جاء عن وعي و قصد منه ؛ لأنه يعتبر ذلك << مدعاة للفخر و الاعتزاز بحكم ارتباطه بالمؤسسة الرسمية و مؤسسة ديوان الكتابة بكل محمولاته المعرفية و الاجتماعية << (2) ، فليس عجيبا إذا أن نجد هذا السارد يتتبع خطوات هـذه الشخصية ، من حيـث أقوالها و أفعالها ، و حتى رسائلها ، موظفا في ذلك ضمير الغائب " الهو " كقوله : << ثم كتب سيدنا الأمير أمده الله العون و التيسير لسيدنا الولاتلي حفظنا الله و إياه يعلمه بذلك، و يستاشره (هكذا) فيما هنالك ، و قال له إن تأخرت عن ذلك فقد تسببت لنفسك في المهالك ....و بقي ينتظر قفول بريده و رجوعه بالجواب و وفوده ، و كان قد استصحب بعض المدافع الصغار و بعض مهارس البنية التي يخف حملها <<(3) .

و لا شـك أن ضمـير " الهـو " أو الغـائب يعتـبر ركيـــزة أساسيـــة من ركائز السرد في عــلاقته مع الشخصية الـمركزية ، و يلعب في نفس الوقت دورا كبيرا في الإفصاح عن زمن الرحلة ، و المعلوم أن زمن الرحلة عموما ، و المرتبطة بالأحداث التاريخية على وجه الخصوص ، مرتبط في الأساس بالماضي ، باعتبار أن الرحالة أو كاتب الرحلة و ساردها ، لا يتحدث عن الحاضر الذي ينفي وجـوده الفـلاسفـــة (4) ، و إنمـا في الغالب يتحـدث و ينقـل صـورة مـاض، جـرت أحـداثه قبل لحظة الكتابـة التي ينقـل من خلالها هذا الحدث إلى نص. و المعلوم أن ضمير الغائب في الأعمال السـردية

---

(1)– عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، مرجع سابق ، ص: 104.

(2)– عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ،ص:201.

(3)– ابن زرفة ، المصدر السابق، ص:263.

(4)– ينظر نبيلة زويش ، المرجع السابق، ص:71 .

التقليدية >> هو المنشط للسرد ، و هو الدافع له ، و هو الدال عليه ، و هو المجسد لمكوناته ؛ إذ يمثل الشخصية ، و هي تنهض بالفعل ، بالتأثير أو بالتأثر...و من دونه أو من دون ما يعادله ، لا يمكن أن ينهض شريط للسرد ، و لا يقوم بنيانه ، ولا تستقر أركانه << [1] .

و مثلما استعمل السارد ضمير " الهو " ، وظف كذلك ضمير المتكلم . و إذا كنا في غير هذه الرحلة من الرحلات ، نجد أن ضمير المتكلم الذي يحيل على السارد لا يحضر >> إلا إذا كان الأمر يتعلق بكتابة ظهائر شريفة ، أو تقديم قصائد مدحية <<[2] ، فان الأمر مع ابن زرفة يختلف تماما ، فضمير المتكلم الدال عليه ، يحضر في كثير من الأحيان جنبا إلى جنب مع شخصيات الرحلة ، و حتى مع الشخصية المركزية فيها . وهذا ما يتجلى بوضوح في قوله : >> و كتب لنا ما ضمنه أن ما أمرتكم به أيسر علي من جهة الترك أن في كريم عملكم أنهم يحسدون أبناء العرب.<<[3]. و كذلك قوله : >> و كتب لي ما نصه: بعد الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله. و بعد فليكن في كريم علمك أن الطالبين اللذين بعثتهما لي فالكبير منهما نعرفه لا يحسن ، و الصغير لا يدخله أحد داره ... << [4].

الأكيد أن ابن زرفة يريد من وراء ذلك أن يومئ إلى مكانته عند الباي محمد الكبير ، و يكفي دليلا على ذلك أننا نجده في كثير من الأحيان – و عن قصد – يصر على أن يبرز علاقته بالباي / الشخصية المركزية ، من خـــلال التركيز على تثبيت الرســـائل التي يرسلها إليه بقصد تبليغ أوامره ، و ملاحظاته للمجاهدين من جنده ، أو رسائل الرد التي تأتيه منه ، و التي في بعض الأحيان يطلب من خلالها مشورته . بل أن الأمر يتعدى ذلك عندما نجد ابن زرفة يتدبر الأمور ، و يراسل الباي ، و يقترح عليه الحلول ، و يشير عليه بما يجب فعله ، و في نفس الوقت يبرز له العواقب ، في عمل هو أشبه بالعمل الاستخباراتي ، خاصة عندما نعلم أن بعض ما كتب الباي كان مشتملا على أسرار لا ينبغي كشفها ، و لا مجـال لذكـرها و وصـفها ، و هو ما نقـف عليه من خلال قولـه في الرحلة : >> و قـد كنت دبرت في عاقبة هـذا الأمر و كاتبت سيدنا الأمير ، أمده الله بالعون و التيسير

---

(1)- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، مرجع سابق ، ص: 170.

(2)- أحمد بوغلا ، المرجع السابق ، ص: 227.

(3)- ابن زرفة ، المصدر السابق، ص:384.

(4)- نفسه ، ص:388.

ما حوزته بعد الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله صلى الله عليه و سلم، أن الطلبة لا يستقيم أمـرهم في تعيين الأخبيـة،و أخذ القمح و طحنه، و حمله لهم من البادية فدبرهم على القوت فيها،و ما هذه الأمور عليك بعسيرة و إلا فتخاف. و ينقض بذلك من المرابطين عهدهم >> [1].

هكذا يتجلى لنا بوضوح أن ابن زرفة لم يرض لنفسه أن يبقى بعيدا عن الأحداث مثلما فعل غيره ممن كتبوا الرحلات الرسمية أو رحلات غيرهم ، بل سعى جاهدا من أجل أن يبرز دوره في صناعة هذه الأحداث ، و مكانته بين صانعيها ، كشخصية لها كلمتها و احترامها ، و عليه يصبح مدحه للسلطة و تمجيده لها إنما هو مدح للذات و تمجيد لها أيضا .

ب- طريقة السـرد :

- التتابـع :

يقوم بن زرفة السارد / الشخصية المحدد بضمير " الأنا " الجمعي الذي يمثل " النحن "، و المشارك في الأحداث تحت سلطة حاكمة تمثلها شخصية الباي محمد الكبير، بسرد أحداث هذه الرحلة بنفسه، و لم يأخذ عن غيره ، بطريقة هي أقرب إلى نهج المؤرخين و كتاب الرواية التقليدية في عرض الأحداث؛ إذ ارتكز في الأساس على التتابع الذي يقوم على تسلسل ذكر الأحداث كما حدثت في تسلسلها الزمني على أرض الواقع في الرحلة الفعلية، تماما مثلما هو الحال في الرواية- خاصة التاريخية - التي تستمد<<خصائصها من الخطاب الذي يراعي التسلسل الزمني في عرض الأحداث >> [2] . وطريقة مراعاة التسلسل الزمني ، هي في الحقيقة طريقة مقصودة ، مشار إليها مباشرة مع أول عتبة من عتبات النص الرحلي، أعني بذلك العنوان الذي ألمح من خلاله على أن رحلته هذه ستكون مبنية في تسلسلها و تتابع أحداثها بحسب ترتيب الأشهر القمرية ، و عليه يصبح من الطبيعي أن تكون الأحداث عنده خاضعة لكرونولوجيا [3] تاريخية ، مرتبطة بتواريخ معينة ،حددها ابن زرفة بدقة تارة ، و غفل عن ذلك تارة أخرى، منطلقا في ذلك من شهر بداية الرحلة نفسها ، و هو شهر صفر . و لتكون الصورة أوضح ارتأينا أن نعتمد جدولا توضيحيا يساعدنا على الوقوف على ظاهرة تتابع الأحداث و تسلسلها :

---

(1)- ابن زرفة ، المصدر السابق، ص: 385.

(2)- محمد رياض وتار ،المرجع السابق ،ص:104 .

(3)- تعني علم حساب الزمن و تحديد الأحداث حسب الفترات الزمنية .

التاريـــخ و ملمـــح الحـــدث	الصفحة	الملاحظـــــــــة
شهر صفر أحد شهور سنة خمس و مائتين و ألف..	253	تحديد شهر و سنة اتخاذ القرار باستعادة وهران، مباشرة بعد ذلك تحدث عن غزوة للنبي(ص) كانت في نفس الشهر.
ففي يوم الاثنين أول يوم من شهر صفر جاءت البشارة ...بأن مدينة وهران قد زلزلت..	254	تدخل قدرة الله من خلال الزلزال الذي ضرب المدينة .
شهر ربيع الأول : و لما استهل هذا الشهر الكريم نبض عرق نور الجهاد...	304	عدم التحديد باليوم .
فلما استهل شهر ربيع الثاني و بان صبح ليله أذن سيدنا الأمير أن ينظر لطلبة رباط وهران و يبعث لهم خمسمائة ريال للانفاق على الطلبة ...	330	انتقال للشهر الموالي و تحديد بدايته.
و في هذا الشهر رفع لسيدنا الأمير أمده الله بالعون أن رجلا اسمه جفال ممن سكن وهران في الاسلام يعرف أصل ماء وهران الذي زلت في معرفته الأقدام.	337	عدم التحديد باليوم.

و في أول هذا الشهر (جمادي الأولى) عزم النصارى أخذهم الله إلى الخروج لناحية الجبل ..	368	تحديد باليوم و الشهر.
و في الحادي عشر من أيام هذا الشهر قدم علينا من مستغانم ثمانية أحمال واحد زبيب...	374	تحديد باليوم و الشهر .
و في الثاني عشر قدم علينا من حضرة الأمير بعض البارود و بعض المكاحل	374	تحديد باليوم و الشهر .
و في هذا اليوم قدم علينا أيضا من مستغانم أربع (هكذا) أحمال من السمن مشتملة على عشرين طاس ...	374	تحديد باليوم و الشهر .
هذا و في العشرين من هذا الشهر قدم علينا من محروسة تلمسان خمسون حملا بشماطا و اربعة سمنا	378	تحديد باليوم و الشهر .
و في ليلة الأربعاء الحادي و العشرين من هذا الشهر ذهب الطلبة بعون من بيده الخلق لبحاير وهران ...بقصد أن يكمنوا	378	تحديد باليوم و الشهر .
و في الخامس و العشرين من هذا الشهر سمع بعض الطلبة و كانوا عل المائدة صريخ نساء.....	381	تحديد باليوم و الشهر .

و في السادس و العشرين منه بعث سيدنا الأمير جملة وافرة من جلود البقر لانتعال الطلبة ...	382	تحديد باليوم و الشهر .
و في السابع و العشرين قدم من مستغانم حملة وافرة من الحصون	382	تحديد باليوم و الشهر .
و في الثامن و العشرين قد مر علينا بعض البارود	382	تحديد باليوم و الشهر .
و في التاسع و العشرين من هذا الشهر قدم علينا الكاتب بألف ريال كرنيطة	383	تحديد باليوم و الشهر ..
شهر جمادي الثانية	386	بعد ذكر الشهر تحدث مباشرة عن رجوع النبي صلى الله عليه و و سلم من غزوة بني سليم .
و في أثناء هذا الشهر أتانا بريد من حضرة سيدنا الأمير و استصحب معه خمس مائة ريال كرنيطة...	391	تحديد غير دقيق..
و في نحو ستة أيام من هذا الشهر جاء الصريخ بأن أعداء الله النصارى أخزاهم الله خرجوا لجهة الرفافيد في عدة ...	394	تحديد غير دقيق.

هذا و في صبيحة المعركة قسم شيخ الطلبة على ذوي السلاح ستة قناطير من البارود...	402	بعدها كان حديث مطول على الأولياء و الكرامات ...
و في أواخر هذا الشهر نزلت محلة القواد و أعيان الأجناد بأعلى الهائج في جيش عرمرم يسير كالليل المظلم ...	445	
و في 28 من هذا الشهر كنا بجبل المائدة ننظر ماذا تصنع الطائفة الجاحدة و في آخر هذا الشهر و فد علينا أحمد بن القاضي و بعض أعوان سيدنا بخمسة أحمال من الرصاص..	446	عودة إلى التحديد باليوم و الشهر .

الجدول السابق هو في الحقيقة نموذج ، أردنا من خلاله الوقوف على الطريقة التي اعتمدها السارد في سرد أحداث الرحلة ، و التي نهج فيها نهج المؤرخين – مثلما أشرنا آنفا – باعتماده على التتابع و التتالي ، تماشيا مع ما يتطلبه المنطق ، و ما تفرضه سيرورة الأحداث. و هذا التتابع قائم << على تسلسل ذكر الأحداث في السرد طبقا لتسلسلها الزماني الوقائعي >> [1]، بحيث تأتي أحداث السبت قبل الأحد ، و أحداث الصباح قبل المساء ، و أحداث صفر قبل ربيع الأول ، و أحداث الأول من الشهر ، قبل الثاني منه و هكذا .

و الذي فرض هذا النمط من السرد هو طبيعة الرحلة ذاتها ، باعتبارها رحلة رسمية تتطلب دقة في إثبات الأحداث ، و تحديد التواريخ ، لأنه بكل بساطة ،و دون أدنى شك ،أن هذه الأحداث تسجل في دفاتر و سجلات ديوان السلطة الحاكمة، لتكون ذاكرة للتاريخ ، وهذا ما يجعل الرحالة أو كاتب الرحلة و سارد أحداثها في الغالب << يلتقي مع مؤرخي عصره في قواسم مشتركة ارتبطت

---

(1)- عبد الرحيم الكردي ، المرجع السابق ، ص:170.

بالهاجس التاريخي المسيطر >> (1) و الضاغط على معظم الرحالة خاصة القدماء منهم .

– التدقيـــــــــــــــق الزمنـــــــــــــــي:

و إذا نظـرنا إلى الرحـلة التي اتخذناها كنمـوذج ، فإننا نجد صاحبها في موقف تقديم أخبار رسمية ، متعلقة برحلة جهادية قادت صاحبها إلى استرجاع حق مغتصب ، و مثل هكذا نوع من الرحلات تتطلب– كما سلف ذكره– الدقة في نقل الخبر، و هو ما تجسد فعلا في بعض محطات هذه الرحلة ، من خلال التأكيد على التدقيق الزمني، باعتماد التأريخ للحدث باليوم و الشهر. و هـذا ما يمكن أن نقف عليه من خلال الجدول السابق، خاصة في شهر جمادي الأولى، حيث التسلسل الخاضع لمنطق سير الأحداث كالتالي:

في أول هذا الشهر (جمادي الأولى)....

في الحادي عشر.....و في هذا اليوم....

في العشرين من هذا الشهر.....

في الحدي و العشرين من هذا الشهر ....

في السادس و العشرين من هذا الشهر ...

في السابع و العشرين من هذا الشهر ....

في الثامن و العشرين من هذا الشهر ....

في التاسع و العشرين من هذا الشهر ....

الأكيد أننا نلاحظ سقوط بعض الأيام من هذا الشهر، و هو ما يدل دلالة واضحة أن التدقيق اعتمده السارد في الأيام التي شهدت الأحداث الجسام، ذات الأهمية في سير أحداث الفتح، و الملاحظ أن هذا الشهر كان شهر الاستعداد الفعلي الذي شاركت فيه مختلف مناطق الجهة الغربية ، مثل تلمسان، و معسكر، و مستغانم، وغيرها.و مع ذلك فإننا نجد ابن زرفة في بعض المواقف ، يلتجئ إلى تحديدات مبهمة ،كأن يوظف عبارة " وفي أواخر هذا الشهر " أو " في أثناء هذا الشهر " أو " في نحو ستة أيام من هذا الشهر "...

لقـــد اعتمد السارد في هذه الرحلة على سرد أحداثها و وقائعها ، انطلاقا من الشهر الذي وقعت فيه

---

(1)– عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية ، مرجع سابق، ص: 187.

و عليه يمكننا أن نعتبر أن كل شهر في الرحلة يمثل محطـــة ، قد تكون محطة استعداد ،أو توجه ، أو جمع سلاح ، أو قتال ، و بهذا يصبح متن الرحلة عبارة عن محطات متتالية خاضعة لمنطق الجهاد الذي يتطلب التوعية و تعبئة النفوس، ثم الاستعداد ، و أخيرا الاتجاه نحو الهدف .

و الأكيد أن اعتماد هذه الطريقة ، أعني طريقة سرد الأحداث عبر محطات محددة من قبل كتاب الرحلات و ساردي أحداثها ، يكون عن وعي و قصد ، باعتبار أن هـــذه المحطات تساعـــــد << على خلق فسحة للسارد بهدف استرجاع الأنفاس أولا ثم فسح المجال للرحالة لكي يمارس متعته في الاستطراد و الحكي و الإضافة و إثارة شهية القارئ >> [1] من جهة و من جهة أخرى تقديم ما يريد تقديمه دعما لرأي أو تعليما و إفادة لمتلق .

– الإطنـــــــاب و الاستطـــــــــــراد:

و رغم ما قلنا عن التتابع و التتالي في الرحلة الجهادية ، إلا أن المطلع على الرحلة القمرية يلاحظ بوضوح كثيرا من الاضطراب على مستوى السرد ، و مرد ذلك إلى الإطناب الذي ميز طريقة سرد أحداث الرحلة ، حيث لم يتوان بن زرفة عن ذكر كل ما خطر بباله ، أو قرأه ، مما له صلة بالموضوع المتحدث عنه ، بقصد عقد المقارنات تارة ، و إفادة القارئ تارة أخرى ، و هو في هـــــذا لا يختلف عن غيـره من كتاب المصنفات في عصـره ، وذلك ما أشار إليه صراحة بل أنه اعتبر نفسه واحدا منهم ، عندما اعتبر أن ما كتبه لم يكـــــن << على وجــه التأليف بل على سبيل التصنيف >> [2] .

كما تميز سرد الأحداث عند ابن زرفة بظاهرة الاستطراد ، و هي الظاهرة ذاتها التي ميزت رحلات و مصنفات هذا العصر ؛ فقد كان ابن زرفة يذكر كل شيء ، حتى الرسائل التي كانت بين الباي و غيره من المسؤولين ، و التي عادة ما يذكرها بنصها ، و هو ما حتم عليه اعتماد الانقطاعات السردية التي تمثل وقفات بلغة تقنيات السرد الحديث ، و قد مثلتها في هذه الرحلة تلك الأوصاف ، و الحكايات ، و الأحـداث ، و الأخبـــار التي اعتمـد عليها السارد ، و هي في الواقع لا تقع في دائرة السرد باعتبارها خارج إطار الحدث الرئيسي المسرود، و يبدو أن هــــــذه الوقـفات كانت مقـصودة

---

(1)– عبد الرحيم مودن ، أدبية الرحلة، مرجع سابق ،ص: 36.

(2)– ابن زرفة ، المصدر السابق ،ص:155.

اتخـذها كـاتب الرحـلة و سارد أحداثها من أجل أن يخفف على القارئ ، و دليل ذلك أن هذا السـارد أبرزها بعناوين مستقلة تحمل دلالة ، و تؤدي وظيفة كما يوضحه الجدول التالي :

الوقفـة	الصفحة	الوظيفـة
تنبيـه	170	توضيح ما رآه غامضا و تزويد القارئ بمعلومات يظن جهله لها.
لطيفـة	269	أدت وظيفة الترفيه و خففت الثقل على القارئ.
فائـدة	328	تقديم الفائدة الدينية .
تتمـة	356	استكمال بعض الجوانب يرى انها ناقصة فيما تقدم.
مسألـة	386	اختبار القارئ ثم مساعدته على الوصول إلى النتيجة .
تذييل	413	تقديم معلومات حول شخصية ليست من شخصيات الرحلة.

و قـد انتشرت هذه العنـاوين بصورة ملفتة (1) على صفحات الرحلة ، من بدايتها إلى نهايتها ، و كانت متنوعة و من مصادر مختلفـة ، و قد قامت في أغلـب الأحيان بوظيفة تعليمية تتجلى خاصة

(1) – حيث نلاحظ أن :
لطيفة وردت في الرحلة 13 مرة
فائدة وردت في الرحلة 12 مرة
مسألة وردت في الرحلة مرتين
تتمة وردت في الرحلة مرتين
تنبيه وردت في الرحلة مرة واحدة
تذييل وردت في الرحلة مرة واحدة
ما يدل على أن مقيد الرحلة حرص على التخفيف على القارئ، و في نفس الوقت تقديم الفائدة له. ما يثبت مرة أخرى البعد التعليمي لهذه الرحلة رغم كونها رحلة جهادية و هو ما اشرنا إليه آنفا.

عندما يوقف السارد سرده ، و يفسح المجال لنفسه ليقــدم التوضيح ، و يشرح الحديث ، و يفسر الآية، و هو في كل ذلك يومئ إلى ثقافته ، و سعة علمه ، و تنوع معرفته ، و هذا يعني أن البعد التعليمي حاضر في الرحلة الجهادية ، كما حضر في غيرها من الرحلات ، ما يعني أن الرحلة في الأدب الجزائري كما هو الحال في الأدب العربي عموما ، و عبر مختلف العصور ظلت >> مــخلصة لأهــدافها التعليمية المتـداخلة مع مــكونات الرحــلة ، عبر مراحـــل السفر المختلفـة التي حرص فيها الرحالة على تصريف التراكم المعرفي بوسائل حكائية و غير حكائية عديدة << [1] و يمكننا الوقوف على ذلك في هذه الرحلة من خلال حديث بن زرفة عن انطــلاق رحـلة الفتح الذي صادف يـوم الإثنين ، و تحت عنوان " لطيفة " ، راح يذكــر فضائل هذا اليوم ، و يعدد مزاياه ، رابطا كل ذلك بالشخصية المركزية في الرحــلة فـــــ >> من عناية الله تعالى بهذا السيد الأمير الذي اطلع الله على يده قمر السعد المنير أن يمره للسفر يوم الاثنين أيد الله ذلك الحين و لكن لما أراد الله نجح سعيه أمده بألقابه الحفية و يسر له الأسباب الزكية .

قال أبو ناصر الهمداني في كتابه السبعيات في مواعظ البريات ما نصه :خلق الله الشمس و القمر في يوم الاثنين ،و صفتهما السير فمن أراد السفر فليسافر فيه، ثم قال روى أنس عن ابن مالك رضي الله تعالى عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن يوم الاثنين قال : يوم سفر و تجـــــــارة قالوا :كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : لأن فيه سافر شعيب النبي عليه السلام للتجارة و قد ربح في تجارته ثم نقل عن بعض العلماء ما نصه : خص الله تعالى يوم الاثنين بسبع فضائل : الأولى أن إدريس عليه السلام يوم الاثنين صعد إلى السماء . و الثانية ذهب موسى إلى الطور يوم الاثنين ، و الثالثة نزل دليل وحدانية الله تعالى يوم الاثنين ، و الرابعة ولد رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم الاثنين ، و الخامسة أول ما نزل به جبريل عليه صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، و السادسة تعــرض أعمال الأمة يوم الاثنين على روح رسول الله صــلى الله عليــه و سلم ، و السابعة وفاة الرسول صلى الله عليه و سلم يوم الاثنين << [2].

و بعد كل هذا ، يعود السارد إلى استئناف سرد أحداث الرحلة بقوله : >> هذا و رحل سيــدنا

---

(1)- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية ، مرجع سابق، ص:146.

(2)- ابن زرفة ، المصدر السابق ،ص، ص:255- 256.

الأمير أعانه الله بالفتح و التيسير... >> [1] و هي الطريقة ذاتها التي تتكرر في معظم محطات الرحلة المشابهة و التي يتوقف فيها عن السرد و يوظف عنوانا من العناوين المذكورة .

و لما كان العصر عصر أولياء و تصوف ، فإن هذا النوع من الرحلات ، و بطابعها الرسمي لم تخل من ذكر الكرامات و توظيفها كعناوين خارج إطار الأحداث الرئيسية ، و هو ما وقفنا عليه في هذه الرحلة تحت عنوان : كرامات الأولياء ، حيث أطنب ابن زرفة و توسع ، فعرف بالكرامات ، و تحدث عن أسرارها ، و ذكر ابرز رجال المتصوفة كابن عربي و الجنيد ، و يبدو أن اعتقاد السارد بمكانة الأولياء و ضرورة الخضوع لهم ، متمكن من نفسه ، فقد أورد في الرحلة ما نصه << فسأل الرجل ما الذي يمنعك من النطق بالشهادتين فقال : كلما أردت أن ننطق بها (هكذا) وثب علي شخص أسود يشد لساني، و يقول أنا وقيعتك في الأولياء ، أمنعك من النطق بالشهادتين ،ثم رأيت شخصا نور وجهه تيلالي[2] (هكذا) فطرد ذلك الشخص الأسود ، و قال : أنا رضى أولياء الله عليك ، فما زال الرجل يلهج بالشهادتين حتى خرجت روحه . >> [3]. و قد استمر الحديث عن هذا الموضوع و عن الفراسة بعدها ، على امتداد ما يزيد عن خمس و عشرين صفحة .

---

(1)- ابن زرفة ، المصدر السابق ،ص:255.

(2)- المقصود تلألأ.

(3)- ابن زرفة ، المصدر السابق ، ص:422.

الفصـــــــل الرابع

الرحلة العلمية بناؤها .. خصائصها

فتح الإله لأبي راس نموذجا

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

أولا : المفهـــــــــوم :

المقصود بالرحلة العلمية، أو على الأصح الرحلة في طلب العلم ، تلك الرحلة التي يعزم عليها صاحبها ، فيغادر موطنه الأصلي، لينطلق إلى المكان المقصود بغرض طلب العلم ، و لقاء العلماء ، و الجلوس إلى الشيوخ للاستماع لدروسهم في الحلقات . و مثل هذا النوع من الرحلات يتقاطع مع غيره من أنواع الرحلات الأخرى ، خاصة الحجية و التجارية منها، و هي الرحلات التي كثيرا ما يتصيد الرحالة فيها العلم و المعرفة في كل محطة يحل بها من محطاتها، من خلال الجلوس إلى الشيوخ المدرسين ، و مقابلة العلماء أو التعامل معهم ، رغبة في تنقيح العلوم و تصحيح المفاهيم .

وهذا يعني أن طلب العلم أصبح مقترنا بالرحلات لا يفارقها ، خاصة عند المسلمين الذين يعتبرون العلم حاجة إنسانية ، بل أكثر من ذلك يعتبرونه مطلبا دينيا ؛ فهو فريضة على كل مسلم ، واجب عليه أن يطلبه و يسعى إليه مجابها للمصاعب ، متحديا للأخطار، و متسلحا بالصبر، و لو كان بالصين ، فنظرة المسلمين للعلم قائمة على قاعدة أساسها أنه من أراد العلم عليه << بافتراش المدر، و استناد الحجر، و رد الضجر، و ركوب الخطر ، و إدمان السهر ، و اصطحاب السفر >> [1] و تلك حقيقة تؤكد أن العلم مقترن دوما بالسفر ، و هو ما ترسخ حقيقة في أذهان المسلمين مع ظهور فجر الإسلام ، فمنذ << القرون الأولى للهجرة كان اكتساب العلم مرادفا للسفر >> [2] عند الرعيل الأول منهم ، و السفر في كل الأحوال مرادف للخطر .

و للمسلمين في ذلك أخبار و مواقف ناصعة أصبحت مضربا للمثل ، مثلما هو الحال مع عبد الله ابن مسعود –كما جاء في الرحلة في طلب العلم – حيث قال: << ما أنزلت آية إلا و أنا أعلم فيما أنزلت و لو أنني أعلم أن أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل و المطايا لأتيته >> [3] .

و الأكيد أن الجزائريين ، مثلهم مثل غيرهم من أبناء الأمة عبر مختلف مراحل التاريخ ،كانت

---

(1)– أبو الفضل بديع الزمان الهمداني ، مقامات ، شرح و تعليق محمد محي الدينن المكتبة الأزهرية ، د ط ، 1923 ، ص:301.

(2)– عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد و الانساق الثقافية، مرجع سابق ،ص: 15.

(3)– أبو بكر البغدادي ، الرحلة في طلب الحديث ، تحقيق نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، لبنان ، ط 1 ، 1395هـ/ 1975 ،ص: 95.

لهم خلال العهد العثماني و غيره ، رحلات في بلاد المغرب تارة ، و في اتجاه المشرق تارة أخرى ، الغرض منها السعي نحو حضائر العلم رغبة في تحصيله أولا ، و تعليمه ثانيا ، إلا أن الكثير من هذه الرحلات – للأسف – ضاعت، أو لم يسجلها أصحابها. نقول هذا الكلام مع وجوب الاعتراف بأن الجزائريين في هذا الفن>> كانوا قليلي الإنتاج، و لعل ذلك راجع إلى أن عددا من العلماء الذين توزعوا في العالم الإسلامي ، لم يعودوا إلى الجزائر ليكتبوا ملاحظاتهم إلى مواطنيهم <<[1].

ثانيا : الرحـــلة و الرحـــالة :

الرحلة التي توفرت لنا و ارتأينا أن تكون نموذجا للرحلة العلمية في الجزائر خلال العهد العثماني ، جاءت تحت عنوان " فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته " ، و هذا العنوان مثلما نلاحظ لا يوحي من ظاهره أن الأمر يتعلق برحلة لانعدام العلامة التجنيسية فيه ، إلا أن ذلك لا ينفي عنه صفة الرحلة باعتبار أن بنية السفر حاضرة فيه ، و ما يؤكد ذلك أن هناك من الدارسين من يتحدث عن عنوان آخر لهذا المؤلف ، يتجلى فيه التجنيس بصورة واضحة بحضور كلمة " رحلة " فيه ، و هو " عدتي و نحلتي في تعداد رحلتي ". إلا أن هذا العنوان لم يشتهر كثيرا ، ولم يوظفه المحقق و السبب في ذلك – أغلب الظن – يعود إلى وجود بعض العناوين فيه (المؤلف) لا تدخل في دائرة الرحلة . و الملفت للانتباه أن الرحالة في آخر هذا المؤلف أشار إلى عنوان أخر لرحلته بقوله : >> رحلتي التي هي ملء العيبة ، في طول الغيبة إلى مكة و طيبة << [2] .

و تتميز رحلة أبي راس بأسلوبها الرصين الأقرب إلى العلمية في معظم أجزائها ، و بخلوها من الحديث عن المشاهد و وصف الأماكن ، كما تتميز بتركيزها عن الحديث عن العلم العلماء ، و المشايخ والفقهاء ، القضايا الدينية ، و المناظرات العلمية ، إضافة إلى الحديث عن المؤلفات بذكر عناوينها و التعريف بأصحابها . إلا أن هذه الرحلة – كغيرها من مؤلفات العهد العثماني – لم تخل من رواسب العصر ، حيث طغى السجع على معظم فقراتها.

و بالنظر إلى طبيعة ما جاء فيها ، و تركيز مؤلفها الحديث عن نفسه ، و عن مختلف أطوار حياته ، فقد جاءت هذه الرحلة ممتزجة بالسيرة الذاتية ، التي لا يكتبها في العادة إلا المشاهير .

---

(1)- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق، ص: 396.

(2)- محمد أبو راس ، المصدر السابق ، ص:165.

و النقـاد و الأدبـاء كما نعـلم يتفقون أن << كاتب السيرة الذاتية ليس كاتبا عاديا ، ذاك أن الذي يكتبها هو من بلغ شوطا كبيرا من حياته الأدبية أو الفكرية أو السياسية أو المهنية العامة << (1) .

و لعل طبيعة الحياة القاسية التي عاشها أبو راس (2)، و تمكنه رغم ذلك ، و رغم الصعاب التي واجهها في حياته ، أن يصل إلى درجة علمية راقية سمحت له أن يجاري علماء المشرق و يناظرهم ، و يتفوق عليم ، بل يعترفون له بذلك . ؛ فقد عاش الرجل فقيرا إلى الحد الذي مشى مادا يده ، حافيا ، لا يضع على جسده إلا بالي الثوب ، و مع ذلك فقد تنوعت تجاربه ، و تعمقت معارفه ، و توسعت ثقافته من خلال تنقلاته و رحلاته التي قـــادته إلى مختلــف أقطار الوطن العربي شرقا و غربا ، حيث كان يجالس العلماء و يناقش معهم القضايا ، بل كان يناظر الأجلة منهم فيعترفون له ب نباهته ، و سعة علمه ، و عمق فكره . و يبدو أن لذلك كله و لرغبته أن يخلد حياته و يضعها بين يدي غيره ليتخذها قدوة و يستفيد منها ، كانت وراء كتابة هذه الرحلة السيرة أن صح التعبير .

و كغيره من علماء الجزائر ، تاقت نفسه إلى الحبيب محمد صلى الله عليه و سلم فعزم على الحج و >> قد حج مرتين على الأقل ، الأولى سنة 1204 هـ و الثانية سنة 1226هـ << (3) و قد استغل فرصة التنقل إلى الحج ليزور مصر، سورية، فلسطين و غيرها.ما جعله أكثر العلماء الجزائريين ترحالا في مختلف الأمصار، و أكثرهم كتـابة في مختلف ميادين المعرفة ، فقد بلغت مؤلفاته كما عـددها في " فتح الإله و منته " تسعـا و خمسين مؤلفـا بين كتاب و رسالــة و شرح قصيدة ، و لم

---

(1) – محمد الباردي ، عندما تتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2005، ص: 53

(2)– هو الحافظ أبو راس محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن علي بن عند العظيم المعسكري الجزائري المولود في العام 1165هـ و المتوفى في العام 1238هـ وهو من المشاركين في فتح وهران في عهد الباي محمد الكبير له العديد من المؤلفات في مختلف العلوم منها :

– مفاتيح الجنة و أسناها في الأحاديث التي اختلف العلماء في معناها .في الحديث الشريف.

– النبذة المنيفة في ترتيب فقه أبي حنيفة . في الفقه .

– النكت الوفية بشرح المكودي على الألفية . في النحو .

– التشوف إلى مذهب التصوف . في التصوف .

(3)– أبو القاسم سعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ،مرجع سابق ، ص:359.

يقتصر أبو راس على التأليف في تخصص معين ، بل خاض في كل التخصصات تقريبا ، فألف في التفسير ، و الحديث ، و الفقه ، و الأدب ، و اللغة ، والعقائد ، و التاريخ و غيرها لقد كان بحق عالما موسوعيا . إلا أن كثيرا من أعماله و للأسف ضاعت ، أو أنها في حكم الضائعة ، ما دامت مخطوطة و أيادي الباحثين و المحققين لم تصلها بعد .

ثالثا : المضمـــــــــــــــــــــون :

الرحلة كما نعلم فن شامل يمكن أن يستوعب العديد من العلوم و المعارف ، و عليه تتنوع مضامينه بين التاريخ و الجغرافية و الأدب و الاقتصاد و السياسة و الاجتماع ، إلا أننا في فتح الإله و منته لأبي راس الناصري نجد أنفسنا أمام مؤلف برزت فيه السيرة الذاتية ، و طغى عليه الجانب العلمي ، و قل فيه المضمون الاجتماعي و الجغرافي ، لكن مع ذلك يبقي ارتباطه بالرحلة قائم ، خاصة فى الجزء الذي صرح فيه الكاتب مباشرة أنه يتحدث عن رحلة . و الأكيد أن أبا راس كان على وعي تام بما يكتب ، و يبدو أنه قسم مضامين مؤلفه بصورة تجعل حديثه عن حياته شاملا ، و قد جاء مضمون الكتاب مقسما إلى خمسة أبواب هي :

الباب الأول:

وقد اختار له أن يكون تـحت عنـوان : " ابتداء أمـري " في هـذا الباب ركز الحديث عن مولده ونسبـه و طفولته ، و بعـض أفـراد أسرته ، فتحدث عن أمـه و والده و أخته و أخيه الأكبر ، و عن جده و أسلافه الذين أبرز مكانتهم و علو همتهم ، و يبدو انه قصد بذلك الافتخار بالمجد التليد. و كذلك تحدث عن أولى خطواته و تنقلاته للتحصيل العلمي و للتعليم في نفس الوقت .

الباب الثاني:

و قد اختار له عنوان : " في ذكـــر أشياخـي النافضـين عنـي قشـب أوسـاخي : شريعـة ، وحقيقـة ،و قـرآنا ، و طريقـة ". و العنـوان بهـذه الصـورة – لا شـك – أنه يحمل دلالات التواضـع و الاعتـراف بالجميـل، المكنـى عنه بقولـه : " النافضين عني قشب أوساخـي " يؤكـــــد هذا ما أورده صاحب الرحلة بقصد الإشارة إلى ذلك ، عندما أشار إلى ما كان من أمر الاسكندر اليوناني الذي قيل له : أراك تعظم شيخك أرسطو على والدك ، فقال : والدي سبب الحياة الفانية ، و شيخي سبب الحياة الباقية . و الأكيد أن المشيخة كانت مقدسة عل عهد الرجل ، و قد

ألمح أبو راس إلى ذلك بما رواه عن الشيخ الصعيدي [1] في حاشيته على شرح الحرشي لمختصر الخليل من << أن ابليس – لعنه الله ، و أخراه – أتى إلى عيسى عليه الصلاة و السلام ، و قال له : قل لا إله إلا الله ، فقال له عيسى : إني أقولها لا بقولك يا ملعون ؛ لأن عيسى فهم عنه أنه إذا قالها بقوله صار شيخا له ، فلا يمكنه عصيانه فيما يأمره به ، و معلوم أن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء ، و من جملنها الكفر ، فعصمه الله منه >> [2]. و في هذا الباب عرف أبو راس بشيوخه ، مبتدئا بوالده الذي يعتبره أولهم ، و منتهيا بالشيخ السنوسي بن السنوسي ، الذي قرأ عل يديه المنطق و البيان ، و أقرأه هو الفقه [3]، و قد عدد أبو راس ما يقارب الخمسين شيخا ، جلس إليهم و تعامل معهم ، و أخذ عنهم مختلف العلوم و المعارف ، كالفقه و اللغة و التصوف ، و غير ذلك من العلوم المشهورة في عصره.

الباب الثالث:

و هو الباب الذي يسوغ لنا تصنيف هذا المؤلف ضمن فن الرحلة ، و قد اختار له عنوان: " في رحلتي للمشرق و المغرب و غيرهما و لقاء العلماء الأعلام ، و ما جرى لي معهم من المراجعة و الكلام " فيه حديث عن رحلته التي خرج فيها إلى الحج ، و التي استغل أيامها و شهورها في طلب العلم ، وهذه الرحلة قادته في البداية إلى بعض مناطق الوطن ، كالجزائر و قسمطينة (هكذا يسميها) ثم إلى تونس ، و مصر ، والبقاع المقدسة ، و بلاد الشام ، حيث كان الختام بغزة في أرض فلسطين ، ثم العريش في شمال سيناء.

الباب الرابع:

في هذا الباب الذي وضع تحت عنوان " في الأسئلة و ما يتعلق بها " ، فيه تركز الحديث عن تعداد المسائل التي عرضت عليه ، و ناقش أمرها ، و أجاب عنها ، في مختلف الأقطار و الأماكن التي زارها ، أو مر عليها أثناء رحلته ، إضافة إلى مناظراته التي كانت بينه و بين علمائها و مشايخها .

---

(1)- هو أبو الحسن علي بن أحمد بن مكرم الصعيدي العدوي ، المتوفى في العام 1189هـ ، واحد من أعلام الفقه المالكي في مصر، من أشهر مؤلفاته " شرح كفاية الطالب الرباني لرسالة أبي زيد القيرواني "

(2)- محمد أبو راس ، المصدر السابق ، ص: 41.

(3)- ينظر ، نفسه، ص: 73.

الباب الخامس :

جاء هذا الباب تحت عنوان" العسجد و الإبريز في عدة ما ألفت بين بسيط و وسيط و وجيز" فيه عدد و صنف أبو راس وذكر عناوين ما ألف و علق على بعضها، شرحا، و توضيحا، و تعريفا بالمضمون .

و خلاصة القول أن هذه الرحلة كغيرها من الرحلات العلمية ، و حتى غير العلمية ، حفظت لنا عناوين العديد من المؤلفات ، و في مختلف مجالات المعرفة ، كما عرفتنا بالعديد من الشخصيات العلمية ، من شيوخ الفقه و التصوف ، و علماء الحديث و النحو غيرهم ، فللرحلات >> يعود الفضل في الاحتفاظ بآثار لولاها لكانت عرضة للاندثار و النسيان << [1] .

رابعا: البعد العلمي في رحلة أبي راس :

سوف لن نكون مبالغين عندما نحكم على رحلة أبي راس أنها رحلة علمية بامتياز ؛ ذلك أن الجانب العلمي طغى عليها بجميع تمظهراته ، إلى الحد الذي كاد أن يخرجها من دائرة فن الرحلة لولا حضور بنية السفر الدالة على الحركة و الانتقال ، داخل الإطار المكاني المعبر عنه بأسماء المدن و الأقطار ، و الأكيد أن البعد العلمي للرحلة سيكون مسيطرا على مختلف محطاتها ، و يمكننا الوقوف عليه مباشرة من خلال مجموعة من المعطيات منها :

أ- دلالة خطـــــاب التقديـــــــم :

يكتسي خطاب التقديم مكانة أساسية في بناء الرحلة باعتباره المؤطر الأساسي لنصها ، >> و قد اعتبر التقديم في النصوص الرحلية ضرورة واجبة أكثر منها في أشكال أخرى << [2]. و مع خطاب التقديم الذي نجده في بداية هذا المؤلف ، يتجلى بوضوح البعد العلمي لرحلة أبي راس ، و يتأكد ذلك من خلال الحرص على الإشادة بالعلم و لا شيء غيره ، في إشارة واضحة إلى أن ما سيقال و يذكر ، لا يخرج في مجمله عن دائرة العلم و العلماء.

فقد اعتبر أبو راس >> أن العلـم من أفضل نفائس الأعــلاق ، و أرفــع الأشياء على الإطلاق فكـــان أحــق ما رمــق بالأحداق ، و صرفت له همم الحذاق ، و رنت له ذوات الأطواق ، لنجائه في

---

(1)- الحسن الشاهدي المرجع السابق ، ص: 539.

(2)- شعيب حليفي ، المرجع السابق ، ص:172.

الأولى من مهاوي الشقــاق ، و اللجـــاء إليه في الآخرة " يوم يكشف عن ساق " >>[1]. و من خـــلال هــذه الفقــرة يتضــح أن أبا راس نظــر إلى العلم من زاوية دينية ، حيث ربط ثوابه بالدنيا و الآخرة ، و عليه يصبح هذا العلم الذي يتحدث عنه لا يخرج عن خاصية العلم المنتشر على عهده ، و الذي – كما أشـــرنا غــير مــرة – يتميز بطغيــان العلوم الدينية عليه . و هــو في كــل ذلك ينطلق من نظرة منطقية ، أشار إليها صراحة معتمدا على وصية الإمام مالك للإمام الشافعي ، حين قـــال لـــه : لا تسكن الريف فيذهب علمك ، و تهتك حرمتك . معبرا بذلك عن قناعتـه التامـــة أن العلــم مرتبــط بالسعـــي إليـــه ، و السفـر من أجله إلى حـــواضره و عواصمه ؛ إذ المعلوم << أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران و تعظم الحضارة >> [2]. كما يرى ابن خلدون ، و يبدو أن هذه النظرة هي ذاتها قناعة أبي راس ، و لعلــها كــانت من العــوامل التي كــانت وراء تنقــلاته في الحـــواضر سعــيا وراء التحصــيل العلمي ، و نشره ، و المشاركة في فعالياته .

ب- التركيز على الشيوخ و العلماء :

و من تجليات البعد العلمي لهذه الرحلة ، أن صاحبها إنما ركز الحديث عن شيوخه الذين جلس إلى دروسهم ، و أخذ العلم عنهم و ناقشهم ، و قد خصص لذلك بابا كاملا ذكر فيه ما يقارب الخمسين شيخا ، بين مشرقيين و مغـربيين ، عـرّف بعضهم تعريفا شاملا، بأن ذكر تفاصيل حيواتهم ، أشاد بأخلاقهم ، و عدد صفاتهم ، و مختلف مؤلفاتهم ، كما ذكر شيوخهم و رحلاتهم ، بينما أشار إلى بعضهم الآخر إشــارة ، و لكنــه في كــل الأحــوال لا يذكرهم إلا بعبارات المدح و التعظيم ، دليلا منه على <<الاعتراف بجميلهم ، و الامتنان بفضلهم و حسن صنيعهم معه من جهة ، و من جهــة أخــرى أعــطاء أهـمية لتكـوينه العــلمي ، إذ ذلــك مــدعاة للمباهــاة و الافتخار >> [3] .

و قد اتخذ في حديثه عن الشيوخ من أسلوب التفضيل وسيلة لإبراز مكانتهم ، و من جملة " ومنهم شيخنا " تعبيرا عن قيمة علاقته بهم ، و حجـــم حضورهم و حقيقة انتمــائه إليهم ، و هي الجملـــة

---

(1)- محمد أبو راس ، المصدر السابق ، ص: 15.

(2)- عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة بن خلدون ، ج 1، تحقيق عبد الله محمد الدرويش ، دار يعرب ، دمشق ، ط 1 ، 2004 ، ص" 170.

(3)- أحمد بو غلا ، المرجع السابق ، ص: 242.

التي تكـررت إلى الحـد الذي أصبحت فيه كاللازمة الفنية ، لم يخرج عنها إلا في القليل الناذر كقـوله : << و مـن أجلّاء أشياخي – أيضا – و أكثرهم حفظا ، و أتقنهـم للمصنف[1] معـنى و لفظا ، الذي ليس لقمـره أفول : شيخنا محمد الصادق ابن افغول ، شيخ الإسلام ، الحافظ الزاهـد ، الورع الناهـد ، التقي الناسك ، الصوفي السالك ، ذو الخبرة التامـة بعلـم الشريعة ، فكل مسألة صعبة على غيره فهـي له مطيعة ، الجامع بين العلم و الدين، المقتفي سبيل الهادين المهتـدين من الأقدمين و أكمل المتأخـرين .انتهت إليه رئاسة التدريس و شـدت إليه الرحال من حوالي " زواوة " و " غريس " لم أر مثلـــه فيمن رأيت . كان للعلوم جامـعا ، و في فنونها بارعـــا ...لا يشق له غبار ، و لا يجــــري معه سواه في مضمار >> [2]. و لا شك أن مثل هذه التعابير التي تبرز مكانة الشيوخ و رمزيتهم ، نصادفها كثيرا في مؤلفات العصر ، و في المؤلفات التراثية بوجه عام ، ما يدل على المكانة التي يحتلها العلماء و الشيوخ في نفوس الآخرين ، خاصة الطلبة و الأتباع و المريدين.

و قد بدا أبو راس من خلال ما جاء في الرحلة معترفا أنه ببركة الشيوخ، و محبة أهل الرسوخ حصلت له مصة من حليب التوفيق، و حصة من ماء التحقيق، فالشيخ عليه النفع يدور، و تكيل الأرض قدمك إليه تخور و عند أهل الطريقة قاعدة يعتقدون بها هي: أن من لا شيخ له ، الشيطان شيخه [3].

ج– القضايا العلمية و المسائل الفقهية :

لا شك أن عـرض القضـايا العلمية ، و ما حـدث مع الرحالة من مناظرات ، و أسئلة و إجابات ، في مختلف المناطق التي حل بها عابرا ، أو مكث بها مستقرا إلى حين، يضفي على الرحلـــة الطابـع العلمي الناتج أساسا عن قصد من الرحالة الذي أراد فعلا أن يتميز في رحلته عن غيره ، رغـــم إلحـاحه على التصـريح أن أسـوته في رحلتـه << رحلة الجهـابذة النحارير ، و الأسانيد الجماهير :

---

(1)– المقصود بـ " المصنف" هو كتاب في الفقه المالكي معروف " مختصـر الشيـخ خليـل ابن إسحـــــاق المالكي "(ت 776 هـ/1374م) لتفاصيل أكثر عن حياة الرجل ينظر/ ابن مريم ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، مراجعة محمد بن أبي الشنب ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ،د ط ،د ت ، ص: 96.

(2)– محمد أبو راس المصدر السابق ، ص: 45.

(3)– ينظر ، نفسه ص: 41.

كرحلة الإمام بن رشيد السبتي [1] و الخطيب بن مرزوق [2] و رحلة الشيخ ابي سالم عبد الله العياشي ... >> [3]. و الملفت أنهرغم الطابع العلمي للرحلة ، و الذي يفرض حضور الحديث عن المدن العلمية و مراكز الإشعاع الثقافية و الدينية ، إلا أنها خلت من ذلك ، و بقي الرحالة فيها محافظا على الارتحال الحر ، التي يبدو أنها لم تسمح له بالالتفات إلى الوقوف عند هذه الأماكن و وصفها و التعريف بها .

د- الإشارة للإجازات :

الإجـــازة على عهــد ابي راس هــي بمثابة الشهادة التي ينالها الطالب اليوم و الحديث عنها يعتبر من الاشارات الدالة على الجانب العلمي في الرحلة حيث يرى بعض النقاد أن الذي يتحكم في هذا النوع من الرحلات – أعني الرحلة العلمية – هو << زمن المعرفة المستند إلى اجازات الشيوخ و تخريجات العلماء ، و استظهار المتون و تذكر الحواشي >> [4] فليس عجيبا إذا أن نجد أن ابا راس قد ركز عليها و تماشيا مع نزعته الذاتية و سيطرة الأنا على كل ملفوظه لم يذكر من الإجازات إلا ما تعلق به و كان طرفا فيه مع تنبيهه الدائم إلى كل ما يشير إلى شخصه من إطراء أو تعظيم يريح قلبه و يخدم غرضه ، من نماذج و حرصه على ذكر المجيز و درجته العلمية ففي مصر أجازه كما قال : << الإمام الارضى ، الجهبيد الأمضى ، سيف الله المنتضى شيخنا السيد ...فوجدته كما لي فيه الظنون ، و رويت عنه أوائل الصحيحين ، و رسالة القشيري ، و مختصر العين، و مختصر الكنز الراقي ، و أجازني بالباقـي ثم كتب لي إجازة نص بعضها :<< إني أجـزت الفقيه العالم المتفنن الحافظ فلان >> إلى أن قال : ذاكرني في فوائد جمة ، و ذكرني بمطالب مهمة...انظر إلى هذا الإنصاف و جميل الأوصاف الذي اتصف به – رضي الله عنه و أرضاه ! و جعــل الجنــة مرتضاه و مرتقــــاه- من أن مثلي يذكره

---

(1)- هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد المتوفى في العام 721هـ ، أحد أعلام الأدب و التفسير و اللغة و الحديث و هو صاحب الرحلة المعروفة بـ<< ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة و طيبة >> .

(2)- هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن مرزوق المشهور بالخطيب المتوفى في العام 781هـ و احد من مشاهير عائلة المرازقة يلقب بالجد و الرئيس و الأكبر ينظر تفاصيل حياته في: محمد بن مرزوق التلمساني ، تح ، ماريا خيسوس بيغيرا تقديم محمود بو عياد ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، د ط ، 1981. ص: 19 و ما بعدها.

(3)- محمد أبوراس ، المصدر السابق، ص:91.

(4)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق ، ص:183.

بالمسائل ...و كذا الشيخ الأمير وصفني في إجازته لي بـ " الحافظ " . و أما العلامة الشرقاوي فلقبني في إجازته بـ" شيخ الإسلام " أسكن الله الجميع دار السلام >> [1].

خامسا: الشخصيـــــــــــــــات

أ- الشخصية المركزية ..الأنا و الغيرية :

من الطبيعي أن نتحدث عن الشخصية في الرحلة ، ذلك أن الرحلة كما نعلم هي حكاية تنقـل شخص في الفضـاء المكـاني من نقطـة معلـومة إلى نقطة أخرى محددة ، و على هذا يصبح القائم بفعل الرحلة كشخص ، هو ذاته الشخصية بعد تلفيظ فعل الرحلة و نقلها إلى نص يصبـح قابـلا للنعت بـ " الأدبي " ، وتلعب شخصيـة الرحالة في الرحلة ، مهما كان نوعها ، الدور الأبرز ؛ فهي تعبر فيما تقول و تفعل عن الذات أولا ، و تنقل صورة المكان و الآخر و ما يتعلق به ثانيا .

الأمـر في هذه الرحلة يتعلق بصاحب الرحلة أبي راس ، الذي هو نفسه مؤلفها ، و هو كذلك سارد أحداثها ، و تلك ميزة من مميزات فن الرحـلة ؛ و الرحلة كما هو معلـوم مـن أهم خصائصها أنها تتميز ، عادة ، بالتطـابق بين السـارد و الكاتب (المؤلف) .

و الملفت للانتباه في الشخصية المركزية في رحلة أبي راس ، أنها أعلنت عن نفسها مبكرا ، و ذلك بتوظيف الضمير الدال على الذات مع أول بواباتها ، أعني بذلك ضمير المتـكلم الذي أعـلن عنه العنـوان ، ليمثل بذلك ميثاقا بين المؤلـف و القـارئ ، يتم بمـوجبه الاتفــاق على أن من دل عليه الضمير في العنوان ، هو نفســه الـمؤلف الموجـود باسمه على صفحة الواجهة ، و هو نفسه كذلك من يشير إليه الضمير ذاته داخل المتن .

و على هذا الأساس يصبح القارئ متفاعلا مع النص قريبا منه ؛ ذلك أن << ضمير المتكلم يقرب القارئ من العمل السردي ، و يجعله أكثر التصاقا به ، موهما إياه أن المؤلف فعلا هو إحـدى الشخصيات التي نهض عليها النص الحكائي >> [2]. و قد أضفى هذا الضمير من جهة أخرى على الرحلة << بعض خائص السيرة الذاتيـة ، من خلال الصوغ الذاتي للتجربة ، تجربة الارتحال، مما يدفـع

---

(1)- محمد أبوراس ، المصدر السابق ، ص: 116.

(2)- خليل شكري هياس ، سيرة جبرا الذاتية في (البئر الأول و شارع الأميرات) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2001، ص:12.

بالذات أن تلعب دورا مركزيا في تنظيم الوقائع ، و تأطير الأحداث ، و ملء الثغرات بإضافة معرفية أو بنيات حكائية صغرى << [1]. و هذا يعني أن الفنين يتداخلان مع بعضهما و تلك حقيقة لا يختلف فيها اثنان فالرحلة ما هي إلا صفحة من صفحات حياة الرحالة الذاتية .و قد وجدنا فعلا بعض الباحثين يعتبرون " تخليص الإبريز في تلخيص باريز " من إرهاصات السيرة الذاتية [2] رغم أن المتعارف عليه أن هذا الكتاب هو رحلة قام بها رفاعة الطهطاوي إلى باريس .

و المتتبع لهذه الرحلة يلاحظ ، بلا شك ، أن الشخصية المركزية استعملت في السرد ، كما في الحوار ، ضمير المتكلم سواء بصيغة المفرد أو بصيغة الجمع ، رغبة منها في أن ترسم صورة تبرز من خلالها تميزها و تفوقها الذاتي ، و قد كان استعمال هذا الضمير استعمالا مفرطا ، إلى الحد الذي بدت فيه كأنها تعاني من عقدة التميز و الانبهار بالذات و الإعجاب بها .

و هـذا الإحساس موجود فعلا عند هذه الشخصية ، و لم يفارقها لحظة على امتداد الرحلة ، و قد انعكس ذلك بوضوح على خواطرها ، و أفكارها ، و تصوراتها ، و حتى على سلوكاتها مع الآخرين ، فقد وجدناه يضع نفسه في مقام المصحح للعلماء و يحكم على ما يكتبون بطريقة مباشرة فحين سئل في مصر عن التكوين قال : >> فأجبت في أن المصنف و هو الشيخ السنوسي أخل بها في كتبه الخمسة غاية الإخلال . و ها أنا – إن شاء الله – أبين لحنها و فحواها ، و أقدم كلاما بين يدي نجواها ... << [3] و يمكن الوقوف على مظاهر تضخم الأنا في الشخصية المركزية – التي هي نفسها شخصية المؤلف و السارد – من خلال بعض ما جاء في تفاصيل الرحلة من تعابير دالة على ذلك ، كقوله: >> و قد طار صيتي بمعرفتي المصنف (مصنف الشيخ خليل) و تحقيقه في المشارق و المغارب . << [4]. و قوله : >> و صار الشيخ يعظمني – على صغري – ... و قامت لي علماء المشرق على ساق...حتى صارت حضرتي في العلوم تدرك في الآفاق ، و تنسيك دروس مصر و

---

(1)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق ، ص: 52.

(2)- ينظر تهاني عبد الفتاح ، السيرة الذاتية في الأدب العربي فدوى طوقان و جبرا ابراهيم جبرا و احسان عباس نموذجا ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط 1 ،2002 ص: 70.

(3)- محمد أبوراس ، المصدر السابق ، ص:136.

(4)- نفسه ، ص: 20.

الشام و نونس و العراق >> [1] .

وعلى مدى محطات الرحلة و صفحاتها ،لم نقف و لا مرة على موقف لم تكن فيه الشخصية المركزية متفوقة ، و صاحبة السبق و الفضل العلمي على الغير ، الذي يصوره في كل الأحوال ، في موقف المعجب و المنبهر بقوة شخصيته ، و سعة ثقافته ، و تنوع معارفه . يشهد على ذلك تكرار نمط محدد من الجمل في تعابيره مثل:

ـ أظهـــرني الله عليهـــم.........................ص : 91 .

ـ زاد في إكرامي و اعتـــرف بي...................ص : 93 .

ـ لقبوني بالحافظ أصدقهم الله في ذلك..............ص : 95 .

ـ فاعترفوا بفضلي و صحة قولي....................ص : 104 .

ـ و أرمني بمال جليل ....ص : 107.

ـ و قد أضهرني الله عليهم في كل ذلك ....ص :116.

ـ فأكرموني غاية الإكرام..........................ص : 117.

و حتى عنـــدما يضطـــر إلى الإشـــارة إلى بعـض المـواقف التي بدا فيها في موقـف حـــرج ، لا يلبث أن يعـود لـيـؤكـد على صحــة قولــه ، و قـوة حفظـه ، و غـــزارة علمه ؛ فقد جاء في حوار و نقاش بينه و بين علماء مصر بالجامع الأعظم تفاصيل جلسة علمية ، حيث قال : << أحفـــظ ألفيـــة بن مـــالك و منظـوم البيان ، ما من باب فيهما أو فصــــل إلا أعـرف كـــم فيه من بيت بديهـــة ، قالـــوا : هــــذا لم نر من يحصيه ، و لا سمعنــــا به ، و نحـــن بمدينـــة العلـــــم الحـــاوية كـــل غريب . فشـــرعوا في امتحاني ، و تزييف مكانتي و مكـــاني فأخـــرج أحدهـــم كتاب الألفية و فتحـــه من آخره ، فخـرج لـــه باب التصغير فقال لي : كم فيه من بيت ؟ فقلـــت فيه اثنـــان و عشـــــرون بيتا ، فحسبـوه فوجـدوه ثلاثة و عشرين ، فصاحوا و ضحكوا ، و أرادوا تزييف نقدي ، و تكذيب ما عندي ، قلت ناولوني الكتاب ، فأخـــــذته و طالعتـه ، فإذا فيه بيت من جمـــع التكسير أدخلت فيه سهـوا من الكاتب ، و تأملتها ، فإذا في أولها خـــاء بالحمـــرة ، لا يدركها إلا المتأمل ، وفي آخرها طاء كذلك إشارة إلى أنها هنا خطأ ، كما هي عادة الطلبة ، فرأوا ذلك و لم تطب

---

(1)- محمد أبوراس ، المصدر السابق، ص، ص: 21 .22 .

أنفسهم ، حتى رأوا تلك البيت بعينها في جمع التكسير ، و زاد عدم إنصافهم حتى طالعوا نسخا عديدة و حسبوا فيها أبيات باب التصغير فلم يجدوا فيه إلا اثنين و عشرين كما قلت فألقوا السلم و اعترفوا لي بالفضل و النبل و صرت عندهم ...لا يشق لي غبار >> [1] .

و ما يؤكد على أن ما قلنا من قبل حاصل ، و يعتبر فعلا سمة من سمات هذه الشخصية، تلك المحاولات الجادة التي حاول من خلالها أن يبرر هذا الإحساس، و يبحث له عن نماذج عد غيره من العلماء،خاصة أولئك الذين صرح بأنه تأثر بهم، و سار على نهجهم، فقد أورد كثيرا من النماذج التي تحدث فيها أصحابها عن أنفسهم، معبرين عن " الأنا" بضمير المتكلم، من ذلك ما أخبر به عن السيوطي حيث قال: << قال السيوطي: و ألف- و هو في حدود العشرين- و كتب ورقة إلى نائب الشام، يقول فيها : و أنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق ، و لا يقدر أحد أن يرد علي هذه الكلمة . و قال السيوطي و هو مقبول فيما قال عن نفسه >>[2]. و لكي يرفع الحرج عن نفسه ، و يثبت أن بصنيعه هذا هو بعيد عن دائرة تزكية النفس المنهي عنها بقوله تعالى :﴿ **فَلاَ تزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن اِتَّقَى**﴾ [3] ألفيناه يضع بين يدي المتلقي ما يمكن أن يتخذ دليلا على جواز ذلك و استحسانه ،حيث قال:<< و في " الخفاجي" [4]: يحسن من الإنسان الثناء على نفسه، و ذكر فضائله في مواضع استثنوها من هضم النفس وعن علي (ض).قال : إذا أصبت خيرا فحدث به إخوانك .كذلك فعل الشيخ أحمد بابا [5] في" كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج " ، و أطال في ذلك ، و من ذلك قوله فيه: و اشتهرت بين الطلبة بالمهارة ، و في البلدان من سوس الأقصى إلى غير نهاية>>[6].

---

(1)- محمد أبوراس ، المصدر السابق ، ص: 117.

(2)- نفسه ، ص: 16.

(3)- سورة النجم ، الآية 32.

(4)- المقصود كتاب " نسيم الرياض ، في شرح شفاء القاضي عياض ، لمؤلفه شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المتوفى في العام 1069هـ .

(5)- هو أبو العباس أحمد بن بابا بن أحمد بن عمر محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحي ، أحد علماء المالكية ، المعروف بأحمد بابا التنبكتي (1036/963هـ – 1556/ 1627م هو صاحب كتاب " نيل الابتهاج في تطريز الديباج " الذي اختصره و هذبه و جعله تحت عنوان " كفلية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج "

(6)- محمد أبوراس ، المصدر السابق ن ص:17 .

و لا يتوانى المؤلف أن ينقل ما قيل فيه من مدح و إطراء ، تأكيدا لسمو مكانته ، و استشهادا على أحقيته بأن يفتخر بذاته . أنهنقل ما قاله عنه ابن عبد القادر بن السنوسي، ما << نصه : و **مما** وجد من كلام والدنا ...محي الدين سيدي عبد القادر بن السنوسي في مدح شرح الفقيه الأديب الإمام الفقهي، النجيب ، النحوي ، البياني ، الأصولي ، المؤرخ ، أبي المآثر و التآليف العديدة ، مولانا أبي الطاهر سيدي محمد **أبي راس الناصري** أمده الله بمنه و كرمه آمين >> (1).

و مثلما وظف النثر، فقد وظف أبو راس كذلك الشعر- كغيره من الرحالين- إلا أن توظيفه له كان توظيفا نفعيا؛ حيث أتى به لخدمة غرض محدد هو خدمة الذات بإبراز المكانة الكبيرة لشخصه، من خلال انتقاء التقاريض التي قيلت فيه، إشادة بعلمه، و مدحا لخصاله، و تعدادا لمناقبه و تقريضا لمؤلفاته .و هو في كل هذا يبدو مقتديا بالإمام السيوطي. وقد بقي في جل ما ذكر مركزا على ضمير المتكلم الجمع ،كما أنه لم يثبت من القصائد إلا ما ذكر فيها اسمه صراحة. من نماذج ذلك قوله : << فمن ذلك تقريض شرحنا المسمى بـ" الآيات البينات في شرح دليل الخيرات " و هو قوله رحمه الله :

هنيئا لكـم بشرحكـم للدلائـل   فحـزتم به على فحـول الأوائـل
لقد أسبكـت أنظاركـم فقرا به   فأزرى بـدر في نحـور الحلائـل
و لما أفضتـم سلسبيل علومكـم   أجدتم و جدتم دون سؤل لسائـل
و جلتم بميدان المباحث فاعتلت   سيوفكـم على طـوال الحمائـل
أبا راس فافخـر فالفخـار متوج   على رأسكم حزتم عميم الفضائـل

و مما مدح به رحمه الله كتابنا المسمى بـ"الدرة الأنيقة في شرح العقيقة" (2) قـوله:

لله درك فـي نظـم العقيـق بما   أبرزت من درر حـارت له النظما
ما أحسن الدر و العقيق إذ نظما   في سلك حسن يفيد الحسن للعظما
و ليس مستغـربا لطيفـة منكـم   فكـم لكـم من مزايا أعجزت علما
ففي **أبي راس** الهمـام قد جمعت   له المكـارم في سمـا المعـالي سمـا

---

(1)- محمد أبوراس ، المصدر السابق ، ص: 69.

(2)- قصيـدة مطولة للشاعر الجزائري سعيد عبد الله المنداسي التلمساني (توفي 1088هـ) تقع في 303 بيتا ، و هي من الشعر الملحون اعتبرها كثيرون رحلة شعرية.

و قال أيضا :

أنا لــــه و إيــاك ذو المعــــالي　　　من لــه وعــر العلــم كالــــوطايا

فإن تجــئ لــه بمعضــــــلات　　　كشــف عنها الــران و الغطـــــايا

ذاك **أبو راس** ناصـــــــر الدين　　　الناصـــري طــــلاع الثنـــــايا

و لوالده المذكور في شرحنا الكبير المسمى بـ " الحلل الحريرية ،في بيان المقامات الحريرية " — لله دره من فصيح ، و ما أبلغه في كل علم رجيح ما نصه:

أيا مقامــات الفــتى الحريــــري　　　بشــــرى لكــــم بحلة الحــــرير

نسج الأديب اللــــولعي الفاضل　　　الناصــــري هبــة النصيـــــري

ذاك **أبـــو راس** أخــــــو المزايا　　　حــــق إليه الجــد في المســـــير [1].

و هكذا يتجلى بوضوح أن الشعر في العهد العثماني ، بقي ملازما لفن الرحلة الجزائرية على غرار الرحلات العربية عموما ، و هو ما يؤكد أنه بقي محافظا على مكانته كما كان من قبل ، باعتباره وسيلة إقناع و توجيه في يد مثقفي العصر ، بل إنه >> يجسد مرجعية ثقافية أساسية لا غنى عنها لهذا المثقف من جهة ، و للمتلقي القارئ من جهة ثانية << [2].

إن هـذا الإعجاب بالذات الذي يصل إلى حــد الانبهار بها كما أسلفنا ، و الذي تجسد من خــــلال عملية الانتقــاء للنماذج الشعــــرية و النثريـة علــى الســـــواء ، و التركيز على إبراز الأنا ، لا يمكن أن يكون قد أتى من فراغ و دون أسباب ؛ فنحن لا نشك لحظة أن للتركيبة النفسية المرتبطة بطبيعة الحياة التي عاشها أبو راس ، و هي حياة فقر مدقع ؛ إذ المعلوم أن أبا راس مشى حافيا ، و عاش طفــولته خــادما مقهورا متسولا ، لا يجد ما يسد به رمقه ، و هي أمور كلها أشار لها صراحة في " فتـــــح الإله و منتــه " [3] .كــل ذلك كــان وراء هذا الإصرار ، خاصة أن الرجل انقلب حاله ، فذاع صيته ،و اشتهر بعلمه في المشرق و المغرب ، بعد أن لم يكن شيئا يذكر .

---

(1)- للوقوف على نماذج أخرى ينظر، محمد أبوراس ، المصدر السابق ،ص: 66 و ما بعدها .

(2)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق ، ص: 56.

(3)- ينظر تفاصيل ذلك في باب : " ابتداء أمري " و كذلك ترجمته ، في تاريخ الجزائر الثقافي ، ص: 390 و ما بعدها .

لقد ظهرت الشخصية المركزية بصورة الشخصية العلمية الموسوعية ، المستنيرة المطلعة على كتب متنوعة . و على خلاف علماء عصرها ،لم تعتمد على النقل بل تعدته في بعض الأحيان إلى إشغال الفكر و تحكيم العقل ، يتجلى ذلك في ردها في أثناء نقاش حول قوله تعالى : ﴿ **إنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ** ﴾ [1] عمن قال لها ، أعني الشخصية المركزية التي هي شخصية المؤلف ، فما تقول أنت ؟ فقال له : أما الكلام بالنقل فلم يكن الآن بذهني منه شيء ، و أما بطريق الفكر و الاستنباط ، و مع الجري على القواعد العلمية فيمكن . فقال : لي استنبط ...[2]. و رغم كل ذلك فان هذه الشخصية لم تتخلص من مخلفات العصر ، الذي القي عليها بظلاله ، فألفيناها في بعض المواطن تؤمن تماما كما يؤمن أهل العصر ، خاصة المتصوفة منهم ، بتحقق نبوءات الشيوخ و الأولياء << و لما ولدت بالموضع حملتني أمي و والدي إلى الشيخ الصالح ، الولي الذي كاد أن يكون كالجيلي [3] ، شيخ بعض شيوخي علي بن موسى اللبوخي ، أحد صلحاء أرض اليعقوبية ، فبارك علي ، و أخبر بغيب خوارق و عادات ، تكون لي مودات : من علم و صلاح ، و غنى و حفظ و إصلاح ، و شيخ طلبة ، و لفيف و درس و خطابة ، و قضاء و تصنيف ، فكان كما قال في إشارته الغيبية و مقالاته الصادقة << [4].

و في هذا الكلام اشارة ولو خفية ، إلى أنما وصل إليه ما كان ليكون لولا بركة هذا الشيخ ، و مثل هذا الاعتقاد سيطر على عقول الكثيرين في العهد العثماني ، ليس من العامة فحسب، بل من خاصة القوم ، من رجال السياسة و العلم ، و يكفي تأكيدا لذلك الإشارة إلى أن محمد بن ميمون صاحب التحفة المرضية ، أشار إلى مثل هذا الاعتقاد في أول مقامة من المقامات التي كتبها ليخلد بها سيرة محمد بكداش، حين أشار أن والده تنبأ له بالحكم و الإمارة بقوله : << فأوصى مولانا حين كان صغيرا أن ابني هذا على المغرب سيكون أميرا ، و حقق الله به قوله و كمل فيه مرغوبه و سؤله ... << [5] .

---

(1)- سورة المائدة الآية 29.

(2)- ينظر ، أبوراس المصدر السابق، ص:93.

(3)- هو سيدي عبد القادر الجيلاني الزاهد المتصوف صاحب الطريقة القادرية المتوفى في العام 561هـ

(4)- أبو راس ، المصدر السابق ، ص:19

(5)- محمد بن ميمون ، المرجع السابق ، ص :115.

ب – عـــــلاقتها بالآخـــــــــر :

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتحرك الشخصية على مسرح أحداث الرحلة منفردة ،بل لا بد من وجود شخصيات مرافقة لها، و أخرى تلتقيها في طريقها ، و أخرى تنزل عندها حين وصولها فيحدث بينهما التواصل و التفاعل، اللذان يعتبران من أهداف الرحلة، سواء تم التصريح بذلك أم لم يتم .

و لما كنا قـــد أطلقـــنا نعت الشخصيـــة المركزيـــة على المؤلف " أبي راس " و انطلاقا من أن << تميز الشخصية بالمركزية يحيل على و جود الشخصية الثانوية >> [1]، واستنادا على حتمية التقابل التي تفرضها نواميس الحياة ، فإن منطق الأمور يفرض علينا أن نبحث عن الشخصية أو الشخصيات الثانوية في هذه الرحلة ، و لا شك أن طبيعة هذه الرحلة ، باعتبارها رحلة علمية ألفها رحالة عالم متميز بنظرة خاصة للحياة من حوله ، ستجعلنا نتعامل مع شخصيات من نوع خـاص ، شخصيات من نمط واحد ، لم يأبه مؤلف الرحلة بوصاف مظاهرها ، و لا بتحليل نفسياتها ؛ فلا حديث عن هذه الشخصيات ، إلا فيما يتعلق بالجانب العلمي فيها ، ما عدا ذلك لم نجد له أثرا إلا في بعض الإشارات السوسيولوجية البسيطة ، التي تتعلق بالوضع الاجتماعي للشخصية المركزية ، و ما عاشته من فقر ، فيما يبدو أن الخوض فيه مظهر من مظاهر السيرة الذاتية في الرحالة .

و الغريب عند مؤلف الرحلة، أنه لم يشر اطلاقا إلى شخصيات مرافقة للشخصية المركزية ، التي ظهرت في هذه الرحلة وحيدة لا مرافق لها ، و هو ما يخالف المنطق ،كما يخالف في نفس الوقت الواقع ، الذي كان يفرض و جود الرفيق ، خاصة أن الأمر يتعلق بالعهد العثماني و ما يتميز به من اضطرابات ، تجعل الرحلة منفردا عبر محطات متباعدة أمرا مستحيلا . و هنا نعود إلى ما أشرنا إليه من قبل ، فيما يخص التركيبة النفسية لمؤلف الرحلة و الممثل لشخصيتها المركزية ، التي تتحكم فيها ظاهرة الاعتزاز بالنفس ، و حب التميز و تضخيم الأنا ، و هي الأمور التي يبدو أنها كانت وراء إلغاء الشخصيات المرافقة له في رحلته الفعلية ، عندما لفظ أحداثها و نقلها إلى نص ، رغبة منه في أن يظهر في صورة البطل الأوحد . و على هذا الأساس جاء حديث الشخصية المركزية في هذا الباب " في رحلتي للمشرق و المغرب و غيرهما " بضمير المتكلم المفرد ، و المعلوم أنه << في حالة التعبير من قـبل الشخصيـــة المركزيـة بضمير المتكلم المفـرد ، فهـو نفـــي للآخـر– حتى و لو كان موجودا– و بالتالي

---

(1)– عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق ، ص:234.

هو استئثار بسلطة الكلام >> [1] و انفراد بدور البطولة، و في مثل هكذا وضع، يصبح الآخر يظهر دوما في مرتبة أدنى من الشخصية المركزية، و هو ما تجسد فعلا من خلال صورة هذا الآخر في الرحلة، و التي أظهرته في الغالب في موقف الساعي لإكرام الشخصية المركزية و المعترف بفضلها و تفوقها، خاصة فيما يتعلق بالمستوى العلمي، من خلال المناظرات و المناقشات العلمية التي طغت على الرحلة من بدايتها إلى نهايتها . وهو ما يبرزه الجدول التالي :

العالم المشارك في النقاش و المناظرة	القضية المطروحة	النتيجة على لسان الشخصية المركزية	الصفحة
الشيخ القاضي المفتي محمد بن جعدون	معنى قول المصنف " ومن قوته إلا دون إلا لشح	سلم و طاب خاطره.	91
الشيخ محمد بن مال مع جمع من العلماء	أسئلة صعاب عظيمة من جميعهم .	رفعوا قدري و بجلوا أمري.	91
السيد عبد الرحمان البدوي القرومي	سأله أبو راس أسئلة : فقهية أصولية نحوية لغوية توحيدية..	بهت و لم يجب بشيء .	92
الشيخ السيد محمد بن الحفاف	اعراب : العبد الفقير المضطر لرحمة ربه .	اعترف لي .	95
أبو العباس الشيخ أحمد العباسي	استحباب صوم " رجب "	فسكت.	100

(1)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق ، ص:236

الشيخ الطيب بن كيران رفقة مجموة من علماء فاس	حكم قول "صحة " لمن يشرب	اعترفوا بفضلي و بصحة نقلي و عقلي.	103 104
الشيخ السيد محمد بن المحجوب	قضية حضانة	فرجع إلى قولي و أصبح يشاورني.	109
بعض علماء تونس	حكم الجمعة للمسافر	أتوني بعشرة شواش فائقات و سألوا مني الدعاء.	117
مفتي الرملة و بعض علماء فلسطين	القهوة و الدخان و مسائل أخرى	اعترفوا لي بالفضل و العلم و أكرموني.	120

و قراءة هذا الجدول توصلنا إلى :

1- أن مؤلف الرحلة لم يركز إلا على ما يلمع الشخصية المركزية ، لكنه بقي في نفس الوقت محافظا على قدسية العالم حتى لو أبرزه في صورة الشخصية الثانوية ؛ فذكره للعلماء جاء دائما مقرونا بعبارات التبجيل و الاحترام ، بنفس الصورة التي نجدها عند غيره من معاصريه .

من ذلك قـــوله في محمـــد بن الشـــاهد أحد علماء الجزائر : << العلامة الفهامة ، الدراكة الأديب ، الذي في كل علم له أوفر نصيب ، و رعى فيه مرعى خصيب ، و أخذه بالفرض و التعصيب ، زائد

الفوائد، عذب الموارد، حجة الغائب و الشاهد، السيد الحاج محمد بن الشاهد، عالم الجزائر و عاملها و قطب رحاها، وشمس ضحاها،فقيه علامة، حافظ بارع، نظار، مفت، مدرس، قدوة، أسوة أصيل، جليل ، نبيل، نزيه فقيه.. << [1].لكنه في بعض المواقف الناذرة، يبدي التذمر و عدم الرضا، فيصدر منه ما لا يليق حتى و لو عبر عنه سرا، كقوله في بعض علماء تونس ، أثناء نقاش حول صلاة الجمعة >> فقلت يندب للمسافر الذي لم يجب عليه حضورها إذا لم تشغله عن حوائجه، فصاحوا و نكصوا و ردوا علي كلامي و أكثروا ملامي. و قالوا: من قال هذا ؟ فقلت: أعندكم شرح الخراشي الصغير ؟ قالوا : كلنا عنده ، فقلت في نفسي إسرارا هؤلاء « كمثل الحمار يحمل أسفارا» ... <<[2].

2- أن القضايا العلمية المطروحة كانت متنوعة ما يدل على موسوعية الشخصية المركزية .

3- أن جميع الشخصيات هي شخصيات علمية ، من الفقهاء ، و العلماء ، و القضاة ، و الأدباء ، يذكرها و لا يطنب في التعريف بها أو وصفها إلا ناذرا .

4- لا أثر لأي حديث عن الشخصيات السياسية أو العسكرية ، ما يعني ابتعاد الشخصية عن دوائر الحكم و دواليب السياسة. و الاستثناء الوحيد هنا صنعته شخصية الباي محمد الكبير ، الذي يبدو أنه من المعجبين به و بمشروعه ، و قد أشار إلى علمه،كما أشار إلى الجانب السياسي و القيادي فيه فهو >> الملك الأصيل ، الذي كرم منه الإجمال و التفصيل، الرفيع الشأن، السيد محمد باي بن عثمان ، أخلص الله جهاده ، و يسر في قهر أعداء الدين مرادهبأبسط العدل و الأمان ، قابض اكف العدوان الجميل النوال ، المتكفل بحفظ النفوس و الأموال ، قطب الجد و سماكه، محل الحمد و ملاكه ، الحافل العادل ، الفاضل الكافل ، الكانل الأصيل ، هازم أحزاب العاندين و جيوشها ، هادم الكنائس و البيع« فهي خاوية على عروشها » ، الشهير الخطير الرفيع المجاهد المرابط ..... << [3].

5- أن جميع الشخصيات التي ظهرت على مسرح أحداث الرحلة لا تتحرك و لا تعبر عن ذاتها و لا نرى صورتها إلا من خلال عين الشخصية المركزية .

---

(1)- محمد أبو راس المصدر السابق، ص: 96 .

(2)- نفسه ، ص: 117.

(3)- نفسه ، ص: 100.

سادسا : الزمـــــان و المكـــــــان :

أ- الزمــــــــــــــــــن

تجري كلمة الزمن على ألسنة النقاد و الدارسين ، في أحاديثهم عن مختلف فنون الأدب شعرها و نثرها ، و هذا يعني أن الإحساس بالزمن و التأثر به قضية أزلية حاضرة مع الإنسان عبر مختلف مراحل حياته ، فمن من البشر لا يتحدث عن الماضي و الحاضر و المستقبل ، و هي صور للزمان و كلمات دالة عليه ؟ ! و من من البشر لا يعترف بسلطان الزمن ؟ و من منهم لا يعترف أن عمر الإنسان ليس إلا فترة زمنيه يقضيها على وجه هذه الأرض؟

الانسان مهما كان جنسه ، و مهما كانت لغته ، مهماكان دينه و مهما كانت عقيدته ، يحس بالزمن وإن لم يدرك كنهه، و لم يعرف حقيقته فهو يرى- دون شك- أثره في كل ما يحيط به ؛ فالطبيعة بفعل الزمن تتأثر فتذبل فيها الأزهار، و تتساقط الأوراق، و تموت الأشجار، و الدول و الحضارات بفعل الزمن تضعف و تنهار، و الإنسان بفعل الزمن بعد القوة يضعف و بعد الشباب يشيخ و يهرم. و كثير من البشر هم أولئك الذين اعترفوا بسلطان الزمن و اعتقدوا به، إلى درجة أن طائفة منهم ربطوا نهايتهم به ، و لا بشيء آخر سواه و لسان حالهم يقول: ﴿**نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ** ﴾[1].

و إذا كان هذا على مستوى واقع الإنسان و حياته ، فإن الأمر يبدو كذلك حتى على المستوى الفني ، فالزمـن يتخـلل الرواية ، و المسـرحية ، و القصـة ، و الرحلة ، و المقامة و غيرها، يلتصق بجميع مكوناتها ، و يؤثر في جميع عناصرها ، إلى الحد الذي تصبح فيه دراسته منفردا ، ضربا ما اللامعقول لأنه - و باتفاق النقاد — هو المؤثر الأبرز في جميع مكونات العمل السردي فـ<< الزمن هو القصة و هي تتشكل و هو الإيقاع >> [2] ، و هـو الشخصية في حاضرها و ماضيها ، و هو لحظة الافتتاح ، و هو لحظة الختام ؛ فبداية العمل السردي لحظة زمنية كما أن نهايته لحظة زمنية كذلك .فليس عجيبا أن يتفق النقاد المهتمون بدراسة لعبة الزمن في الأعمال السردية على أنه أحد أهم << العناصر المؤطرة لأحداث الرحلة ، و الناظمة لفعل الارتحال و الضابط له ، و هو أحد المحددات الكبرى التي تمكننا من التأكد مدى فعلية الرحلة أو عدمها >>[3] .

---

(1)- سورة الجاثية ، الآية 24.

(2)- سيزا قاسم ، المرجع السابق، ص: 39.

(3)- أحمد بغلا ، المرجع السابق ، ص: 249.

و الرحلة كما نعلم هي فن يرتبط ارتباطا وثيقا بالواقع ، و لهذا نجدها تحتفي بما يعرف عند الدارسين بالزمن الطبيعي ، باعتبارها تســـرد في الغالب أحــــداثا واقعية ،كثيرا ما تسيطر عليها الأحداث التاريخية التي يكون الرحالة قد شارك فيها ، أو كان شاهدا على وقوعها ، نقول هـذا حتى و إن أضفى عليها من خيـــاله ما يجعلـــها أقــرب إلى دائـرة الأدب .

و الحقيقــــة أن ارتبـــاط الرحــــلة بالواقــــع ، و اعتباره المادة الخام لأحداثها ، لا يبعدها عن الأدب ، فالواقــع كان و لا يزال و << سيظل مصدرا أو مرجعا أساسيا للأدب ، و سوف يبتكر طرق الهيمنة عليه ليغدو أي العمل الأدبي شهادة أو وثيقة أو متحفا لوقائع ، كالتصوير الشمسي الذي يصفه رولان بارت بأنه شهادة خام على ما كان هناك >> [1] .

و لا خلاف بين النقاد أن الزمن في الفنون السردية ، و كذلك في الرحلة و هي واحدة من هذه الفنون ، يعتبر من أهم العناصر التي تتشكل منها ؛ إذ يساعد على تنظيم أحداثها و ترتيبها و تأطيرها في الإطار الذي يضفي عليها الواقعية ، و يكسبها الصدق الذي يعتبر الهاجس الأول للرحالة ، من حيث أنه يسعى دوما إلى محاولة إقناع المتلقي ، أن ما يقـوله وقع فعلا في فترة من فترات زمن الوجود ، حتى و أن ظهرت فيه الإشارات التخييلية ، و المظاهر العجائبية ؛ فالرحلة تحرص << عادة على التموقع داخل الزمن التاريخي (الموضوعي) ما دامت الرحلة تاريخا لفترة محددة من فترات التاريخ >> [2].

و رحلة أبي راس باعتبارها رحلة علمية ، مال فيها صاحبها إلى البساطة و الواقعية ، و هي الظاهرة التي وقفنا عليها في حديثنا عن الشخصيات ، و التي سنقف عليها كذلك في حديثنا عن الزمن . لقد جاءت لعبة الزمن في فتح الإله و منته بسيطة ، بدا فيها الزمن خاضعا في أغلب المحطات للزمن الطبيعي في ترتيبه . و لما كان هدفنا هو محاولة تناول الرحلة من حيث بناؤها الفني فإننا سنحاول الوقوف على تقنيات توظيف الزمن .

---

(1)- حاتم الصكر كتابة الذات دراسات في واقعية الشعر ،دار الشروق للنشر و التوزيـــــــع ،عمان الأردن ، ط 1 ، 1994 ، ص: 16.

(2)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص:175.

- الزمن و تسلسل الحدث :

التزم أبو راس في عرض أحداث رحلته ، بالاعتماد على سردها تبعا لتسلسلها الزمني مثلما حدثت على أرض الواقع ، و هو في ذلك لم يخرج عن نهج سابقيه من كتاب الرحلة ، و هذا يعني أن الالتزام بتسلسل الأحداث و تتابعها في الرحلة ، يعتبر من التقاليد الراسخة فيها ، و لعل الذي يفرض ذلك هو أن الرحلة تنقل واقعا ، و كثيرا ما يحرص أصحابها على إقناع المتلقي بواقعية ما ينقلون ، هذا من جهة ، و من جهة أخرى أن كتاب الرحلة عادة ما يكتبون رحلاتهم بعد الانتهاء منها ، تارة بالاعتماد على الذاكرة ، و تارات أخرى بالاعتماد على ما يسجل من رؤوس أقلام و ملاحظات ، على طول خط السير و عبر مختلف المحطات ، من لحظة الانطلاق إلى لحظة الوصول و حتى في طريق العودة .

و الرحلة في عمومها -كما نعلم - قائمة على القصدية ، و التنقل بين محطاتها يتحكم فيه الرحـالة تبعا للمستجـدات ، و خضوعا إلى أسباب التحـرك و الأحـداث المرتبطـة بفترات الزمن اليومية ، كالليل و النهار ، و الصبح و المساء ، ذلك أن << الذهاب من مكان إلى آخر يكون ناتجا عن سبب ما ، و حدوثه يولد ، بالضرورة ، نتيجة محددة تتحول إلى سبب و هكذا <<[1] يفرض التعاقب نفسه على الرحالة عندما يكتب رحلته ، أو يروي أحداثها لمن يكتبها .

- تجليات الاسترجـــــاع :

و إذا كان واقـع الحـال هـذا هـو نفسه الذي وقفنا عليه في سرد أحداث رحـــلة أبي راس ، فإننا بالمقابل نجد فيها بعض الخروقات التي كسرت هذا التعاقب ، و ذلك من خلال توظيفه لما يعرف في لغة النقد بتقنية الاسترجاع التي نجد لها أمثلة كثيرة في هذه الرحلة ، أبرزها حالات استدعاء الماضي التي اعتمدها الرحالة ، حيث أنه كلما تعلق الأمر بحادثة وقعت له ، إلا و نجده يأتي بما هو مشابه لها عن طريق الاسترجاع ، بالعودة إلى الحفر في التاريخ السابق على عصره ، ففي حديثه عما وقع بينه و بين الباي محمـد الكبير من نقـــاش حول " كـلا شيء " و " بلا زاد " ، قال : << فقـال لي : قل كـلا شيء ، بكسـر الهمزة ، ألا ترى أنك تقول : " جئت بلا زاد " بكسر الـدال ....فعمــلت على ذلك تأليفا و سميت هذا التأليف : " بغية المرتاد ، في كلا شيء و جئت بلا زاد "

---

(1)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق ، ص:177.

و نظير هذا أن أبا عمر عثمان بن الحاجب ، دخل على القاضي بن خلكان ، لأداء شهادة بالإسكندرية ، فسأله على من قال لزوجته : أن كلمت زيدا ، أن دخلت الدار فأنت طالق " ، فقال تطلق بعكس الترتيب . و لما علمت انه لم يرتضيه ذهبت و ألفت فيها تأليفا آخر ، و بعثته له ، فأعجبه ، مثل سؤال عضد الدولة ابن بويه (ت 983م) للإمام الفارسي عن" قام القوم إلا زيدا " قال : انه يصح رفعه بتقدير " امتنع " — و هـم سائرون في " ميدان شيراز " فأجـاب الفارسـي السلطان بجـواب فلم يرتضـه ، و قال : هذا جواب ميداني . قال الفارسي : فلما رجعت إلى أهلي عملت دليلا في دلائل نصبه ، و لما نظره السلطان استحسنه رحمه الله >> [1]. فهذا الخبر الواقعي ، و المذكور بشخصياته الواقعية ، هو من قبيل الاسترجاع وظفه الرحالة بغرض تقريب صورة شخصيته إلى الشخصيات العلمية المرموقة السابقة عليه ، تعبيرا عن الـذات و إعـجابا بها ، و إقناعـا للمتلقي بحقيقة علمه ، و علو كعبه في التأليف و التصنيف ، كما هي عادته في هذه الرحلة .

و من نماذج الاسترجاع التي تفرضها بعض المواقف التي تستدعي عملية التذكر استجابة لما يتطلبه واقع الحال ، ما أشار إليه و هو بمصر ، يوم وخزت ذاكرته بعض الأحداث ، ذكرته بحادثة حدثت له بتونس حيث قال: << كما وقع لي بتونس مع علماء أتوني يوم الجمعة ، و أنا في شغل بفور السفر ، فقالوا لي لو حضرت الجمعة فقلت يندب للمسافر الذي لم يجب عليه حضورها ، إذا لم تشغله عن حوائجه ... >>[2].

كما وظـف الرحـالة الاسترجاع مضطرا ، و بطريقة مألوفة عند كثير من كتاب السرديات ، عندما أدخل بعض الشخصيات الجديدة على مسرح الأحداث ، خاصة شخصيات كبار العلماء ، و مشاهيـــر الفقهـاء ، حيث نجده قد اضطر – أو قصد عمدا – التعريف بها ، و الإشارة إلى بعض محطات حياتها ، خاصة تلك المحطات التي تتعلق بالجانب العلمي و المعرفي في حياتها ؛ فعند دخوله قسمطينة كما يسميها قال : << نزلت على محط رحال الأفاضل ...عالم تلك الدرة الشيخ سيدي محمد... >> ليتوقف فاسحا المجال إلى التعريف به و ذكر شيوخه و شيوخ شيوخه ، فهو ابن الشيوخ أولى النهى و الرسوخ ، منهم القطب الكبير ، و الغوث الشهير ، السيد عبـد الكريم محمد

---

(1)- محمد أبو راس ، المصدر السابق ، ص:101.

(2)- نفسه ، ص: 117.

الفكون و عبد الكريم هذا قال الشيخ أحمد بابا : هو تلميذ من ازدهى به الزمان و زان ، الشيخ أبي عبد الله الوزان ، و الذي في " نفح الطيب " ما نصه : عالم قسمطينة و صالحها ، و كبيرها و مفتيها سلالة العلماء الجماهير وارث المجد الشيخ عبد الكريم الفكون .... >> [1] ليعود بعد ذلك و يستأنف سرد الأحداث بقوله : و لما سمع بي علماء البلد أتوني للسلام ...

– التـــدقيـــــق الزمنـــــــــــي :

الملاحظ على أبي راس انه لم يوظف الزمن توظيفا دقيقا مثلما كان الشأن مع تلك الرحلات الرسمية التي سبق الحديث عنها ، و التي فرضــــت عليها رسميتها أن تقدم الأحداث بتواريخها الصريحة ، باليوم ،و الشهر ، و السنة. فالقارئ لرحلة أبي راس يدرك تمام الإدراك ، أن الرجل لم يعر إلى التحديدات الزمنية الدقيقة اهتماما يذكر ؛ فقد ظل سرد الأحداث عنده يسير في اتجاه واحد نحو النهاية ، بعيدا عن الضبط الزمني الذي جــاء مبهما تــارة ، أو مشــارا إليه بعبارات ذات دلالات عامة تارة أخــرى ، بل أننا في معظم الأحيان نجده مغيبا ، و يمكن اكتشاف ذلك مباشرة مــع بداية الرحلة ؛ فإذا كنا في رحلة بن حمادوش " لسان الحال في النبأ عن الحسب و النسب و الحال " ، و هـــي رحــلة علمية تجارية نقرأ : << مبدؤه من أول ليلة الاثنين فاتح عام 1156 عربية الموافق رابع عشر فبراير ثاني شهور سنة 1743 مسيحية >> [2] ، فإننا على العكس من ذلك تماما ، نقرأ في رحلة أبي راس : << فأول رحلتي للجزائر – صانها الله من سوء الدوائر – فلقيت بها الفقيه المسمى القاضي المفتي السيد محمــد بن جعدون ... >> [3] . هذه البداية جاءت مباشرة لا إشارة لما قبلها . و يمكننا من خلالها أن نقف على مجموعة من الملاحظات :

- لا إشارة إلى نقطة الانطلاق ، و لا إلى زمنه ، و لا إلى مظاهر التحضير ، و لا إلى مراسم التوديع .
- لا إشـــارة إلى زمــن الدخول ، لا ضمنيا ، لا صراحــة ، لا باليوم ، و لا بالشهر ، و لا بالسنة .

---

(1)- محمد أبوراس ، المصدر السابق ، ص : 98.

(2)- ابن حمادوش ، المرجع السابق ، ص:29.

(3)- محمد أبو راس ، المصدر السابق ، ص: 91.

- إلغاء كل ما يمكن أن يكون قد صادف الرحالة أو شاهده ، و الدخول مباشرة فيما له صلة بالعلم و العلماء ، و الشيوخ و الفقهاء.

و هذا النموذج في التعامل مع الزمن ، صاحب سرد أحداث الرحلة من البداية إلى النهاية ، و نقصد من ذلك بالخصوص المواطن التي تعبر عن أحداث بالإضافة إلى تحديد مكانها ، كان من الواجب كذلك تحديد زمن وقوعها ، وهذه المواطن هي تلك التي يتم فيها الإشارة إلى الانتقال من محطة و الوصول إلى أخرى . و هو ما يمكن الوقوف علي تفصيلاته من خلال الجدول التالي :

المحطــــــــــــــة	الصفحة	الملاحظة
- و لما دخلت قسمطينة نزلت على محط رحال الأفاضل، و منبع الفضائل و الفواصل، عالم تلك الدرة ...الشيخ سيدي محمد.	98	لا وجود لتحديد زمني. مباشرة بعد الدخول حديث عن لقاء عالم.
- ثم ذهبت إلى تونس أم البلاد ...و اجتمعت بعلمائها ، و أجلة فقهائها ،و نزلت على شيخها و مفتيها ، الشيخ السيد محمد بن المحجوب...	108	لا وجود لتحديد زمني. مباشرة بعد الدخول اجتماع بالعلماء.
- ثم ركبت البحر إلى مصر، البلد الذي ليس لعمر و لا لزيد...لقيت بها العلماء الكبار أهل العلم و الأدب الامام القاضي السيد مرتضى...	115	لا وجود لتحديد زمني . مباشرة الحديث عن لقاء العلماء و الأدباء.
- ثم رحلت إلى ينبوع البحر، مأوى الغريب و الإيلاف إلى الشيخ عمارة العلاف .	118	لا وجود لتحديد زمني . تلميح بأن الرحلة كانت للشيخ.

- ثم رحلت لـ " أم القرى " ذات المكارم و العلى و العرى ، التي لا بغيرها تقاس ...فاجتمعت بعلمائها و فقهائها كالعلامة الدارك السيد عبد المالك الحنفي ...	118	لا وجود لتحديد زمني. الاجتماع كان مباشرة مع العلماء و الفقهاء.
- ثم رحلت لطيبة بعد هذه الغيبة و ملء العيبة و هي المدينة المشرفة ....لقيت بها علماء أجلاء من كل قطر ومصر .	119	لا وجود لتحديد زمني. مباشرة كان لقاء العلماء .
- ثم رحلت إلى الشام فتكلمت مع علمائها في مسألة الحبس...	119	لا وجود لتحديد زمني. الكلام كان مع العلماء
- ثم دخلت الرملة التي هي أحد مدن فلسطين و لقيت مفتيها و علماءها .	120	لا وجود لتحديد زمني . اللقاء كان مع مفتيها و علمائها.
- ثم رحلت إلى غزة....و لقيت علماءها و أمراءها	120	لا وجود لتحديد زمني . اللقاء كان مع العلماء و الأمراء
- ثم رحلت إلى العريش فلم أجد بها عالما آنس إليه و يكون التعويل عليه.	120	لا وجود لتحديد زمني . انعدم فيها العلماء فلم يكن الحديث عنها إلا بما تقدم.

هكذا يتجلى بوضوح ، أن أبا راس في رحلته هذه لم يول للزمن اهتماما كبيرا ، فلا تحديد عنده لزمن الانطلاق ، و لا إلى زمن الوصول ، و لا حتى إلى زمن السير بين مختلف محطات الرحلة ، و لا شك أن وراء ذلك عدة أسباب منها :

- أن زمن سرد الأحداث و نقلها إلى نص ، كان بعيدا عن زمن وقوع أحداث الرحلة الفعلية ، و ما يؤكد ذلك أن كثيرا من الشخصيات المشاركة في الأحداث حين يذكرها الرحالة يدعو لها بالرحمة أو بعبارات دالة على وفاتها كقوله : رحمه الله ، برد الله ضريحه ، قدس ثراه ....
- أن الرحالة اعتمد على الذاكرة ، و لم يعتمد على رؤوس أقلام أو ملاحظات مسجلة في يومها أثناء الرحلة .
- و قد يكون الرحالة قصد و عن وعي منه عدم الإغراق في التحديدات الزمنية التي تثقل النص ، و تبعده عن الطبيعة الجمالية التي يتطلبها النص الأدبي و التي تساعد على القراءة التأويلية لمضامينه غير أن أبا راس بالغ في ذلك كثيرا .

و إضافة إلى ما قلناه عن الزمن و عدم اهتمام الرحالة به ، فإنه يمكننا كذلك أن نلاحظ تباين إيقاعه ، و عدم توازنه ، من خلال حجم السواد و عدد الصفحات ، و بحسب طبيعة الشيوخ و مكانتهم العلمية و شهرتهم بين أفراد الرعية و مدى اقتناع الرحالة و اهتمامه بهم ، و بشأن ما يكون بينه و بينهم من مناقشات و مناظرات ، و لكنه في كل الأحوال يبقى زمن هذه الرحلة زمنا علميا متناسبا مع طبيعتها ، و المعلوم أن الذي << يتحكم في الرحلة العلمية ، هو زمن المعرفة المستند إلى إجازات الشيوخ و تخريجات العلماء >> (1) و مناقشات الفقهاء .

و تأكيد ا لما أسلفنا من حديث عن تباين إيقاع الزمن و عدم توازنه ، أننا نجده في بعض الأحيان يلمح إلى تواصل المناظرات و المناقشات إلى فجر اليوم الموالي في بعض المواقف ، في حين نجده في مواقف أخرى يختزل الكلام عن الحدث و الزمان و المكان ، في جملة واحدة مثلما كان الحال في حديثه عن العريش ، التي لم يجد فيها عالما يستحق الجلوس إليه و الاستفادة منه أو مناقشته (2).

---

(1)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق ، ص:183.

(2)- ينظر ، أبوراس ، المصدر السابق ، ص: 120.

و لأن الرحلة هي نص زمني بامتياز ، فإن الحضور الزمني بالشكل الذي رأينا لا يجب أن يفهم منه انه ينعدم في الرحلة انعداما تاما ؛ فمن خلال الاطلاع على رحلة أبي راس و تتبع أحداثها ، وقفنا على توظيف الرحالة لبعض الإشارات الدالة على التحديدات الزمنية ، أسوة بالرحالين السابقين عليه أو المعاصرين الذين أشار اليهم بالاسم في بداي حديثه عن رحلته و نقل تفاصيلها إلا أن هذه التحديدات جاءت بسيطة و لم تخرج عن الدلالات اليومية ، سواء بالتحديد أو الإشارة العامة ، و هو ما نقف عليه من خلال النماذج التالية :

الجملـــــــــــــــــــــة	الصفحة	السطر
– فتفاوضنا فيها مفاوضة كبيرة إلى قرب الفجر...	91	14
– و في صبيحة تلك الليلة جلست في حانوت بعض الطلبة ...	92	2
– ثم اجتمعنا من الغد بمشهد الولي الكبير ...	93	23
– فأمرني من الغد بالذهاب معه إلى الجامع...	96	15
– فحفظه في ليلة واحدة و هذا شأن العلماء...	96	26
– استعارها من ثانيا و حفرها في ليلة عازما غير متوانيا...	102	19
– ثم بقيت أفتش عن ذلك النقل مدة حتى طالعت كتاب المدخل فوجدته نص على المسألة ...	104	11
–كنت جالسا يوما معه فأتى خصمان...	109	8
– و كنت يوما معه في بساتينه ...	109	13
– ثم تناظرنا بعد صلاة العصر قبالة الحجر في " صلاة العصر " و قراءة " دليل الخيرات " ...	119	3

ب– المكـــــــــــــــان:

بالرغم من الأهمية الكبرى التي تحتلها بنية المكان في الفنون السردية ، إلا أن أبا راس في رحلته إلى المشرق و المغرب همش المكان و لم يعره اهتماما كبيرا ، و عليه لم يحضر المكان في هذه الرحلة التي

اتخذناها نموذجا للرحلة العلمية بنفس الصورة و نفس الزخم الذي وجدناه في الرحلات السابقة . و مع ذلك سنحاول فيما يلي أن نقف على طبيعة هذا المكان و أهم ما يميزه .

المكــان.. فضــاء العلـــــــم :

يبدو أن الاهتمام المفرط للرحالة بالجانب العلمي ، من خلال تركيزه الدائم على لقاءات العلماء و مناقشاتهم و مناظراتهم و الإفادة و الاستفادة منهم ، حال بينه و بين الاهتمام بهذا المكان ، و الحقيقــة أن أمــر تدحــــرج مرتبة المكان في اهتمامات الرحالة في هذا النوع من الرحلات يعتبر أمرا طبيعيا ؛ إذ هناك من النقاد من يعتبر أن << المكان في الرحلة العلمية بالدرجة الأولى محطة لتلقي العلــم من شيخ من الشيوخ ، و يكون إما مدرسة أو مسجدا أو جامعا . لكن المكان سرعان ما يتوارى وراء اهتمام الرحالة بالشيوخ و العلماء >> [1] .و على هذا الأساس لم نلمس من الرحالة تفاعلا كبيرا مع الفضاء –كما يسميه البعض – يسمح له بالتعبير عن جمالياته .

و للمكان كما نعلم علاقة قوية بالشخصية أو بالشخصيات التي تتحرك داخله ، و تتفاعل معه و مع من فيه ، فالإنسان قادر على أن يحرك المكان و يشكله بخصوصياته ، فقد يجعله مكانا ايجابيا طاهرا تطمئن إليه القلوب و تتوق إليه النفوس ، و قد يجعله مكانا سلبيا مدنسا فيغدو بذلك << فضــاء يثير النفــور و الاشمئزاز بسبب أخــلاق أهله ، و من ثم يصبح دالا على الكائن ، و الكائن دالا على الفضاء>> [2] .

إن الأماكن التي ظهرت في الرحلة هي أماكن واقعية معروفة بمواقعها ، و أهلها ، و كل ما يتصل بها، و ليست أماكن في عالم اللاوجود ، و لا أماكن من نسج الخيال . لقد أراد الرحالة بل أصر أن تكون مدنا كبرى ليست من الأرياف. والمدينة و الريف كما نعلم << كلمتان متقابلتان بينهما تضاد ، و هوة واسعة ، لا يسهل العبور فوقها ، لأنها ترتكز على ميراث طويل >> [3] يجعل الأفضلية

---

(1)- أحمد بغلا ، المرجع السابق ، ص: 244.

(2)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق ، ص:381.

(3)- محمد حسن عبد الله، الريف في الرواية العربية ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب الكويت ، العدد 163 ، نوفمبر 1998 ، ص: 147.

للمدينة باعتبار أن العلم لا ينتشر ، و لا يعظم شأنه ، و لا تتسع رقعته ، إلا في الحواضر العامرة مثلما يرى ابن خلدون كما أشرنا من قبل .

و رغم الإصرار على ربط تنقلاته بالمدن الكبرى ، إلا أنه لم ينقل لها صورة يعرفها بها ، أو يبرز جمال مناظرها ، و أشكال بناياتها ، و طبيعة أسواقها ، و طرق تشييد حماماتها ، بل حتى منارات العلم فيها لم يهتم بوصفها و لا بإبراز خصائصها مثلما فعل غيره [1] ، و إنما كان كل همه التركيز على العلماء و ما دار بينه و بينهم .

ففي أول خطوات رحلته ، و أول مكان حل فيه " الجزائر " ، و رغم الحميمية التي تجمعه بالمكان ، و التي عبر عنها بالدعاء " صانها الله من سوء الدوائر " إلا أنه لم يقدم صورة الجزائر إلا من خلال حضور شخصيات العلماء و الفقهاء و الطلبة و عناوين الكتب و الجوامع ، و هي الصورة ذاتها التي تصادفنا مع حديثه عن البليدة كمحطة من محطات رحلته داخل الوطن ، ما يعني أن المكان لم يحضر إلا كدلالة على الحلول به ، أو الانتقال منه إلى غيره ، فبمجرد ذكر المكان و تحديده باسمه ، مباشرة بعد ذلك تحضر الشخصيات العلمية بثقلها لتفرض سلطتها ، وتهيمن على الأحداث بأقوالها و أفعالها ، على حساب المكان .

أما مدينة فاس ، و هي إحدى محطات الرحلة ، فقد لفتت انتباه الرحالة و فرضت عليه أن يخصص لها جزءا من صفحات الرحلة للإشادة ، بها حيث اعتبرها << محل العلم و الإيناس ، و التقريب و التبعيد لأناس ، و هي قبة الإسلام و السلم و الاستلام المقام الأعلى و المثابة الفضلى ، و هي أم قرى المغرب الوافرة ، و خزائن المزائر و الشهرة الساحرة ، و الأنباء المسافرة ، ذات الأرجاء الدانية و القاصية ، و الأطواد الراسخة الراسية ، و المباني الباهية ، و الأزهار الزاهية و المحاسن الشاهية ... >> [2].

و الملاحظ أن أبا راس أطنب على غير العادة في الحديث عن هذه المدينة ، حيث تحدث عن بعض جوانب الحياة فيها ، و وصف بعض أرجائها ، فأنت ترى فيها كما قال : ما << شئت من جو صقيل ، و مغرس للحسن و مقيل ، و مالك للعقل و عقيل ، و خمائل كم فيها للبلابل من قال و قيل

---

(1)- ينظر على سبيل المثال دقة وصف الورثيلاني لأحد المساجد، ص: 117، من الرحلة الورثيلانية .

(2)- محمد أبو راس ، المصدر السابق، ص:101.

و خفيف يعادل بثقيل ، و العصـافير البـديعة الصفـات ، فوق القضب المؤتلفـات تميل لهبـوب الصبا و الجنوب مالثة الجيوب بدرر الحبوب ، و بحر الفلاحة الذي لا يدرك ساحله، و لا يبلغ الطبقة البعيدة راحله...فهي للعيون مثل (إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) >> (1).

لقد قدم أبو راس من خلال الفقرتين السابقتين معلومات عن المكان ، من خلال لوحة فنية جاءت بأسلوب أدبي فيه من التصنع و الخيال ، ما يجعل أسلوبه في الوصف و سرد الأحداث أقرب إلى أساليب معاصريه و أساليب من كتبوا في السرديات قبله ، حيث تميزوا في كتاباتهم بالإطناب في الوصف ، و التوسع في مساحته ، و التعدد في موضوعاته ، و عدم الاقتصار على موضوع واحد فيه ، إضافة إلى التصنع و كثيرة التناص و الاقتباس .

و لأن تلقـي العلم و تعليمه ، و البحث عنه في الرحلة العلمية هو المركز الذي تدور حـوله أحداثها ، فقد ألفيناه سرعان ما عـاد إلى هدفـه و نهجه الذي انتهجـه في رحلته ، مباشرة بقـوله : << و لما لقيت علماءها ، و عرفني فقهاؤها و قالوا يا اهلا و أهلا و مرحبا و سهلا طلب مني احد علمائها الكبار الحامين للذِّمـار استعارة " درة الحواشي ، على شرح الشيخ الخراشي " ...فأعرتها اياها ، و قلت له بل هي في حقك قليلة ..فأتى إلى نقلي فيها فنسخ و سلخ .. >> (2) .

و هكذا كان الحال مع تونس ، و مصر ، و أم القرى ، و طيبة . و يبدو أن تعريفه للمكان و تخصيصه ببعض الوصف مرتبط بالمكان الآخر بالنسبة إليه ، و الذي يشعر أن المتلقي في وطنه يحتاج إلى تلك النبذة عنه ، عكس ما كان الحال مع الجزائر موطنه الأصلي .

المكان ..استدعاء التاريخ:

بالرغم مما قلناه من عدم اهتمام الرحالة / المؤلف بالمكان كفضاء مفتوح يستوجب الوصف وإبراز التفاعل بينه و بين غيره من مكونات الرحلة ، و تركيزه في الأساس على المكان باعتباره فضاء للعلم بالدرجة الأولى ، إلا أنه يمكننا أن نقف على جانب فني هام ، يتمثل في الدور الذي لعبه هذا المكان في الرحلة من حيث أنه اتخذ كوسيلة لاستدعاء التاريخ ، تماما مثلما فعل الورثيلاني و ابن هطال و ابن زرفـة كما رأينا من قبل ، و كذلك فعل غيرهم من الرحالين العرب ، ذلك أن الرحلة كما

(1)- محمد أبوراس ، المصدر السابق ، ص، ص :101/ 102.

(2)- نفسه ، ص: 102.

نعلم << ولدت في حضن التاريخ و حينما صارت قائمة بذاتها ، لم تنفصل عن مصدرها و إنما حولته إلى عنصر جوهري >> [1] في بنائها .ففي كثير من الفضاءات المكانية التي تعج بها رحلة أبي راس ، نجد هذا الأخير – عن قصد أو غير قصد منه — و في كثير من المواقف ، يستدعي التاريخ السابق ، فيختفي بذلك الاحتفاء بالمكان الحاضر ، و يبرز إلى الوجود الماضي على أساس من القصدية و الاختيار ، ثم يعود إلى الحاضر باستئناف سرد الأحداث و ذكر الوقائع ذات العلاقة بالمكان .

و هذا الشكل من الاستدعاء ، و رغم توظيفه توظيفا مباشرا و بطريقة بسيطة ، إلا أنه يعتبر دليلا على رغبة السارد أن يربط حاضره بماضي أمته ، من خلال استدعاء بعض الأحداث التاريخية التي تتناسب مع المقام ، استدعاءٌ فيه من الإيحاء و الدلالة ما يستوجب الوقوف عنده ، فحين دخوله تلمسان ، و هي مدينة معروفة بتاريخها ، و مكانتها في التاريخ العربي الإسلامي في المنطقة ، وجد نفسه مضطرا بعد السؤال أن يسرد بعض أحداثها التاريخية العائدة إلى ما فبل الإسلام ، فهي كما قال : مدينة << أول من اختطها " بنو يفرن " فبل الإسلام ، ثم شاركهم إخوتهم مغراوة فيها ، و كان بينهما منافسة و حروب ...و لما نزل عليهما يوسف بن تاشفين سنة اثنتين و سبعين و أربعمائة اختط تلمسان الجديدة — هذه المسكونة الآن– ثم ملكها الموحدون ، ثم بنو مرين ، ثم بنو عبد الوادي ، و منهم أخذها الأتراك سنة ثلاث و عشرين و تسعمائة ، ثم صارت بين الفريقين فتنة إلى أن صفت للأتراك سنة ست و خمسين من القرن المذكور . و أما علماؤها فأولاد بن زاغو من مغراوة ، و العقابنة من قرية بالأندلس ، و المرازقة من عجيسة أهل "جبل وسلات " بأفريقية ... >>[2].

و لما قصد وهران ، كان ذلك من دواعي العودة إلى علاقة هذا المكان مع الأسبان تاريخيا ، وعليه كان حديثه عن فتح وهران ، و عن تاريخ الباي محمد الكبير في المنطقة . و كذلك فعل في حديثه عن المغرب الأقصى عندما سئل عن حدوده. حيث قال : << قال بن خلدون حده وجدة ، و جدد ذلك الحد أول القرن الثاني عشر مع جدك

---

(1)- شعيب حليفي ، المرجع السابق، ص: 56.

(2)- محمد أبو راس ، المصدر السابق ، ص، ص : 108،107.

السلطان مولاي إسماعيل و أتراك الجزائر... و سألـــني أدام الله نصره عن الملوك السعدية و بني وطاس و بعض أهل الزوايا فأجبته بما عندي و علمت أن له يد في التاريخ >> [1]. و ما نلاحظـه على بعض الاستدعاءات التاريخيـــة ، أنها جــاءت قصيرة لا تتعدى بضع جمل ، وإن كانت في الظاهـــر لا تفـــي بالغرض ، إلا أنها في حقيقة الأمر تجعل المتلقي حاضرا في الرحلة ، و مشاركا فيها ، من خلال استكمال الرؤيا عن طريق استذكار الموروث الثقافي و العلمي ، أو من خلال عملية التأويل التي تعتبر حقا من حقوق المتلقي في النظريات النقدية الحديثة .

و لا شــك أن ما كــان يستهوي الرحــالة من الأمــاكن ، هـــي أماكـن العلم ، و تلك الأمـاكن المقـدسـة التي مجـرد ذكـرها يحيـل إلى تـاريخها و رمـزيتها ، و هـي الأمـــاكن التي عـــادة ما تكــون قبلــة للتبرك و الزيارة ، و لطلـب العلـم و الاستزادة منه .

و يمكــن الإشــارة هنــا إلى الجــامع الأعظــم بتونس ، و الذي قصـد به جامـــع بالزيتونة ، و كذلك الأزهر الشريف في مصر ، إضافة إلى مكة و المدينة ، مع ما تحملان من دلالات و رموز متعلقة بتاريخ الإسلام و المسلمين .و عليه تصبح هذه الأماكن لا تمتلك بعدا فنيا في الرحلة بقدر ما تمتلك بعدا قوميا ، و فكريا ، و تاريخيا ، و دينيا ، يبرز ثقافة و تاريخ أمة لها من الخصائص ما يميزها عن غيرها من الأمم.

سابعا : الأسلـــوب و لغة الســـرد:

لا تختلـف لغـة رحلــة أبي راس عن غيرها في رحـــلات غيره من الرحالين ، فهي تمثل صورة من صـور لغة الســـرد عمـوما ، و للغة الســـردية كما هو معلـــوم من الخصائص ما يجعلها تتميز عن غيرها ، << فهي بنية قولية دالة على بنية أخرى حركية و قولية و فكرية و عاطفية >> [2] . و لأن الرحلة تتفاوت فيها الأماكن و الأزمنة سلبا و إيجابا ، خطرا و أمنا ، و تتعدد فيها المواضيع و تتنوع فيها الأحداث و التي في كثير من الأحيان يسيطر عليها التاريخ ، و يتحكم في روايتها صاحبها فان سرد أحداثها يأتي متماشيا مع هذه الخاصية ، باعتبارها تعتمد << حـكي الأحداث و الأقوال على لسان راو ســـارد ، يصـــوغ الموضوعات كلها بصوته هو ، و لا يدع أي شخصية تبوح للقـــارئ

---

(1)- محمد أبوراس ، المصدر السابق ، ص: 107.

(2)- عبد الرحيم الكردي ، المرجع السابق ص: 917.

صراحـة بما تريـد ، فكل شيء يقـوله الراوي السارد فقط ، و صورته هي الصورة الوحيـدة التي يتخيلهـا القـارئ خـلال السرد ، و صوته هو الصوت الوحيد الذي يسمعه >>[1]. و هذا يعني أن توظيف اللغة في السرد يعتبر وسيلة من خلالها يمكن للكاتب أن يكبل الشخصيات و يحد من حريتها قولا وفعلا ، كما يمكنه أن يفرض سلطته عليها داخل النص ، و على المتلقي خارجه في نفس الوقت . و هذا ما لمسناه عند الورثيلاني من قبل ، و ما نلمسه كذلك مع أبي راس الذي سعى جاهدا من أجل أن يكون صوته هو الصوت الوحيد المسموع في الرحلة ، و رؤيته و وجهة نظره هي الوحيدة الصحيحة التي اعترف بها جميع من لاقاهم ، و تناقش معهم ، و ناظرهم و تفوق عليهم .

و لقد سيطرت على رحلة أبي راس التمظهرات البلاغية الدالـة على التصنع في توظيف الصور ، و التكلف في الأسلوب ، و عليه ظهرت الجناسات و الطباقات و المقابلات ، إضافة إلى السجع الذي سعى إليه الرحالة و بحث عنه ، رغبة في التزيين ما جعله في كثير من الأحيان يسقط في التصنع و الابتعاد عن العفوية ، كقوله في السيد علي الونيسي الذي كان : << أنجب أهل عصره ، و من مفاخر قطره ، مدرس منير ، و صدر فنون شهير ، قدوة أعـدل أنزه ، محقق أفقـه . له فوائد كثيرة ، و زوائد أثيرة و عوائد كبيرة فتذاكرنا في العلوم و الفنون ، و الحديث شجون ،حتى ذكرنا الأنبياء عليهم الصلاة و السلام بالاسم و الوصف الكافي – عين العين – وهل تزوج أحد منهم من الحور العين >>[2]. فالقـارئ لهـذه الفقـرة يلاحـظ فيها إطنـابا و تصنعـا في السجـع أفقد الجمل تماسكها و رونق جمالها ، و يكفي هنا الإشارة إلى الجملة الاعتراضية التي وظفها و ليس من وراء هذا التوظيف سوى التزيين و خلق التناغم بينها ، و بين الجملة التي تليها ، لكن بطريقة ساذجة ركيكة .

و هذه الظاهرة بإجماع النقاد ، هي ظاهرة العصر ؛ إذ أن الأدباء فيه عموما ، و الرحالين على وجـه الخصوص ، يعمدون إلى السجـع بطابعه التزييني ، و الذي ينتج عنه في كثير من الأحيان إطنـاب و استطـراد ، يكـون نتيجتهما أن تتجـه الرحـلة في الغـالب وجهة تعليمية باعتبار أن ذلك يدل على رغبـة ملحـة عند الرحـالة ، أن يذكـر الكثير من المعـارف و العلـوم

---

(1)- عبد الرحيم الكردي ، المرجع السابق ، ص: 179.

(2)- محمد أبو راس ، المصدر السابق، ص:99.

و الأحـداث ، بغرض إفـادة المتلقي في مواطن ، أو تعبيرا عن الإعجاب بمنظـر أو شخصيـة في مواطـن أخـرى ، ذلك أن >> الاستطـراد لا يخلـو من وظيفـة وجدانية ، تسمح للرحالة بالتداعي و استحضـار الذكـرى بالـرغم من بروزها أحيـانا من ثنايا الخطاب العلمي << [1].

و من مظاهر الإطناب المتعلق بالشخصيات التي نالت إعجاب الرحالة ، ما قاله من مدح في حديثه عن الباي محمد الكبير ، >> حضرة من ناب في مدحه لسان الحال ، عن لسان المقال ، ذي المقام الذي أطلعت أزهاره غمائم جوده ، و اقتضى اختياره بركة جوده ، الملك الأصيل ، الذي كرم منه الإجمال و التفصيل ، الرفيع الشأن السيد محمد بن عثمان أخلص الله جهـاده ، و يســر في قهر أعـداء الدين مراده بأبسط العدل و الأمان قابض اكف العدوان الجميل النوال المتكفـل بحفظ النفوس و الأموال ، قطب المجد و سماكه ، محل الحمد و ملاكـه ، الحـافل العـادل ، الفاضل الكافل ، الكامل الأصيل ، هازم أحزاب العائدين و جيوشها .... << [2] .و هكذا استمر في المدح و الإطراء حتى قال : >> فانجر الكلام إلى أن قلت الأمر الفلاني كلا شيءبفتح الهمزة فقال لي لسان الدولة و فارس الجولة... << [3]. و يستمر مرة أخرى في مدح الرجل و ذكر صفاته ، إلى أن قال : >> و كان رحمه الله ذا يد في النحو و اللغة و سائر العلوم ، و لا سيما الأدب ، فينسل إليه من كل حدب ، حتى أنه كان من لهجته ، و ربيع حواسه و مهجته ، فقال لي قـال كلا شيء بكسر الهمزة << [4].

أما على مستوى توظيف الأفعال ، فقد فرضت الرحلة – باعتبارها انتقال من مكان إلى مكان – على الرحالة أن يعتمد الجمل الفعلية الدالة على الحركة ، من خلال توظيف الأفعال الماضية : وصلت ، دخلت ، لقيت ، قلت ، كنت قصدت ، انطلقت ، اتجهت ...و مثل هذه الأفعال المحددة لزمن الماضي ، هي >> أفعال محركة تساعد الجملة و الدلالة على التوالد و السهولة في الحركة و الحفز على المسير << [5]. و نظرا لطبيعة الرحلـة العلمية ، فقـد قلت الأفعال الدالة على الرؤية ، و سيطرت

---

(1)- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ،مرجع سابق ، ص:162.

(2)- محمد أبو راس ، المصدر السابق، ص: 100.

(3)- نفسه ، ص: 100.

(1)- نفسه ، ص:100.

(2)- شعيب حليفي ، المرجع السابق ، ص: 232.

الأفعال الدالة على الفكر ، و المرتبطة بالعقل ، مثلما نلاحظه في الجمل : سألني ، أجبته ، تفاوضنا تناقشنا ، تباحثنا ، أعملت الفكر ...و على العموم ، فإنه رغم اللغة الراقية و الصياغة الأدبية التي اعتمدها أبو راس بغرض الإمتاع و الإفادة في هــذه الرحلة ، من خــلال توظيفه لبعض الصور الفنية ، إلا أنه لم يستطع التخلص التام من رواسب الكتابة و التصنيف التي ميزت الأدب في هذا العصر .

الخاتمـــــــــــة

هكذا نخلص في النهاية إلى أن أدب الرحلة فن متجذر في الأدب العربي ، صاحبه عبر مختلف عصوره ، فالرحلة هي قدر الإنسان مذ خلق إلى اليوم و ستبقى . و أدب الرحلة كما لاحظنا فن مفتوح له قابلية احتضان جميع العلوم و المعارف و الفنون ، و يعتبر أصدق الفنون و أقدرها على التعريف بالواقع ، و نقل صورته و صورة العصر الذي ينتمي إليه .

و قد بدا لنا الأدب الجزائري ثريا بهذا الفن، يشهد على ذلك تعدد رحلات الجزائريين، سواء الداخلية التي قادتهم إلى مختلف أنحاء الوطن، أو الخارجية التي كانت وجهتم فيها في الغالب نحو المشرق. إلا أن المؤسف حقا، أن كثيرا من هذه الرحلات، لم تصلها أيادي المحققين، و لم تتصد لها أقلام الباحثين، بحكم ضياعها، أو لاستحواذ البعض ممن لا يقدرون قيمتها عليها.

و لقد استطاعت الرحلات الجزائرية خلال العهد العثماني، أن تنقل لنا صورة الحياة بجميع مكوناتها و مختلف مظاهرها، و قد بدت لنا الحياة في هذا العصر من خلال هذه الرحلات متميزة بـــ:

- كثرة الاضطرابات الداخلية و الخارجية، و التي كانت من الدوافع التي دفعت بعض الجزائريين للهجرة ، بحثا عن المكان الآمن و المناسب للعيش .

- سيطرة الظاهرة الدينية بأبرز صورة لها في هذا العهد ، حيث تعددت الزوايا ، و انتشرت في جميع ارجاء الوطن، و سيطرت الصوفية على عقول العامــة من الناس، و حتى على الخاصة من العلماء، و الفقهاء، و الأدباء.

و من خلال الوقوف على نماذج من الرحلات الجزائرية في هذا العهد، تبين لنا أن هذه الرحلات بمختلف أنواعها، تتآلف مع بعضها و تتلاقى في العديد من القواسم المشتركة حيث لاحظنا :

- أن في جميع رحلات هذا العهد، نحس بنبرة الهوية و الانتماء إلى الوطن، من خلال التوظيف الواعي للرحالة لألفاظ و تعابير دالة على ذلك،كالتعبير الصريح بالجزائر و الدعاء لها بالخير و الصون، و توظيف كلمة " وطن " المضاف إليها الضمير " نا " كما في عبارة الجزائر وطننا ، و أهل بلدنا .

- أن هـــذه الرحـلات خضعت لبناء معمـاري واحـد؛ إذ أن جميعها كانت موحدة الإطار أعني أنها اعتمدت على ثلاث خطابات : خطاب التقديم ، و وخطاب المتن ، و خطاب الختام ، و

جميعها تقريبا افتتحت بمقدمة و انتهت بخاتمة جاءتا شبيهتين إلى حد بعيد بمقدمات و خواتم الرسائل و الخطب الدينية ، و الدروس المسجدية .

– كما تميزت باعتماد أغلب الرحالين، أو من ينوب عنهم في كتابة رحلاتهم، على رحلات و مؤلفات السابقين عليهم ، و حتى المعاصرين لهم ، و استفادوا منها ، تارة بنقل معانيها و أخرى بالنقل الحرفي منها ، و هو ما يشير إليه صراحة أغلب الرحالين أثناء تدوين رحلاتهم .

– و أخيرا فإن هذه الرحلات في عمومها ، جاءت متقاربة في سردها، و لغة خطابها و طبيعة أسلوبها، و لم تخرج في ذلك عما تتميز به كتابات العصر، من حيث الميل المفرط لتوظيف مختلف محسنات البديع ، وشتى أنواع صور البيان ، و هو ما أثر سلبا في كثير من الرحلات، التي بدا عليها الاضطراب ، و عدم التماسك و التناسق بين أجزائها .

و لقد كشف هذا البحث من جهة أخرى ، أن الرحلة الجزائرية خلال العهد العثماني تنوعت بتنوع العوامل التي دفعت إليها، و الأهداف التي سعت من أجل الوصول إليها، فكانت حجية و جهادية و علمية . و لما كان من الأهداف المتوخاة من هذه الدراسة، هو محاولة الوقوف على البناء الفني لكل نوع من أنواعها ، مع إبراز خصائصه ، فقد وجب علينا تلخيص ابرز ما توصلت إليه الدراسة في هذا الجانب ، و يمكن إجمال ذلك في ملاحظات أهمها :

– أن الشخصية المركزية ، و هي شخصية الرحالة في جميع الرحلات ، هي الأساس الذي تبنى عليه جميع مكوناتها، و المحور الذي تدور حوله جميع أحداثها، يتجلى ذلك من خلال سيطرتها على الرحلة عبر مختلف محطاتها ، قولا و فعلا ، من البداية إلى النهاية ، ذهابا و إيابا ، وهو ما جعل الشخصيات الأخرى – المتآلفة أو المتنافرة مع الرحالة – تظهر في خدمة الشخصية المركزية، التي يسيطر عليها " الأنا " في تعاملها مع شخصية الآخر، إلى الحد الذي بلغ فيه الأمرفي بعض الرحلات إلى المغالاة في تضخيم " الأنا " مثلما هو حاصل مع أبي راس في فتح الإله و منته .

– أن علاقة الأنا بالآخر في هذه الرحلات، قائمة على التقابل و يحكمها منطقان: منطق التوافق تارة، و التقابل تارة أخرى؛ فالآخر في الرحلة يتجلى بين الرفض و القبول ، بين العداوة و الصداقة ، بين القرب و البعد ، بين المساندة و التمرد...كل ذلك تبعا لطبيعة الرحلة ، و طبيعة الآخر

و مدى التوافق بينه وبين الأنا فكريا، ثقافيا، دينيا، و أخلاقيا في الرحلات الحجية، و سياسيا إيديولوجيا في الرحلات الرسمية ، كالحركة و الجهادية .

– أن السارد اختلف من رحلة إلى أخرى ، ففي بعض الرحلات كان السارد هو الرحالة ذاته كما في الرحلة الحجية ، و هذا الوضع سمح للرحالة أن يمارس عملية السرد من داخل الأحداث التي بالضرورة هو مشارك فيها ، و يعتبر المحرك الأساسي لها ، من خلال حريته التي تسمح له ببسط سلطته على الحدث ، و على السرد أيضا ، و لكنه في نفس الوقت بقي تحت سلطة الثقافة الدينية السائدة، و هو ما يفسر احتفاء هذا النوع من الرحلات بشتى أنواع الأخبار ، و كرامات مختلف الأولياء و الصالحين .

و في بعض الأحيان يكون السارد يمارس وظيفته هذه مقيدا، لا يقول إلا ما يرضي السلطة؛ فهو لا يرى إلا ما تراه عينها، و لا يتحدث إلا بما ينطق به بلسانها. و هذا ما وقفنا عليه في الرحلات التي سميناها الرحلات الرسمية ، كالرحلة الحركة و الرحلة الجهادية .

– أن هناك رحلات يغلب على سرد أحداثها طابع الإطناب و الاستطراد، و هو ما نجده بصورة واضحة في الرحلات التي يكون فيها السارد حرا ، لا يخضع لسلطة ، كالرحلات السياحية و الحجية مثلما وقفنا عليه مع الورثيلاني ، بينما هناك رحلات تتميز بالإيجاز و الدقة في سرد الأحداث، و هو ما تتميز به خاصة الرحلات الرسمية ، و قد لاحظنا ذلك عند ابن هطال التلمساني ، في رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي.

– أن المكان و الزمان من البنيات التي يستحيل أن تستغني عنهما الرحلة، مهما كان نوعها و مهما كان زمنها، إلا أن التعامل مع هذين البنيتين يختلف من رحلة إلى أخرى.

أما المكان فقد جاء خاضعا لثنائية التقابل، التي فرضتها طبيعة المكان المنطلق منه و المتجه نحوه، و ما يتبع ذلك مقدس و مدنس، أليف و موحش، حميمي و غريب، منتم و متمرد... و في حين نجد رحلات تحتفي بهذا المكان فتحدده و تصفه، و تتغنى بمكوناته، و تبرز علاقته بالشخصيات و مدى تفاعله معها، من خلال تأثيره فيها و مدى تأثره بها، فيغدو بذلك هذا المكان، بنية فنية مؤثرة في البناء العام للرحلة. نجد في المقابل رحلات أخرى، و هي قليلة، لا تولي للمكان أهمية كبرى، فلا تحدده، و لا تصفه، و لا تهتم بجماليته . و نموذج مثل هذه الرحلات وجدناه عند أبي راس، الذي

طغى اهتمامه بالمسائل العلمية و المناظرات، و بالعلماء و المؤلفات، على جميع بنيات الرحــلة، ما عدا بنية الشخصية المركزية.

كما اختلف الرحالة كذلك في حجم اهتمامهم و طريقة تعاملهم مع الزمان ، فقد ألفينا منهم من حدده تحديدا دقيقا ، فأشار إليه باليوم، و الشهر، و السنة، و حتى الوقت في بعض الأحيان، و هذا ما كشفت عنه الرحلات ذات الطابع الرسمي ،كالرحلة القمرية لابن زرفة ، و رحلة الباي محمد الكبير لابن هطال ، كما وجدنا من الرحالين من لم يدقق التحديدات الزمنية، و إنما أشار إليها بإشارات عامة كعبارة " و في ذلك اليوم " وعبارة " بعد يوم أو بعد شهر " ، إلا أن جميع الرحالة — وتلك ملاحظة ذات دلالة – وظفوا أوقات الصلاة و اليوم ، للدلالة على الزمن و تحديده . و على العموم أن كل رحلة سيطر على بنياتها ما يناسب طبيعتها، و نوعها، و الهدف الذي حدده أصحابها منها.

و في الأخير يمكننا أن نقول مطمئنين، أن الرحلة الجزائرية إبان العهد العثماني، حملت في ذاتها من المؤشرات ما يثبت تقاطعها مع الفنون السردية في العديد من القواسم المشتركة، ما يؤهلها للانتماء إلى دائرة السرد الكبرى لتكون أحد أنواعه ، و هو ما يؤكد و يضفي الشرعية على دراستها من الجانب الفني،كنص سردي قابل للدراسة وفق آليات الدراسات السردية .

و عليه فإن على النقاد و الباحثين ، بالمقبلين على إعداد و تقديم مذكرات أو رسائل أو أطروحات ، أن يتجهوا نحو الأدب الجزائري القــديم ، ففيه من الرحلات ما يستوجب نفض الغبار عنها ، بتحقيقها ، و دراستها ، و محاولة إخراجها إلى الوجود ، حتى يساهموا في التأسيس لأدب جزائري قديم ، ما زال في أمس الحاجة لمن يهتم به ، و يدرسه ، و يحلله ، و يعرف به .

قائمة المصادر و المراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع .

المصادر و المراجع :

أولا : المصادر:

1- أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري الى الجنوب الصحراوي الجزائري،تحقيق محمد بن عبد الكريم ، عالم الكتب القاهرة ، ط 1 ، 1969 .

2- سيدي الحسين بن محمد الورثيـــلاني ، الرحلة الورثيلانية نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار ،مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ، ط 1 ، 2008 .

3- محمد أبو راس الناصري ، فتح الاله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، د ط ، 1990.

4- مختــار حساني،تاريـــــخ تحـــرير مدينـة وهـــران ، ج 2 ، الرحلة القمرية لابن زرفة ، تحـــقيق مختار حساني، جامعة الجزائر مخبر المخطوطات ،دط،2003.

ثانيا : المراجـــــــــــــــع:

أ- المراجع العربيـــــــــــــــــــة:

1- إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، دار الآفاق الجزائر، ط 1، 1999.

2- ابن الحاج النميري ،فيض العباب و إفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب ، دراسة و إعداد محمد بن شقرون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ، ط 1 ، 1990.

3- ابن القيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، تح شعيب الأرناؤوط و عبد القادر الأرناءوط ، ج 2 ، مكتبة الرسالة ، بيروت ، ط26 ، 1976 .

4- ابن فارس، مقاييس اللغة ، تح عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، دو ط ، د ت .

5- ابن مريم ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، مراجعة محمـــــد بن أبي الشنب ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ،د ط ،د ت .

6- ابن منظور، لسان العرب، تح مجموعة من الأساتذة، دار المعارف، القاهرة د ط ، د ت .

7- أبو الحسين محمد بن محمد بن جبير ، رحلة بن جبير ،دار صادر بيروت ، دط، دت.

8- أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي،دار الكتب العلمية بيروت لبنان، د ط ، د ت .

9- أبو الفضل بديع الزمان الهمداني ، مقامات ، شرح و تعليق محمد محي الدين ، المكتبة الأزهرية ، القاهرة ، د ط ، 1923.

10- أبو القاسم سعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ، ط 4 ، 2005 .

11- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجـــزائـــر الثقـــافي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر، د ط ، 1981.

12- أبو القاســم سعــد الله ، تجارب في الأدب و الرحــــلة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجـــزائر ، د ط ، 1983 .

13- أبو القاســم محمد الحفناوي ، تعريف الخلف برجال الســلف، مطبعــة بيير فونتانة الجزائر ، د ط ، د ت ، ح 2.

14- أبو بكر البغدادي ، الرحلة في طلب الحديث ، تحقيق نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، لبنان ، ط 1 ، 1395هـ/ 1975.

15- أبو بكر جابر الجزائري، منهاج المسلم، مطبعة الفن القرافيكي ، باتنة الجزائر ، ط4 ،1981.

16- أبو حامد محمد الغزالي ، إحياء علوم الدين، ج2، الكتاب7 كتاب آداب السفر، مكتبية الدعوة الإسلامية ، القاهرة ، د ط ، د ت .

17- أبو سالم عبد الله العياشي ، الرحلة العياشية ، ت .سعيد الفاضلي و سليمان القرشي ،دار السويدي للنشر و التوزيع أبو ظبي ،ط 1 ، 2006

18- أحمد بوغلا، الرحلة الأندلسية الأنواع و الخصائص ، دار أبي رقراق للطباعة و النشر الرباط المغرب ، ط1 2008.

19- أحمد توفيق المدني ، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر ، د ط ، 1974.

20- أحمد صالحي ، مناسك الحج و العمرة على مذهب السادة المالكية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، ط 2 ، 1986.

21- إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي ، قصص الأنبياء ، تح أحمد إبراهيم زهوة ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، د ط ، 2006 .

22- أيمــن بكــر، الســرد في مقامـات الهمـداني ،الهيئـة المصـرية العامة للكتاب ، القاهرة، د ط، 1998.

23- بدر الدين أبو عبد الله الزركشي، اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة ، تح :مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ، د ط ، دت.

24- البشير الإبراهيمي، عيون البصائر ، مجمـوعة المقالات التي كتبها افتتاحيات لجريدة البصائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، د ط ، د ت .

25- تهاني عبد الفتاح ، السيرة الذاتية في الأدب العربي فدوى طوقان و جبرا ابراهيم جبرا و احسان عباس نموذجا ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط 1 ،2002 .

26- جبور عبد النور ، المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت، ط2 ، 1984.

27- جماعة من المؤلفين، جماليات المكان ، عيون المقالت الدار البيضاء المغرب ، الطبعة 2، 1988.

28- حاتم الصكر كتابة الذات دراسات في واقعية الشعر ،دار الشروق للنشر و التوزيع ،عمان الأردن ، ط 1 ، 1994.

29- الحاج محمد رمضان شاوش ، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د ط ، 1995 .

30- الحسن الشاهـــدي ، أدب الرحـــلة بالمغـــرب في العصر المريــني ، منشــورات عكاظ ، د ط ، د ت .

31- الحسن الشاهدي،البلدان الآسيوية غير العربية في القرن 8هـ/14ممن خلال رحلة بن بطوطة، ضمن الرحالة العرب المسلمون ،أعمال ندوة الرباط ،وزارة الثقافة الرباط المغرب ،ط 1، 2003.

32- حسني محمود حسين ، أدب الرحلة عند العرب ، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1983 .

33- حسين خمري، فضاء المتخيل، منشورات دار الاختلاف ، الجزائر ، ط 1 2002.

34- حسين محمد فهيم ، أدب الرحلات ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، العدد 138 شوال 1409/ حزيران 1989 .

35- حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية و الجغرافيين في الأندلس، مكتبة مدبولي القاهرة ،ط 2 1986.

36- حسين نصار، أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر، الجيزة مصر، ط1، 1991 .

37- حميد لحمداني ، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ط 1، 1991.

38- حميدة عمراوي ، في منهجية البحث العلمي، دار البعث قسنطينة الجزائر، ط 1، 1985.

39- حنيفي هلايلي ، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، دار الهدى عين مليلة الجزائر ، ط 1 ، 2008 .

40- خالد أبو جندي ، الجانب الفني في القصة القرآنية منهجها و أسس بنائها ، دار الشهاب للطباعة و النشر ، باتنة الجزائر ، د ط ، د ت .

41- خليل شكري هياس ، سيرة جبرا الذاتية في (البئر الأول و شارع الأميرات) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2001.

42- الزوزني ، شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف بيروت، دط ، 1983.

43- سعـدي ضناوي ، أثـر الصحـراء في الشعـــر الجـــاهلي ، دار الفكـر اللبنـــاني بيروت ، ط1، 1993 .

44- سعيد بن عبد الله المنداسي ، الديوان تح و تق ، رابح بو نار ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، د ط ،د ت.

45- سعيدي محمد ، الأدب الشعبي بين النظرية و التطبيق ، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون، الجزائر ، د ط ، د ت .

46- سمير المرزوقي و جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، الدار التونسية للنشر ،دط ، دت.

47- سمير سرحان، المختار من رحلات بن بطوطة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة دط دت.

48- سيد قطب ، فـــي ظـــلال القرآن ، دار الشروق، بيروت لبنان ، ط 10، 1982.

49- سيزا القاسم، بناء الرواية، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة ، القاهرة د ط،2004.

50- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة أبريل 2002 .

51- شكري عزيز الماضي ، محاضرات في نظرية الأدب ، دار البعث للطباعة و النشر، قسنطينة الجزائر ، ط 1 ، 1984 .

52- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعـــارف مصر، ط 8 ، د ت .

53- شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف القاهرة مصر، ط 4 ، د ت.

54- صالح فركـوس، المختصـر في تاريخ الجـزائر ، دار العلوم للنشر و التوزيع ، عنابة الجزائر د ط ،د ت .

55- صلاح الدين الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، دار منشـأة المعارف الإسكندرية مصر ،ط2 ،1999،

56- عاطف جودة نصر ، شعر عمر بن الفارض ، دراسة في فن الشعر الصوفي ، دار الأندلس بيروت ، ط1 ، 1972 .

57- عباس محمود العقاد ، عبقرية الصديق، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت ، دط ، دت .

58- عبد الرحمان ابن خلدون ، المقدمة ،تحقيق علي عبد الواحد وافي ، مطبعة لجنة البيان العربي 1958 ، دط الجزء الثالث.
59- عبد الرحمان عزي التواصل القيمي في الرحلة الورثيلانية ،مؤسسة كنوز الحكمة للنشر و التوزيع الأبيار الجزائر دط ،سنة 2011
60- عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة بن خلدون ،ج 1، تحقيق عبد الله محمد الدرويش ، دار يعرب ، دمشق ، ط 1 ، 2004.
61- عبد الرحيم الكردي، السرد في الرواية المعاصرة الرجل الذي فقد ظله نموذجا ، دار الثقافة للطباعة و النشر، القاهرة،الطبعة الأولى، 1992.
62- عبد الرحيم مودن ، أدبية الرحلة ، دار الثقافة ، الدار البيضاء المغرب ، ط 1 1996 .
63- عبد الرحيم مودن ، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر ، دار السويدي للنشر و التوزيع ، أبو ظبي الامارات العربية المتحدة ، ط 1 ، 2006 .
64- عبد الرحيم مودن/ عبد الرحيم بنحادة ، السفر في العالم العربي الإسلامي سلسلة ندوات و مناظرات ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط 1 ، 2003 .
65- عبد العالي بشير، تحليل الخطاب السردي و الشعري، دار الغرب للنشر و التوزيع ، د ط، دت.
66- عبد العزيز شرف ، الأدب الفكاهي ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، القاهرة ط 1 ، 1992 .
67- عبد الفتاح كليطو، الحكاية و التأويل دراسة في السرد العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب دط ، دت.
68- عبد الفتاح كليطو، المقامات السرد و الأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي ، دار السندباد باريس، د ط ، 1983.
69- عبد الفتاح كيليطو، الأدب و الغرابة دراسة بنيوية في الأدب العربي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء المغرب ، ط 3 ، 2006.

70- عبد الله ابراهيم ، السردية العربية الحديثة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ط 1 ، 2003 .

71- عبد الله العياشي، الرحلة العياشية، تح سعيد الفاضلي و سليمان القرشي، دار السويدي للنشر و التوزيع ، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة ، ط 1، 2006 .

72- عبد الله الغذامي ، الخطيئة و التكفير ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب،ط 6 ، 2006.

73- عبد الله خليفة ، نجيب محفوظ من الرواية التاريخية إلى الرواية الفلسفية ،منشورات الاختلاف ، الجزائر ، الطبعة 1، 1428هـ-2007م.

74- عبد المالك قجور، القصة و دلالتها في رسالة الغفران و حي بن يقظان،مطابع الإخوة مدني البليدة الجزائر، ط1، 2010.

75- عبد الملك مرتاض، ألف ليلة و ليلة، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، د ط، 1993.

76- عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين و إلى أين، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، 1983.

77- عبد الملك مرتاض،في نظرية الرواية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب الكويت، ديسمبر 1998.

78- عبد الناصر حسن محمد، نظرية التواصل و قراءة النص الأدبي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة ، دط، 1999.

79- علال سنقوقة، المتخيل و السلطة ، منشورات دار الاختلاف، الجزائر، ط 1 2000.

80- فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة ، ط 2 ، 2002 .

81- الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 3 ، 1979 .

82- محمد الباردي ، عندما تتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2005.

83- محمد القاضي ، الخبر في الأدب العربي دراسة في الســردية العربية ، منشورات كلية الآداب ، منوبة – تونس ط 1 ، 1419هـ/1998م.
84- محمد الهــادي العامــري ، تاريـخ المغـرب العــربي في ستـة قرون ، الشركة التونسية للتوزيع ، د ط ، د ت.
85- محمد أمين العالم ، ثلاثية الرفض و الهزيمة، دار المستقبل العربي بيروت، د ط 1985.
86- محمد بن تاويت و محمد الصادق عفيفي، الأدب المغربي، دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر، بيروت ، ط 2 ، 1969.
87- محمد بن رمضان شاوش و الغوثي بن دحمان ، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، طبع و إشهار هـ.داود بريكسي ، تلمسان الجزائر، ط 2 ، 2005 .
88- محمد بن مرزوق التلمساني ، تح ، ماريا خيسوس بيغيرا تقديم محمود بو عياد ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، د ط ، 1981.
89- محمد بن ميمون ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تح: محمد بن عبد الكريم ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط 2، 1678.
90- محمد حسن عبد الله، الريف في الرواية العربية ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت ، العدد 163 ، نوفمبر 1998.
91- محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2002 .
92- محمـد فكـري الجزار، العنـوان و سيمـوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، د ط، 1998.
93- مختار أبو علي ، المدينة في الشعر العربي المعاصر ، سلسلة عالم المعرفة ، عدد 196، الكويت ، ابريل 1996.
94- مشري بن خليفة ، سلطة النص، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، 2000.
95- مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2 ، 1681 .

96- ميشال عاصي ، الشعر و البيئة في الأندلس ، منشورات المكتب التجاري للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ط 1 ، 1970.

97- ناصر الدين سعيدوني و المهدي البوعبدلي ، الجزائر في التاريخ ، العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، د ط ، 1984 .

98- ناهضة ستار، بنية السرد في القصص الصوفي المكونات الوظائف و التقنيات ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 2003.

99- نبيلة زويش تحليل الخطاب السردي في ضوء المنهج السميائي ،منشورات الاختلاف ،ط1، 2003

100- نجيب محفوظ، رحلة بن فطومة، دار مصر للطباعة و النشر ، القاهرة ، د ط ، د ت .

101- نقولا زياد ، الجغرافيا و الرحلات عند العرب ، الشركة العالمية للكتاب ، لبنان ، د ط ، 1987.

102- يحي بن شرف النووي ، رياض الصالحين ، تح عبد الله أحمد أبو زينة ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت لبنان ، د ط ، د ت.

ب- المراجع المترجمة:

1- أ أ مندلاو ، الزمن و الرواية ، تر: بكر عباس ، مر أحسان عباس ، دار صادر بيروت لبنان ، ط 1 ، 1997.

2- اغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم مراجعة ايغور بليايف طبعة 1957.

3- أميرتو إيكو، القارئ في الحكاية التعاضد الأوياي في النصوص الحكائية ، تر: انطوان أبو زيد المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب ، ط 1، 1996.

4- بول ريكور، الزمان و السرد الحبكة و السرد التاريخي،ج1، تر: سعيد الغانمي و فلاح رحيم ، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت لبنان ، ط1 ، 2006.

5- جريفيت تايلور و آخرون، الجغـرافيا في القـرن العشرين، تر: محمد السيد غلاب و محمد مرسي ، القاهرة، د ط ، 1974.
6- دانيال هنري باجو ، الأدب العام و المقارن، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،دط ، دت.
7- ريني ويليك / أوستن وارن، نظرية الأدب ، تر : عادل سلامة ، دار المريخ للنشر الرياض العربية السعودية ، د ط ، 1992 .
8- هومـــيروس، الأوديســـة، تـر: عنبرة سـلام الخالـــدي، دار العلـم للمـلاييـــن – بيروت د ط، 1983.

ج- المجلات وأعمال الملتقيات و الرسائل الجامعية :

1- اسماعيـــل زردومي ، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، نسخة مخطوطة ، أطروحة دكتوراه ، تحت اشراف عبد الله العشي، نوقشت بجامعة باتنة ، الجزائر في العام 2005
2- أعمال الملتقى الوطني الأول ، سوسيولوجية الهجرة الجزائرية في تاريخ الماضي و الحاضر، مطبعة الكسندر قسنطينة، 2009.
3- مجلة التراث العربي ، تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 98 ، السنة الخامسة و العشرين، حزيران 2005 م، جمادي الأولى 1426 هـ
4- مجلة التراث العربي، مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب-دمشق سوريا ، ع 57 ،السنة15، تشرين الاول (اكتوبر)1994،جمادي الاولى1415.
5- مجلة الفيصل، مجلة ثقافية شهرية تصدر عن دار الفيصل للثقافة، الرياض المملكة العربية السعودية، ع88 تموز(يوليو) 1984.
6- مجلة الهلال، تصدر عن دار الهلال القاهرة، مصر، ع7، سنة 1975.
7- مجلة سيرتا ،يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة،ع10، السنة السادسة ، افريل 1998.
8- مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي، جدة، سبتمبر 1993.

فهرس الموضـــــــــوعات

فهرس الموضوعات

الفصــــــــل الثانـــي

البناء الهيكلي للرحـــلة الجـــزائرية في العهـــد العثمــــاني

البـــــاب الثانـــي

الرحلة الجزائرية في العهد العثماني أنواعها و خصائصها

الفصـــــــــل الأول

الرحلـــة الحجيـــة بناؤها و خصائصـــها

<<رحلة الورثيلاني نموذجا>>

الفصل الثاني

الرحلة / الحركة بناؤها و خصائصها

<< رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي نموذجا >>

الفصـــــل الثالــــــث

الرحــــلة الجهـــــادية بناؤها ..خصائصـــــــها

<< الرحلة القمرية نموذجا >>

الفصـــــل الـــرابــــع

الرحـــــــلة العلميـــــــــة بناؤها ..خصائصـــــها

<< فتح الاله و منته >> نموذجا .